380
سبتمبر
2011

عالم المعرفة

المعلقات وعيون العصور

تأليف: د. سليمان الشطي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د. ك
للمؤسسات	25 د. ك

دول الخليج

للأفراد	17 د. ك
للمؤسسات	30 د. ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

ISBN 978 - 99906 - 0 - 337 - 8

رقم الإيداع (2011/390)

العنوان الأصلي للكتاب

المعلقات
وعيون العصور

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

شوال 1432 هـ - سبتمبر 2011

المحتوى

مقدمة

في البدء نقول:

مثل عسل منحدر من كل زهرة برية تتجمع حوله هجمة المتذوقين للشعر الجاهلي، هكذا كانت هذه القصائد السبع المشهورة بالمعلقات، هي قصائد متميزة، لا يشك أحد في هذه الحقيقة، ولا يشك أحد أيضا في أنها لا تتفرد وحدها بالحسن، فكما أن في كل مجال حظوظا تتقسم بين الناس والأشياء، فإن حظوظ هذه القصائد ارتفعت على قصائد أخرى تشاركها في المستوى، ولكن عنق حظها لم يرتفع إلى الأعلى، فقد كانت عبقرية المختار الأول، لا نعلم على وجه الدقة من هو؛ فحين قال بعضهم بقصة التعليق خفي اسم المختار لها. ونسب المنكرون لهذا التعليق شرف الاختيار إلى حماد الراوية. ولكن المؤكد

«لقد حاولت أن أحدد المناهج والرؤى المندسة في هذه الشروح، وبذلت جهدا في الاستخلاص والترتيب والمقارنة، حتى لا يبقى جانب من تراثنا مُلقى على قارعة الطريق يُنظر إليه نظرة لا ترتفع إلى قيمته الحقيقية»

المؤلف

أن هـــذا الاختيار قد أرضـــى الأذواق فتجمعت حولهـــا . وتجرأ آخرون فأضافوا إليها ما رأوه جديرا بالارتفاع إلى هذا الاختيار، الذي ستكون لنا معه وقفة أولى تناقش هذه القضية، قضية حقيقة التعليق والاختيار، والمنازعـات الممتدة التي اســـتمرت، ثم احتدمت طوال ســـنوات القرن العشرين، ولعلها لا تزال..

وهذه المنازعات أيضا كانت محورا أساسيا في الجدل والاجتهادات التـــي دارت حـــول عموم الشـــعر الجاهلي، وكانت محورا أساســـيا في الثقافة العربية؛ فليست ثمة حقبة من حقب تاريخ الشعر العربي حظيت بالاهتمام، وأثارت الجدل الحاد والقضايا الشائكة مثل الشعر الجاهلي، فبعد أن كان «مســـتودع حكمة العرب»، كما قال عمر بن الخطاب، جاء الإســـلام فانصرف الناس عنه، بل هجروه اكتفاء وانشغالا بالقرآن، ثم عادت إليه احتياجات الرواية اللغوية والثقافية، لترفع من شأنه باعتباره مصدرا للمعرفة اللغوية والحضارية والثقافية التي تخدم ثقافة الإسلام الناهضة؛ فرفع إلى قمة ســـامقة أزرت وقللت من شأن شعر المحدثين، وتربع على هذه القمة زمنا طويلا، يتجه إليه الدارسون شرحا وتفسيرا وتعليقا واستشـــهادا، كل عصر يلقي عليه نظراته مجتهدا حينا ومتابعا في أحيان كثيرة.

وجاء العصـــر الحديث يحمل معه أدواته، فـــراح يضرب هنا وهناك، فســـعى أهل النظـــر التعليمي إلى إحياء النظر إليـــه مطمئنين إلى حكمة واجتهاد التراثيين، ثم جاء مثقاب البحث التاريخي لينفذ مرة إلى التدقيق والتوثيق، وتشـــتد النظرة وتغوص حفرا وتنقيبا، فتتفجر قضية التشكيك، وتغلو غُلوا كبيرا إلى حد التشـــكيك في صحتـــه، بل تصل إلى حد إلغائه جزئيا أو كليا. يقول طه حســـين كلمة جامعة مانعة تلخص الموقف: «وإذا لـــم يكن بـــد من أن نختم هذا الســـفر بجملة تلخص رأينـــا، فنحن ننظر إلـــى الأدب الجاهلي كما ينظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ، ويتخذ لدرســـه الوسائل التي تتخذ لدرس ما قبل التاريخ، فأما تاريخ الأدب حقا، التاريخ الذي يمكن أن يدرس في ثقة واطمئنان، وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول، فإنما يبتدئ بالقرآن». (في الأدب الجاهلي. ص 333).

ومن العجب أن يكون هذا الرأي السـلبي أكثر الآراء المفيدة للشعر الجاهلي. فقد توجهت الأنظار إلـى هذا الرأي الصادم، فجاءت ردود متدافعـة تحقيقـا وبحثا ودراسـة، حتى عاد الشـعر الجاهلي إلى الواجهة بقوة.

واسـتوت متكاملةً قضية التحقيق للنصوص، ودراسـة السمات الدالة على شـعر كل شاعر أو كل نص. وتأتي نقلة أخرى حينما برزت النظريات الأحدث، فاجتاحت هذه الرؤى الحديثة المشـهد النقدي، فقال الواقعيون: الصعاليك حركة متمردة مرة واشـتراكية مرة أخرى، وجاورهم النفسيون الذين راحوا يجمعون الأخبار ومعطيات النصوص؛ ففي طبيعة مرض امرئ القيس وشعره دلالته الجنسية. واتسعت الرؤى لترى وجودية طرفة، وصولا إلـى رمزية الأطلال، ثم تكتمل معطيات النصـوص لتبدأ هجمة معطيات العقل الجمعي والأسـطورية، وصـولا إلى البنيويـة. كل هذه الاتجاهات وجدت ضالتها ومجال بحثها الأثير الذي يتسع صدره لكل تأويل.

هـذه الرؤى المتتابعة والمتجاورة جديرة بالنظر والعرض والمناقشـة، وهذا ما ذهب إليه هذا البحث، يستكشـف طبيعة النظر في كل عصر، بدءا من العصور الأولى حتى منتهى مرحلة الدراسة.

إذن فهذه دراسة للدراسـات، ونظرة في النظرات للشعر الجاهلي، المعلقات نموذجا ومجالا.

وأرى، فـي ختام هذه الكلمـة، أن ألفت النظر إلى جانب مهم وقفت عنده هذه الدراسـة، وسـعت جاهدة إلى أن تجليـه وتوضحه، وتطيل الوقوف عنده على الرغم مما قد يلاحظه الملاحظون من جفاف الطرح اللغوي التقليدي. وأقصد هنا شرح القدماء للقصائد السبع، وهو جهد ضخم ومهم وأساسي للفهم والتحليل لم يحظ باهتمام أو دراسة بسبب مـا يتبادر إلى العقول من أنه نمـط واحد محدود القيمة النقدية. وفي هـذا حكم جائر وخطير وقصير النظـر. فقد كانت تلك الجهود تحمل فـي داخلها بذرات خصبة العطاء تحتاج إلى من يجليها ويقدمها للناس والدارسـين. لقد حدث هذا الإهمال إلا من بعض الباحثين، أشير هنا، ممثلا، إلى دراسة أحمد جمال العمري عن شروح الشعر الجاهلي.

لذا لم تتردد دراستي هذه في الوقوف مليا، وإفراد صفحات لمادة أولية أساسية وجهت الفهم للشعر العربي القديم، وقدمت الكثير من المفاتيح المهمة لفهمه. لقد حاولت أن أحدد المناهج والرؤى المندسة في هذه الشروح، وبذلت جهدا في الاستخلاص والترتيب والمقارنة، حتى لا يبقى جانب من تراثنا مُلقى على قارعة الطريق يُنظر إليه نظرة لا ترتفع إلى قيمته الحقيقية.

وكان استكمال هذه المساحة الفارغة من البحث في سلسلة الناظرين إلى المعلقات ضروريا لكي يكون وصولنا إلى النظرات والمناهج الحديثة طبيعيا سلسلا متصلا بخط متكامل من رؤى عصور دارت محلقة حول نصوص هذه القصائد السبع: المعلقات.

سليمان الشطي

تمهيد

المعلقات بين الاسم والعدد

المعلقات موضوع مثير في كل عصر، بل كل حقبة يبرز ويتصدر فيها الشعر الجاهلي الواجهة، ليمثل معضلة من معضلات البحث الأدبي في تاريخ الأدب!

ظل اسم «المعلقات» من الأسماء المسكوت عنها زمنا، على الرغم من شهرة القصائد نفسها بين الناس، فقد كانت تدور على الألسنة إعجابا وإنشادا، ويقلبها أصحاب الاستشهاد يتلمسون فيها الحجج اللغوية والبلاغية، وتدور حولها الأفكار فهما وشرحا. وعندما دونت تراجم الأعلام، جاء شعراؤها في المقدمة دائما، تُفرد الأحاديث المطولة عنهم وعن شعرهم وقصائدهم هذه المختارة، ولكن لم يصرح أحد من الأجيال الأولى بالتعليق أو المعلقات.

«لقد بقيت المعلقات موضوعا خصبا مغريا، كلما فرغ كاتب كان هناك كاتب آخر مجاور له يدني قلمه من حقلها الوافر»

المؤلف

قد يند عـن بعضهم نعت لبعض القصائد فيقـول عنها إنها إحدى السـبع، مثل ابن قتيبة، في تعليقه على قصيـدة عنترة، أو المذهبة، وتابعه آخرون.

وحـول هذه الحقيقة كان هناك أمر آخر أيضا تم تجاهله هو ذكر أنها مثلت كتلة واحدة مجموعة تحت أي اسم من الأسماء، فهذه القصائد تذكر فقط مفردة منسوبة إلى شعرائها، من دون إشارة إلى جمعها أو ضمها في مختارات خاصة.

وبعـد مضي قرنين ونيف من الزمان بعد ظهور الإسـلام، توافرت بين أيدينا إشارتان:

الأولى وردت في النسـخة المنسـوبة إلى أبي سـعيد الضرير، من رجال القـرن الثاني والثلث الأول من القرن الثالث. ومع أنها نسـخة ملفقة، كما سـنتحدث عنها فيما بعـد، فإن كلمة «**القصائد السبع**» تتصدر هذه النسـخة التي تعود نسبة أهم شرح فيها إلى مطلع القرن الثالث، وهي بهذا تكون أقدم إشـارة مسـندة ومكتوبة ويرافقها أقدم شرح شبه منظم.

النص الثاني أورده أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت 280 هـ) «روي أن معاويـة أمر الرواة أن ينتخبوا قصائد يرويهـا ابنه، فاختاروا له اثنتي عشرة قصيدة، منها:

«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»

«لخولة أطلال ببرقة ثهمد»

«أمن أم أوفى دمنة لم تكلم»

«آذنتنا ببينها أسماء»

«عفت الديار محلها فمقامها»

«ألا هبي بصحنك فاصبحينا»

«إن بدلت من أهلها وحوشا»

«بسطت رابعة الحبل لنا»

«يا دار مية بالعلياء فالسند»

«يا دار عبلة بالجواء تكلمي»

ويعلق عليها قائلا: «ولولا شهرة هذه القصائد وكثرتها على أفواه الرواة وأسماع الناس وأنها أول ما يتعلم في الكتاب لذكرناها» [1].

ولنا هنا هذه التنبيهات:

الأول: أن أبا سعيد الضرير استخدم اسم القصائد السبع، وهذا ما درج عليه كل شراح الأجيال الأولى.

الثاني: أن النص الثاني الذي أورده ابن أبي طاهر، ولم يطلق على المجموعة التي ذكرناها أي اسم، ترك الاسم مرسلا باعتبارها مختارات للتدريس.

الثالث: أن ابن أبي طاهر ذكر المعلقات السبع الأساسية، وأضاف إليها معلقة النابغة، وهي مما أضافه ابن النحاس للسبع كما سيأتي، ووضع معها قصيدتين لم يذكر أحد من الباحثين أنها من السبع، وإن حظيت قصيدة: بسطت رابعة الحبل لنا، بالإشادة ؛ فقال عنها الأصمعي إن العرب كانت تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها، وأنها كانت في الجاهلية تسمى «اليتيمة». (الأغاني، ج 13 ص 12).

وظل اسم أو لقب المعلقات غائبا مستورا في خزانة الزمن حتى جاء ابن النحاس (ت 338هـ) ليشرح هذه القصائد، ويشير إليها باسم القصائد السبع نافيا إشاعة أو قصة التعليق، فاتحا بهذه الصفحة الجدل الطويل.

لقد ولدت قصة التعليق كبيرة، فجرها ليشغل الناس بها زمنا ولايزالون، وأعارها دارسو الأدب وموثقوه عناية خاصة. وحسبنا في بداية حديثنا أن نتتبع هذه الكلمة في مسارها التاريخي على لسان أول من أطلقها خبرا أو ساقها منكرا، لنعرف تطور القضية منذ بذرتها حتى يومنا هذا.

بين أيدينا الآن النصوص التي اعتمدها من خاض في هذا الموضوع، نعرضها أولا ونقول بعد ذلك كلمة نرجو لها أن تكون ظلا من ظلال الصواب.

إن أقدم إشارة للتعليق جاءت على لسان ابن الكلبي (ت 204هـ) أو حول هذا التاريخ. وقد نسب إليه هذا القول «وأول ما علق في الجاهلية شعر امرئ القيس، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه، ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده، وكان ذلك فخرا للعرب في الجاهلية، وعدوا من علق شعره سبعة نفر، إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة» [2].

ويتبع هذا صمت عن قضية التعليق لمدة تزيد على القرن لتعود من خلال أصلين رئيسيين: أحدهما ساقه خبرا ضمن أخبار عدة، والآخر أورده من بوابة الإنكار له.

أول المتكلمين يأتينا من أقصى البلاد الإسلامية، من الأندلس، فهذا ابن عبد ربه (ت 328هـ) يسوق الخبر الأول قائلا: «كان الشعر ديوان العرب خاصة والمنظوم من كلامها، والمقيد لأيامها، والشاهد على أحكامها. حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة. فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير. والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات» [3].

ونقترب قليلا من المشرق لنلتقي بالمنكر الأول للتعليق وهو ابن النحاس (ت 338هـ) من مصر، فبعد أن أنهى شرح القصائد السبع، يؤكد أنها آخر السبع المشهورات التي تلقاها أهل اللغة من دون أن يضيف أو يتصرف أو يعترض، يقول: «في الشعر ما هو أجود من هذه، كما أنه ليس لنا أن نعترض في الألقاب وإنما نؤديها على ما نقلت إليها..» [4]. وبعد هذا التعليق يورد نص اعتراضه المشهور قائلا: **«واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع فقيل إن العرب كان أكثرها يجتمع بعكاظ ويتناشدون فإذا استحسن الملك قصيدة قال: علقوها وأثبتوها في خزانتي. وأما من قال: إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة، وأصح ما قيل في هذا: أن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها، وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورات لهذا»** [5].

وفي القرن الخامس يرد خبر التعليق عابرا في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت 449هـ) في مجمل حديث لبيد يقول: «... فأنشدنا ميميتك المعلقة» فيقول: «هيهات إني تركت الشعر في الخادعة..» [6].

ويشايع ابن رشيق (ت 456هـ) الأخبار الواردة في مصادره فيسلكها في خبر واحد يقول فيه: «وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال: مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير

واحد من العلماء، وقيل: بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول: علقـوا لنا هذه، لتكـون في خزانته». وفي موضع آخـر يقول: « ... ومنهم عنترة، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، من أصحاب المعلقات» [7].

ويجاوره زمنا ومكانا ابن شـرف القيرواني، من رجال القرن الخامس (ت 460) الذي يورد الأقوال المشـابهة فيقول: «أما العبسـي فمجيد في أشـعاره، ولا كمعلقته فقد انفرد بها انفراد سهيل». وعن ابن كلثوم: «على أنها من القصائد المحققات، وإحـدى المعلقات»، وعن زهير: «من مذهبته الحكمية، ومعلقته رأيت المنايا ..» ويذكرها مرة أخرى باسم آخر «قال زهير أيضا في مذهبته: ومن لا يذد عن حوضه» [8].

ويكرر أبو البـركات كمال الدين عبدالرحمن بـن محمد الأنباري (ت 577هـ) ما سـبق أن ذكره ابن النحاس فيقول ملخصا: «وأما حماد الراوية، فإنه كان من أهل الكوفة، مشهورا برواية الأشعار والأخبار، وهو الذي جمع السبع الطوال، هكذا ذكره أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة» [9].

ويردد ياقوت الحموي (ت 626هـ) الكلمات نفسـها متكئا على رأي ابن النحاس [10]، بينمـا يكتفي ابن خلكان صاحب كتـاب «وفيـات الأعيـان» (ت 681هـ) بإيراد ما ثبت عند ابن النحاس من أن حمادا «هو الذي جمع السـبع الطوال فيما ذكره أبو جعفر النحاس» [11]. وذكر مثل هذا ابن كثير الذي جاء نصه مختلطا، فقال إن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة، وذلك أن العـرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيما لشـأنها، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع، فالأولى لامرئ القيس والثانية للنابغة الذبياني والثالثة لزهير بن أبي سلمى والرابعة لطرفة والخامسـة لعنترة والسادسة لعلقمة بن عبدة أولها: طحا بك قلب في الحسـان طروب والسابعة للأعشـى، ومنهم من لا يثبتها في المعلقات وهو قول الأصمعي وغيره [12].

ويطرد بعد ذلك استخدام كلمة «معلقات» بحيث أصبحت علما على هذه القصائد السبع المشهورة، حاجبا ما عداها من أسماء نجدها عند المؤرخين في سـياق حديثهم ومجال استشـهادهم، فهذا ابن خلـدون (ت 808هـ)

يسلم بخبر التعليق محاولا إعطاءه دلالة ثقافية واجتماعية وسياسية فيقول: «اعلم أن الشعر كان ديوانا للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم، وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله، حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم، وبيت أبيهم إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة ابن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع، فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في تسميتها بالمعلقات» (13)، ويكتفي السيوطي (ت 911هـ) بنقل كلام ابن رشيق بنصه من دون إضافة تذكر (14).

ويأتي البغدادي (ت 1093هـ) في كتابه الكبير «خزانة الأدب» وبين يديه الأخبار السابقة، فقد توافرت بين يديه عشرات المراجع التي استطاع أن يصب أهم ما فيها في كتابه، لذلك يعرض آراء شتى حول هذا الموضوع. فأصل التعليق عنده هو «أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه روي، وكان فخرا لقائله، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى يُنْظَر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يُعْبَأ به. وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس وبعده علقت الشعراء. وعدد من علق شعره سبعة» (15).

ويواصل البغدادي إيراد الأخبار المفسرة أو المتعلقة بالتعليق، فينقل لنا نص ابن رشيق السابق ثم يواصل الحديث قائلا: «وقد طرح عبد الملك بن مروان شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة...» (16). وخبر ثالث يقول إن «بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها المعلقات». وخبر رابع يشير إلى التعليق، «قال معاوية بن أبي سفيان: قصيدة عمرو بن كلثوم، وقصيدة الحارث بن حلزة، من مفاخر العرب، كانتا معلقتين بالكعبة دهرا» (17).

هــذه أهم النصوص التي مثلت المادة الأولى للحوار الدائر بين العلماء، وقد جمعت لنا تطور الفكرة منذ القرن الرابع الهجري حتى نهاية العاشر.

ونود الإشـــارة إلى أن روح النقد والفكر المدقق الممحص للأخبار بدأت جذوتها تخف مع بدايــة الانهيار الذي مس الحضارة العربية، لذلك نرى، في سلســلة الأخبار والنقول التي عرضناها، أن اســم «المعلقات» تضخم وكبــر على أيدي كتاب الأجيــال المتلاحقة من دون أن تعير اهتماما خاصا لهذا المسمى الذي شاع، وتوارت كلمات ابن النحاس في نسخة شرحه وفي بعض الكتب التي ترجمت لحماد.

وجاء العصر الحديث!

تلقــى الباحثــون خبر التعليق ووقفــوا أمامه طويــلا، وتوزعوا ما بين معارض شــديد المعارضة، وآخر متحمس لــه مدافع عنه، وثالث يقف بين الرأيين فلا هو من المنكرين ولا من المتحمسين، يسلم بصحة إمكان الخبر الــذي لا تنفيه العادة أو يجافيه العقل. وســنحاول أن نرتب في الســطور التالية هذه المناقشة المتشعبة الأطراف، حتى تتضح أمامنا أبعادها.

مناقشات المعاصرين

بــرز مع بداية العصــر الحديث المنهج الدقيق في الدراســات الأدبية، وعــادت القضية لتثار مــن جديد على أيدي المستشــرقين وبعض الكتاب العرب المشــهورين، لقد حركتهم أســطورة التعليق، وداعب خيالهم العلمي الشــك الذي أثاره ابن النحاس حول قضيــة التعليق، فدار جدل كبير بين من أنكروا هذه القصة ومن ســلموا بإمكان التعليق، معتمدين على الحجة العقلية والإمكان التاريخي.

إن الذين نفوا تعليق هذه القصائد على الكعبة شــغلوا بإيجاد تفســير معقول لكلمة «معلقات» التي قد يكون لها ظل من الحقيقة.

ويبرز اســم المستشــرق الألماني «ثيودور نولدكه» (1836 - 1930) أشــهر من نفى حكاية التعليق، وإن لم يكن أول من أثارها منهم، وســاق بين يدي نفيه حججا رأى أنها كفيلة بإســقاط قول القائل بالتعليق، فهو يرى أن اختلاف رواة الشــعر في ضبط أبيــات المعلقات دليل على عدم

صحة التعليق، فلو كانت معلقة ومشـــهورة ومكتوبة لما وقع علماء الشعر في هـــذا الاختلاف، ولما تجاهلها الذين كتبوا عن فتح مكة مثل الأزرقي وابن هشام والسهيلي.

ويرى أنها لو كانت معلقة على الكعبة، ولها هذه الشـــهرة التي يذكرها أهل الأخبار، لما أغفلها القرآن وكتب الحديث والأدب [18].

ويســـعى نولدكه، بعد ذلك، إلى إيجاد تفســـير مناسب لهذه التسمية، معتمدا على التعليل والتفســـير، فهو يـــرى أن قصة التعليق إنما هي تعليل نشـــأ من التفســـير الظاهر للتســـمية وليست ســـببا له [19]، وأن المعلقات معناها المنتخبات، ســـماها حماد الراوية بهذا الاســـم تشبيها لها بالقلائد التي تعلق بالنحور، واســـتدل على ذلك بأن من أســـمائها الســـموط، ومن معاني السموط القلائد، وقد شايعه «كليمان هيار» الفرنسي [20].

أما «ألفريد فون كريمر» فيشـــير إلى الاســـتعمال اللغوي للفعل «علق»، حيث يعني النســـخ والنقل والتدوين، لذلك يرى أن كلمة التعليق جاءت لأن هذه القصائد دونت بعد فترة طويلة من النقل الشـــفهي. ويذهب «أهلورد» إلى أن كلمة التعليق جاءت من تعليق البيت أو الأبيات بما سبقها [21]. ويرى «تشالزليال» أن المعلقات مشـــتقة من العلق، وهو الشيء الثمين، أو الشيء الذي ينال تقديرا لتعلق الإنســـان به، أو لأنه يعلق في موضوع التقدير [22]، ويـــؤازر هذا الرأي أن ابن رســـته فـــي القرن الثالث للهجرة أســـمى كتابه «الأعلاق النفيسة»، فمعنى المعلقات إذن عقود من أحجار كريمة تعلق [23].

وعلـــى صعيد الكلمة العربية يقف مصطفى صادق الرافعي أبرز الذين ناقشـــوا هذه القضية فيســـلم بأن هذه القصائد من مختارات الشعر، وأن العرب كانت تعرض شـــعرها على قريش، أما التعليق على الكعبة فهو خبر موضوع خفـــي أصله حتى وثق به المتأخرون، لأن هذه القصائد تكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية، وأن الفصاحة دين العرب الذي دانوا بـــه جميعـــا، فلو أنهم فعلوا ذلك - أي التعليق - لما أتوا بشـــيء غير نكير. ومـــع ذلك لم تصح عنده قصـــة التعليق مرجحا أنهـــا موضوعة. وبعد أن يعرض لرأي ابن النحاس السابق ذكره، ويسوق ما جاء في الخزانة، يعرض لخبر التعليق الذي ســـاقه ابن الكلبـــي فيرفضه لعدم ثقة ابن النحاس به،

ولأنــه خبر أغفله أكثر مؤرخي الأدب مثــل صاحب «الجمهرة» وابن قتيبة والجاحظ والمبرد وصاحب «الأغاني» مع أنهم أوردوا في كتبهم نتفا وأبياتا من هذه القصائد.

ثم يورد أســماء المعلقــات ويعرض لاختلاف العلماء حــول أصحابها، وهـــذا يدل على أن بين الرواة اختلافا فيها، فلو كان خبر التعليق صحيحا لــكان نصا في تعيين الأســماء. ويخلص إلى أن حمـــادا هو أول من اختار هـــذه القصائد الســبع، وأن ابــن الكلبي هو الذي ذكر خبــر تعليقها على الكعبة، وليس ببعيد أن يكون قد رأى انصراف الناس عن شعر الجاهليين، «فاختلــق ابن الكلبي – أو غيره – خبــر التعليق، ليصرف وجوه الناس إلى هـــذه القصائد»، وأن الذي روى خبر التعليق إنمـــا أخذه من تعليق قريش للصحيفــة، أي صحيفة مقاطعة بني هاشــم. ويختم رأيــه بأن أحدا من رجال الصدر الأول لم يذكر التعليق، «مع أنهم تكلموا في الشعر والشعراء، وفاضلوا بينهم» [24].

هذه أهم المســائل التي أثارها الرافعي في رفضه حكاية التعليق، وقد اســتطاع بدقته وإحاطته أن يلم بأطراف الموضوع، ويجمع شـــتات الأخبار المتعددة ويســلكها في خيط واحد، مؤيدا بها وجهة نظره، فأصبح مصدرا أساسيا اعتمد على أخباره جل من جاء بعده.

ويأتي بعد الرافعي محمد الخضر حســين، حيث يعرض لهذه القضية في مجمل رده على طه حسين دفاعا عن الشعر الجاهلي وصحته، فنجده يميــل إلى رأي الذين أنكــروا التعليق، ويرفض الــرأي القائل إن المقصود بالتعليق هو تعليقها في الدفاتر، ويســلم بصحة قول القائلين بأنها سميت معلقات لعلوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرؤوسيهم لشدة عنايتهم بها، ويرى أن هذا أحسن وجه في تسميتها معلقات [25].

ويبدأ عبدالمتعال الصعيدي من حيث انتهى محمد الخضر حسين، فهو يرى أن العناية بجمعها دليل على أنها لم تكن معروفة بالمعلقات، فلو كانت مجموعة لم تكن هناك حاجة إلى جمع حماد لها، فاسم المعلقات جاء بعد ذلك من حفظها وشــرحها، ثم شــغفوا بذلك الحفظ والشرح، واتخذوها متونا شــعرية مثل المتون التي دونت في العلوم بعد جمعها، وشــغف الناس

بحفظهـا وتعليق الشـروح عليها. ولكن هذه القصائد كانت أسـبق جمعا مـن هذه المتون، حتى أتى عليها زمن وهي منفـردة بعناية الناس بتعليقها حفظا وشرحا، فشاع لها بين الناس هذا الاسم الجديد «المعلقات»، ونسوا به اسـمها القديم «القصائد المشـهورات»، ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء مـن العلماء من عني بفهم هذا الاسـم الجديد لها، ومعرفة سـر إطلاقه عليها، ففرض له تلك الفروض الخاطئة. ويرى أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسـم، فإن الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحا له، ولاتزال الشروح التي توضع على المتون ونحوها تسمى شـروحا وتعليقات، ويستشـهد باسـتعمال اللغة لكلمة «علق علم»، بمعنى يحبه ويتبعه، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها، وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها، وهي معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ما عني بجمعه وحفظه وشرحه من الشعر.

وبعد أن يبسـط رأيه يرد الرواية القائلة بأن هناك ملكا يعلق القصائد فـي خزانته، ويقول إن بعضهم رجح أنه النعمـان بن المنذر، مع أن عصره أحـدث من عصر كثيـر من أصحاب المعلقات، مثل امـرئ القيس وطرفة وعمـرو والحارث، فلا يصح أنـه هو الذي علق قصائدهـم بخزانته بعد إنشادها بسوق عكاظ. ويعرج إلى سوق عكاظ مؤكدا أنه أحدث بكثير من أصحاب المعلقات، فقد أقيم بعد عام الفيل بخمس عشـرة سنة [26]. وقد بقي إلى سنة تسع وعشرين ومائة [27].

ويعرض الدكتور أحمد محمد الحوفي قضية التعليق، فيرفضها موردا الاعتراضـات التي سـبق أن أوردها سـابقوه، ومضيفـا بعض الجزئيات المكملة، ويرى أن الاسـم قد يكون انحدر من أنها كانت تعلق في سـقف أو علـى جدار مطويةً على عود أو ما يشـبه، «فالعرب كانوا يكتبون في رقاع مسـتطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد، يوصل بعضها ببعض، ثم تطوى على عود أو خشبة، وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة أو سقف الدار...»، وهو رأي أحمد الإسـكندري. وقد يكون الاسـم جاء مـن أن العرب كانوا يطلقون على القصيدة الجيدة سمطا، والسمط: العقد النفيس الذي يحلى

بــه الجيد، ثم أطلقوا على هذه القصائد المعلقات السـبع بدل السـموط السـبع، لأن السـمط يعلق، وكانت خفة اللفظ سببا في شـيوعه وغلبته على لفظ السـموط، ويعرض بعد ذلك إلى آراء سابقة لعلماء ناقشوا هذه القضية [28].

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن القول القائل بأن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة هو من باب الأسـاطير، وأنه تفسـير فسر به المتأخرون معنى الكلمة. ويعلــق قائلا: «ولو تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة معلقات ما لجـأوا إلى هذا الخيـال البعيد»، ومعناها: المقلدات والمسـمطات، وكانوا يسـمون فعلا قصائدهم الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما». ويعود في موضع آخر فيضيف إلى ما سـبق أن ذكره: «وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذا من كلمة العلق بمعنى النفيس» [29].

هــذه أهم الآراء التي تداولهـا منكرو التعليق مع تفاوت فيما بينهم في درجة الإنـكار ونوعيته، وبينما يطيل بعضهم الاستشـهاد والتعليل يكتفي الآخر بالإشارة العابرة والرأي الحاسم مسلما بالشك مطمئنا إلى ما ذهب إليه من تعليق وتفسير.

مؤيدون للتعليق

وعلــى الطرف الآخر يقف المؤيدون وقد أثارتهم الحدة التي طرحت بها القضية، فانبروا يدلون بحجتهم موضحين الأسباب التي قبلوا على أساسها قصة التعليق وبيان موقفهم من القضية. فهذا جرجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» الصادر سنة 1911م يتعرض لهذا الموضوع عارضا رأي ابن النحاس المنكر للتعليق، ومؤكدا أن هذا العدد الكبير من الباحثين الذين سـلموا بالتعليق مرجح قوي للتعليق، ويعلق قائلا: «وقد وافقهم أكثر العلماء والباحثين في هذا الموضوع، وإنما استأنف إنكار ذلك بعض المستشرقين من الإفرنج، ووافقهم بعض كتابنا رغبة في التجديد من كل شيء».

وأي غرابة في تعليقها وتعظيمها بعد ما علمنا من تأثير الشـعر في نفوس العرب وتعظيمهم أصحابه؟ أما الحجة التي أراد ابن النحاس أن يضعـف بها القول بتعليقها فهـي غير وجيهة، لأنه قال: «إن حمادا رأى

زهد الناس بالشعر... إلخ، والحقيقة أن الناس لم يكونوا راغبين في الشعر مثل رغبتهم في أيامه. ألم يكن الخلفاء يستقدمون حمادا هذا من العراق إلى الشام ليسألوا، عن بيت من قاله أو فيم قيل» [30].

وفي سطور عابرة يشير أحمد حسن الزيات إلى حكاية التعليق مذكرا برأي ابن النحاس ونولدكه، ويختم كلامه قائلا: «على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام. فمن ذلك تعليق قريش للصحيفة التي وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أجمع على الدعوة، وتعليق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين والمأمون، فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم ومكانة الشعراء منهم؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق، فإن القصيدة التي قالها بندار زعيم الشعر الغنائي يمدح بها (دياجوراس) قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا في لمنوس» [31].

ويقف محمد هاشم عطية مع الزيات في رأيه، فالعقل لا يرى مانعا من صحة التعليق، ويجوز أن يقع في أيام الموسم كلها أو بعضها، ويكون في ساعة من نهار، وينقل رأي الزيات وأدلته [32].

ويرد ناصر الدين الأسد كلام ابن النحاس، ذاهبا إلى أن القول بأن حمادا هو الذي جمع هذه القصائد لا ينفي أنها كانت مكتوبة أو معلقة، فإن كان هو قد جمعها بعد أن كانت مفرقة أو جددها، فإن هذا ليس حجة على بطلان تعليقها، وقد ثبتت عناية الخلفاء الأمويين بجمع الشعر الجاهلي وكتابته وحفظه. وأعاد إلى الأذهان طرح عبدالملك بن مروان شعر أربعة منهم وإثباته أربعة، وكذلك المقولة المنسوبة إلى معاوية بن أبي سفيان بشأن تعليق قصيدتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة. ويعرج على اعتراض المحدثين ناقضا أدلتهم، فإن كان الاعتراض على مبدأ الكتابة فقد أثبت في كتابه الموسع معرفتهم لها وشيوعها بينهم. أما إذا كان مرد الاعتراض يعود إلى احترام قدسية الكعبة بما لا يبيح أن تعلق فيها المدونات والمكتوبات، فإن مرويات التاريخ تقول إنهم كانوا

يعلقـــون وثائقهم وكتاباتهم ذات القيمـــة، ودلل على ما ذهب إليه بتعليق حلف خزاعة لعبدالملك وصحيفة مقاطعة بني هاشـــم الســـالفة الذكر، ويخلص بعد ذلك إلى ترجيح حَذِرٍ لتعليق القصائد [33].

ويتصدى بدوي طبانة لهذا الموضوع، وبعد أن يعرض النصوص القديمة يقول: «ولا نجد من الأســـباب الظاهرة أو الخفية ما يدعو إلى الشـــك في صدق هذه الروايات ولا نرى سببا معقولا يدعو إلى نفي هذه المعلقات، أو تكذيب هذه الروايات التي توارد عليها الرواة في مختلف العصور» [34].

ويعرض بعد ذلك إلى بعض الذين شكُّوا في هذه القصة قديما وحديثا، ويناقـــش ابن النحاس محللا عبارة «اختلفـــوا في جمع هذه القصائد...»، منتهيا إلى أن معنى ظاهر اللفظ يشير إلى أن تلك القصائد كانت موجودة أو مجموعـــة حـــين وصلت إلى العلماء والرواة، ولـــم تكن هناك حاجة إلى الجمع من جديد، وإنما يكون مجال الجمع محصورا في تنسيق ما وجدوه مجموعا واستبعاد بعض هذه القصائد وحصرها في تلك السبع.

ويربط بـــين الملك الذي يطلب تعليق هذه القصائـــد بخزانته، كما ذكر ابن النحاس، وما ذكر ابن سلام عن وجود ديوان من أشعار الفحول عند النعمان بن المنذر، بيد أنه يشك في أن يكون النعمان حريصا على حضور هذه المواسم في عكاظ، وكذلك في كون النابغة هو الذي ينقل إليه ما يستحســـنه فيأمر بتعليقه في خزانته، فلم يثبت إنشـــاد النابغـــة لهذه المعلقات أو أكثرها، ولم تعرف صلة بينـــه وبين أصحابها، فكل ما يقال هـــو أن هذا الملك كان حريصا على أن ينقل إليه هذا الشـــعر الذي ينشد في المواسم، فإذا استحسن منه شيئا أمر بتعليقه فـــي خزانته إلـــى جوار ما مدح فيه هو وأهل بيته. وهـــذا لا يتعارض مع رواية تعليقهـــا على الكعبة، فقد يكون تعليقها في خزانتـــه تقليدا للمتبع في تعليقها على الكعبة، وبهذا يكون قول ابن ســـلام «فصار ذلك إلى ابن مروان أو ما صار منه» متمما وموضحا لما قاله ابن الكلبي من أن عبد الملك بن مروان طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة، فهذا شعر مجموع انتقل من ملك إلى ملك [35].

أما ما ذكر من أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار، فهـــذه الرواية تختـــص بمعلقات جديـــدة ويدعم قوله أنها كانت تســـمى «المعلقات الثواني» تشبيها بالمعلقات.

ويرى أنه مع نفي ابن النحاس للتعليق فإن شـيوع هذه الفكرة يؤكد أن لها سندا، ويكرر الأخبار التي رواها من ذكروا التعليق، لينتقل إلى مناقشة المنكرين مؤكدا معرفة العرب للكتابة، موردا بعض الشـواهد المشهورة، ولا يـرى فـي إغفال كيفيـة التعليق، ومـن أمر به من الملوك والأشـراف والقضاة، سببا للشك، فالإغفال ليس دليلا على عدم الحصول، ولا ينهض دليـلا على المنع، فالحجتان متقاومتان في السـلب والإيجاب، بيد أن في إشارة ابن خلدون إلى أنه كان يتوصل إلى التعليق من كان مقتدرا بقوميته وعصبيته ومكانه من مضر إجابةً على هذا.

ويتصل بهذا مـا ذكر من أن الكعبة احترقت وهدمت وأعيد بناؤها، ولم يذكر أحد شيئا عن المعلقات، فيرد بأن المؤرخين لم يذكروا شيئا عن غيرها، وليس عدم ذكرهم لهذه الآثار بمانع من وجودها، ومن الطبيعي ألا يبقي الحريق شـيئا منها. ويرى في قـول القائلين إن توقير العرب للكعبة كان يمنع أن يدنسـوها بمثل مجون امرئ القيس وفسـوق طرفة بأن هذا قياس الجاهليين بالمسـلمين، مذكرا بموقف ابن سـيرين وابن عباس من الشـعر وهما من علماء المسلمين، ويرد التفسيرات المختلفة مؤكدا أن أيسـر هـذه الافتراضات، التي لا تخلو من ضعف، التسـليم بصحـة الروايـات التي تقول بكتابتهـا على الكعبة، ما لـم تقم الأدلة القاطعـة بنقض الروايات التي سـارت مع الزمـن، ورضيها المحققون من العلماء ويشـير إلى عدد مـن الأخبار التي تؤكـد الاهتمام بتعليق الصحائف وأشياء أخرى [36].

وفي هذا السـياق نشـير إلى كتـاب «المعلقات سـيرة وتاريخ» لنجيب البهبيتي [37] ووقفته تاريخية، يحتشـد فيها للدفـاع عن ابن الكلبي راوي خبر التعليق. ويرد على من اتهمه بالكذب، متابعا ما سـبق أن درسـه من مصادر ووثائق تؤكد سلامة الروايات الجاهلية، مشيرا إلى ما كتبه المناذرة الجاهليـون، وخبر رؤية معاوية معلقتـي الحارث وعمرو بن كلثوم معلقتين بالكعبـة دهرا، ويدافع عـن رواية ابن عبد ربه وأن كتابه من أمهات الكتب الموثوق بها، ويوثق حمادا، وأنه كان أمينا على «خزانة كتب الدولة الأموية» فـي عهد الوليد بـن يزيد وأخطر ما فـي الخزانة مكتبة ملـوك المناذرة

الجاهليين، ويردد خبرا عن الخصائص: «أمر النعمان فنسـخت له أشعار العـرب في الطنوج»، ويربط هـذا الفعل بتعليق «المعلقـة العربية الأولى: ملحمة جلجامش» في المعابد.

ويسـتمر مناقشـا، معتمدا في بعض حججه على ما ورد عند صاحب الجمهرة، خصوصا خبر المفضل، ويورد النص الذي قيل في سياق الحديث عن مذهبة عنترة، ويعرج مناقشا ما إذا كان التعليق مؤقتا أو دائما.

كان دفاعـه، لخبرتـه التاريخية، مجيدا عن النقـاط التي مرت علينا في عرضنا لتاريخ التعليق، ولكن الشـكوك لاتزال قوية، فإثبات دقة رواية الشـعر وتواترها ومصداقية الرواة لا يؤكد التعليق من حيث هو تعليق، بل إن إثبات هذه الدقة يؤكد عدم التعليق، فلو كان هو في هذه الدرجة العالية مـن الصحة لما أغفلـه الثقات الذين ذكرهم أو مـن رووا عنهم من علماء التأليـف المعتمدين؛ فبروز الخبر فجأة بعد أكثر من مائة عام من التأليف والتوثيق، يصبح قبوله عسيرا، وسط هذا الجو العلمي الذي أكده الأستاذ البهبيتي نفسه.

لقد بقيت المعلقات، كما ذكرنا في بداية كلامنا، موضوعا خصبا مغريا، كلما فرغ كاتب كان هناك كاتب آخر مجاور له يدني قلمه من حقلها الوافر.

وقفة لهز شجرة القضية

هذه أهم ملامح هذا النقاش الحاد الذي حاولنا، بقدر الطاقة والجهد، أن نسوقه بأمانة محاولين، ما أمكن، استخدام ألفاظ أصحابه لتكون أقرب إلى بيان آرائهم، وقد تركز حول محور واحد هو مصدر اسـم المعلقات بين تصديق قصة التعليق وإثباتها عنـد المؤيدين، ونفيها من جانب المعارضين مع محاولة إيجاد تفسير جديد لهذا الاسم.

إننا عندما نعود إلى أصل القضية كي نهز أصل شـجرتها لنرى ثباتها أولا ففيه بيان الحقيقة إن تيسر كشفها، نجد أن قصة التعليق رويت خبرا على لسـان ابن الكلبي (ت 204هـ)، وحين نتمعن فيه سندا ومضمونا نجد فيه خبرا غابت ملامح سنده التاريخي، فأول إشارة إلى حديثه جاءت على لسـان الرافعي في الجـزء الأول من كتابه، وهي إشـارة عابرة قال فيها:

«وهو أول من افترى خبر كتابة القصائد السبع وتعليقها على الكعبة. كما سيأتي في بابه.. 398/1». وقد توفي الرافعي ولم ينشر الجزء الثالث فتولى الأستاذ محمد سعيد العريان نشره من المسودات، لذلك جاء نص ابن الكلبي من دون أن يسنده إلى مرجع، وقد اعتمد جل الباحثين المحدثين على الرافعي [38]. في إيراد هذا النص، ولم يستطع أحدهم أن يحيلنا إلى مصدر آخر من المصادر القديمة، فقد ظلوا ينقلون عن الرافعي من دون أن يرفعه أحد منهم إلى مصدر أقدم.

وقد عدت إلى مصادر تلك الفترة التي كتب فيها الرافعي كتابه، فوجدت أن هذا النص ورد في مصدرين ثانيهما أخذ عن أولهما: الأول هو النسخة المطبوعة من «شرح الزوزني» في المطبعة الميمنية في مصر سنة 1315 (1897) صححه محمد الزهري الغمراوي، وفي الصفحة الأولى هامش فيه ما سمي بفائدة مضافة إلى الكتاب هذا نصها: «إنما سميت المعلقات لأن العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به. ولا ينشده أحدا حتى يأتي مكة فيعرضه على قريش، فإن استحسنوه روي وكان فخرا لقائله، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به. قال أبوعمرو بن العلاء: وكانت العرب تجتمع في كل عام بمكة، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش. قال ابن الكلبي فأول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده، وكان ذلك فخرا للعرب في الجاهلية، وعدد من علق شعره سبعة نفر، غير أن عبدالملك طرح شعر أربعة وأثبت مكانهم أربعة، وروى آخرون أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها المعلقات الثواني، وسنأتي على ذلك أجمع، ونذكر أخبار أصحاب القصائد وأنسابهم والسبب الذي دعاهم إلى ذلك... أ. هـ».

هذا النص نقله أولا محمد بك دياب في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» الذي نشره العام 1900، وقد فرغ منه وفُحص قبل ثلاث سنوات من النشر (1897)، وهي السنة نفسها التي نشر فيها شرح الزوزني السابق الذكر [39].

وإذا طابقنـــا النــص عند كل من محمد ديـــاب والرافعي على الزوزني وجدنا أن النقل يكاد يكون في الألفاظ نفســها، مما يشير، من دون شك، إلى أنهما نقلا هذه الفائدة المثبتة في هامش الشرح وليست منه.

ما نســتطيع قوله في هذا المجال هو أن هذا الخبر لم يرد في الأصول الأولى المعروفة منسوبا لابن الكلبي، وقد كان من الأولى أن تهتم به الكتب التــي اعتنت بالمعلقات أو تلك التي تناولــت حياة ابن الكلبي، ولو كان هذا الخبر صحيح النسبة إليه لما أغفله ابن النحاس في مناقشته هذا الموضوع، وهــب أنه تجاهله ليعطي رفضــه للتعليق قوة ونفاذا، فما بال ابن عبد ربه وهو من المغرمين بمثل هذه الحكايات يتجاهله فلا يطعم كتابه بهذه الحكاية وقد اعتمد عليه في غير هذا كثيرا. ونحن هنا لســنا في مجال التشكيك في صدق ابن الكلبي مع كثرة الطعن فيه [40]، إن صحت نسبة الخبر إليه، بقدر ما نشــك في انحدار هذه الرواية عنه حقيقة، فإذا ثبت هذا فإن ما ذكره لا يزيد على كونه اجتهادا في التفسير من جانبه، فاهتمامه بالأخبار والحكايات التاريخية عن سيرة العرب يساعد على هذا لو أن هذه القصة جاءت عن أكثر من طريق.

أمــا ملاحظتنا الأخرى فتنصــب على نص الخبر، فهــو متناقض من داخلــه. فقد ذكر أن أول من علق في الجاهلية شــعر امــرئ القيس، علق في «أيام الموســم حتى نظر إليه، ثم أحدر، فعلقت الشعراء ذلك بعده». إذن التعليــق كان في أيام الموســم فقط، وهذا جائز مقبــول، غير أنه في ختام نصه يقول: «إن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة»، فهذا يعني أن التعليق دائم بل استمر حتى أيام عبد الملك وهذا ما لم يقله أحد.

وإذا اعتبرنــا أن هــذا الطرح هو الذي أحــدث هذا الخلاف في عدد الشــعراء فإن العدد في هذا الحســبة، إذا أعدت الأربع المطروحات، على اعتبار أنها سبق وعلقت فسيكون العدد إحدى عشرة قصيدة بينما الثابت أنها بزياداتها تكون عشر قصائد.

ولنا أن نتســاءل كذلك: هل كانت تلك المســابقات أدبية، أو مناظرات قبليــة؟ فإذا عرفنا أنه لم تثبت عندنا زيارة كل هؤلاء الشــعراء لعكاظ أو مكة في هذه المواســم، فهل قامت القبائل المتنافسة والمتحاربة بتعليق هذه

القصائد؟ هل علقت كندة شـــعر امرئ القيس؟ وعبس علقت شعر عنترة، وفي المقابل علق زهير معلقته؟ أما قصيدة عمرو بن كلثوم فتقابلها قصيدة الحـــارث بن حلزة، وهما متعارضتـــان، فما بال قصيدتي لبيد وطرفة؟ من الذي علقهما؟ إشكالات تحتاج إلى جواب شافٍ.

وبينمـــا يقف هذا النص المخلخل وحيدا نجد أن عددا من ثقات عصر ابن الكلبي من مثل ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة خلت كتبهم المعاصرة له من أي إشارة لهذا التعليق. وجدير بالجاحظ مثلا الذي لم يترك شاردة إلا اصطادها أن يلتقط هذا الخبر لو كان من مرويات عصره.

أمـــا نص ابـــن عبد ربه فنجده مغفلا من الإســـناد، أورده في أول باب الشـــعر ممهدا لـــه بمقولات عامة. ولم يكن صاحـــب العقد في كتابه هذا من أهل التحقيق والنظر، فقد جعله للتســـلية والثقافة العامة، فحق له أن يلتقط كل واردة وشاردة، جامعا فيه ما شاع بين الناس، وقد نص على هذه الحقيقة في أول كتابه قائلا: «وحذفت الأســـانيد مـــن أكثر الأخبار طلبا للاســـتخفاف والإيجاز، وهربا من التثقيل والتطويـــل، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله، ولا يضرها ما حذف منها» [41].

ونعـــود مرة أخرى إلى نص التعليق الـــذي أورده ابن عبد ربه، وفيه ما يدل على أن العرب عمدت قاصدة إلى سبع قصائد تخيرتها وكتبتها بماء الذهب وعلقتها على أســـتار الكعبة. وفي هذا النص جمع بين الاســـمين بقوله تسمى مذهبات، وقد يقال لها معلقات، وهذا النص بدوره لا يوحي بالثقة التامة، وقد جاء من دون سند محدد رابطا بين اسمين هما المذهبة والمعلقـــة، يضاف إلى أنه خبر ســـاقه كاتب من أقصـــى العرب عن عالم شـــرقي بعيد كان محاطا آنذاك بغلالة من الإعجاب تســـاعد على نشأة مثل هذه المقولات.

إننا لا نذهب إلى الشـــك في هذا الخبر، ولكننا نجد من العسير قبوله وسط هذا الرفض الحاد من عالم معاصر له هو ابن النحاس، الذي اعتمد في شـــرحه على شارح آخر ســـبقه في التعرض للمعلقات هو ابن كيسان الذي ســـنتحدث عن شـــرحه فيما بعد، وقد أخذ عنه مباشـــرة، كما أخذ مرويات ابن قتيبة عن ابنه واهتم اهتماما خاصا بشرح الشعر.

ويلحق ابن رشـــيق ابن عبد ربه، فحين نفحص قوله نجده ملفقا أخذه مـــن ثلاثة مصادر هي الجمهرة، وقد أشـــار إليها مضيفا ما جاء عند ابن عبد ربه، وختم رأيه بجزء من كلام ابن النحاس، من دون أن يعير اهتماما إلى أن صاحب الجمهرة خالف ابن عبد ربه في الاسم فلم يسمها معلقات بل ســـموطا، وكذلك تجاهل اعتراض ابن النحاس، فما ساقه لا يزيد على كونـــه تلفيقا بين هذه الروايـــات الثلاث مع إضافة لا تذكـــر وعبارة «ذكر ذلك غير واحد من العلماء». ويلحق به ابن شـــرف القيرواني الذي جاءت تعليقاته مفردة حين ذكره بعض شعراء المعلقات في عصر بدأ الاسم يأخذ طريقه إلى الانتشار.

وليســـت الكلمة العابرة - في معرض حديث لبيد - في رسالة الغفران بقوله: «فأنشدنا ميميتك المعلقة»، بكافية لإثباته، وقد جاءت يتيمة مفردة. فمـــع أن أبا العـــلاء أفرد صفحات طويلة لأصحـــاب المعلقات لم يرد هذا اللفظ إلا مرة واحدة مع أن ســـياق بعض العبارات كان يقتضي وروده [42]. فكيف نقتنع بهذه الإشـــارة اليتيمة؟ ولو سلمنا بها فهذا لا يضيف جديدا، ففي عصر المعري كان هذا الاســـم قد شـــاع وانتشـــر، فأصبح علما على هذه القصيدة، وكتاب «رسالة الغفران» ليس بحثا علميا بقدر ما هو رحلة خيالية، فالحديث عن المعلقة واستخدام الاسم الشائع أقرب إليه.

ولا شـــك في أن ابن خلـــدون المتأخر في الزمـــن، واجهته هذه المقولة الشـــهيرة، فقبلها من الذين رووها، فنشتم من عبارته روح ابن عبد ربه في قوله إن الشـــعر كان ديوان خاصة العرب، وإشـــاراته إلى «أنه مقيِّد للأيام وشاهد على الحكام». نجد تحول هذا القول عند ابن خلدون إلى أن الشعر «كان ديوانـــا للعرب فيه علومهم وأخبارهـــم وحكمهم»، وهو قول وارد عند ابن ســـلام. وبقية عبارتـــه فيها خبر ابن كلثوم الذي قـــام بعكاظ خطيبا، والنابغة حكم الشـــعراء، فقبـــل حكاية التعليق. ولمـــا كان مؤرخا للحضارة وليس دارسا للأدب فقد جاءت عبارته عامة، ولما اصطدم باختلافهم حول عدد الشـــعراء عد سبعة منهم، وأضاف كلمة غيرهم دلالة على الاختلاف الحاصـــل. وانتقل إلى تفســـير التعليق بأنه آت من النظـــرة القبلية، فهذا تفسير من جانبه وليس عارضا لحقيقة تاريخية.

ولم يكن ابن خلدون محيطــا بالقضية من أطرافها، فأدخل علقمة بن عبده ضمن رجال المعلقات. ولهذا تفســير معقول يكشــف لنا وهمه، فقد لفت نظره شيوع ديوان هذا الشاعر عند أهل الأندلس والمغرب، وقد حظي بالشرح، وضم إلى دواوين الشعراء الستة التي شرحها الأعلم والبطليوسي، وضما ديوانه إلى دواوين بعض أصحاب القصائد السبع وإن لم يكن منها. إن كلام ابن خلدون لا يثبت التعليق بقدر ما يشــير إلى شــيوع هذه المقولة في العصور المتأخرة.

ويتلقــف البغدادي هذه الروايات المتعددة فيســوقها فــي كتابه الكبير «الخزانــة»، وقــد فهم هذه الأخبار في ضوء ما تجمــع لديه فهما خاصا، فالخبــر الأول القائل إن العرب كانت تقول الشــعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به حتى يعرضه على أندية قريش. هذا الشــطر من كلامه اســتوحاه مــن خبر علقمة (43)، ملحقا به نص التعليــق مع إضافة كلمات ابن الكلبي «وأول من علق شعره... إلخ»، وبعدها يورد نص كلام ابن رشيق ليعود مرة أخرى إلى نص ابن الكلبي ناقلا منه العبارة «وقد طرح عبد الملك بن مروان شعر... إلخ».

إن هذه النصوص ينطبق عليها ما ســبق أن قلناه حين عرضناها نقلا عن مصادرها الأساســية، ولا يزيد البغدادي على كونه ناقلا أو ملفقا بين الأخبار جميعا في كتابه، بتناقضها، من دون أن يجد الرغبة في مناقشتها، لذلــك نجــد بجانبها الخبر الثالث والذي يذهب إلــى أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له ســبعة أشعار ســماها المعلقات. فهذا النص يطرح فكرة التعليق الحقيقية جانبا، ويثير فكرة الاختيارات التي سادت في فترة التدويــن، وهــذه الرواية تتطابق مع ما ذكر من اهتمــام عبد الملك بأخبار العرب، وتزداد أهميتها حين نضعها بجانب المأثور من الأخبار حول اهتمام بنــي أمية ابتداء من معاويــة بهذا الجانب من العلم، وقد اســتمرت هذه الســنة عند خلفاء بني أمية وتناثرت أخبار كثيرة تؤكد هذا الاهتمام، غير أنهــا من جانب آخر تلغي الروايــة التي اتفق عليها من أن حمادا هو الذي اختارهــا. فهل المقصود أن الذي اختار هو حماد بناء على أمر هذا الأمير الأموي؟ ولنا أن نســأل مــن هو هذا الأمير؟! نحن لا نــدري من أين جاء

به البغدادي، وكل الذي نخشـاه أن يكـون خاضعا لحكاية الملك الذي كان يحتفظ بهذه القصائد في خزانته، أو ما أشيع عن خبر «الطنوج» الذي كان بحوزة النعمان وانحدر إلى بني أمية. غير أنه لا يزيد على كونه خبرا انفرد به البغدادي المتأخر، وساقه سياقة عامة غير محددة.

ومـع هـذا التناقض الظاهر بين هـذه الروايات يعود مـرة إلى إيراد خبر التعليق بصورة جزئية وعلى لسـان معاوية الذي نص على أن قصيدة الحارث وقصيدة عمرو كانتا معلقتين في الكعبة.

نـص غريب نقله المحدثون كلهم عن الخزانة من دون أن يشـيروا إلى مرجع آخر يسـنده، مما يدل على انفراده به، وهذا يؤكد خفاء هذا النص وندرتـه. وقد عثرت على هذا النص في مخطوطة لشـرح مجهول المؤلف وغير موثق تحت عنوان «شـرح القصائد السبع»[44]، وقد ورد هذا النص فـي مقدمة قصيدة عمـرو بن كلثوم ضمن حديث طويـل[45]، فلعله أخذ هذا النص عن هذه المخطوطة، فنحن نعرف أنه قضى وقتا في أول حياته ووقـت العلم في الشـام. أو أنهما نقلا من مصدر واحـد. إن هذا النص وإن دفع قضية التعليق إلى الأمام فإنه يظل محاطا بالشـكوك لمكانة قائله المرموقة وتفرد هذه النسـخة المتأخرة بإيراده من دون غيرها من الشروح، مع ملاحظة شيوع قصة التعليق في هذا العصر المتأخر.

أخيرا

إن هذه الملاحظات التي أحاطت بأخبار التعليق توهن من قواه وتقلل من درجة صدقه، ومع تسـليمنا بدفاع المدافعين عن عدم منافاته للعقل والعادة وانسـجامه مع بعض الأحداث المسـجلة فهـذا لا يعني ضرورة وجوده، فالشك الأكبر ليس في حقيقة التعليق، ولكن في صدق الأخبار مـع وجود هذا التناقـض والتعارض فيما بينهـا، وإذا وضعنا كلام ابن النحـاس في كفة مع القائلين بخبـر التعليق نجد رجحان كفته في هذا الموضـوع على ابن عبد ربـه مثلا. يضاف إلى هـذا أن مقام الحديث وصدقه عند من يسـوقه من دون تعليق أو نسبة لا يستوي بكلام المنكر المؤكد لإنكاره، فهناك إضراب وابتعاد عن التعليق يقبل كل الاحتمالات،

وهنا ثبات وحزم، فهذا الخبر يحتمل الصدق والكذب والمبالغة، والفاصل بينها هو السند التاريخي الموثق، وهذا ما لم نجده عند الذين رووا هذه القصة ودافعوا عنها. وقد عرضنا في الصفحات السابقة لدواعي الشك الحذر تجاه هذه النقول المتعددة من دون أن نتحمس للرفض أو القبول ما دام اليقين بعيدا.

أما الذين أنكروا حكاية التعليق فيهمنا أن ننبه إلى أن ابن النحاس قديما والرافعي حديثا رفضا قصة التعليق فسقطت من اعتبارهما من دون أن يعيراها أي اهتمام، أما بقية الباحثين من عرب ومستشرقين فقد رفضوا القصة وقبلوا الاسم، فشغلوا أنفسهم في إيجاد تعليل لهذا الاسم. ومع أن الأصل التاريخي كان واضح المعالم، تعليق حقيقي على مكان قائم معروف، فإننا نجدهم قد انصرفوا إلى التعليل المجازي أو اللغوي أو الفني، مع أن سقوط أصل القصة يعني سقوط الاسم ذاته. غير أن رفضهم الذي قام على أساس أن الاسم كان موجودا أصلا بينما القصة المرافقة هي الجديدة، دفعهم إلى الدخول في هذا المسلك الوعر، فتوالت الافتراضات من دون تعليل واضح لسبب النسيان، خصوصا أن الفترة التي تكاملت فيها المعلقات كانت الحوادث فيها أقرب إلى التسجيل، كما أن التقارب اللغوي أو الترادف ليس حجة معقولة لتبادل المواقع. ألم نسمع قول ابن النحاس حين يذكر: إنه ليس لنا أن نعترض في الألقاب وإنما نؤديها على ما نقلت إلينا.

إن موقفنا الواضح تجاه هذه القضية يحكمه اعتباران رئيسيان، أولهما: أن هذه القضية تاريخية وليست فنية، تقف خارج إطار الفن الشعري للمعلقات، وقد يكون فيها لمحة تفضيل لشعراء معينين أو قصائد بعينها، ولكن هذا الاعتبار متوافر وقائم تحمله الأسماء الأخرى التي هي أقرب إلى الصحة والثبات. ولقد حاول المتحمسون، بإعجابهم المتحمس، جعل هذه القصائد السبع معلقة في ستار القدسية وليس هذا بلازم، أما الذين نفوا التعليق وسلموا بالاسم فقد انتقلوا إلى تفاسير لغوية لا تفيد شيئا أو إلى تعليلات فنية بعيدة عن تصور القدماء.

أما ثاني هذين الاعتبارين: فهو أن المعلقات جاءت ضمن خط متصل من المحاولات الجادة للاختيارات، وهو أول تأليف منظم لتوثيق الشعر انطلاقا من النظرة الفنية واللغوية، وأمثلة هذا الجانب البارزة واضحة في «المفضليات» و«الأصمعيات»، وفيهما قصائد طوال كاملة ومختارة. وبجانب هذه تقوم «الحماسة» على الانتقاء الذوقي لمقطعات قصيرة، فإلحاق هذه المجموعة المختارة بهذا الخط أكثر تلاؤما مع المنطق التاريخي، وقد خفي علينا اسم جامعها، وإن نسبت إلى حماد. وإذا كانت «المفضليات» و«الأصمعيات» وجدتا في اسم صاحبيهما نسبة جيدة، وهي لاحقة للاختيار، وجاء اسم «الحماسة» متماشيا مع الباب الأول منها، فلماذا لا يكون عد هذه المجموعة هو الاسم المعقول والمتلائم مع طبيعتها، وقد ثبت عند العلماء وتواترت الأخبار في مصادر أقدم وأوثق من تلك التي تمسكت بالتعليق.

لقد ارتبطت المختارات بالتأديب والتعليم بجانب الأهداف الأخرى المصاحبة لها، لذلك يكون أقرب إلى الصواب والمنطق أن نسلك هذه المجموعة السبعية ضمن هذا الخط، خط التعليم والتأديب، فهي أقرب إلى روحه وأهدافه، ففيها أنفس قصائد الشعر الجاهلي التي تمثلت بها اللغة العربية في أصفى مواردها، بجانب القيمة الفنية العالية.

ويدعم قولنا خبران أقدم عهدا من الأخبار السابقة، أولهما ما سبق أن ذكرناه من أن معاوية أمر الرواة بأن ينتخبوا قصائد لابنه فاختاروا اثنتي عشرة قصيدة من بينها القصائد السبع المشهورة، وقد كان تعليق راوي الخبر أبي الفضل أحمد بن طاهر (ت 280هـ): «ولولا شهرة هذه القصائد وكثرتها على أفواه الرواة وأسماع الناس وأنها أول ما يتعلم في الكتاب لذكرناها»[46]. فهذه الإشارة إلى شيوعها عند المتعلمين تكشف المدار الذي تدور حوله هذه القصائد، فهي لا تزيد على أن تكون مختارات تعليمية خفي اسم مختارها فشاعت الأقوال من حولها.

ويدعم النص السابق بصورة أكثر صراحة ودقة ما جاء على لسان معاصره أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني (ت 296هـ) في كتابه «الزهرة»، فبعد أن أورد أبياتا من قصيدة الحارث بن حلزة قال:

«وهذه القصيدة، وإن كانت من السبع الجارية على ألسن الصبيان والمبتدئين، فلم يمنع ذلك من ذكرنا للأدباء والمتأدبين، وإنما فرضًا من هذا الباب أن نذكر ما ارتجل من الأشعار التي لم تجر رياضتها في الادكار، فإذا أضربنا عن ذكرها، وهي من خير ما ذكرناه كان غلطا في التأليف وهجنة على صاحب التصنيف، وعلى أنا لم نرسم منها إلا قليلا من كثير» (47).

إن هذين النصين أقرب إلى تقديم طبيعة هذه القصائد التعليمية، فشيوعها آت من اهتمام المعلمين بها، ولو أن هذين العالمين وصل خبر التعليق إليهما أو أن حمادا هو المتفرد بالاختيار لما ضرهما ذكره ليستوي الخبر الصحيح. وقد نص صاحب الزهرة على اسمها المشهور نعني به «القصائد السبع»، وهذا ما أميل إليه وأقبله، فالقرائن والأخبار المتواترة تنص على أن أقدم وأوثق اسم هو «القصائد السبع» سواء جاء الاسم بهذه الصورة أو تعددت صوره ضمن هذا المعنى من مثل السبع الجاهليات أو المشهورات أو السبع الطوال، فهذه كلها تدور حول محور واحد نلمس فيه اطراد الاسم وثبات العدد عند أهم المصادر التاريخية. وسنعرض في السطور القادمة أقوال الذين اهتموا بهذه القصائد اهتماما خاصا ولم يعيروا هذا الاسم أهمية كبرى، بل جاء سطرا عابرا.

هي إذن: القصائد السبع

أقدم إشارة بين يدي عن هذه التسمية، القصائد السبع، هي تلك التي صُدِّرت بها النسخة المنسوبة إلى أبي سعيد الضرير وأبي جابر، ومع أنها نسخة ملفقة كما سنتحدث عنها فيما بعد (48) فإن كلمة القصائد السبع تتصدر هذه النسخة التي تعود نسبة أهم شرح فيها إلى مطلع القرن الثالث، وهي بهذا تكون أقدم إشارة مسندة ومكتوبة ويرافقها أقدم شرح شبه منظم، فهو يسبق شرح ابن كيسان بسنوات عدة، فقد توفى الأخير سنة 299هـ، بينما توفي الأول على الأرجح قبل انصرام الثلث الأول من القرن نفسه، وتسبق شرح ابن الأنباري بمائة عام على الأقل.

ثانية الإشـــارات القديمة جاءت عابرة في كتاب «الشـــعر والشـــعراء» لابـــن قتيبة (ت 270هـ)، ذكـــر هذا في حديث عن عمرو بن كلثوم ومعلقته المشـــهورة، يقول: «وكان قام بها خطيبـــا فيما كان بينه وبين عمرو بن هند وهي من جيد شعر العرب القديم، وإحدى السبع» (49).

أما ابن كيســـان فمن المرجح عندنا أنه ســـماها السبع الطوال؛ فمع أن النســـخة التي بين أيدينا ناقصة وملفقة وغير دقيقة، فإنها لم تشـــر إلى كلمة المعلقـــات. وإذا حالَ نقصُ صفحاتها دون معرفة العنوان الأصلي في المخطوط فإننا لم نعدم الإشـــارة الختامية لهذه النسخة، فقد ذكر جامعها - ولنـــا حديث لاحق عنه - «تمت الســـبع الطوال الجاهليات» (50)، ومع أن راوي هذه النســـخة يعود إلى عصر ابن كيســـان نفسه، فإننا نجد ما يوثق هذا القول فيما رواه ابن النحاس بقوله: «فهذه آخر الســـبع المشـــهورات، على ما رأيت أكثر أهل اللغة يذهب عليه منهم أبو الحسن بن كيسان» (51). ونحن نعلم أن ابن النحاس هو أول منكري التعليق. ويعزز ما ذهبنا إليه أن الذين ترجموا لابن كيسان وذكروا شرحه باسم شرح السبع الطوال (52).

ويطرد الاســـم بعد ذلك على أيدي الشرّاح، ابن الأنباري (ت 328هـ)، وهو العالم الثبت والثقة، يســـمي شرحه «شـــرح القصائد السبع الطوال»، فابن النحاس (ت 338هـ)، وقد ذكرنا عبارته التي سلم فيها بأن القصائد ســـبع وأنه أضاف إليها قصيدتي الأعشى والنابغة، ابن درستويه عبد الله بن جعفر أبو محمد الفارســـي النحوي (258 - 347هـ) وكتابه «تفســـير السبع الطوال» (53)، ومثله ما نسب إلى أبي علي القالي (ت 256هـ) من أن له كتاب «تفسير السبع الطوال» (54).

ويورد ابن النديم (ت 438هـ) اسم كتاب للعمري قاضي تكريت قائلا: «وله من الكتب تفسير السبع الجاهليات بغريبها» (55). ويشير الباقلاني (ت 403هـ) إلـــى قصيدة امرئ القيـــس «ولما اختاروا قصيدته في الســـبعيات» (56). وينص الزوزني (ت 486هـ) في مقدمة كتابه «هذا شرح القصائد السبع» (57).

ويوضـــح التبريـــزي (ت 502هـ) في مقدمته قائلا: ســـألتني أدام الله توفيقـــك أن ألخص لك شـــرح القصائد الســـبع، مـــع القصيدتين اللتين أضافهما إليها...» (58). وفي نهاية شرحه للقصائد السبع المشهورات بقوله

«هــذا آخر القصائد الســبع وما بعدهما المزيد عليهــا»[59]. ومثله يصدر موهوب بن أحمد الجواليقي (ت 540هـ) ويتصدر شــرحه عنوان «الســبع الطوال بغريبها»[60].

وهناك إشــارات كثيرة لهذا الاسم، غير أنه منذ نهاية القرن السادس تبدأ هذه الأسماء تتداخل بحيث أصبحت عملية الترادف قائمة، فالنساخ وكاتبو التراجم لا يتحرون الدقة في ذكر عناوين الكتب ومســمياتها، وهو نوع من التساهل تفرضه عليهم طبيعة جهدهم المتسع الأرجاء[61].

إن هذا الاستعراض التاريخي أكد لنا ثبات اسم القصائد السبع من دون شك، وأهم ما نخرج به من هذا هو أن الذين اهتموا اهتماما خاصا بالقصائد السبع وتتبعوها شرحا ودراسة أجمعوا على أنها قصائد سبع من دون شــذوذ أو تجاوز، اللهم إلا من بعــض الإضافات والاختلافات التــي لا تمــس الأصل، فبعضهم يشــير إليها بالمشــهورات أو الطوال. وهــذا الإجماع يلغي أي شــبهة، فالذي تعمد أن يــدرس هذه القصائد شــرحا وتفسيرا حري به أن يتحرى الدقة، وهذا ما ألفناه عند مؤلفينا القدامى، وقد تحقق هذا فيما عرضناه ســابقا، فقد اتفق الشراح كلهم على الاسم.

وهي قصائد سبع محددة

وقد امتد اتفاقهم - بجانب ثبات العدد - إلى تحديد للقصائد الســبع بالــذات من دون أن يختل هــذا، مع إدراك وتنبيه على المزيد عليها، فليس هنــاك - في الحقيقة - أي اختلاف جدي بشــأن تحديــد هذه القصائد الســبع. فحين نعود إلى الشــراح الذين ذكرناهم نجد أن الاتفاق تام على القصائد الســبع، وهي قصائد امرئ القيــس وزهير وطرفة وعنترة ولبيد والحارث وعمرو، وردت هذه كلها عند ابن كيســان[62] وابن الأنباري وابن النحاس والزوزني والتبريزي والجواليقي وابن شرف القيرواني[63].

ويبقى بعــد ذلك النص الــذي أورده صاحب الجمهرة، وأســقط فيه قصيدتــي عنترة والحارث من أصحاب الســبع الطوال، وهو نص أســنده إلى أبي عبيدة الذي ذكره ابن النحاس في مجال التفضيل بين الشــعراء.

فعند أبي عبيدة أن «أشعر الجاهلية ثلاثة: امرؤ القيس وزهير والنابغة. أما أكثر أهل اللغة فيفضلون امرأ القيس وزهيرا والنابغة والأعشى، لذلك أملى القصيدتين المكملتين للتسع»[64]. غير أن صاحب الجمهرة يدخل هذين ضمن أصحاب السموط، وهي الطبقة الأولى عنده، بعد أن يذكر نصا لأبي عبيدة ويختمه معقبا بقول أسنده إلى المفضل أبي عبد الله المفضل بن عبد الله المجبري. قال المفضل: «هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط، فمن زعم أن في السبع شيئا لأحد غيرهم فقد أخطأ، وخالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة وليس عندهم فيهم خلاف ولا في أشعارهم..»[65].

وقد نقل صاحب العمدة هذا النص بتحفظ معلقا عليه بأن المفضل أسقط من أصحاب المعلقات عنترة، والحارث بن حلزة، وأثبت الأعشى والنابغة. ولم يلتزم به حين أشار في صفحة أخرى إلى أن عنترة والحارث من أصحاب المعلقات[66]. ومع أن مقولة صاحب الجمهرة مشهورة بين كتب الأدب فإن الظلام الذي يلف حياة كاتب هذه المختارات، وكثرة مخالفته لما أثر عن كبار الكتاب والمؤرخين وإدخاله، من دون سند أو حجة واضحة، في هذه الجمهرة الكثير مما رفضه المحققون، كل هذه تجعلنا نتحرز كثيرا في قبول مقولاته التي يسوقها من دون دليل[67]، فرأيه أقل مرتبة من أن يصرفنا عن قبول ما تواترت به الأخبار والنصوص الموثقة والعلماء المعروفين، فالنسبة المجهولة أضعف من أن تلغي رأي مجموعة من العلماء الذين عرفوا باهتمامهم الخاص بهذه المواضع محاولين الوصول إلى ما ترتضيه ضمائرهم العلمية.

***

أسماء أخرى

هناك مجموعة أخرى من الأسماء رافقت هذه القصائد السبع، لعل أشهرها ما أورده صاحب الجمهرة أيضا حين زعم أن راويه المفضل قال: «هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط». وتلقف ابن رشيق هذا القول لينحدر بعد ذلك إلى السيوطي.

والملاحظة التي نسجلها هنا هي أن طريقة صاحب الجمهرة في اختيار الأسماء تقوم على مخالفة ما روي عن عامة الكتاب، فقد ورد اسم السموط فعلا على ألسنة الرواة، ولكن جاء على لسان حماد ومتعلقا بقصيدتين لشاعر ليس من أصحاب السبع، فقد روي صاحب الأغاني عن حماد الراوية قال: «كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولا، وما ردوه منها كان مردودا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمت وما استودعْتَ مكتُوم   أم حَبْلُها أن نأتك اليوم مصروم

فقالوا: هذه سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلب في الحسان طروبُ   بُعَيْد الشَّباب عَصْر حانَ مَشِيبُ

فقالوا: «هاتان سمطا الدهر» [68]، مع ملاحظة أن حمادا هو راوي هذا الخبر وينسب إليه جمع القصائد السبع، ولم يدخل علقمة ضمن أصحاب السبع.

واسم آخر أطلق على هذه القصائد السبع، فقد سميت في بعض المراجع «المذهبات»، وهو اسم لم يطلق مباشرة عليها من حيث كونها مجموعة إلا في نص ابن رشيق الملفق والذي شمله حديث سابق، ولعله لاحظ قول ابن عبد ربه المطلق، مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير... إلخ. فجمع هذه الصفة لتكون اسما على المجموعة «المذهبات» بينما كان سنده ابن عبد ربه. نعم، لقد جاء ذكر ابن قتيبة في حديثه عن عنترة فكان أول ما قال قصيدة: «هل غادر الشعراء من متردم»، وهي أجود شعره وكانوا يسمونها «المذهبة» [69]. والقول نفسه يتردد في شرح أبي سعيد وأبي جابر [70]. وكذلك عند أبي الفرج الأصفهاني [71] والأعلم الشنتمري [72]، ويطرد بعد ذلك في كثر من الكتب. ومع أن هذا الاسم كان صفة اختصت بها قصيدة عنترة فإننا نجد صاحب كتاب الجمهرة يخرج هذه القصيدة من زمرة المذهبات. ولم تكن قصيدة عنترة الوحيدة التي اختصت بهذه الصفة، فقد أشار الألوسي في تعرضه لأحد أبيات بائية ذي الرمة المشهورة:

مـا بـالُ عَيْنِـكَ منهـا المـاءُ ينسـكِبُ   كأنّـهُ مـن كُلـى مفريّـةٍ سَـرِبُ

وقـال: والبيت من قصيدة تسـمى «المذهبة» (73). وهـذه القصيدة أيضا وضعها صاحب الجمهرة في الطبقة السـابعة، وهي التي أسماها أصحاب «الملحمات».

وهكـذا نصطدم دائمـا بمخالفات صاحب الجمهـرة لما تواترت الأخبار، وليس هناك من تفسير لهذا سوى أن صاحب الجمهرة حاول تقسيم كتابه تقسيما سباعيا واختار لكل قسم من كتابه مسمى، وكان هذا مألوفا في بعض الكتب المؤلفة آنذاك لذلك انتقى هذه الأسـماء من دون أن يلتفت إلى ما بين بعض هذه القصائد من صلات تاريخية، ولم يشرح مدلولها إلا بإشارات عابرة، ولم يحرص على إدخال بعض القصائـد ضمن ما عرفت واشـتهرت به بين النـاس حتى لا يختل نظامه السباعي.

وقد أعجبته بعض الصفات أو التعليقات التي كانت تساق بشأن بعض القصائد، فوجد فيها معينا يسـاعده على اختياره أسماء لأقسام كتابه، فهـو في هذا مبتدع ومبتكر لنظـام يختص به غير أنه لا يلغي ما انحدر عن الأجيال السـابقة من اختيارات ومسـميات، وليته وعى احتراز ابن النحاس وحذره.

* * *

وبعد،،،

هذه القصائد السـبع قد انحدرت إلينا عـن طريقين موثقين، أولهما: أنها مختارات نالت عناية خاصة في التوثيق والعرض والشـرح، وقد دونت تدوينا منظما منذ بداية القرن الثالث بعد عهد رواد الرواية الأول، وقد آزر هذا أخبار منظمة وكثيـرة عن أصحابها مع نتف من أبيات المعلقات تمثل أساسا جيدا للمراجعة والمقارنة.

أما الطريق الآخر فهو انحدارها ضمن دواوين الشعراء السبعة التي كانت في مقدمة الدواوين التي اهتم بها العلماء جمعا وتوثيقا منذ رجال الطبقة الأولى، فهـي في أغلبها تنحدر عن الأصمعي والمفضل ومن هم في مقامهما (74).

إن الحلقات المتصلة منذ بداية الاهتمام بالشــعر الجاهلي - في القرن الأول - حتى بداية التدوين المنظم تجعلنا نطمئن إلى أن ما بين أيدينا من قصائد الشــعر الجاهلي أدنى إلى أصحابها من أن تنفيها روايات وأقوال صياغتهــا أســهل بكثير من نظم بيت واحد من هــذه القصائد، فما بالك بالمطولات. فإن إسقاط هذه الأقوال أقرب إلى العقل والمنطق وأسهل بكثير من نفي نسبة هذا الشعر لأصحابه وخصوصا المتفق عليه. ومن أبرز هذه القصائد هذه الســبع الطــوال التي تآزرت الأخبار عنهــا وتواترت بحيث أصبحت قادرة على لمس جوانب اليقين في نفوسنا.

1

في البدء كانت الشروح

«إن الاهتمام بهذه القصائد في صورتها المنحدرة إلينا، وعلى النهج القديم، وجد صداه عند أصحاب الاتجاه الإحيائي للتراث العربي، الذين اهتموا بهذه القصائد وشرحها اختيارا وتقريبا وتسهيلا عن الشروح القديمة».

المؤلف

بواكير شروح القصائد السبع

لم تكن الحاجة إلى شرح الشعر طارئة أو جديدة، فلا شك أنها أقدم بكثير من حاجة القرنين الثاني والثالث، فهي تعود إلى عصر الشاعر نفسه، وهذا ما تفرضه طبيعة الأشياء، فالاهتمام بالشعر يستدعي العناية بفهمه وإدراكه، وهو ما يحتاج إليه المتعاصرون، مع تقاربهما، نتيجة لطبيعة الفن الخاصة والمتميزة. فالشاعر قد يسوّغ له خياله وقدرته على التصرف في الألفاظ والمعاني أن يقول ما لا تكون أهدافه أو صوره الفنية واضحة عند السامع، سواء أكان من القبيلة نفسها أم من غيرها. ومن هنا تبرز الحاجة إلى التفسير والتوضيح يسوقه المقتدر القادر على الغوص في مجاهل الفن عن

خبــرة وتذوق ودراية بالمعجم الشــعري الخاص بالشــاعر، وقد تكون هذه الملاحظات عميقة تكشف عن تمكن الشارح الفني، أو بسيطة عابرة مبينة لمعنى لم يكن واضحا في ذهن السامع.

ولا شــك أن هذه الملاحظــات العامة كثيرة ومتنوعــة، وقد لا يُحرص إلا على تســجيل الأمر المهم والبارز منهــا بحيث يبقى في الذاكرة تتوارثه الأجيال. أما الملاحظات والاستفســارات التي جاءت بنت لحظتها وشفت حاجة المستفســر، فإنها فقط تزيل الإبهــام العابر، لذلك لا تبقى منها إلا النتف البسيطة. ومنها ما هو أكثر تخصصا، فنذكر هنا خبر مجلس النابغة حين حكم بين الشــعراء، فهذا يعني أن هناك أمورا دقيقة يفهمها الشاعر المتمرس ويدرك جوانبها التي تدق عن فهم الإنسان العادي.

وثمة أشــياء أخرى تكشف أن هناك ملامح دقيقة يدركها من له مسكة من أدب، وقد حفظت لنا بعض الشواهد التي انحدرت إلينا ورواها الرواة في صورة أسئلة وجهت إلى الشاعر مستفسرة، والغالب عليها أنها متعلقة بتركيــب جملة أو صــورة فنية، وهــذا يؤكد أصلها القــديم، لأن معاصر الشــاعر يفهم مفردات بيئته، وإنما تغمض عليه الصورة أو التركيب الذي اســتخدمه الشاعر. وهذا ما نلمســه في الملاحظات التي وردت إلينا من العصر الجاهلي أو صدر الإسلام، فقد روى البطليوسي في معرض شرحه لبيت امرئ القيس:

نطعنهم سُلكى ومخلوجة   كرك لأمين على نابل

قــال: «وتحدث الأصمعي عن أبي عمرو وقال: كنت أســأل منذ ثلاثين ســنة عن هذا البيت فلــم أجد أحدا يعلمه، حتى رأيــت أعرابيا بالبادية، فسألته عنه ففسره لي.

وقال العجاج: حدثتني عمتي، وكانت من بني دارم، قالت: سألت امرأ القيس، وهو يشرب مع علقمة بن عبدة ما معنى قولك «كرك لأمين»، قال: «مررت بنابل وصاحبه يناوله الرسن لؤاما وظهارا فما رأيت أسرع منه فشبهت به»[1].

فهــذه القصة التي تعود إلى الصــدر الأول وترتفع – إن صحت – إلى امرئ القيس تشــير إلى نوعية تســاؤل المعاصرين للشــاعر، فالسائلة لم تســأل عن معنى الألفاظ مثلا، لكن أشــكل عليها معنــى التركيب «كرك

لأمين»، وهي صورة حركية كانت في خيال الشـــاعر، ولا شــك أنها محقة في تساؤلها. ولعل أمثالها كثير من الناس سألوا الشاعر أو راويته عن هذا البيت وغيره.

ومثال آخر من العصر نفسه، فهذا عبيد راوية الأعشى يستعصي عليه فهم بيت من شعره فيسأله: ماذا أردت بقولك:

ومدامةٍ مما تُعتِّق بابلٌ كدَمِ الذبيح سلبْتُها جِريالَها

ويفسره الأعشى له بقوله: شربتها حمراء وبلتها بيضاء، فسلبتها لونها [2].

ولا يخرج استفســـار الراوي عما سبق أن ذكرناه، من أنه يستفهم عن المراد وعن الصورة، ولم يكن يجهل اللفظ بذاته. هذا النص بدوره يسلط الضوء على أن راوية الشـــاعر كان يهتم إلى جانب حفظ الشعر وروايته، بـإدراك مقاصده، حتى يتســنى له فهمه وشـــرحه وتقديمه للناس. وهو أيضا جزء من العملية التعليمية التي كان يتلقاها من الشاعر الذي كرس حياته لملازمته.

وعندمـــا يتقدم بنـــا العصر تتطور الحاجة إلى فهم النص لأســـباب أخرى لا علاقة لها بفهم المفردات أو التراكيب، لكنها متعلقة بغياب أمر آخر له أهميته ونعني به الوســـط الـــذي قيلت فيه القصيدة، حين تتجه مســـمياتها إلى بيئة معينة أو مقصد آخر خفي على السامع أو القارئ. فهذه ســـودة بنت زمعة زوج النبي – صلى الله عليه وســـلم – تُنشـــد في محضر عائشـــة وحفصة شـــعرا فيه هذا المقطع «عدي وتيم تبتغي من تحالف»، فظنت عائشـــة وحفصة أنها عرضت بهما، فجرى بينهن كلام في هـــذا المعنى، فأُخبر النبـــي (صلى الله عليه وســـلم)، فدخل عليهن وقـــال: «يا ويلكن.. ليس في عديكـــن ولا تيمكن قيل هذا، إنما قيل هذا في عدي تميم وتيم تميم» [3]. فإدراك المناســـبة أمر مهم لفهم إشـــارات النص وتلمس مقاصده، وإلا لأصبح الفهم عقيما وأحيانا بعيدا كل البعد من مراد الشاعر أو هدف القصيدة، وهذا هو أحد مبررات قيام الشرح بجانب القصيدة حينما يتقادم العهد فيخفى أصل المناســـبة أو دلالاتها، وهي من ضرورات كل عصر لفهم شـــعره، لذلك كان الاهتمام بها ممتدا عبر العصور.

حينمـــا دخلنا في التاريخ الإســـلامي، وبدأت العنايـــة بهذه النصوص، فسعى الساعون إلى فك مغاليقها أمام القارئ، بدأت تتوالى الكتب المفسرة والشـــارحة والتي اهتمت بهـــذه القصائد اهتماما مباشـــرا. وتنهض أقدم إشارة إلى أول هذه الشروح ناسبة إلى الأصمعي كتابا باسم «كتاب القصائد الســـت» [4]. وليس من الثابت أن يكون شرحا لقصائد ست من هذه السبع المشـــهورة، فقد يكون مختارات شعرية، فهذا العنوان يوحي ويذكر بالنسخة الأندلسية المنسوبة إليه، وفيها شعر ستة شعراء جاهليين، أكثرهم من شعراء القصائـــد الســـبع. وقد انحدرت عن القالي، وقام بشـــرحها كل من الأعلم الشـــنتمري والبطليوســـي، وقد ذهب محقق ديوان عنترة [5]، هذا المذهب، ورأى أنها ليست معلقات ستا، للاتفاق العددي بين النسخة الأندلسية وهذا النص. ومن المعروف أن القصائد المشـــهورة سبع، وللاشتراك في التسمية عند الشارحين الذي يدل على أصل واحد معتمد عليه، أما ذكر ابن النديم لكلمة «كتاب القصائد الســـت» فلأن المعلقات تحتل المكان الأعلى من عدد أبيات القصائد والمقطعات الأخرى الواردة في الكتاب.

ومع التسليم بصحة هذا الرأي فإني لا أعتقد أن صاحب «الفهرست» يجهل الفرق، أو يتســـاهل فيحول كلمة أشـــعار إلـــى قصائد، خاصة إذا علمنا أنـــه يدون كتابه من واقع الكتب التي كانـــت بين يديه. أما دواوين الشعراء الســـتة فهي عبارة عن رواية الأصمعي الشعرية لهذه الدواوين، كما بيَّن الأعلم في مقدمته حين قال: «وشرحت جميع ذلك شرحا يقتضي تفســـير غريبه وتبيين معانيه وما غمض من إعرابه» [6]. ومن الواضح أن الأعلم اعتمد على شروح وتفسيرات الأصمعي وغيره من الشراح [7]، وهو اعتماد بسيط لا يمكن أن نقول إنه يمثل رواية دقيقة لما أثر عن الأصمعي من شرح.

الذي لا شك فيه أن للأصمعي جهودا في الشرح والتفسير يكشف عنها هذا التردد الكثير لاســـمه في كتب الشروح المختلفة، حتى نكاد نجزم بأن له رأيا في كل بيت من أبيات القصائد السبع، فقد تكرر اسمه نحو ثلاثين مرة في شرح قصيدة امرئ القيس عند ابن الأنباري، وثلاث وعشرين مرة في قصيدة طرفة... وهكذا.

ويتنــازل العدد حتى نصل إلى أربع مرات في شــرح قصيدة عمرو بن كلثوم. ومثله شــرح ابــن النحاس، ولو ثبت عندنا أنه شــرح فقط قصائد ســتا من المشهورات، لكان الأقرب إلى الحقيقة إخراج قصيدة عمرو بن كلثوم لقلة ما ورد له فيها من ملاحظات، وأنها ملاحظات لا تمس القصيدة بذاتها فتنفي الشرح المعتمد [8]، ومثلها الملاحظات التي أوردها صاحب الشــرح المنفرد الملحق بطبعة «شــرح القصائد التسع» لابن النحاس، ولكننا لم نجد ما يرجح أن «كتاب القصائد الست» شرح لقصائد من الســبع المشــهورات. ونضع هنا بجانــب هذه الملاحظات إشــارة لطيفة وردت في شــرح ابن الأنباري على لســان السجستاني – وهو أبرز من أخــذ عن الأصمعي ولازمه حتى يمكن اعتباره تلميذه الأثير – يقول فيها في معرض شــرح بيت امرئ القيس «وجيد كجيد الرئم...»:

« ... وجــدت في كتاب الأصمعي بخطه: الجيــد يقع لجمع العنق» [9].

فهذا النص ينبه على جهود الأصمعي في الشرح، لكنه لا يجعلنا نجزم بأن هذا الكتاب المذكور هو نفســه «كتاب القصائد الســت». إن الذي نطمئن إليه هو أن الأصمعي أكثر الرواد مســاهمة في تدوين الشــعر وشــرحه، كما هو ثابت من تردد اســمه في أكثر الشــروح الأدبيــة، فهذه تقدمه لنا كأبرز مفســري القصائد السبع، وإن لم يكن بين أيدينا كتاب محدد المعالم والنسبة نطمئن إليه.

* * *

أبو سعيد الضرير

إن أقدم نص مشــروح بين أيدينا هو تلك النســخة الفريدة الباقية من شــرح أبي سعيد وأبي جابر، هو شرح نجد أنفسنا مضطرين إلى الوقوف قليلا وقفة توثيقية لغموض الإشــارة إلى هذا الشــرح والذي تعود نسخته في أصلها إلى أوائل القرن الثالث، كما ســنبين في السطور القادمة. ومع تقدم هذا الشارح في الزمن على كل الشروح التي بين أيدينا، إلا أن ترتيب بروكلمان لشــروح المعلقــات أوهم الباحثين بتأخره، فقــد أورده بروكلمان ضمن المتأخرين، ولعله نظر إلى تاريخ كتابة هذه النســخة الذي يعود إلى

القرن السابع [10]. ويتابعه محقق شرح ابن النحاس في مقدمة الشرح فيجعلها إلى ما بعد سنة 1157هـ، وهكذا أدى التساهل في وصف هذه النسخة إلى طمس معالمها.

وحقيقة هذا الشرح، فيما نرجح، أنه يعود في أصله إلى أبي سعيد الضرير أحمد ابن خالد الضرير [11]، أحد ثلاثة اصطحبهم عبد الله بن طاهر حين ولاه المأمون خراسان. وكان مؤدبا لأولاده ويقوم على خزانة الأدب له، فإذا قصده شاعر يمدحه عرضت قصيدته أولا على أبي سعيد هذا، فما كان يليق بمثله أن يسمعه من قائله أنفذه أبو سعيد إليه لينشده قصيدته، وما لم يكن كذلك لم يسمح بعرضه، وهو صاحب الحكاية المشهورة مع أبي تمام حين قدم قصيدته:

هُنَّ عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

حجبها أبو سعيد، فلما التقيا قال له: يا أبا تمام، لِمَ تقول من الشعر ما لا يفهم؟ قال له: وأنت يا أبا سعيد، لم لا تفهم من الشعر ما يقال [12].

وليست بين أيدينا ترجمة دقيقة وافية لحياته، لذلك لف الغموض تاريخ وفاته فما بالنا بولادته، ولكن من المعروف أنه لقي أبا عمرو الشيباني وابن الأعرابي، وكان يلقى بعض الأعراب الذين استقدمهم عبدالله بن طاهر معه [13]. وقد سمع من الأصمعي، وتلقى علمه الأدبي على يد ابن الأعرابي وروى عنه، فقد ذكر قائلا: «كنت أعرض على ابن الأعرابي أصول الشعر، أصلا أصلا، وعُرض عليه - وأنا أحضر - شعر الكميت في المجالس التي كان يحضرها، قال: «فحفظته بعرضه»[14]. وقد شك ابن الأعرابي في روايته للشعر فقال: «بلغني أن أبا سعيد يروي أشياء كثيرة فلا تقبلوا منه ذلك، غير ما يرويه من شعر العجاج ورؤبة، فإنه عرض ديوانيهما علي وصححه». وتحفل النسخة التي بين أيدينا بإشارات كثيرة إلى سماعه من هؤلاء الرواة وخاصة ابن الأعرابي [15].

وقد ذكرت من مؤلفاته كتاب «الرد على أبي عبيد في غريب الحديث»، وفيه خرج جملة ما غلط فيه أبو عبيد. ومن مؤلفاته كذلك كتاب الأبيات [16]. وذكر ياقوت أنه أملى حين قدم نيسابور، المعاني والنوادر [17].

وواضح مــن الأخبار التي بــين أيدينا أنه كان مهتمــا اهتماما خاصا برواية الشعر وتفسيره، فقد أوردت مصادر ترجمته أنه كان يجلس لرواية الشــعر وشــرحه، وكان يسأل عن معنى الشــعر وإعرابه، فاهتمامه الأول منصب على الأدب.

ولم تذكر كتب التراجم ســنة وفاته، فذكر صاحب معجم المؤلفين أنه كان حيا ســنة 217هـ، لكن بعض الأخبار التي بين أيدينا تشــير إلى أنه عاش سنوات بعد هذا التاريخ، فقد روي على لسان أبي سعيد نفسه أنه قــال: «كنت عند عبد اللــه بن طاهر فورد عليه نعي أبي عبيد»[18]، وأبو عبيد توفي ســنة 223، بل إنه عاش أبعد من هــذا، فإذا كان هو مؤدب أبناء عبدالله بن طاهر وأبرزهم عبيد الله بن عبدالله المولود سنة 223، وقد أورد صاحب الموشــح خبرا عن الصولي أنه قد حدثه عبيد الله بن عبدالله بن طاهر، قال: «حدثني أحمد بن خالد المباركي، وهو أبو سعيد الضرير»[19]، فلا شك أنه سمع منه وهو طفل مميز أو في عصر الطلب. نحــن لا نســتطيع القطع بتاريخ وفاته، غير أنه - لا شــك - عاش حتى انصرام الثلث الأول من القرن الثالث.

ومع أن أكثر المصادر أهملت مؤلفات أبي سعيد الضرير، فلم تذكر سوى كتابين هما «الرد على غريب الحديث» لشــهرة الموضوع و«كتاب الأبيات»، وإشــارة عابرة لأماليه، ولم يرد ذكر لهذا الشــرح أو لغيره، لكننا لا نتوقع مثل هذه الإشارة لطبيعة الكتاب، فهو ليس نصا من تأليف أبي سعيد بقدر ما يكون فصلا من أماليه، فالشــرح ملفق من شــرحين أولهما لأبي سعيد والآخر لأبي جابر، ومن هذين استوت النسخة. ونظرا إلى أن هذه النسخة فريدة ولا نعرف ما يسند ما جاء فيها فحسبنا منطوقها الخاص.

يتصــدر هذه النســخة عنوان «كتاب فيه شــرح القصائد الســبع، شرحها أبو سعيد وأبو جابر» وقد ترك الاسمان من دون تحديد للاسم الكامــل، لكن في متن الكتاب نجد عبارة «قال أبو ســعيد الضرير»[20] «يضــاف إلى هــذا قرينتان أولاهما: ما أثر عن أبي ســعيد من اهتمام خاص بالأدب، كما ذكرنا في ترجمته، والأخرى أنه تلميذ مباشــر لابن الأعرابي الذي كثر ورود اســمه عنده، مشــيرا إلى سماعه المباشر عنه

يقول: «قال أبو سعيد: سمعت ابن الأعرابي» [21]. «قال أبو سعيد: سئل ابن الأعرابي عن هذا البيت وأنا حاضر» [22]. «قال أبو سعيد: سألت ابن الأعرابي عن نصبه وقوفا» [23]، فهذه نصوص صريحة تنص على السماع عن ابن الأعرابي مباشرة.

ويتردد كذلك اسم أبي عمرو، والمقصود به الشيباني الذي أخذ عنه أبو سعيد، كما ذكرنا في ترجمة حياته، وقد نص على الاسم صراحة في بعض المواضيع، قال: «أبو عمرو الشيباني» [24]. «أخبرني بها أبو عمرو الشيباني». وأشار إلى سماعه المباشر في عدة مواضيع «قال أبو سعيد سمعت أبا عمرو» [25].

وينقل عن الأصمعي ومأثوراته، ولم يشر إلى سماعه المباشر منه إلا مرة، قال: «سمعت الأصمعي يقول: أخطأ زهير في هذا البيت» [26]. والطريف في هذا أن موضوع التخطئة هو نفسه الذي أشار إليه تلميذه عبيد الله بن عبدالله بن طاهر في النص الذي نقلناه، سابقا في توثيق ترجمة حياته، وهذا مما يؤازره الخبر السابق.

ونجده في موضع آخر يشير إلى ابن الكلبي «قال وأنشدنا ابن الكلبي» [27]. ومن الأسماء الواردة في هذا الشرح والمستشهد بها أبو العميثل أحد الذين تلقى عنهم وقد كان شريكه في فحص الشعر عند أبي طاهر [28].

قد تجعلنا هذه الإشارات نطمئن إلى أن أصل هذا الشرح يعود إلى أبي سعيد الضرير وهو إن لم يكن نصا في التأليف فهو أقرب ما يكون إلى الإملاء من جانبه، أو هو أحد دروس الشرح التي كان يمليها من جملة أماليه التي ذكرها مترجمو حياته، وعلى هذا يمكن اعتباره أقدم شرح لهذه القصائد المشهورة، ويسبق شرح ابن الأنباري بقرن من الزمان.

أما كيفية تسجيل هذا الشرح فمن الواضح أنه مر بمراحل ثلاث حتى وصلت هذه النسخة إلينا بصورتها التي بين أيدينا. أولى هذه المراحل إملاء من جانب أبي سعيد على تلاميذه، وثانيتها إضافات وتعليقات مع تكملة للشرح من أبي جابر، ثم جاء آخر سجل النسخة من هذين الشرحين مكملا المرحلة الثالثة.

لقد بينا نسبة هذا الشرح إلى أبي سعيد الضرير الذي قام بشرح هذه القصائد كلها، ولكننا لم نستطع التوصل إلى شخصية أبي جابر، قسيم أبي سعيد ومشاركه في الشرح، ولم نعثر على ما يفيدنا في بيان مكانته العلمية، ولم تسعفنا النسخة التي بين أيدينا بأي بيانات تلقي الضوء على هذه الشخصية الغامضة.

نصت بعض عبارات النسخة على أن أبا جابر هذا قد أخذ مباشرة عن أبي سعيد فورد قوله: «وسألت أبا سعيد» [29]، وقال: «وسألت أبا سعيد عن هذا البيت» [30]، وقال: «وسألت أبا سعيد» [31]. فإذا كان السماع حقيقيا كما نصت هذه النسخة، فمعنى هذا أنه من رجال القرن الثالث.

وأبو جابر هذا يقاسم أبا سعيد الشرح كله ويمكن فصل كلام كل واحد عن الآخر، فالذي استوت هذه النسخة بين يديه يشير في الغالب إلى صاحب الكلام بقوله: «قال أبو سعيد»، و«قال أبو جابر»، أو «هذا كله كلام أبي جابر»... وهكذا، وإن تهاون أحيانا وخرج عن هذه السنة التي اتبعها.

وجامع هذه النسخة يمثل المرحلة الثالثة من تاريخ هذا الشرح، ونحن لا نستطيع أن نقطع بعصره، فهل أخذ النسخة عن أبي سعيد وأبي جابر معا، أو أنه أخذها كاملة عن أبي جابر فقط، فيكون الأخير هو الذي رتب هذه النسخة. وتهمنا هنا الإشارة إلى أن هذا الكتاب لم يقف موقف الناسخ الأمين، فقد دخل طرفا ثالثا في الشرح من دون إسراف، فهو في الغالب يورد قول أبي سعيد كاملا ثم قول أبي جابر، وأحيانا يخرج عن هذا الخط فيأتي بالشرحين متداخلين وفق المادة المشروحة، وتارة يقدم شرح أبي جابر على كلام أبي سعيد، وإذا لم يكن لأبي سعيد شرح أو رواية أشار إلى ذلك ثم أتى بالشرح الذي بين يديه إن كان لأبي جابر. وأحيانا يأتي به غفلا من النسبة، ويتدخل مرجحا رأيا على آخر وهكذا.

وتبرز شخصية جامع هذه النسخة من خلال بعض الملاحظات المنثورة في ثنايا الشرح والتي تنبه إلى أنه أبعد من أن يكون ناسخا عاديا، فهو يورد آراء أخرى يصدرها بقوله قال غيره [32]. وأحيانا

يورد أبياتا لم يتعرض لها الشـــارحان فينص على هذا ويأتي بشرح لهمــا [33]، ونراه يقوم بالترجيح بـــين الآراء، فيعرض مثلا قول أبي ســعيد وأبي جابر، ثــم يعلق قائلا: «وهذا الوجــه اختاره أصحاب البصـــر، ورأيت أبا جابر وأبا ســعيد يفســرانها هنا كــذا والقول الآخر.. » [34].

وفي مواضع أخرى «وهذا مذهب حســن، وقول أبي جابر أكيس» [35]. «وأما قول أبي جابر فهو ما تقدم في الأســد وهو القول عندنا» [36]، «... ولم يره أبو جابر، وقول أبي سعيد مقبول في هذا» [37].

مثل هذا كثير في النســخة، مما يؤكد أن جامع هذه النســخة يتدخل مرجحــا أو راويا لآراء وأقوال لبعــض العلماء الآخرين يصدرها في بعض المواضــع بقوله: «وقال غيره»، أو «وقال غير أبي جابر». مثلا يعرض لرأيه حــول ضبط كلمة حلقة ثم يعقب قائلا: «وقــال غير أبي جابر: يقال هذه حلقة ساكنة اللام وهذه حلقة الباب متحركة اللام لم يعرفه أبو جابر، وكان يقول: كلاهما بتسكين اللام» [38].

إن كاتــب هذا الشــرح قــد يكون أحــد تلاميذ هذين الشــارحين أو أحدهمــا، فليس هناك ما يمنع من ذلك مادام ينقل عنهما نقل من يعرف أخــص آرائهما. إلا أن هناك إشــارة عابرة ورد فيها اســم أبي عبد الله الزوزني (ت 486هـ)، وهذه تدفع بتسجيل هذه النسخة على زمن متأخر، ففي شــرح قصيدة عنترة يرد اسمه ناقلا عن شــرح أحد الأبيات فقال: «قــال أبو عبد الله الزوزني: باتت تحــن ليلتها جميعا فكأنها في أجوافها المزاميــر من الحنــين» [39]. ونلاحظ أنه لم يأت بنــص الزوزني كما هو موجود في المطبوعات التي بين أيدينا، فالأصل يقول: «... شبه أنينها من كلالها بصوت القصب المكســر عند بروكها عليــه» [40]. وهو كما نلاحظ تصرف يغير المعنى. غير أن الشــاهد هنا هو ورود الاســم نصا في داخل النســخة، ولعل الاســم أقحم إقحاما من الناسخ الذي نقل معنى الزوزني من ذاكرته دون تثبت. اليقين لن يتيسر لنا إلا إذا عثرنا على نسخة أخرى تزيل إبهامات هذا الشرح المشوه، أو تأتي نصوص تاريخية تدعم المعلومات التي جاءت بها هذه النسخة.

ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع القطع باسم الذي يسر لنا الحصول على شرح أبي سعيد وصاحبه، أهو محمد أبو الخير صديق القنوي الذي ورد اسمه في ختام تحريره لبعض القصائد مؤرخا الفراغ، في سنة 616هـ، أم أنه ناسخ من النساخ أخذه عن أصل سابق له؟ استفهام لا أملك له إجابة شافية.

ملاحظة أخيرة ندرجها في نهاية رحلة دراستنا التاريخية لهذه النسخة التي قدمت لها أصلا من الأصول العزيزة في شروح القصائد السبع، وإن جاءت في صورة مشوهة دلت على عدم التثبت. فعلى الرغم من أن هذه النسخة صدرت بعنوان «شرح القصائد السبع» فإنها في الحقيقة ليست قصائد سبعا، بل هي ثماني قصائد، هي نفسها القصائد السبع مضافة إليها قصيدة النابغة الدالية.

وقد بدأ بقصيدة امرئ القيس، وثنَّى بقصيدة لبيد، ثم قصائد كل من طرفة فعنترة فزهير فالحارث بن حلزة فعمرو بن كلثوم، خاتما النسخة بقصيدة النابغة. ولم ينقطع شرح أبي سعيد وأبي جابر طوال النسخة، مما يدل على أنهما قد أمليا شرح هذه القصائد كاملا، وبالتالي فعنوان هذه النسخة ليس دقيقا، ولعل ناسخها أو كاتبها المتأخر انساق وراء التسمية العامة المشهورة من دون أن يلتفت إلى العدد المشروح المتجاوز لما أثبت في عنوان نسخته.

طريقته في الشرح

آن لنا الآن أن نقول كلمة في منهج أو طريقة أبي سعيد الضرير الذي يمثل عمدة هذا الشرح، وقد سار من تبعه على منهجه مع إضافة بعض المعلومات الأخرى البسيطة، وخاصة قسيمه ومشاركه أبا جابر. والذي نحب أن نؤكده هو أن أبا سعيد لا يخرج عن الخط العام الذي سار عليه الشراح العرب من بعده في إثبات المعنى العام مع الإعراب واللغة والأحداث التاريخية، لكنه يتميز عن هؤلاء بأن هذا الشارح، ولأنه ينتمي إلى عصر أقدم من بقية الشراح، تميزت نسخته بنوع من التوازن والاختصار في المعلومات وعدم الميل إلى الإسراف في بسط آراء الآخرين، فقد كان يأتي بأشد الكلمات اختصارا لشرح البيت من دون أن تحتشد الأسماء والرواة وغيرهم.

ولا يعنـــي هذا انفراده في الشـــرح، فهو يـــورد الآراء أو المعلومات أو أسماء العلماء الذين اســـتفاد منهم أو خالفهم، حين تكون هناك ضرورة، وإلا لاعتمد على نفســـه في الشـــرح مع اختزان المعلومات العامة الشائعة التـــي يمليها منطوق النص أو التي أصبحت من المأثورات التي لا تنســـب إلى أحد. وقد أشرنا إلى مصادره في حديثنا عن توثيق النسبة إلى بعض ما صدر عـــن العلماء الذين اعتمد عليهم، وهو اعتماد معقول لا يزيد إلا قليلا على المواضع التي لم نشر إليها من قبل، فهو يعتمد على ما اختزنه من معلومات أو أخذه مباشـــرة عنهم بجانب فهمه الخاص، ومن ثم يبدو أنـــه من أولئـــك الرواد الأوائل الذين كانوا أكثر تحـــررا ممن جاء بعدهم، وآثروا الاتباع والالتزام بالنصـــوص والنقول، وإن تضاربت فيما بينها من دون تدخل أو إبداء أي رأي.

ومع أنه كان يســـير في خطه العام على المنهج الســـائد آنذاك من الاهتمام بالمعنى العام مع الوقـــوف عند الملاحظات اللغوية، فإنه من جانـــب آخر حافـــظ على التوازن بـــين الاهتمام اللغوي والإحســـاس بالمعنـــى، ولنعـــرض الآن بعض الأمثلـــة وهي أقدر منـــا على توضيح أسلوبه، فيقول:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي ... عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ

يعتام يختـــار، واعتامه يعتامه اعتياما أي اختـــاره. يقول: الموت إنما يعتام الكرام من الناس. ومعنى هذا الكلام أن اللئام لا يفقدون إذا ماتوا والكرام يفقدون.

ويصطفي أي يختار، فقال اصطفى أي اختار. قال أبو جابر: يصطفي أي يأخـــذ صفوتـــه أي خيرته، وعقيلة المال كريمتـــه، وكذلك عقيل الرجل وعقيلة النســـاء. والمال عند العرب الإبل. والفاحش البخيل إذا سئل فحش على السائل. والمتشدد: المتقصر غير المطلق بإنفاق ماله، فهو يمنعه ويتشدد في منعه. فيقول ما منع ماله لنفاسته عنده وخطره اخترمه الموت. والمعنى أن الموت إذا أتى الكريم لم يجد عنده إلا نفسه لأنه لا يجمع المال، واللئيم يجمعـــه، فالموت يأخذ من ماله. قال أبو ســـعيد: عقيلة كل شـــيء خيرته فيقـــول الموت إلى الكرم أســـرع وعقيلة المال كريمتـــه، يقول ما الموت إليها

أســـرع (ألا فلا مال يبقى) [41]. ولو مالك مال وإن كان فاحشـــا فالفاحش المفرط في البخل والمتشـــدد والمتمسك بما يملك الذي لا يكاد ينفرج لأحد عن شيء» [42].

وهذا النص نموذج للشـــرح البســـيط العادي الذي يقرب مفهوم النص للقارئ أو المســـتمع، فهو لا يغادر معنـــى البيت الحرفي مع محاولة تقصي جوانـــب المعنى اللفظي وتوضيح المقصد القريب مع محاولة لإعطاء صورة ما يريد الشـــاعر أن يقوله. وبيان هذا أنه شرح معنى كلمة يعتام وصرفها. ويتدخل أبو جابر مكملا الشـــرح اللغوي، مشـــيرا كذلك إلى أن المال عند العرب هو الإبل، ثم شرح دلالة لفظ الفاحش التي هي إشارة إلى البخيل، وعلى هذا المنوال تسير طريقة شرحه.

والنظرة الأولى لهذا التفســـير تعطينا وضوحا أوليا لاكتشاف مجاهل البيت من حيث ألفاظه وتراكيبه ودلالة هذا في البيئة التي قيلت فيها هذه القصيدة، مع شرح مجمل ومبسط لمعنى البيت، مخترقين الستار الأول من فهم الشعر، ولعل هذا هو أهم مقصد للمفسرين والشارحين، فجل المتلقين عنهم من المتعلمين أو أصحاب الثقافة العامة.

لكننا نرى أنه يجب ألا نغفل تلك اللمســـات الرقيقة التي تدل على فهم جيد ومعقول لما قاله الشـــاعر، متجاوزين حرفيـــة المعنى على أهميته إلى المقصـــد الآخر الأهم، وهـــو مقصد لا يجاوز فيه المعنـــى اللغوي لكنه من جانـــب يعتصـــر أهم ما فيه من معنى، فهو حين يشـــير إلى أن الموت يعتام الكـــرام ينبه إلى نقطة دقيقـــة، فالموت في حقيقته لا يختـــار الكرام دون اللئام، فالواقع يكذب هذه المقولة، فالمعنى الدقيق الذي انتبه إليه الشـــارح هـــو أن الموت يختار الاثنين، يقول: «ومعنى هذا الكلام أن اللئام لا يفقدون إذا ماتوا والكرام يفقدون». فالحســـرة هنا هي حســـرة الحي على الكريم دون اللئيم.

وتكتمل الصورة الجميلـــة في المقابل الآخر حين يضع هذين في جملة واحدة فيقول: «ما منع من ماله لنفاســـته عنده وخطره إذا اخترمه الموت. والمعنى أن الموت إذا أتى الكريم لم يجد عنده إلا نفسه، لأنه لا يجمع المال واللئيم يجمعه فيأخذه الموت منه».

وهذا المعنى يؤكد البيت الآخر:

أرى قبرَ نحَّامٍ بخيلٍ بمالِهِ   كَقبرِ غَويٍّ في البطالةِ مُفسدِ

وبجانب هذا نجد إشـــارة عابرة قد تعني شـــيئا عند المفسر، فإذا كان الموت يصطفي عقيلة مال الفاحش المتشـــدد، فإن ذهن أصحاب الحاضرة قد ينظر إلى المال بصورته المعروفة لديه، بينما إشـــارة الموت هنا آتية من اســـتخدامات البيئة، لذلك تكتسب إشارة الشارح إلى أن «المال عند العرب الإبل» أهمية ومعنى آخر غير الظاهر عند خالي الذهن.

فهذه الملاحظات ذات الطبيعة العامة لغوية أو من البيئة، وإدارة اللفظ حول معناه الدقيق في عبارات موجزة هي سمة من سمات هذا الشرح.

ومثال ثان يسلط الضوء من زاوية أخرى يقول:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَه   عليَّ بأنواعِ الهُمُومِ ليبتلي

«أراد ورب ليـــل كموج البحـــر متراكم الظلمة. قال: ويشـــبهه بالموج لأن الظلمة تجيء دفعة واحدة وفورة فورة في أول الليل ثم يسكن الليل فيستقيم. أرخى ســـدوله عليّ أي ألقى ظلمته عليّ، والسدول الستور والواحدة سدل. وأنـــواع الهموم: أفانينها الواحد نوع. وقولـــه ليبتلي يريد ليبتليني أي يختبر ما عندي فوجدني صبورا عليه قادرا على نفاذه. قال أبو سعيد: إنما شبهه كموج البحر لاســـتحكام ظلمتـــه، فإذا رمى الناظر بنظـــر فكأنه يرى موجا كموج البحر. وأرخى سدوله أي أسبلها، يعني أنه قد وارى كل شيء. والأنواع الأصناف يعني أن الهموم تقســـمته بسبل شتى وطال عليه الليل فزاده ذلك غما، فإن الليل يريد أن يبتلي صبره ينظر كيف جزعه أم كيف صبره» [43].

وهذا الشـــرح يختلف بعض الشيء عن ســـابقه، فليس في هذا البيت ألفاظ تغمض على المتعلم، لذلك نجد الشـــارح ينصرف إلى توضيح دلالة اللفظ، موضحا المعنى من جانبه العميق، مبينا اتجاه الصورة عند الشاعر، فيبـــين أن هـــذا الليل كموج البحر متراكم الظلمة، ويفســـر هذا التشـــبيه مبينا العلاقة بين حركة الموج والظلمة، ويتآزر الشـــارحان في توضيح هذه الصـــورة، فالأول نظر إلى العلاقة بين الموج والظلام من حيث الحركة. أما أبو ســـعيد فقد أثارت انتباهه الصورة النهائية فاســـتحكام ظلمة الليل هو الذي يستدعي صورة موج البحر.

وتلفت الإشـارات الدقيقة أنظار الشـارحين، فإرخاء السـدول هو إلقاء الظلمة، والأنواع هي الأفانين، وهذا لا يعني أن كلمة نوع غامضة، ولكن الشارح أراد أن يوضح المعنى الدقيق في السياق الشعري، وأدق ما يراد فيها هي كلمة أفانين أو أصناف لما فيهما من التنوع المتناسـق مع ما جاء بعدهما من الابتلاء والاختبار، واختار أبو سعيد كلمة أصناف وحددها انطلاقا من سياق البيت.

ويتجاوز الشارحان حدود الألفاظ المباشرة لكلمة الاختبار، فأبو سعيد التزم معنى النص مبينا معناه الكلي بمقاصده من أن الهموم تقسمته بسبل شـتى وطال عليه الليل. أما الشارح الآخر فقد اجتهد مضيفا من عنده أن الشاعر كان صابرا في مواجهة هذا الاختبار.

وهكذا يتآزر الشـرحان في تقديم معنى متكامـل لهذا البيت، مع أننا لا نسـتطيع القول إن هذه طريقة مثلى لشرح الشـعر، فإنها وسيلة جيدة لتقريب معناه العام واختراق الستور الأولى من دون أن نفقد بعض اللمسات الفنية الدقيقة.

وهنـاك محاولـة أولية لفهم الجانب النفسـي لاتجـاه المعنى أو جس الجانب النفسي عند الشـاعر كما هو واضح من محاولة شرح بيت امرئ القيس، مع تقريب للصورة الفنية.

ونحن لا نفقد مثل هذه الإشـارات المفيدة في أكثر سطور هذا الشرح، بل إن هناك إحساسا فنيا دقيقا يضع يده على الحالة النفسية عند الشاعر يحسـها هذا الشارح القديم بقدر ما سمح له وعيه الفني وعصره، وانظر مثلا شرح بيت الحارث بن حلزة:

فتنورتُ نارَها من بعيدٍ   بخزازي، هيهاتَ منكَ الصلاءُ

«قال أبو سـعيد: هذا قول رجل كلف مشتاق توهم نفسه أنه رأى نارها بخزازي». فهذا الشـارح النافذ البصيرة أدرك حالة التوهم التي عاشـها الشاعر، لكنه سرعان ما غلب عليه الجانب العقلي المنطقي حين يشير بعد ذلك إلى أن هذا كلف وكذب (44).

ويمتاز هذا الشـرح بالتفرد والقدرة على التحرر من الأقوال المأثورة والمشـهورة، فنحس بحضور شخصية أبي سعيد في كثير من الملاحظات والإشارات والاجتهادات الخاصة به التي تكشف لنا عن إيجابية ومحاولة

اجتهـــاد، هي فـــي حقيقتها - كما أشـــرنا من قبل - مـــن فضائل رجال الصدر الأول من العلماء الذين أعطوا أنفسهم حرية القول والحركة، فهو مثلا يعترض على الأقوال التي ســـيقت لتفسير كلمة «عمي صباحا» فلا يوافق الذين فسروها بأنها من وعم يعم مثل ضرب يضرب، فيعلق قائلا: «ولســـت أدري ما هذا ولم أســـمعه من ثقة، فإذا طلبت العذر فقل ضاق عليه الشعر فجعل أنعم عمي وهذا أشبه الأشياء، فإن الشعر يضيق على صاحبه حتى يستكره الكلام. ألم تر إلى قول النابغة وهو يصف درعا (من نســـج داود أبي سلام). وقال أيضا «ونسج ســـليم كل قضاء ذائل» فجعل من سليمان سليم [45].

ويشير إلى بيت آخر لدريد بن الصمة في رثائه لأخيه عبدالله فقال:

وإن تُعقِبِ الأيامُ والدهرُ تعلموا　　　بني قاربٍ أنَّا غِضَابٌ بمَعْبَدِ

فقد جعل عبدالله معبدا ضرورة، وهذا كثير كما يعلق أبو سعيد [46].

ومثـــل هذا ما نبه عليه الشـــراح من أن هناك تناقضـــا بين قول امرئ القيـــس فـــي أول قصيدته حين يقول: «فتوضح فالمقراة لم يعف رســـمها»، ويعود مرة أخرى لقول «فهل عند رســـم دارس مـــن معول». وكيف قال في البيت الأول لم يعف رسمها فخبر أن الرسم لم يدرس، وقال في هذا البيت: «عند رسم دارس» [47]. يقف الشارحان أمام هذه القضية التي يجيب عنها أبو سعيد قائلا: وقال في قوله «لم يعف رسمها» وفي قوله: «فهل عند رسم دارس» قال: ليس بعض هذا بناقض لبعض لأن الدرس أقل من العفو، وأنت تقول إذا رأيت الكتاب قد جعل يدرس، قد درس وأنت ترى رســـومه، ولكن قد شعث فكذلك قد وقع عليه اسم الدرس، وهذا كقول القطامي:

فهن كالخلل الموشى ظاهرها　　　أو كالكتاب الذي قد مسه البلل

«وإذا مســـه البلل تشـــعث وانتقض» [48]. ويقترب رأيه هذا من الأصمعي، وإن كان الأخير قد جعل رأيه في حدود أن المعنى «قد درس بعضه وبقى بعضه ولم يذهب كله، كما تقول: قد درس كتابك، أي ذهب بعضه وبقي بعضه» [49].

ولا شـــك في أن رأي الأصمعي فيه شيء من الوجاهة فقد اعتمد على توحيد معنى اللفـــظ في البيتين واعتبرهما حالتين أو درجتين من درجات الرســـم، لكن أبا ســـعيد كان أكثر اقترابا وتصرفا مـــع الألفاظ، فقد لفت

نظره أن الشاعر استعمل أولا: «لم يعف رسمها»، بينما كان التعبير الآخر: «فهل عند رسم دارس من معول» هو لم ينظر إلى اللفظ المشترك بل امتد بصره إلى اللفظ المختلف وهو الفعل «عفا» فهذا الفرق هو الذي حدد درجات الدروس وبالتالي ليس هناك تناقض في قول الشاعر من حيث المعنى الخارجي.

ولطيفة أخرى تدور حول بيت عنترة:

فشككتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القنا بمُحرَّمِ

يناقش هذا البيت قائلا: «قال أبو سعيد بعض الناس يقول ثيابه قلبه ويحتج بقوله تعالى: «وثيابك فطهر» [50]. ولا أدري ما هذا، ولكن الثياب هي الثياب لأن المصلي لا يصلي في ثيابه إلا وهي طاهرة، فإن لم يكن كذا أعاد الصلاة. وأما قوله شككت ثيابه فإنما شك ثيابه عليه فانتظمها مع بدنه بطعنه [51]. ولعل هذا الفهم يتلاءم مع المعنى الحرفي للبيت تؤازره رواية أخرى له هي «كمشت بالرمح الأصم ثيابه» يقول: «طعنته طعنة شمرت ثيابه وضمتها إلى صدره» [52].

وهناك غير هذا كثير من الملاحظات التي تفرد بها أو أظهر آراء خاصة به تدل على تمكنه، ولا يعني هذا أن الصواب كان بجانبه دائما، فإن له اجتهادات غريبة خارجة عن حدود ما تعارف أو دار حوله الشراح، فإذا كان تفسيره القسيمة، في بيت عنترة:

وكأنَّ فارةَ تاجرٍ بقسيمةٍ سبقتْ عوارضُها إليكَ من الفمِ

إنها الجميلة مأخوذة من القسام وهو الحسن، فإنه يفسرها تفسيرا مع علمه بالتفسير الأول يقول «القسيمة هاهنا اليمين التي أقسم بها، قال وكأن فارة تاجر قال والله سبقت عوارضها إليك من الفم» [53]. وهو تفسير غريب بعيد عن السياق القريب والذي يستدعيه أيضا اللفظ نفسه.

وتفرد آخر غريب، فقد فسر أكثر الشراح أن المقصود بالمشوف في بيت عنترة أيضا «بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم» أنه الدينار المنقوش أو الدرهم، وهذا أصح الأقوال كما أشار ابن النحاس [54]. وقدمه ابن الأنباري [55]، وهناك من فسره بالبعير المهنوء أو الكأس وهي كلها متقاربة مع السياق وشذ أبو سعيد في اجتهاده حين يجعل المشوف هو الوجه الحسن» أي اشربيها

وأنا أنظر إلى وجه حســن والمعلم المشهور بالجمال.. والمشوف المعلم هو الوجه المشوف الذي قد صنع وجلى، والمعلم هاهنا الذي قد أعلم باللبوس والحلي كما تشوف العروس، والدليل على ذلك قوله بعدما ركد الهواجر ليعلم أنه خلا بمن يحب واستقر دون الناس في وقت هجر بعضهم لبعض من شدة الحر» [56].

فهذا من غرائب تفسيراته، والتفسير الأقرب الذي نستريح إليه هو أن المشوف ما ذكره الأصمعي من أنه الدينار المشوف أي المجلو [57].

* * *

مثَّل شــرح أبي سعيد مســاهمة عزيزة من مســاهمات القرن الثالث، ولم تكن الوحيدة في حلقة من سلســلة طويلة لاحقة، من الشــروح، فثاني الأسماء البارزة التي ذكر أن لها مساهمة واضحة في هذا المجال هو: ابن الســكيت (توفي حوالي 244هـ)، فقد ذكرت بعض المصادر أن له شــرحا لهذه القصائد السبع [58].

هــذا الخبر وإن لم نجد ما يســنده من واقع الأخبــار الموثقة، فقد ذكره أحد المتأخرين ونقل عنه من نقل، فإن هناك من المؤشــرات ما تدعم قبوله، وإن ظل دون القطع أو الترجيح، فتردد اســم هذا العالم في الشروح المختلفة للقصائد السبع تردد واضح ومطرد، ويكاد يغطي القصائد السبع كلها موردا الأقوال والروايات. وإذا عرجنا إلى الإحصاء المباشــر فسنجده أن اسمه قد تردد في شــرح ابن الأنباري في أكثر من ســبعين موضعــا، تركز في صورة واضحة فــي القصائد الأربع الأولى، ونعني بها قصائد امرئ القيس وطرفة وزهير وعنترة، مع بعض الملاحظات البسيطة فيما أعقبها من قصائد.

ويرد اســمه في شرح ابن النحاس ما يقرب من تسع وأربعين مرة في النــص الأصلي، ويضاف إلى هذا ما ورد في النــص الملحق، وقد توزعت اجتهاداته بنســب متفاوتة بين القصائد. ونضيف إلى هذا أن ابن السكيت كان شــارحا لكثير من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين، نشير إلى شــرحه لديوان طرفة [59]، وشرحه لديواني الأعشى وزهير [60] إلى جانب ديوان النابغة [61]. وله اهتمامات واضحة بالشــعر وشرحه فقد ذكر له من الكتب كتاب «معاني الشعر الكبير» و «معاني الشعر الصغير» [62]. كل هذه قد تشجع على قبول ما روي من أن له شرحا لهذه القصائد.

وهــذا بدوره يدفعنا إلى النظر بعين الاعتبار إلى بعض الأســماء التي حفلت بها كتب الشــروح، ومثلت أصــولا ومقدمات لها، ومصادر معتمدة، فتكرار أســماء معينة يوحي بأن لها يدا طولى في شرح القصائد السبع، ســواء أكان هذا الشرح منفردا غاب خبره وأصله عنا أم أنه ينهض جزءا من شــرح تام لدواوين الشعراء السبعة أو بعضها. وقد كان ورود اسم ابن كيســان في شــرح ابن النحاس يدل على أن لهذا العالم شرحا متكاملا، وإن لم تبق منه بقية، وهذه ظاهرة تنسحب على غيره فتدفعنا إلى النظر إلــى أحمد بن عبيد مثلا الذي اعتمد عليه ابن الأنباري اعتمادا واضحا، فقد جاء اســمه في شــرحه أكثر من مائة مرة، وبرقــم أدق مائة وثلاث عشرة مرة [63]، ألا يوحي ذلك بأن هذا العالم قد ساهم بجهد واضح في الاعتناء وتوضيح معاني القصائد الســبع، وإن هذه المأثورات قد تكون من نــص مكتوب أو أن هذه أماليه ودروســه التي وعاها من نقل عنه، خاصة أنه كان من المؤدبين.

ويمكــن إدراج أســماء من مثل الطوســي وله اهتمام خــاص بقصيدة طرفة، ومشــاركة الرستمي الذي فاض شرحه بالنسبة إلى قصيدة عنترة، أما التوزي فهو مهتم بتوثيق قصيدة طرفة مع إشــارات أخرى إلى قصيدة الحارث. إننا لا نريد إقحام هذه الأســماء ضمن شــراح القصائد السبع، فقصدنــا منصب علــى التنبيه إلى هذا الجانب من جهــود علماء العربية الأول واهتمامهم بهذه القصائد.

وقبل أن نودع القرن الثالث نشير إلى آخر شراحه ابن كيسان (ت 299هـ) الذي أقام شــرحا متكاملا بقيت آثاره عند بعض الشــراح مع جزء من نسخة غير موثقة ومحل الحديث عن هذا الشارح في سطور قادمة.

الشرح في القرن الرابع

في هذا القرن تســتوي الشــروح نشــاطا متكاملا بعد أن توافرت صورة واضحة للشعر الموثق الذي يسره الرواة والعلماء وصناع الدواوين والمجموعات الشــعرية، ورافقت هذا الشــعر عشــرات بل مئات الملاحظات من لغة ونحو وأخبار وخلافات في التأويل والتفســير، وقامت شروح أولية على هذا الشعر

يســرت مادة منسـقة تحتذى. ومن جانب آخــر ازدادت الحاجة - مع تقدم العصر - إلى الشــرح المنســق لهذه الفئــة المتعلمة المقبلة علــى هذا التراث الشعري، وبخاصة شعر الجاهليين وأصحاب القصائد السبع على الأخص.

والذي لا شــك فيه أن هذا القرن حظي بعدد وافر من الشــروح الرائدة المتكاملــة المنهــج، يمثلها الموجود بين أيدينا مع اليقــين بأن هناك كثيرا من الشــروح التي ســقطت من بين الأجيــال فلم تبق منها إلا أســماء وعناوين تشــير إلى وجودها، أو بقيت منها إشــارات بســيطة في بعض الكتب التي حفظت بعض ملاحظاتها، ولعل أهم شــرحين بقيا هما شــرح ابن الأنباري (ت 328هـ) «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» والذي كتبه في الربع الأول من هذا القرن [64]. أما الآخر فشــرح أبي جعفر النحاس (ت 338هـ) وسنخصص الفصل الثالث لدراسة شرحيهما.

وكما أشــرنا في السطور السابقة إلى بعض الجهود التي خفيت علينا مــن القرن الثالث، فإننا نجــد في هذا القرن، كذلك، من ينســحب عليه القــول. وبعض هؤلاء نص على أســمائهم صراحة بأنهم من شــراح هذه القصائد. ولعل أبرز هذه الأســماء ابن درستويه (248-347هـ) [65] الذي ذكر له شــرح باسم «تفسير الســبع الطوال» لم يتمه [66]، وكذلك ما ذكره ابــن النديم عن قاضي تكريت من أن له من الكتب كتاب «تفســير الســبع الجاهليات بغريبها» [67]. وواضح أن هذا القاضي الذي لا نعرف عنه شيئا كان مهتما بتفسير الشعر، فله أيضا تفسير لمقصورة أبي بكر بن دريد.

وذكــر أن لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (282-370هـ) كتاب «تفســير الســبع الطوال» [68]، وقد ذكر صاحب مقدمــة التهذيب أن هذا الكتاب شــرح للقصائد السبع وليس تفســيرا لبعض سور القرآن كما ظن البعض خطأ. بينما أشــار محققا «طبقات الشافعية» [69] إلى أن المقصود هو الســبع الطوال من الآيات. ولمــا كان العنوان يحتمل المقصدين، كما أن الأزهــري عرف عنه الاهتمام بهذين العلمــين، فبجانب التأليف اللغوي له كتــب في التفســير وعلوم الدين الأخرى، وفي الوقت نفســه له جهود في شرح الشعر مثل تفسيره لشعر أبي تمام، فلذلك لا نجد أن هناك ما يسوغ الترجيح ما لم يتوافر لنا دليل قاطع.

ومن أبرز شـــراح هذا القـــرن الذين فقدت شـــروحهم أبو علي القالي (288 - 356هـ)، الذي ذكره أكثر من مصدر، فنص ياقوت [70] على أن له «كتاب تفسير الســـبع الطوال»، واضطرب - بعد ذلك - المترجمون للقالي في تســـميته، فقال عنه صاحب وفيات الأعيان «كتاب شرح فيه القصائد المعلقات» [71]، وذكره آخر باســـم «تفسير القصائد والمعلقات» [72]، وسماه ثالث «تفســـير السبع الطوال» [73]، و«تفســـير القصائد والمعلقات وتفسير إعرابهـــا ومعانيهـــا» [74]. وغني عن البيان أثر القالـــي في الحركة الأدبية واللغوية في الأندلس، فقد نقل دواوين الشـــعر الجاهلي وفسر عددا منها وقد روى عنه، بســـند متصل، خلق كثير، وعنه انحدرت مجموعة الأشعار الستة التي قامت حولها بعض الشروح [75].

ومن مرجحات وجود هذا الشـــرح واهتمام القالي بالقصائد الســـبع مـــا نعرفه عنه مـــن أنه قد درس على أيدي شـــارحين من شـــراح هذه القصائد، فقد ســـمع من ابن الأنباري، وقد غادر بغداد في سنة وفاته، أي 228هـ، كما أنه أخذ عن ابن درستويه [76] وابن الأزهر [77]. فلا شك أنـــه أخذ عنهم، وبخاصة ابن الأنباري، شـــرحهما لهـــذه القصائد وقام بدوره بشرحها وتفسيرها.

وليس بين أيدينا ما يوضح منهج القالي في شـــرحه هذا، هناك فقط بعض النقول البسيطة التي حفظها لنا البطليوسي في شرحه على الأشعار الستة، وإذا سلمنا بأنه روى الأشعار الستة وفسر القصائد السبع، فاسمه يتكرر في شـــرح أبي بكر البطليوســـي لشعر الشعراء الستة ونص صراحة على أن له تفســـيرا لهذه القصائد قال: وروى أبو علي: تضل العقاص وهو جمع عقصة ... [78].

ومثـــل هذه الأقوال ترد في شـــرح قصائد النابغـــة [79] وزهير [80] وعنتـــرة [81]، ويضاف إليهـــا كثير من الملاحظات في شـــرح القصائد الأخرى. وهذا الشـــرح قد يكون من شرحه للقصائد السبع بالذات أو أنه الشـــرح المواكب لروايته لشعر الشـــعراء الستة الذي ذكره ابن خير في خبره عنه. والاحتمالان ممكنان والمؤكد أن القالي كان مهتما بشرح وتقريب هذه القصائد المتميزة.

ومن الذين ذكر أن لهم محاولة في شـــرح القصائد السبع، ابن جني (ت 392هـــ) [82]. وهـــو أيضا مـــن الذين خاضوا غمار الشـــروح، فمن المشهور له كتاب «الفسر» في شرح ديوان المتنبي [83].

ويدخل أبو زيد القرشـــي صاحب كتاب «جمهرة أشـــعار العرب» ضمن متأخري شـــراح هـــذا القرن - الرابـــع الهجري - مع قيـــام إمكانية كونه مـــن رجال القرن الخامس. وقد تعرض في كتابه للقصائد السـبع ســواء فـــي مذهباته أو مجمهراته، فحق له أن يســلك ضمـــن الذين أعاروا هذه القصائد اهتماما، مع ملاحظة أن صاحب «الجمهرة» شـــخصية مجهولة، أثارت شخصيته وعصره جدلا واسعا بين الباحثين، والذي نطمئن إليه أنه من رجال القرن الرابع، كما أن شرحه يقوم أساسا على النقل الحرفي من ابن النحاس إضافة إلى أخذه من ابن الأنباري، وقد فصلنا القول في هذا الشرح فـي دراسة مستقلة انظرها هناك [84].

الشروح بعد القرن الرابع

وتتوالى الشـــروح وتكثـــر أعدادها، وإن اعتمد أكثرهـــا على الأصول الســـابقة الذكر، تســـتمد منها المعلومات وتدور في فلكها اقتباسا أو نقلا كاملا، ولا نعدم من بين هذه الشـــروح بعض المحـــاولات المتميزة، نجدها مثلا عند بعض الأندلســـيين من مثل الأعلم الشنتمري (ت 476 هـ) وأبي بكر البطليوســـي (ت 494 هـ) في شـــرحيهما على شعر الشعراء الستة، ولنـــا وقفة معهما حين الحديث عن الشـــروح التعليميـــة، وقد ذكر كذلك أن البطليوســـي قد شـــرح المعلقـــات، ولم يرد هذا الخبـــر إلا في ترجمة مقتضبة له في البغية [85]. ولعل المقصود به هو كتاب الشـــعراء الســـتة. ومن الشـــخصيات المتميزة في دنيا الشـــروح الزوزني: الحسين بن أحمد الزوزني (ت 486 هـ) ولـــه فصل خاص قادم. ومن رجال القرن الخامس أيضا أحمد بن عبدالله بن سعيد الأنصاري [86].

أما من جاء بعد هؤلاء فهم نقلة أو ملخصون من مثل التبريزي (ت 502هـ)، وهو خير من يمثل هذا الأسلوب في شرحه المشهور للقصائد العشر، ويتابعه تلميذه موهوب الجواليقي (ت 540هـ) في كتابه «السبع الطوال بغريبها».

وقد ذكر لأبي البركات كمال الدين بن الأنباري (ت 577هـ) شرح على السبع الطوال [87]، وليس بين أيدينا نص لهذا الشرح حتى نتأكد من نسبته إليه، فقد يكون هناك خلط بين شرح أبي بكر بن الأنباري، تماما كما نسب شــرح الأخير إلى والده القاسم بن الأنباري، على كل حال الحكم في هذا هو أن نعثر على نسخة خطية يكون منطوقها فاصلا.

ومن رجال القرن السادس أيضا محمد بن خلف بن محمد بن عبدالله بن صاف اللخمي (ت 586هـ) وله شــرح الأشــعار الستة [88]. وواضح أنه شــرح للنص المعتمد عند الأندلسـيين المنحدر عن الأصمعي، واهتموا به شرحا وتفسيرا.

وفـــي القرن الســـابع نلتقي عليَّ بـــن عبدالله بن ناشـــر الوهراني (ت 615هـ) الذي ذكر له كتاب «شــرح المعلقات السبع وإعرابها» [89]، وبجانب هذا الكتاب نذكر «أخبار الشــعراء السبعة» [90] لأبي يحيى حميد الحلبي (ت 630هـ)، ولا نعرف هل اقتصر كتابه على أخبار الشعراء السبعة أو أنه أورد شرحا لقصائدهم.

وبين أيدينا من الشـــروح المتأخرة شــرح حرره أبو عمرو زكريا بن أبي جعفر محمد بن القم الكموني يعود تاريخه إلى سنة (617هـ) [91]. وظاهر العبـــارة يوحي بأن أبا عمرو هذا هو صاحب هذا الشـــرح، ومهما يكن من أمر، فهو شرح بســيط مختصر في أغلبه، ويعتمد على الشروح المشهورة، ويـــردد مقولات متعارفـــا عليها مـــن دون أن تبرز له شـــخصية أو تتضح ترجيحاته، وهو يكتفي بالســطور القليلة في شـــرحه، وإذا أطال فإطالته آتية من نقل خبر طويل ســبق أن ورد في أحد الشـــروح القديمة المعروفة، أما الصفة الغالبة على شرحه فهي الاختصار، مثلا شرحه هذا البيت:

كأني غداة البَيْنِ يومَ ترحلوا   لدى سَمُراتِ الحيِّ ناقفُ حنظل

«السمرات واحدتها سمرة، وهي شجرة، والناقف الذي ينقف الحنظل فتخرج حبه، والذي يكون ذلك تدمع عيناه فشبه بكاءه بسيلان الدموع من عين هذا الناقف، ويقال إن هذا البيت ليس له والله أعلم» [92].

ومثال آخر:

يَميناً لنعمَ السيدان وُجِدتُما   على كُلِّ حالٍ من سحِيلٍ ومُبرَمِ

«يقول: أقسمت بالبيت الحرام أنهما نعم السيدان. السحيل غير مفتول وهذا مثل يقول: ألفيتما السيدين في حال الشدة والرخاء والله أعلم» [93].

ونلاحظ أنه بعد هذا البيت يسهب في شرح «عطر منشم»، ناقلا أكثر الأقوال المشهورة. وعلى هذا النهج يسير في شرحه.

إن الشروح المتأخرة في أغلبها الأعم تعتمد على الأصول الأولى، فهذا أبو عثمان بن عبدالله التنوخي يقوم شرحه على أساس شرحي ابن النحاس والزوزني [94]. بينما يتولى عبدالكريم بن عبدالرحيم بسط شرح الزوزني [95].

ومن المتأخرين كمال الدين الدميري (ت 808هـ) صاحب حياة الحيوان [96]. وأحمد بن الفقيه محمد بن أبي بكر الذي ألف كتابه سنة 828هـ [97]، وكذلك محمد بن بدر الدين العوفي (ت 833هـ) وكتابه «تحفة اللبيب»، وشرح فيه قصائد كل من امرئ القيس وزهير وطرفة [98].

وتتوالى بعد ذلك أسماء الشراح منهم: عبدالله أحمد الفاكهي (ت 972 هـ) ومحمد بن علي بن فضل الطبري الذي ألف شرحه بين عامي (1155 - 1157 هـ) وأحمد بن محمد بن عبدالكريم الموسوي، وقد أرخ شرحه سنة (1273هـ/ 1856م) وأحمد بن محمد بن إسماعيل المعافي النحوي، وأتم شرحه سنة 1287هـ، وعلي بن علي الصافيبوري المطبوع شرحه بالهند سنة 1291هـ، وكتاب «رياض الفيض» للفيض السهارنبوري القرشي الحنفي سنة 1299هـ/ 1881م [99]، وشرح محمد بن محمود بن محمد السكان [100].

أما جهود رجال القرن العشرين في شرح هذه القصائد فحصرها صعب لكثرة ما قيل وكتب عن هذه القصائد السبع، سواء بشكلها التام والكامل قصائد سبعا أو عشرا، أو باختيار بعض القصائد والتعليق عليها، وقد تغيرت كذلك طبيعة النظرة للشرح والتفسير كما سيتضح في فصل قادم.

لكن الاهتمام بهذه القصائد في صورتها المنحدرة إلينا، وعلى النهج القديم، وجد صداه عند أصحاب الاتجاه الإحيائي للتراث العربي الذين اهتموا بهذه القصائد وشرحها اختيارا وتقريبا وتسهيلا عن الشروح القديمة، خاصة إذا راعينا مقتضيات الهدف التعليمي في هذا الموضوع،

ولنا هنا أن نشير إلى شرح محمد بدر الدين أبي فراس النعساني «نهاية الأرب من شرح معلقات العرب»، وكذلك شرح أحمد بن الأمين الشنقيطي والذي أسماه «شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها»، ومثله كتاب «رجال المعلقات العشر» للشيخ مصطفى الغلاييني (101). وإذا كان هذان الشرحان يمثلان جهود بواكير القرن العشرين، فإننا نجد في الثلث الأخير منه من حافظ على هذا الشكل نلمسه في نشرة فوزي عطوي للمعلقات العشر سنة 1969م، وتبعه بكري شيخ أمين في كتاب «المعلقات السبع» سنة 1974م (102).

في السياق نفسه، تأتي محاولة طلال حرب وكتابه: «الوافي بالمعلقات» (1993)، وفيه يجمع بين البحث التاريخي حول حقيقة المعلقات، والقضايا التي سبقت إثارتها حول قضاياه التاريخية، مرورا بالإشارة إلى منهج الشراح - ابن الأنباري وابن النحاس و الزوزني فالتبريزي - لينتقل إلى دراسة بنية المعلقات، وبخاصة وظائفها وموضوعاتها وألفاظها تحقيقا لهدفه الذي أشار إليه وهو تقديم دراسة لها «كقصائد وكوحدة كاملة ذات مزايا خاصة» مستعينا بالدراسات الحديثة (ص 8) (103). يهمنا ونحن في ختام هذه الرحلة التاريخية أن نتأنى قليلا في وقفتنا الأخيرة، مع عبدالملك مرتاض في كتابه «المعلقات: مقاربة سيمائية/ أنثروبولوجية لنصوصها» (104)، وقد انطلق متسقا مع النظريات الحديثة مكملا ما سبقه إليه أحمد الحوفي بتناول الشعر الجاهلي على اعتبار أنه تعبير عن الحياة، وربطه بالعصر والمجتمع والناس من حيث هم ناس عاشوا وعبروا بعيدا عن تجريد النص ورفعه بعيدا عن عالمه ونزعه منه، ليصل بعد ذلك إلى التناول الأسلوبي.

وعنوان الدراسة دال على توجهها الذي ينتمي إلى النظرات الحديثة للمعلقات، استفادة من المناهج الحديثة، وهي قراءة، كما وصفها، تنهض على منهج مركب من الأنثروبولوجيا والسيمائية، وهو معني بدراسة الحيز الجغرافي وتحليله ومحاولة فهمه، فهو وسط تجري فيه الحياة بدائية، وتقوم العلاقات بين الناس على أساس رابطة القربى، ومن ثم فدراستها تندرج ضمن حقل الأنثروبولوجيا، ويتناول جماليات

الحيز الطللي، مصنفــا إياها من حيث دلالتها على المياه والأمكنة، وأن أصحاب المعلقات يشتركون في ذكر أمكنة بأعيانها، مما يدل على وحدة الثقافة، كما يشتركون في ذكر أحياز كثيرة تختلف من معلقة إلى آخرى والاشــتراك في ذكرها، والحرص على ســردها بســبب وحدة الخيال ووحدة التقاليد الشعرية.

ويحلل، مثلا، الحيز المائي، ليس على أســاس ما يعتقد من أسطوريته، لكن على أســاس ما اعتقد الناس من صدق واقعيته. وفي تناوله لطقوس الماء في المعلقات يصادف الباحث مجازات كثيرة تدل على العناية الشديدة بالمطــر، فيؤكــد أنه ليس هناك مــن ينكر أن المطر فــي عامة المجتمعات البدائية، ومنهــا المجتمع الجاهلي، يرتبط بطقوس فولكلورية، وبمعتقدات وثنية، وربما بمعتقدات دينية صحيحة كســنة الاستســقاء التي يمارسها المسلمون كلما ألح عليهم الجدب وشحت الأمطار في موسم الزرع، بيد أن هذه الفكرة ينبغي لها ألا تطفح فتفيض فتغرق كل ما حولها من المعقولات، منكرا على بعض الدارســين العرب المعاصريــن الذين أرادوا أن يؤولوا كل شــيء تأويلا أســطوريا في الحياة الجاهلية، مصطفــى ناصف مثلا، في تحليله لوصف امرئ القيس للمطر.

إن الباحث يرى أن ما ورد في هذا الشعر ما هو إلا صورة شعرية مادية بريئــة مما حملت إياه من هذه المعتقدات والروحيات والرهبانيات، ومن ثم علينــا، حين نقبل برأي مصطفى ناصــف، أن نرفض النصوص التاريخية التي تبدو موثوقة، ونقبل بمجرد قراءة تأويلية لنص شــعري. ويفصل بعد ذلك في هذه النقطة معتمدا على المعطيات التاريخية والفنية.

ويتنــاول نظام النســج اللغوي في المعلقــات معتمدا على الأســلوبية باعتبارهــا الإجراء الذي يضبط ســطح النظام النســجي للكلام، إما في نص من النصوص وإما في مجموعة من النصوص تشــكل أدبا برمته، في عصر من العصور، وعبر لغة من اللغات، متفهما في الوقت نفسه معطيات البلاغة العربية، ناظرا إلى الجملة في سياقها، متجنبا فصلها عنه، فيحلل أطرافا من النص المعلقاتي، مراعيا الأدوات البلاغية في إطار النص العام، لا في جزئياته التي تمزق النص.

ويعرج إلى ما أسماه بعذرية اللغة ووحشية النسج، ناظرا إلى اللغة الإفرادية، ويلاحظ الانزياحات النسجية من مثل تقديم المفعول على الفاعل مثل:

في ليلة كفَرَ النجومَ غمامُها

محللا بنية النص ومؤولا بعض ما فيه سيماءَويا لا نحويا.

ويتابـع تفصيلات هذا النهج بالنسـبة إلى الأنواع البلاغية من نسـج لغوي بالتشـبيه، فينظر مثلا إلـى المحاور الثلاثة التي تتنازع التشـبيهات عند امرئ القيس وهي: البياض، واللمعان، والنضارة، والصفاء، وما في حكمها. ثم الحركة والتبختـر والاهتـزاز وما في حكمها. ثـم الطول والاعتـدال والنحافة والرقة والاسـتواء، ضاربا أمثلة على ما يقول. وينتقل الى النسـيج اللغوي في المعلقات بين نظام الفعل ونظام الاسم، مشيرا إلى أن النسج الشعري يهيمن عليه النظام الاسـمي لدى عامة المعلقاتيين، بينما يغلب لدى زهيـر النظام الفعلي. ويتناول التناص الاسمي والفعلي وتناص المضمون ضاربا أمثلة كثيرة على هذا الجانب.

ويختم بالحديث عن جماليات الإيقاع، معرجا على الصورة الأنثوية للمرأة في المعلقات، فيعيب الإسـراف فـي الذهاب إلى رمزيتها أو واقعيتها، ويرى أنـه تناول المرأة الجاهلية تناولا جديدا يقـول: «بمنهج ركبناه، في مجازات متعددة منه: من السـيمائية والأنثروبولوجيا معا، وذلك ابتغاء الكشـف عن وضـع المرأة في المجتمـع الجاهلي، ونظرة الرجل إليهـا، وهي النظرة التي كانـت تقوم، في الغالـب، على اعتبار أنثويتها وأنوثتهـا جميعا، وليس على اعتبار أنها كائن إنساني عاقل. متوخيا التقاط الأبيات التي تحمل دلالة ما: إما سيماءوية، وإما أنثروبولوجية».

ويفـرق بين رمزيـة المرأة في مواضـع معينة، وواقعيتهـا في كثير من المواقع الشـعرية، بينما الرمزية ربما تبرز أهميتها فيما يذكر في الطلليات والمطلعيـات، ولا يُقبَل تعسـف في المذهب، وتكلف في الـرأي، ومغالاة في التأويل واعتبار أسـماء النساء لم تكن إلا مجرد رموز في الرموز، وأساطير في الأساطير. وفي هذا إنكار لوجود المرأة في الحياة.

ويرى أيضـا ان المحدثين – وخصوصا المعاصريـن الحداثيين – من النقاد لم يفتأوا يتأولون التأويلات، ولم يبرحوا يذهبون في ذلك المذاهب حتـى تعسـفوا، فعدوا طـور المعقول، وينظـر فيما ذهب إليـه إبراهيم

عبدالرحمن وعلي البطل من أن صورة الحيوان في الشعر الجاهلي التي «تتبئ بأصول أسطورية قديمة كالثور الوحشي، وحمار الوحش، والظليم، والناقة، والحصان، وهي من المعبودات الأساسية القديمة» يندرج ضمن هذا المنظور. ويقول وقد رأينا من خلال ما ذهب إليه الدكتور البطل أن كل حيوان كان مقدسا لدى أهل الجاهلية: ابتداء من الثور الوحشي، إلى الظليم، والناقة، والحصان. وهو مذهب من الصعوبة الموافقة عليه، لأنه لا يستند إلى نصوص موثوقة، ولا إلى منطق مقبول، إذ لو أن العرب كانوا يعبدون هذه الحيوانات كلها، حقا، لما اصطادوها، ولما أكلوها، ولامتنعوا عن امتطائها في تظعانهم، ولكانوا عفوا عن تسخيرها في حياتهم الاقتصادية والحربية.

من الحق القول إن هذه الدراسة جاءت متوازنة في الطرح، انطلقت حاملة في ثناياها رؤية مستندة إلى معطيات تراثية صالحة، وثقافة حديثة ثرية.

وهكذا يظل نص هذه القصائد السبع أصلا عزيزا اتفقت حوله الأذواق، ووجد فيه الدارسون ذخرا لكل مجتهد.

2

نظرات تعليمية: شروح الدواوين

▲

«الإحساس بالنص ومفرداته وصوره، والتعليل المعقول، مع وضع يد القارئ على هذه اللمحات المضيئة في النص، **كلها** سبل تصب في مجرى الفهم والتذوق»

المؤلف

الشروح التعليمية

رسخ في يقين الأجيال المتعاقبة من المهتمين بالثقافة العربية الإسلامية أن الشعر الجاهلي هو الأساس الأول للثقافة اللغوية والأدبية، ففيه مصدر اللغة الأول وصفاؤها، وهو محل الإفادة الأدبية للأجيال التالية، لذلك كان الانصراف أولا إليه قراءة ودراية.

ولما كان تراكم الزمن وبُعد هذا الأصل زمنا عن هذه الأجيال اللاحقة جعل إدراك معانيه يعسر على المتأخرين، وبخاصة أولئك الذين بدأوا يدرجون في سلم المعرفة الأدبية واللغوية، فقد سعى العلماء والمربون والمعلمون ومن يقوم مقامهم إلى تقريب هذا الشعر وتنقية معارفه الكثيرة والمتشعبة في إطار معقول يتيح للمتعلم إدراك الأسس الأولية لهذا النص الشعري.

انعكس هذا الهدف التعليمي بمعناه السائد آنذاك والداعي إلى تشرب الثقافة العربية القديمة وطبيعة المتعلم والقائم بها، على نوعية التأليف، فطبيعة المتعلم لم تكن كما في المراحل الأولى حيث حلقات التعليم ضمن فئة من الذين لازموا العالم المتحدث الذي يلقي درسا عاما غير محدد لسن معينة أو لطائفة محددة معروفة قدرتها على الاستيعاب والفهم، بل هو عالم يحدث الناس في المسجد بما وسعته الطاقة والعلم، أي هو حديث لعامة المثقفين بمن فيهم من طلبة العلم، وقد يصطفي المتحدث مجموعة من الطلبة يمثلون امتدادا طبيعيا لاتجاهه الفكري أو آرائه الخاصة.

وعاصر هذا النوع من التعليم بعض الكتاتيب التي تعلم المبادئ من العربية وما يحيط بها من معارف، وهذه مرحلة تمهيدية للدخول إلى دنيا المسجد الرحبة. وهذا ما نلمسه في نص الشافعي حين قال: «كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني في الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم فكان المعلم أن رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن ودخلت المسجد، كنت أجالس العلماء» [1].

فهذا النص يقدم لنا مرحلتين من مراحل التعليم إحداهما بسيطة أولية تهتم بالتعليم المباشر والأولي فقط، يتجاوزها الطالب إلى محيط واسع يسبح فيه وسط مجموعة من العلماء في المساجد من محدثين وأدباء ومفسرين. ولا شك في أن هناك هوة بينه وبين عالم الكتاتيب البسيط. لذلك نشأ وسط جديد يجمع بين علم العالم وفهم المتعلم، فهو وسط لا يوجه علما لكل الناس بل يخاطب عددا معينا من الطلاب أو طالبا بعينه يقوم منه مقام المؤدب الدائم، كما لمسنا عند الخلفاء والأمراء والأغنياء حين اتخذوا لأولادهم معلمين خاصين.

هذا التعليم الخاص هو الذي دفع بعض العلماء إلى تنظيم معلوماتهم بحيث تكون سهلة الوصول إلى طلاّبهم، وهذا ما لاحظناه عند المفضل الضبي الذي اختار مجموعة من القصائد الجاهلية لتكون بين يدي المهدي حين كان يقوم على تأديبه [2].

وقد ساهمت هذه الطريقة في وضع كثير من الكتب والمؤلفات التي حوت علم العلماء لهدف تعليمي خاص. وينتظم هذا الخط في منتصف القرن الخامس وفي سنة 459 هـ حيث تم بناء المدرسة النظامية [3]،

التي يمكــن اعتبارها مرحلة بارزة في تاريخ التعليم عند المســلمين، وهي مرحلــة تالية للكتاتيب، وتجمع بين طبيعة المتعلم وعلم العالم. ولذلك نجد أن شــروح الشعر في هذه المرحلة ارتبطت بحاجة الطلبة ولم تقتصر على طالب معين.

ويوضح التبريزي - أحد أساتذة المدرسة النظامية - العلاقة بينه وبين طلبته وتلمســه لحاجاتهم ورغباتهم العلمية، فيذكر في مقدمة «الحماسة» أنــه قد شــرحها أولا على الطريقــة القديمة حيث يأتــي بالنص أولا ثم الشرح. ولكن طلبته سألوه أن يفسر الأشعار بيتا بيتا، ليسهل عليهم معرفة ما يشكل في كل بيت فاستجاب لهم. فهذه المقدمة بيَّنت حاجة طلاب هذه المدارس العليا إلى هذه الشــروح لأنهم لم يكونوا في مســتوى يســمح لهم بفهم الأشعار من دون تفسير وافٍ.

ونلاحظ كذلك أن التبريزي في مقدمات شــروحه يشير إلى أن هناك من يسأله الشرح والتفسير والاختصار. وقد سجل هذا في مقدمة شرحه لـ «المفضليات» وشرحه للقصائد العشر. ومثل هذه الإشارات تدل على أن ذلك العصر أصبح في حاجة ماسة إلى هذه الشروح [4].

كانت شروح الشعر الجاهلي قبل ظهور هذه الحاجة التعليمية تنحصر مهمتها في إيراد كل ما يتعلق بالنص من معلومات لغوية وتاريخية وبلاغية مع إيراد الخلافات حول رواية النص وتفســيره وفق كل رواية، مع الإطالة والإسراف في عرض الخلافات الدقيقة التي هي جزء من علوم أخرى مثل النحو والصرف والتاريخ، لا لشــيء إلا لوضع النص وقد اكتملت حوله كل أطراف النقاش يتلقاها العالم المتابع والقارئ المتمكن.

وقــد ألقت بعــض الاتجاهات المختلفة - واللغويــة على وجه أخص - بظلالها على هذه الشروح، فأصبح النص الجاهلي مركزا تدور حوله علوم اللغة والتاريخ والأدب.

ولهذه الطريقة محاســن كثيرة لا يمكن إنكارها، ولكن هناك، من زاويــة أخرى، فئة تتجــه حاجاتها أولا إلى فهــم النص مع أقل قدر ممكــن من المعلومات المفيدة المتصلة بالبيــت، وهؤلاء هم طلبة العلم وعامة المثقفين.

وقـد لمس بعض الشـراح هـذه الحاجة فبذلوا جهدا في تيسـيرها مبتعدين عن منهج أولئك الذين أطالوا وأسرفوا على نحو ما نرى في قول التبريزي: «وبعض الشروح يذكر البيت وما يتعلق به وما لا يتعلق به، وإيراد ما لا يحتاج إليه البيت» (5).

لذلك قامت الشـروح التعليمية لسـد هذه الحاجة مع وضوح الهدف المطلـوب واتحاد وجهته، وقد اتضحت غاياتهـم من خلال التصور الأولي الذي رسـموه وبينوه في مقدمات شروحهم، فهذا الأعلم الشنتمري يقول: «وشـرحت جميع ذلك شرحا يقتضي تفسـير جميع غريبه، وتبين معانيه، وما غمض من إعرابه، ولم أطل في ذلك إطالة تخل بالفائدة، وتمل الطالب المتلمـس للحقيقة، فإني رأيت أكثر من ألف من شـرح هذه الأشـعار قد تشاغلوا عن كشف المعاني وتبيين الأغراض بجلب الروايات، والتوقيف على الاختلافات، والتقصي لجميع ما حوته اللفظة الغريبة من المعاني المختلفة، حتى إن كتبهم خالية من أكثر المعاني المحتاج إليها، ومشتملة على الألفاظ والروايات المستغنى عنها، وفائدة الشعر معرفة لغته ومعناه...» (6).

ومثل هذه الحاجة يلمسـها البطليوسي في شرحه، فالشعر الجاهلي، كما يـرى، محل حفظ الناس، لذلك يقول: «وليس للشـعراء المحدثين من الألفاظ المرتفقة والمعاني المسـتغلقة ما للجاهليين في أشـعارهم، على أن الناس لا يحفظون ابتداء إلا إياها ويهملون الاستفسـار عن معناها، وإنما ذلـك لعدم علم القائم بها من العلماء لاسـيما في زماننـا هذا، وقد قال الجاحـظ: «والزمان زمان طلبت علم الشـعر عنـد الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه، فسألت الأخفش فلم يعرف إلا إعرابه، فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينفذ إلا فيما اتصل بالأخبار، ولم أظفر بما أردت إلا عند الأدباء الكتاب كالحسـن بن وهب وغيره، وقد سألت شرحها وتقريبها وتلخيصها وتهذيبها .... وكل ما ذكرته في هذا الشـرح فمن كتب العلماء أخذته ومن مكنون أقوالهم استخرجته» (7).

إن هذا الهدف الواضح لهؤلاء الشراح هو الذي حدد منهجهم التعليمي فانعكسـت هذه الدوافع عليه، ومع أن هذا الهدف ينظم هذه الشروح كلها فإن النظرة الخاصة وطريقة كل شرح ميزت فيما بينها، فأمكن إكساب كل

شرح صفة خاصة يعرف بها، فانعكست هذه على مفردات الشرح وطريقة عرض الأبيات وشرحها وأعطته ملامح وخصوصية بالنسبة إلى غيره من الشروح التعليمية، لذلك يمكن النظر إلى الشروح التعليمية ضمن ثلاثة اتجاهات رئيسية تحت إطارها التعليمي، وهي:

أ- المنهج التعليمي الفني.

ب- المنهج التعليمي اللغوي.

جـ- المنهج التعليمي التلفيقي.

ونحن لا نرغب في القول إن هذه الفروق تمثل مناهج ذات رؤية محددة المعالم تقف خلفها فلسفة تعليمية أو نقدية، فإنها أبسط من هذا بكثير، فهي لا تزيد على أن تكون اجتهادات فردية وفروقا بين شارح وآخر. ونلاحظ أن أصحاب هذه الشروح الذين قسّمناهم إلى فئات يلتقون فيما بينهم، خاصة أصحاب الاتجاه التعليمي اللغوي والمنهج التلفيقي، والجامع بينهم هو أنهم ينطلقون ويعتمدون على الأصول نفسها، أما الفارق بينهم فهو أن أصحاب الاتجاه الأول - اللغوي التعليمي - أكثر حرية واجتهادا، فهم يعتمدون على من سبقهم من العلماء - وهذا أمر طبيعي لمن يتصدى للتعليم - ولكنهم من جهة أخرى يعتنون بالاختيار ولا يتحرجون من الحذف وإعادة الصياغة؛ فيأتي الشرح وقد مر بعملية تصفية كاملة تكسبه صفة خاصة.

أما أصحاب الاتجاه الأخير - التعليمي التلفيقي - فإنهم يكتفون باختيار الشروح التي تخدم غرضهم فيختصرونها أو يوفقون بينها مع خضوع تام لهذه المراجع، فيأتي الشارح بالكلمات نفسها؛ لذلك فمن الصعب أن نعتبر هذه تأليفا بل إنها في أحسن حالاتها مختارات من شروح سابقة .

ويتميز أصحاب الاتجاه الفني بأنهم أقرب إلى غاية التعليم الفنية، حيث النص عندهم هو الأصل الذي يدور حوله الكلام، موضحين أهم ما فيه بأقرب أسلوب وأدقه وأكثره اقترابا من روح النص وتوضيح أبعاده التاريخية من دون إسراف، فالتوازن سمة من سمات هذا النوع من الشروح التعليمية، فالشرح وسيلة مناسبة للفهم يقوم بدوره في حالة معقولة ومقبولة.

وقبــل الدخول في الحديث عن هذه الاتجاهات الثلاثة نشــير إلى أن خير من يمثل الاتجاهين الأولين - التعليمي الفني والتعليمي اللغوي - هما الأعلم الشنتمري للأول، والبطليوسي للثاني، وهما ليسا من شرّاح القصائد الســبع في صورتها التقليدية، فقد شمل شرحهما لدواوين الشعراء الستة عددا من القصائد الداخلة ضمن القصائد السبع، بل أهمها، بجانب دراية وفهم دواوين الشــعراء الســتة، لذلك كان الحديث عنهما يمثل اســتكمالا ضروريا لهذا البحث، وإلا لانفرط العقد بسقوط حلقتين أساسيتين منه.

* * *

أولا: المنهج التعليمي الفني: الأعلم الشنتمري (410هـ - 476هـ)[8]

إن المنهج الذي رســمه الأعلم لشــرحه تتضح خطوطــه من مقدمته، وتتأكد ســماته في المتن، ففيهما نلمس القصد الأول، إذا كان «أهل الشعر أقدر على تأليف الكلام، وسرد النظام»، فإن الشعر الذي يقدمه يعين على التصــرف في جملة المنظوم والمنثور. وقــد اقتصر في اختياره على القليل لأن شــعر العرب متشــابه الأغراض ومتجانس المعاني والألفاظ، فهو إذن النموذج الذي يقدمه والذي أجمع الرواة على تفضيله.

ويتبع الاختيار في النص الذي دار حوله الشــرح تحديد لطبيعة شرحه وهدفه، ويجمله في هذه الســطور: «وشــرحت جميع ذلك شرحا يتقصى تفســير جميع غريبه، وتبيين معانيــه، وما غمض من إعرابه، ولم أطل في ذلــك إطالة تخل بالفائدة، وتمل الطالب الملتمس للحقيقة». وبعد أن يعيب على الشــرّاح إسرافهم وتجاوزهم هدف الشرح من حيث هو خدمة للنص، نجده ينص على أن «فائدة الشعر معرفة لغته ومعناه»؛ لذلك يقول: «فسرت جميع ما ضمنته هذا الكتاب تفسيرا لا يسع الطالب بجهله، ويتبين للناظر المنصف فضله».

من هذه المقدمة يضع الأعلم أمامنا ســتة ملامح رئيسية تنظم شرحه، أولهــا: اهتمام بجلاء وتوضيح معنى اللفــظ الغامض على طلابه وقارئيه وهذا يســتدعي «تفســير جميع غريبــه». وثانيهــا: إدراك جوانب المعنى وفهمــه، فاختــراق حاجز اللفظ يؤدي إلى الإحاطة بــه، أما الملمح الثالث

فهـــو: الاهتمام بالغامض من الإعـــراب، «وليس هذا درس إعراب إنما هو شـــرح للشـــعر، وهذا يعني الاقتصار على أقل القليل وما لا تتضح الصورة إلا بجلائـــه، أمـــا الرابع: فالإيجـــاز من دون إخلال أو إمـــلال في النقاط السالفة الذكر، فلا يريد الإسراف في الروايات أو التوقف عند الخلافات، وتقصـــي معاني الغريـــب. وهذا كله يضعه ضمن كلمـــة جامعة لعلها تمثل الملمح الخامس، حيث إن خطته تهتم وتؤكد أن «فائدة الشـــعر معرفة لغته ومعناه». فهو يهتم بالتناســـب بين الهدفين من دون أن يكون للفظ وقضاياه الغلبة أو الانصراف إلى المعنـــى من دون إدراك حدود اللفظ ودوره وأثره، فالتناسب أساس من أسس خطته.

ويختم مفردات خطته بأن شـــرحه لن يكـــون للطالب فقط أو يخاطب العالم به فقط، ففيه حاجة المبتدئ بحيث «لا يسع الطالب جهله»، وهو في الوقت نفســـه محل للناظر المنصف حيـــث يتبين فضل هذه القصائد، فهو حقا «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

هـــذه هي بنود خطته، وهذا هو التصور النظري لها، وليس ضرورة أن تتوافر هذه الملامح كلها في شـــرح كل بيت، فالحاجة الإعرابية مثلا قد لا تكون ملحة إلا في بعض المواضع.

وقد تكون ألفاظ البيت من السهل الميسور فيلجأ فقط إلى شرح المعنى ضمن ســـياق البيت نفســـه. وهو أحيانا يجد نفســـه مضطرا إلى الإشارة إلـــى الروايات المختلفة، فيخرج عن خط الإيجاز إلى التطويل مادام البيت يتطلبه، فهذه أمور لا تنقض أســـاس بنائه الذي أقامه، ولا يمكن القول إنه قد خرج عن خطته التي قدمها في مفتتح كتابه.

حـــين نقرأ شـــرح الأعلم نلمس بوضـــوح صدق قوله، فـــلا نجد الإفاضة والاســـتطراد، ولكننا في الوقت نفسه ندرك جوانب معنى البيت بأقل قدر من الكلمات والإشارات، فشـــرحه ملتصق به لا يغادره إلا ليعود لاستكمال الشرح حوله، فنخرج وقد زودنا بالأساس الذي نعتمد عليه في فهم النص، فلا هو مثل ابن الأنباري، كما سنرى، يســـتطرد ويوسع دائرة الأقوال فتصل إلى صفحات طويلة مفيدة، بيد أنها قد تصرف ذهن القارئ عن البيت المشروح فينساه، ولا هو كابن النحاس حيث يركز على الوجوه الإعرابية والقضايا اللغوية.

إذن هو مزيج مبسـط وخاطف للبيت الشعري ويسـاعد على إدراك أبسـط الوجوه وأقربها إلى النص ومسـاره العام. وهو أحيانا يورد المعنى الآخـر مـادام قريبا أو يحتمله منطوق النص؛ ومن ثم يحقق هذا الشـرح حاجـة الطالب، ولا يعني هذا أن تنتفي بعض الملاحظات الذكية التي تدل على نفاذ بصيرته وإدراكه لحاجة المتعلم.

لنأخذ هذين البيتين - ونلاحظ أنه يشـرح كل بيتين معا - لنرى كيف يقرب معنى البيت إلينا من دون أن يغادر شيئا يحتاج إلى شرح، قال [9]:

كـأَنَّ حـدُوجَ المالكيَّـة غُـدْوَة خَلايا سفَينٍ بالنَّواصِفِ منْ دَدِ

عَدَوْليّة أو مِن سفَينِ ابن يامنٍ يجورُ بها الملاّحُ طَوْرا ويَهتْدِى

«الحـدوج: جمـع حدج وهو مركب مـن مراكب النسـاء. والمالكية من بنـي ملك بن ضبيعة بن ثعلبة. والخلايا: السـفن العظام، واحدتها خلية. والنواصف مواضع تتسع من الأودية كالرحاب، واحدتها ناصفة. وقيل هي مجاري الماء إلى الأودية.. ودَدِ: اسم موضع. شبه الحدوج مع الإبل بالسفن العظـام. وقال غدوة لأنه نظر إليهم عند ترحلهـم في صدر النهار، وأراد كأن حـدوج المالكية بالنواصف خلايا سـفين وإنما جمع الحدوج لأنه أراد حدوج المالكية وصواحبها.

وقوله: عدولية، نسـبها إلى قرية بالبحرين تسـمى عدولي، وابن يامن ملامـح من هجر. وقوله: يجـور بها الملاح، أي يعدل بها مـرة ويميل مرة، يهتدي ويمضي للقصد، ويجوز خفض عدولية ورفعها، فالخفض حملا على السـفين والرفع حملا على الخلايا». إن هذا الشرح المركز لا نقول عنه إنه حـوى إبداعا خاصا وتميزا واضحا، ولكنه اسـتطاع - من دون شـك - أن يحقق هدفه، فقد جلا غوامض البيت بهدوء وروية وبأوضح السـبل، فشرح ما احتاج إلى شـرح أو بيـان وحدد العلاقات واتجاهاتها فـي أداء المعنى، وكشـف أصل المسـميات، ففسـر«الحدوج» و«الخلايا» و«النواصف» وبين مفردهـا وعرف «بالمالكية» و«دَدِ». وبين التشـبيه فـي البيت، ووضح موقع ودلالة الظرف «غدوة» على الجانب الزمني فيه ثم انتقل إلى مقصد الشاعر وتوضيح ما غمض من البيت في صورة مباشـرة. «وأراد كأن حدوج المالكية بالنواصف خلايا سـفين» فهنا محاولة لتقريب معنى البيت نثريا بعيدا عن

تركيب الشعر وما فيه من تقديم وتأخير وفصل، وبعدها انتقل إلى إشكالاته اللغوية، فالشاعر قال: «حدوج» وهو جمع والمالكية مفرد، وهذا موضع سؤال متوقــع من الطالب النابه، ومحل تذكير للقـــارئ المتمكن، فكانت إجابته: إن الجمع جاء من مقصد الشاعر «لأنه أراد حدوج المالكية وصواحبها».

وينتقل إلى البيت الثاني ســـالكا الطريقة ذاتها مع ملاءمة حاجة البيت وجوانبه التي تحتاج إلى إيضاح، مشـــيرا في نهاية شـــرحه إلى احتمالين إعرابيـــين لكلمة «عدولية» التي يجوز فيها وجهان من دون أن يســـرف في التحليل ودوافع كل إعراب إلا الإشـــارة البســـيطة الكافية لشـــفاء حاجة المتسائل والمتلائمة مع روايات البيت.

ونحن نلاحظ التزامه بهدفه التعليمـــي، وإن اعتمد في أكثر معلوماته على الأصول القديمة وما ترك العلماء من اجتهادات في الخط العام، ولكن هذه كلها لا تنســـب إلى شـــخص بعينه، لأنها لصيقة بالبيت الشعري وبما يوحيه منذ اللحظة الأولى.

ويرى البعض أن شرح الأعلم هذا يعود بنا إلى أصحاب الشروح الأولى، وأنه نقلنا قرنين أو ثلاثة إلى الوراء، وأن تفسيره مسطح وضحل لا يبرز علم الشـــارح أو ثقافته أو ســـعة محصوله العلمي والأدبي أو حتى أسلوبه الفني، وأنـــه خلا من أعمـــال العقل والتفنن في العرض والتحليـــل وأنه يكاد يكون تفســـيرا للألفاظ على طريقة المعاجـــم [10]. إن الحكم لم ينظر إلى الهدف الذي قام من أجله هذا الشـــرح التعليمي، وما فيه من تنســـيق جيد وقدرة على إيصال المعنى وحل إشكالاته البسيطة بأقل قدر من الملاحظات المفيدة، ومنها يفهم النص وتدرك جوانبه من دون إسراف في الملاحظات التي تبعدنا عن هدف الشرح والتفسير، فالشرح ليس محلا لاستعراض الثقافة بقدر ما هو مجال لاســـتخدامها في الفهم، صحيح أنه يشرح الألفاظ، وهذا أساس من أسس الشرح، ولكن هذا مرتبط بالبيت ذاته، ومدخل طيب لفهمه يقدمه منسقا ويهذبه ويختار أقرب المعاني في أيسر الألفاظ وأسهلها.

إن الوقفة المبسوطة لشرح الأعلم قد لا تتيسر لنا في أدق صورها حين نختار نماذج من مواطن متفرقة، فهذه لا تكشف لنا سمات شرحه المبثوثة فـــي كثير من الأبيـــات. فهو يتفاوت بين العرض البســـيط اللصيق بالبيت

الشـعري بصورة حرفيـة وبين محاولة أخرى تجاه بيـت آخر لا تخلو من لمسات دقيقة ولفتات ذكية، معتمدا فيها على ثقافته واجتهاده أو استفادته من غيره، فهو لم يدخر وسعا في خدمة ما شرح من دواوين.

في شرحه للأبيات الأولى من قصيدة عنترة [11]، نموذجا، نلمس بعض الملاحظات التي تصدق على معظم شرحه فهي العينة التي اخترناها، لكننا قد نتجاوزها أحيانا قليلة لنعود إليها، ولنبدأ الآن بمتابعة ملامح شرحه:

1 - أكد في خطته أنه سيشرح اللفظة الغريبة تمهيد للدخول إلى البيت ومن هنا سـتكون بدايتنا. يشـرح قائلا: «قوله من متردم من قولهم ردمت الشيء إذا أصلحته وقويت ما وهى منه» فهو هاهنا يضع اللفظ في صورته اللغويـة كاملا غير منقوص، والإفاضة بعد ذلك فضول أو دخول في إطار خارج عن اهتمامنا في هذه المرحلة.

وبهذا الأسـلوب يتابع شـرح الألفاظ مثلا: «التوهم والإنـكار، يقال: «توهمت الشيء إذا أنكرته فتثبت منه وطلبت حقيقته».

وفي شرحه للألفاظ قد يتبع أصل اللفظ حتى يكون موضعه في البيت واضحـا مع بيان أصله الذي جاء منه، فيقول في قول عنترة: «أشـكو إلى سـفع رواكد جثم» والجثم اللائطة بالأرض الثابتـة فيها، وأصله من جثم الطائر إذا لصق»، وقوله أيضا في تفسـير الشادن «الغزال الذي قد شدا أي قوي على المشي مع أمه».

ويعـرض لمعاني اللفظ المختلفـة إذا كان احتمالها واردا، يقول: «يا دار عبلـة بالجواء تكلمي» وقوله بالجواء هو جمع جو وهو المطمئن من الأرض المتسـع ويقال: هو موضع بعينه «ويتحسـس اتجاه المعنى في اللفظ بدقة تلائم السـياق داخل البيت فكلمة «اسـلمي» في البيـت: «وعمي صباحا دار عبلة واسـلمي» هي دعاء لها بالسلامة، ويوجه معنى السلامة توجيها خاصا قائلا إنها سلامة «من الدروس والتغيير».

ويراعي فـي توضيحه للألفـاظ ضبطها والاحتمـال الممكن وراء كل ضبط، فكلمة «متبسم» في قوله «طوع البنان لذيذة المتبسم» يقول: «وقوله: لذيذة المبتسم أي لذيذة طعم الفم المتبسم، ويروي المتبسَم بفتح السين على أنه اسم لموضع التبسم».

فهـو إذن يسـتقصي كل مـا يتعلق باللفـظ من ضبـط ومعنى وأصل واختلافات مع اهتمام بكل الاحتمالات المكنة، وكل هذا يصبه في الشـرح المواكـب للبيت، وهذه التعليلات اللفظ والمعنـى تقرب إلى الذهن كثيرا من التعبيرات التي يحار القارئ في تعليل إصرار الشاعر عليها دون سواها (12).

وينبـه في شـرحه للألفاظ إلى الفـرق بين المعنى اللغـوي العام ومعنى اللفظ في موقعه الخاص، مثلا يشرح قوله: «بالحزن فالصمان فالمتثلـم» يقول: «الحزن ما غلظ من الأرض، وهو هاهنا موضع بعينه، وهو حزن تميم».

إن هذه الملامح العامة لشـرحه الألفاظ تكشـف لنـا كيفية تطبيقه لمنهجه الذي نص عليه وأحسـن تطبيقه، كما تكشف لنا عن نوعية هذا التطبيق أيضا.

ولنا هنا أن نشـير إلـى أن هذه الطريقة وقفت عند حدود التفسـير المباشـر سـواء للفظ في عمومه أو ضمن معناه داخل البيت عدا حالات بسـيطة ونادرة، وهـي بهذا لا تتجاوز حدا معينا فـي الدلالة. ولنا كذلك أن نسـجل ملاحظتين أساسيتين تظهران في تفسيره للألفاظ والمفردات، أولاهما: حرصه الواضح على تفسـير اللفظ من خلال جملة تحدد معناه المباشر والمتلائم مع موقعه من البيت المشروح، وهذا أقرب إلى روح الكلمة الشعرية الواردة في سياق متكامل.

أمـا الملاحظة الأخرى: فهـي أنه لا يورد الألفاظ أولا شـارحا لها ثم ينتقل إلى المعنى، بل يشـرح كل فقرة أو جملـة بمفرداتها ومعناها، وهذه الطريقة تسهل الفهم السـريع، بيد أن مخاطرها جسيمة، فهو هنا يشرح البيـت جملا مقطعة أوصالها مع أنها قد تكـون متكاملة، حتى لو تدارك هذا فيما بعد حيث يقدم المعنى كاملا أحيانا أو يشير إليه بجملته.

2 - لقـد فرغ الآن من إيضاح المعنـى اللفظي فعليه أن يتجه إلى المعنى الذي يبسطه بطريقته الموجزة نفسها. مثلا: «هل غادر الشعراء من متردم. هل أبقى الشـعراء لأحد معنى إلا وقد سـبقوا إليه»، إنه هنا يقدم المعنى الحرفي بصورته البسـيطة الواضحة ولم يأت بشيء جديد، ولكن يتدارك باسـطا مـا فيه إلى حد الإسـراف، فيوضح ما أمامه مـن تعبير، «وهذا

كقولهم: ما ترك الأول للآخر شيئا». ولكنه يتجاوز هذه الحرفية إلى بسط أكثر إحاطة وتقريبا للقصد «وإنما يريد أنه مر بالديار وقد خلت من أهلها، ودرست رسومها فلم يعرفها إلا بعد إنكاره لها وتثبته فيها».

وكما استقصى باعتدال معاني الألفاظ وغريبها، نجده لا يترك المعنى إلا بعد أن يطمئن إلى وضوحه بوضعه في سياق بأسلوبه الخاص مبينا جهته، وخاصة إذا كان المعنى يحتاج إلى مثل هذه الوقفة لطرافته أو تميزه أو غرابته، يقول في شرح معنى البيت:

عُلِّقْتُها عَرَضا وأَقْتُلُ قومَها زَعْما وربِّ الْبيت ليْس بمَزْعَمِ

«وقوله: علقتها عرضا، أي اعترضني حبها من غير أن أرومه وأتعرض له، وأنا مع ذلك أقتل قومها وكيف أحبها وأنا أقتلهم. وإنما يريد أن قومها أعداء فلا سبيل إليها، فأنكر لذلك حبه لها، فقال مخاطبا نفسه: هذا فعل ليس بفعل، وضرب الزعم مثلا، والزعم إنما هو في الكلام دون الفعل، وإنما يريد أن حبه لها ليس له ظاهر يوجبه لقتله قومها فكأنه ليس بحب. ويكون الزعم هنا على أصله، أي ما زعمت من حبك لها ليس بزعم يعضده الصدق ويوجبه الظاهر فهو غير زعم في الحقيقة والنظر...» (13).

هذا البسط لشرح البيت يعني أن الإحساس تملكه بحاجة البيت إلى مثله فنجده هنا قد فتت الجزئيات واستقصى المعنى من عدة أطراف ووسع التفسير المباشر لمنطوق النص بحيث يخرج القارئ وقد زود بأساس جيد للفهم وأزيل كل التباس أو إبهام، ويسوق هذا التفسير بتتابع مفيد لإبانة المعنى في حيز واحد.

وهذا الشرح وإن كان ظاهره متصلا بألفاظ البيت ولم يتجاوزها، فإن الأعلم جس بدقة ما في أعماق الشاعر من تنازع فعبر عن هذا بأبسط الألفاظ وأقربها إلى المعنى وإبراز المقصود. وحركة التنازع، هذه هي التي اتضحت من أسلوب الإخبار لتتلوه محادثة النفس. فهنا تغير في بناء البيت ونظامه، قال مخبرا: «علقتها عرضا وأقتل قومها»، وبعد أن يوضح بناء هذه الشطرة ومقصدها الذي تعنيه ينتقل مع الشاعر واضعا يده على النقلة الحادثة في الشطرة الثانية، فإذا كان

الحـــب والقتل متناقضين فإن الشـــاعر في انتقالـــه هذا يعبر عن هذا التناقض، لذلك أشـــار الشـــارح إلى هذه الشـــطرة الأخرى ومخاطبة الشـــاعر لنفســـه، فيكون هنا نوع من الخطاب النفســـي الذي دار في الداخل وهو الحادث فعلا.

هذه المتابعة الدقيقة في فهم المعنى تعني أنه يدرك تلك اللمســـات الدقيقة وأثرها في تبيّن قصد الشـــاعر وهدفـــه بتلمس دقيق. يقول في تفســـير «زمت ركابكم بليل مظلم»: «إن كنـــت عزمت على الرحيل والفراق فقد زمت ركابكم أي شـــدت وخطمـــت بالأزمة، وعليكم بقية من الليل، أي هذا أمر أبرمتموه وتقدمتم فيه بالليل المظلم، وإنما يعني أنهم فاجأوه بالرحيل ولم يعلم به قبل، فذلك أشد عليه وأبعث لجزعه، وهذا كقول علقمة [14]:

لم أدر بالبين حتى أزمعوا ظعنا ... كل الجمال قبيل الصبح مزموم

فهنـــا يضع يده على اتجاه المعنى عند الشـــاعر مع أثره النفســـي فيه، فإبـــرام الأمر ليلا إنما هو عنصر المفاجأة، وهـــذا بدوره يضاعف حزنه. ويجد في الشاهد الشعري خير مثال يجسد هذا الألم وأكثر إيصالا للأثر.

وهذا الوصول الجيد لهدف الشاعر هو ما يسعى إليه الشارح مستعينا بكل الوســـائل الأكثر تأثيرا وتقريبا للمعنى، موردا المعلوم والمشـــهور عند الشرّاح من قبله مثل تفسيره لقول عنترة: «ليس بتوأم» أي لم يزاحمه أحد غيـــره في بطن أمه ولا رضع معه غيره، فذلك أتم لخلقه وأحســـن لنباته [15]. مثل هذا شـــرحه لاختيار الشـــاعر «فارة التاجر» بالذات وذلك «لأنه يتربص بالمســـك إذا كان يتغير فمسكه أجود وأطيب» [16]. فهذه المعلومات وإن كانـــت من المعلوم المشـــهور وأدارها جل الشـــرّاح بحيث أصبحت من المقولات العامة المفســـرة لهـــذا المعنى، فإنها لا تزال فيهـــا طراوة قريبة ومعبرة عن مقصد الشاعر.

وحتى لا ينفرد ديوان عنترة بأمثلتنا - فهو محل الاستشـــهاد تسهيلا - نجتزئ هذه اللمسة الدقيقة التي تجس المعنى في بيت طرفة معللا جانب الحسن فيه، فيقول:

خَذُول تُراعِي رَبربًا بخَمِيلةٍ ... تَنَاوَلُ أطْرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِي

يقول: «وقوله تراعي ربربا، أي تراقبه وتنظر إليه لأنها خذلت صواحبها فهي تراقبها وتشرئب بنظرها لئلا تبعد عنها. وإنما خص الخذول لأنها فزعة ولهة على خشفها وتمد عنقها وهي منفردة فتتبين محاسنها، ولو كانت في قطيعها لم يستبن ذلك منها» [16].

واضح أن الأعلم لم يدخر وسعا - في حدود منهجه - للإحاطة المناسبة بمعنى هذا البيت واتجاهه ولفتات الحسن فيه، واضعا أيدينا على مواقع الجمال، كما حاول الشاعر إبرازها في نصه، اعتمادا على انطباعاته الخاصة في بيئته، فقد حلل البيت بدقة وأدرك مقصد الشاعر من هذه الصورة فرسمها لنا بشرحه ما وسعته الطاقة وعلله لنا من جهتين، أولاهما أنه «خص الخذول لأنها فزعة ولهة على خشفها وتمد عنقها»، فهنا أول مواطن الجمال، والأخرى أنها منفردة في هذه الخميلة، ولو كانت في القطيع لم يتبين ذلك منها.

ومثل هذه اللمسة الدقيقة نستشعرها في شرحه لقول طرفة أيضا: «كمكحولتي مذعورة أم فرقد»، فهنا يلتقط بدقة أثر كلمة مذعورة على الصورة المنشودة والمعنى المؤدي، يقول: «وإذا كانت مذعورة كان أحمد لنظرها وأبين لحسنها»، ويتابع هذه الإشارة الذكية: «والفرقد البقر وإذا كانت ذات ولد تشوقت وحدت النظر إشفاقا على ولدها» [18].

فهو هنا يؤدي المعنى كاملا مضيفا إليه فهمه الجيد لتقاليد البيئة ومفردات واستخدامات الشاعر الفنية، مع قدرة على التقاط بعض تلك اللمسات الفنية الطيبة التي أشرنا إليها مبينا أثرها في السياق الشعري، أو معللا مجيئها فيه بالذات أو لماذا خص الشاعر هذه الجهة أو هذا الجانب على الآخر.

إن هذه كلها أسس قوية من أسس الشرح الجيد سواء أكان تعليميا أم ذوقيا أم لغويا، فالإحساس بالنص ومفرداته وصوره، والتعليل المعقول، مع وضع يد القارئ على هذه اللمحات المضيئة في النص كلها سبل تصب في مجرى الفهم والتذوق.

3 - أشرنا إلى الغريب وأطلنا الحديث عن المعنى عند الأعلم، وهذان أساسا شرحه الذي سجله في مقدمته حين تبيان منهجه، ولذلك التزم به، وهي أسس ثابتة في الشرح لم يتخلف عنها، يفسر الغريب ويبين المعنى في كل بيت.

ولكن شارحنا يملك كذلك إحساسا دقيقا بتركيب البيت الشعري، بحيث يتحسس تلك التغيرات الأسلوبية من إخبار وإنشاء بفروعهما المتعددة، فهو مثلا يرى في قوله:

شَطّت مزارَ العاشقينَ فأصبَحَت — عَسِرا عليَّ طِلابك ابنةَ مَخْرَمِ

فيقول: «وقوله طلابك أي مطالبتي لك ومرامي إياك، وخاطبها بقوله طلابك بعد أن أخبر عنها في صدر البيت، وهذا في الكلام والشعر كثير» [19]. الشارح هنا لم يفسر شيئا سوى الإشارة التي توحي بانتباهه لهذه النقلة غير غافل عنها ومدرك لشيوعها في الشعر والنثر، ولكنه ترك القارئ من دون أن يشرحها له، والشارح الجيد هو الذي يحسن الإشارة أولا والتفسير ثانيا. ولكنه في مجال آخر قد يجتهد في التعليل حين يصادف بشبيه للمثال السابق، فمثلا في شرحه لبيت طرفة «خذول تراعي ربربا بخميلة»، لاحظ أنه يناقض سابقه الذي يقول فيه:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن — مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

فالأول مذكر والتالي مؤنث والمقصود واحد، لذلك قال: «وإنما قال خذول والخذول نعت للأنثى، وقد قال أحوى والأحوى لا يكون إلا ذكرا لأنه على طريق التشبيه فإذا شبهها بالظبي فقد شبهها بالظبية، فكأنه إذا قال كأنها ظبي قال كأنها ظبية» [20]، فهو هاهنا اتبع الإشارة بالانتقال من المذكر إلى المؤنث بتعليل واضح، بينما اكتفى سابقا بالقول إنه ورد في الشعر والنثر.

أما الجوانب الأخرى من عناصر الشروح ونعني بها النحو والبلاغة والتاريخ إلى آخر هذه العلوم، فلم تكن محل اهتمام بارز إلا في أضيق الحدود، وقد ذكر في مقدمته أنه سوف يعرض فقط لما غمض من إعراب، وقد لاحظنا في النصوص التي عرضناها مصداق هذا من دون أن يدخل في التفصيلات الدقيقة، ولا نجد عنده الميل إلى الاستطرادات واللجوء إلى الشرح المتجه إلى الإعراب مع أنه كان من الذين لهم باع طويل في هذا الميدان، وهذا آت من اتباعه هدفا محددا في هذا الشرح.

ولكننا لا نعدم بعض الملاحظات العامة التي لا تخرج عما تعارف عليه أكثر الشراح يعرضه في أخصر العبارات، وقد يقف مطولا عند بعض الملاحظات النحوية حين يكون المقام ملحا من مثل قول عنترة:

فيها اثْنَتانِ وأربَعُونَ حَلوبَة   سودا كَخَافيةِ الغرابِ الأسحَم

فقـد عرض لهذا البيت وما فيه من إشكالات يتطلب حلها للطالب المتعلم، لذلك يعرض لهذا من دون إسـراف يقول: «ويقال ناقة حلوبة وإبل حلوبة للتي تحلب: وقوله سودا حال من قوله: اثنتان وأربعون، وهو حال من نكرة ويجوز رفعه على النعت ولا يكون نعتا للحلوبة لأنها مفردة إذا كانت تمييزا للعدد وسودا جمع ولا ينعت الواحد بالجمع» [21].

وهـذه وقفة إعرابية لها ما يبررها، فهذا بيت من الأبيات التي أُشكل إعرابها وتشعبت وجهات النظر حوله عند النحاة الذين ناقشوه. وهو لا يسرف في الإعراب إلا في مثل الحالة السابقة، وهو كما نرى أيضا في حدود المعقول إذا ما قورن بغيره. وهو في الأغلب الأعم يشير إلى جانب واحد يختاره ويعرضه من دون تفصيل. وقد يعرض أحيانا للخلافات النحوية بين المدارس المختلفة، وهذا في حالات نادرة جدا، فمثلا في قول امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى   بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

يقـول: «... والواو في قوله: وانتحى زائدة عند الكوفيين، وهي عند البصريين للعطف وجواب لما محذوف لعلم السامع» [22].

وهذه الملاحظات لا تمثل ملمحا بارزا في شرحه، مثلها مثل مجموعة من الإشارات إلى معارف العرب القديمة والتنبيه على المقولات التاريخية المفسرة لبعض الأبيات أو المواقع المرتبطة ببعض الأبيات، وهو ما شاع في أكثر الشروح بحيث يمكن اعتبارها من مستلزمات كل شرح في حدود معقولة.

ومن وسائله المقربة لمعاني الأبيات استخدام المقارنة من خلال بعض الأبيات المقربة للمعنى. وطريقة إيرادها إنما لتوضيح معنى البيت الكلي أو إحدى الجزئيات، لغوية كانت أم صرفية، أو لترجيح معنى وتعضيده وهكذا، يشرح مثلا معنى «وتقصير يوم الدجن»، في قصيدة طرفة، فالتقصير هنا باللهو، والعلة في هذا أن «يوم اللهو والسرور وليله قصيران ولذلك قال الشاعر:

فيومٍ مثل سالفة الذباب [23]

وقال النابغة في ضد هذا:

من أجل بغضائهم يومٌ كأيّام (24)

فالشاهد الشعري هنا جاء ليقدم غرضين، أولهما أنه جعله نظيرا للبيت المشروح موضحا فيه المعنى المراد مجسدا قصر اليوم، والآخر جعله نقيضا لمعنى البيتين.

وقد يأتي- أحيانا - بالشاهد لأنه يماثل بيت الشاعر في إحدى الصفات العامة من مثل صفة التفرد فيشير إلى التشبيه الذي ساقه طرفة في بيته القائل:

وجُمْجَمة مِثْلُ العَلاةِ كأنمًا ... وَعَى الملتقى منها إلى حَرفِ مِبرَدِ

فبعد أن وضح المعنى أورد قول الأصمعي من أنه: «لم يأت بهذا التشبيه غير طرفة كما لم يقل أحد مثل قول عنترة (25):

غردا يسُنُّ ذراعهَ بذراعِه ... قَدْحَ المكبِ على الزنّادِ الأجذم

فإيراد الشاهد الشعري إنما هو جزء من الشرح ووسيلة مفسرة من وسائله الموضحة للبيت المشروح بصورة أقرب إلى روح الشعر وأبلغ في التوصيل، كما لاحظنا من شواهده التي خدمت أغراضه، لذلك فهي مع قلتها، أتت محلية الكلام ومساهمة في إيصال الغرض الشعري، جاءت في الصلب لا الحواشي واستطراداتها، فإذا كان الشرح لصيقا بالنص فمن الواجب أن تكون أدواته قريبة أيضا ولصيقة بالأصل.

أما بقية مفردات خطته والمتمثلة في الإيجاز والتناسب بين المعنى واللفظ، فإنها قد تخللت شرحه، ونعتقد أنها أصبحت واضحة من قدرته في إدارة شرحه وتحققت من خلال ما جاء به من تبيين للمعنى ومفرداته، يلمسها من عايش هذا الشرح وقد وفى بها بتركيزه وإشباعه للشرح من دون إخلال أو إملال.

وبعد، فهذا هو شرح الأعلم فيه من علم وذوق صاحبه الشيء الكثير، وفيه من اتساقه مع منهجه وتأديته الغرض الوافي ما يحمد لصاحبه، كما أنه حوى باتزان تلك التفصيلات الكثيرة التي تعارف عليها الشراح من قبل، فجاء شرحه وافيا بالقصد من دون إفراط أو تفريط، فحقق

حاجة النص الشـعري التوضيحية بأسلوب يوحي بأن النص أصل وحوله تدور كل الملاحظات، تنبع منه وإليه تعود، فنحن طوال قراءتنا للشرح يظل النص الشـعري أمامنا واضح المعالم لم نفقـده في تصورنا، لذلك يتحقق الإحساس الفني به بعد جلاء الغامض منه فقط.

* * *

ثانيا: المنهج اللغوي التعليمي: البطليوسي[26]:

المنهج اللغوي التعليمي يعني أن نسبة قضايا اللغة لها اعتبار ملحوظ وبارز، ويكشف لنا أن الشارح قد دخل النص الشعري واضعا نصب عينيه أن يكشف هذا الجانب ويزيد معارف المتعلم في شـقها اللغوي، فالنص الشـعري أصل لغوي أولا وأدبي في مرحلة تالية، وأن الشارح يرى من النص الشعري جانبه اللغوي بجـلاء ووضوح لذلك يعيرها كل اهتمام، والمـرء محكوم باهتماماته الخاصة، أما الجوانب الأخرى فلها اعتبار ثان. وهذا لا يعني أن الشـارح قد نسي جوانب الشعر الأخرى وحاجاته المتمثلة في معارف أخرى، إنما يعطيها بعضـا من الاهتمام، ليخرج المتعلم وقـد اكتملت أمامه عناصر الفهم للنص، لتتم العملية التعليمية بشقيها اللغوي أولا وبقية العناصر الأخرى ثانيا.

إن البطليوسي (ت 494 هـ) هو ممثل هذا النوع من الشروح، وهو يتفق مع الأعلـم وأصحاب المنهج التعليمي في غايتهم التي وصل إليها الأعلم معتمدا علـى ذوقه ومخزون علمه، مقيما جسـرا من التوازن بـين مختلف المعارف والتي تحولت إلى مزيج تعادلت نسبه، يمر من منظور ذوقه من دون الدخول في التفاصيل الدقيقة، أما البطليوسـي فإنه يمس النص معتمدا على أقوال القدمـاء وإن احتفظ بالقصد المطلوب والإيجاز الذي تحتاج إليه طريقته في التعليم، فجاء شرحه موازنا بين حاجة التعليم في شقيها اللغوي والأدبي.

وتنص مقدمته على هدفه فيقول عن دواوين الشـعراء السـتة: «وقد سـئلت شرحها وتقريبها وتخليصها»، فنحن هنا أمام هدف تعليمي واضح يشرح ما غمض ويقرب ما بعد فهمه ويضيف إلى هذا التلخيص، ومؤكدا بعد ذلك أنه سيعتمد على القدماء في شـروحهم أو ما ذكروه بشأن هذه القصائد، يقول: «وكل ما ذكرته في الشرح، فمن كتب العلماء أخذته ومن مكنون أقوالهم استخرجته»[27].

وعند التدقيق في شـــرحه نجده قد التـــزم حرفيا بهذا الخط الذي رسمه فمن اليسير تماما أن نتبين اعتماده على أقوال العلماء السابقين، وما أثر عنهم من شـــروح وتفسـيرات وملاحظـــات، بحيث يمكن اعتبار شـــرحه موجزا طيبا لما تناثر في دواوين الشعراء المصنوعة التي رافقتها تلك الملاحظات والشـــروح المنحدرة عن الـــرواد الأوائل. ولما كان حديثنا ينصب على الشـــعراء الســـبعة أصحاب المعلقات مـــع من ألحق بهم فإن النماذج التي ســـنعتمدها - التي تمثل نموذج شـــرحه - هي بعض هذه القصائد السبع، وفق ما يقتضيه السياق، مع ملاحظة أن البطليوسي - كالأعلم - لم يتعرض إلا لخمســـة دواوين لامرئ القيس والنابغة وزهير وعنترة وطرفة ويضاف إليهم علقمة.

في هذا الشـــرح يبـــرز الهدف التعليمي اللغوي، فيتضاءل إحساســـه بالمعنـــى بدرجة واضحة، يعرض لأقوال العلمـــاء اللغوية، مع مس خفيف للمعنـــى، فهو لا يضيف جديـــدا للمتمرس في قراءة الشـــروح أو من له اطلاع بين في الشـــعر الجاهلي وفهمه ولكن فائدته تكبر وتتسع للمتعلم الناشـــئ أو صاحب الحصيلة البســـيطة في فهـــم الأدب، ففيه اختصار وشـــرح مركز للقصائد السبع، فيشرح البيت في سطور قليلة موردا أهم نقـــاط النقاش والخلافات ووجهات النظر، وإذا ما برزت إطالة في بعض المواضع فإن هذه إذا قيست بعدد القضايا المثارة بها وقارناها عند غيره من الشـــرّاح لوجدناها مختصرة نسبيا، وســـيتضح هذا حين نقارن بين شـــرحه والشروح التي اعتمدها مصدرا له، وحسبنا الآن أن نقدم مثالين دالين على طريقته ومنهجه.

- <u>المثال الأول:</u>

فَتُوضِحَ فالمِقْراة لم يعفُ رَسمُها ... لِما نسجَتْها من جَنوبٍ وشَمألِ

توضح فالمقراة: موضعان، وقوله لم يعف رسمها لم يندرس لما نسجتها أي للذي نسجت عليها من الريحين لأن الأرواح تأتي بالتراب فتمحو الآثار. يقول فهذا الرســـم باق لم يتغير فنحن نحزن عليه فلو عفا لاســـترحنا كما قال ابن الأحمر:

ألا ليتَ المنازلَ قد بلينا ولا يَرْمِيْن عن شُزَنٍ حَزينَا [28]

فإن قيل أين فاعل نسجتها فإن في ذلك أجوبة منها أن تضمر الريح وتجعلها فاعلة، وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام عليها مثل قوله تعالى «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» [29]. ويجوز أن تكون زائدة في الإيجاب على قول أبي الحسن، فيكون التقدير لما نسجتها جنوب وشمال، ويجوز أن يكون فاعل نسجت ضميرا وما يؤنث على المعنى كما قالوا ما جاءت حاجتك، بالنصب، فأنث ضمير ما حيث كانت الحاجة، ويجوز إذا جعلت من زائدة في قول أبي الحسن أن تجعل ما مصدرا فلا تقتضي أن يعود عليها ذكر فتكون الهاء عائدة على المقراة. ويجوز أن تكون الهاء للمواضع المذكورة كلها، وقال رسمها ولم يقل رسومها اكتفاء بالواحد عن الجميع كما قال [30]:

بها جيف الجسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

- المثال الثاني:

رأيت المنايا خبط عشواء مَن تُصب تمته ومَنْ تخطِئْ يعمَر فَيَهْرِمِ

الخبط ضرب اليدين والرجلين بالأرض، والعشواء التي لا تبصر بالليل فهي تخبط كل شيء تطؤه، ويقال عشا يعشو: إذا جاء على غير بصر، وعِشي يعشَى إذا أصابه العشاء.

وإنما يقول المنايا تأتي على غير قصد لأنها تخبط خبط العشواء، فمن أصابته مات ومن أخطأته عاش وهرم. قال أبو بكر: وليس الأمر كذلك كما قال، المنية مأمورة تأتي لوقتها عن قضاء وقدر [31].

هذان نموذجان يبينان طريقته في الشرح السائر بين البسط والاعتدال، مع وجود نماذج أخرى تقف بين هذين النموذجين بعضها يمتد إلى سطور تصل إلى ضعف المثال الثاني، والبعض الآخر يقل حتى يصل إلى سطرين أو ثلاثة أسطر. ولكنه في أمثلته المطولة والمبتسرة لا يغادر خطه الأساسي المتمثل في الاهتمام اللغوي بغريبه وإعرابه وخلافاته، متكئا - كما سنبين - على من سبقه من العلماء من دون إضافة تذكر، اللهم إلا في عملية الاختيار والتنسيق والاكتفاء بأقل عدد من الألفاظ والأمثلة. وقد يقفز إلى النتيجة المقررة من دون الاهتمام بجزيئات المناقشة.

إن المثال الأول يقدم طريقته في أحسن حالاتها من حيث البسط في الشرح والاقتباس والاجتهاد والتوفيق، ونستطيع أن نحدد معالم هذا الشرح فيما يلي:

- وقف أولا أمام المفردات والتراكيب اللغوية وراح يوضح معناها ومقصدها «فتوضح والمقراة» موضعان، «لم يعف رسمها» لم يندرس. «لما نسجتها أي للذي نسجت عليها من الريحين». فهنا، في المقطعين الأولين، عرض لألفاظ رأى حاجتها إلى التفسير، فجاء بأقل قدر من التفسير، الكلمة ونظيرها أو ما يوضحها. أما في المقطع الثالث فهو أيضا يفسره بالطريقة نفسها، ولكنه لاحظ في «لما نسجتها» لطيفة لغوية وهي أن «ما» هنا بمعنى الذي هو استعمال لغوي قد يغمض على المتعلم المبتدئ، أو هي فرصة ينتهزها ليشير إلى هذا الوجه من وجوه ما.

ونلاحظ أن توضيحاته هذه مبتسرة، كلمة ترادف فيها كلمة أو تؤدي معناها، أو في مقام التنبيه من مثل الإشارة إلى أن توضح والمقراة موضعان، فهذه الإشارات كافية في حدود التعلم اللغوي وفهم أقل قدر من معنى البيت، ويقابله من يريد أن يتوسع في فهم القصيدة، حينئذ يسعى إلى تحديد هذه المواقع على الطبيعة، ليواكب إشارتها ويقارنها بغيرها من المواقع وآثارها النفسية في الشاعر، ودلالتها عنده وما صلتها «بمأسل» و«دار جلجل» إلى آخر هذه الاستطرادات لمن يريد أن يدرس القصيدة دراسة تفصيلية ويربطها بأشعار الشاعر الأخرى. أما شارحنا فحسبه أن يبين للقارئ والمتعلم أن الشاعر وقف أمام هذين الموضعين اللذين بقيت بقية من رسميهما بفعل الرياح المتعاقبة عليهما.

وقد يتبع شرحه للألفاظ بتعليل يمس المعنى العام حين تستدعي العبارة هذا، لذلك لم يكتف بشرح تركيب «لما نسجتها» في معناه اللغوي المحدد فقط إنما حاول أن يبين معناه وقصد الشاعر مثلا قال معللا: «أي للذي نسجت عليها من الريحين لأن الأرواح تأتي بالتراب فتمحو الآثار، يقول فهذا الرسم باق لم يتغير».

- في هذه المرحلة، وعند هذه النقطة، دخل في حدود تفسير المعنى الإجمالي، الذي يقدمه إلينا في عبارة موجزة وسريعة، فلا يشغل نفسه بتفسير أو تبيين لجوانبه المتعددة والانطباع الذي يتركه وأين موقع الشاعر

من هذه التجربة، فهو لصيق بالألفاظ يخشى مغادرتها والبعد عن دلالاتها الحرفية محكوم بفهمه اللغوي العام الذي يجس المعنى جسا رقيقا لا عمق فيه ولا تفصيل مفيدا، وحسبه إشارات وعبارات بسيطة يتبعها بشاهد يغني أحيانا عن التفضيل وأحيانا يعجز.

ونحن هنا لا ننفي أنه أشار إشارة لطيفة إلى قصد الشاعر في حدود إمكاناته، وهي تُغني المقتصد الذي يريد أن يفهم النص من وجهه الأول، قال: «فهذا الرسم باق لم يتغير فنحن نحزن عليه فلو عفا لاسترحنا». فهو هنا أشار إلى أحد الوجوه، وقد يكون هذا الاستنتاج والاجتهاد معقولا، خاصة أنه قد أردف شرحه للبيت بشاهد يعزز المعنى الذي ساقه، ولكنه لم يزد على كونه ناقلا من مصادره التي يستمد منها معلوماته وقد نقلها بحرفية مع الاختصار [32].

- ولكنه - كما نلاحظ في هذا الماثل وغيره - سرعان ما يتجه إلى الإعراب وما في حكمه من موضوعات العربية، حيث نراه ينهمر في تفاصيل ودقائق تشي بمدار ومحور تفكيره، وفيه جلاء للخط العام الذي ينتظم شرحه. ويفرد بعد ذلك ثلثي كلامه للحديث عن الأوجه الأعرابية، فقد تساءل عن فاعل نسجتها وكانت إجابته متعددة، منها «أن تضمر الريح وتجعلها فاعلة»، ويعلل هذا بقوله: «وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام عليها». أما شاهده فهو الآية القرآنية «حتى توارت بالحجاب». أما الوجه الآخر فهو أن تكون من زائدة على قول أبي الحسن فيكون تقدير العبارة «لما نسجتها جنوب وشمال». ووجه ثالث هو أن يكون فاعل نسجتها ضميرا وما يؤنث على الفعل، ومثاله «ما جاءت حاجتك بالنصب» فأنث ضمير ما حيث كانت الحاجة».

ويتابع عرضه الإعرابي. وعندما نقارن حديثه المطول هذا بما جاء عند ابن الأنباري مثلا ندرك أنه لم يبتعد كثيرا عن مصادره الأساسية، وفي الوقت نفسه لامست هذه القضية هوى في نفسه الميالة إلى الجانب اللغوي من شرح الشعر.

وحين نسلط الضوء على النموذج الثاني سنلاحظ أنه قد تخلى عن التفاصيل الكثيرة، فليست فيه وجوه إعرابية أو مشكلات لغوية بارزة، لذلك جاء شرحا مبسطا لا تفاصيل فيه، نعم لقد فسر معنى الخبط

وما أســـهله، وأمسك بتلابيب كلمة «عشواء» فراح يدور حول تصريفها، ثم فسر البيت تفسيرا عاديا لا روح فيه ولا إضافات تذكر، ثم يعلق على قول الشــاعر من أن المنايا خبط عشـــواء، فيرى أن الأمـــر ليس كذلك، فالمنية «مأمورة تأتي لوقتها عن قضاء وقدر».

وهذا قول صحيح، في مجال العقيدة، ولكن هذا الشاعر الجاهلي يســـتقرئ الواقع ويشـــير إليه، فيرى أنه ليس هناك ما يفسره له سير المنايا بين الناس، لذلك انصرفت تأملاته إلى هذا الجانب فهو «خبط عشـــواء» نســـبة إلى فهم، وليســـت كذلك بالنســـبة إلى نظام الكون، فالشـــاعر في مقام المعاناة الخاصة به والمحيطة به، وقد رأى الحرب الطاحنة بين القبيلتين والشـــباب الذي يتســـاقط فيعرج على تأملات الحياة فيرى نفســـه وقد عاش «ثمانين حولا». ودب السأم فيه، لذلك كان تعليقه هذا على المنايا. نعم إن للكون ســـنته ولكن من منا لا يحزن ويتأمل ويسخط.

ولكننا لن ننســـى أنه في مقام التعليـــم وتقريب المعنى بعيدا عن تركيبات البيت الشعري إلى السياق النثري المفهوم، لذلك يمثل اجتهاده عونا طيبا لنا.

ومع أن شرحه يكاد يكون متزن الأركان، إلا ما ندر، فإننا نلحظ أحيانا أنه يوجز في شرحه فيصل إلى سطر أو سطرين مع حاجة البيت إلى شرح أكثر تفصيلا وحاجة صوره العامة إلى وقفة خاصة، ومثالنا على هذا شرح هذين البيتين لطرفة، الأول:

كَأنَّ جناحَيْ مَضْرحي تكنفا حِفَافَيه شكا في العَسِيبِ بمِسردِ

المضرحي: النسر. وتكنفا: أحاطا. الحفافان: الناحيتان. وشكا: دخلا. العســـيب: الذنب. والمسرد: الإشـــفافية. شـــبه ذنبها بما عليه من الشعر وخطراته يمينا وشمالا بجناح مضرحي إذا قلبها في طيرانه [33].

والمثال الآخر:

لها فَخذان أكمل النَّحض فيهما كأنهمـــا بابـــا منيـــفٍ ممَـــرَّدِ

النحض: اللحم. المنيف: الباب المشـــرف. المرد: المملس. يقول هذه الناقة اكتمل لحم فخذيهـــا، وكأنهما جانبا باب لقصر وثنَّى الباب على إرادة جانبيه» [34].

فهـــذان البيتان يمكن تناولهما بصورة أكثر تفصيلا، وخاصة أنهما من الأجزاء العصية في هذه القصيدة، إذا نظرنا إلى ســياقهما ضمن وصف الناقة المبســوط والذي سجل فيه الشــاعر ملامح خاصة بالبيئة المحلية يحتــاج إليها المتعلم بعد أن بعد العهد بالصحراء، وقد أورد في بيته الأول صــورة متميزة لذنب هــذه الناقة حين جعله كجناحي نســر، وحين نتأمل شطرة البيت الثانية نرى أن الحاجة ماسة إلى وقفة أطول من الشارح.

إذا انتقلنا إلى جانب مهم من شــرحه - ونعني به مصادره - فســنجد أنه قد حدد منذ البداية طريقته معبرا عنها بقوله: «فمن كتب العلماء ومن مكنون أقوالهم اســتخرجته»، وسنرى هذا في الأمثلة القادمة حين نرد ما أخــذه على أصله، ونبين ما أخــذه بنصه، أو اجتزأ منه قافزا إلى خلاصة القول من دون التفاصيل مــع المراوحة بين الأقوال، وخصوصا اختياره ما يتلاءم مع ذوقه ونظرته اللغوية.

نستطيع القول باطمئنان إن البطليوسي قد استمد شرحه - فيما يتعلق بالقصائد الخمس الداخلة ضمن القصائد السبع - من أصلين أساسيين، هما شــرح ابن الأنباري وشــرح ابن النحاس، في مراوحة بين الشــرحين مــع إدخال بعض المعلومات العامة معتمــدا فيها على ثقافته العربية، وفي الوقت نفســه تتردد بعض الأســماء التي نفتقدها في هذين الشرحين من مثل القتيبي وأبي علي القالي، وهذا الاعتماد نجد ما يشــبهه عند الأعلم الذي أخذ منهما كذلك، فكلا الشــارحين يســتمد من معين واحد. ولكننا نرى أنه في القصائد الخمس قد اعتمد في شــرحها على هذين الأصلين اللذين أشرنا إليهما. وإن لم يتقيد تقيدا تاما بهما، كما فعل التبريزي، فهو يســتفيد منهما استفادة كاملة بتنسيق واختيار فيما بينهما، ثم يصوغ هذا كلــه في عبارته الخاصة مضيفا إليهمــا كثيرا من الملاحظات التي جمعها من مصادر متعددة.

أما بقية الشــرح فلعله اســتمده من أصول الدواوين المشــروحة التي انحدرت إلى الأندلس، وقد حوت من الملاحظات والأخبار والتعليقات شيئا كثيرا سهلت على البطليوسي عمله. وبهذا تتحقق مقولته من أن شرحه من مكنون أقوال العلماء وبالمثال تتضح الحال كما يقال:

1 - المثال الأول:

ويومَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيزَةٍ فقَالتْ لكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرجِلي

الخـــدر هنا الهودج، منه أســـد خادر ومخـــدر أي داخل في أجمة مثل الخدر. وعنيزة اسم امرأة وقيل اسم هضبة. رُوي: «ويوم دخلت الخدر يوم عنيزة» ويقال: رَجِل الرجُل يَرْجَل رَجَلا إذا لم يترجل، وأرجلتُه أحوجته أن يمشي راجلا. وقوله إنك مرجلي، أي إني أخاف أن تعقر بعيري كما عقرت بعيرك فتحوجني أن أمشـــي راجلة. «ويوم دخلت» منسوق على قوله «ويوم عقرت» للعذارى [35].

في هذا الشـــرح يزاوج، باختصار، بين شـــرح ابن الأنباري وشـــرح ابن النحـــاس [36]، ملتقطا الجانب العام والمشـــترك بينهما حاذفا التفصيلات والشـــواهد، فنجد أن ابن الأنباري وابن النحاس اشـــتركا في شـــرح كلمة «الخدر»، وبينما يكتفي الأخير بأنـــه الهودج، يواصل ابن الأنباري المقارنة اللغوية قائلا: «ومن ثم قيل أسد خادر ومخدر، أي في أجمة مثل الخدر»، وهو ما نقله البطليوســـي في شرحه. واشتركا - ابن الأنباري والنحاس - في شـــرح كلمة عنيزة، فجاء كلام الأخير مركزا، بينما أسهب ابن الأنباري في التوضيح والتفسير فاختار البطليوسي الاختصار.

وينفرد ابن الأنباري برواية أخرى مســـندة وهي «ويوم دخلت الخدر يوم عنيزة»، فيتابعه شـــارحنا. واشترك الشرحان كذلك في الوقوف عند «رجل الرجل يرجل رجلا»، فتابعهما مع اهتمام خاص بقول ابن الأنباري مع إضافة بســـيطة موضحة للقصد، وينقـــل بعد ذلك نص ابن النحـــاس «إني أخاف أن تعقـــر بعيري كما عقـــرت بعيرك»، مضيفا عبارة «فتحوجني أن أمشـــي راجلـــة»، وهو قول ابـــن الأنباري «فتدعني ذات رجلـــة»، وكذلك قوله «ويوم دخلت منسوق على قوله ويوم عقرت للعذارى» هو نص ابن الأنباري نفسه.

وهكذا نجده يزاوج بين الشـــرحين مختصرا وموفقا ومختارا، فيســـتوي الشـــرح عنده وقد خلا من التفصيل، مؤديا الغرض التعليمي كاشـــفا اتجاهه ومزاجه من دون أن يبين إبداعه وقدرته في التفســـير والاجتهاد في الشـــرح، وهذا ما نلمســـه في الشرح كله مع التنبيه على حريته في التصرف والاختيار مع إضافات بسيطة.

وقد يستهويه النقاش اللغوي فيتابعه ناقلا إياه بنصه من دون تصرف يذكر، وهذا ما سيوضحه المثال التالي:

2 - المثال الثاني:

يُؤخَّر فيُوضَع في كتابٍ فيُدَّخر ... ليومِ الحِساب أو يُعَجَّل فيُنْقَم

قال بعض أهل اللغة يؤخر بدل من يعلم. قال أبو بكر، وغير صحيح عند أهل اللغة العربية لأن الشيء إنما يبدل من الشيء إذا كان في معناه مثل قولك «إن تعطني تحسن إلي أشكرك»، فتحسن بدل من تعطني، لأن العطية إحسان وليس التأخير العلم. والذين ذهبوا إلى بدل الغلط لا يجوز في الشعر، وأجاز سيبويه إسكان الفعل للشاعر إذا اضطر يرده إلى أصله مثل قول امرئ القيس «فاليوم اشربْ غير مستحقب»، وقيل يؤخر جواب النفي، والمعنى فلا تكتمن الله في نفوسكم يؤخر. يقول: إن لم تكشفوا ما في نفوسكم عجل الله لكم العقوبة فانتقم أو أخركم ليوم الحساب [37].

في هذا النص الذي غلبت عليه المسحة الإعرابية يكاد يكون الشارح ناقلا مختصرا عن ابن النحاس [38]. مع حذف بعض الاستطرادات، مضيفا الشاهد الشعري لتأكيد رأي سيبويه بينما أغفله ابن النحاس لشهرته، وقد ورد عند ابن الأنباري موضع آخر [39]. وختم نقله بشرح مبسط للمعنى ساقه بعباراته وإن اعتمد فيه على ما ورد عند ابن الأنباري.

ونلاحظ أنه في عرضه هذا البيت يكاد يكون شرحا لدرس من دروس النحو وبالذات في بدل الفعل من الفعل ومتى يكون، وبدل الغلط، ورأي آخر قدمه من دون ترجيح. ومن الواضح أنه أنكر الوجهين الأول والثاني اعتمادا على إنكار ابن النحاس لهما وأدار الرأي الثالث من دون أن يوضحه متابعا لابن النحاس، فإذا كان الأخير يعرض رأيه للعلماء فإن الذي يقوم بالتَّلخيص ويُبسِّط الآراء كان من الواجب عليه أن يدلي برأي أو يضرب عن الخلاف صفحا، ولكن ميله اللغوي أغراه بمتابعة هذا الحوار.

ومع أن البطليوسي اعتمد على الشرحين السابقين كما بينت فإنه من جانب آخر نلاحظ اعتماده، كذلك على الآراء العامة والأقوال الشائعة، ويدخل كذلك أسماء لعلماء لم ترد أسماؤهم في هذين الشرحين، وأبرز هذه

الأســماء أبو علي القالي الذي كان له الدور الكبير في نقل هذه الدواوين من المشــرق إلى الأندلــس، وعنه انحدرت هذه النصوص ولعلها كانت مشــفوعة ببعض الملاحظات تماما كما فعل في أماليه المشهورة، هذا إذا لم يثبت عندنا أن له شــرحا خاصا كما بينا في تاريخ الشــروح، وقد تردد اســمه في هذا الشرح في مواضع عدة، فيرد في مجال التوثيق والشرح، ومثال الأول ما ذكره فــي مقدمة قصيدة زهير، قال: «الوزير أبو بكر في هذه القصيدة أربع قواف رواها أبو علي كلها بالفتح ورواها غيره بالكســر وهي المتثلم ومجثم ومنشــم ومحرم» (40). ويذكره في معرض شرحه لبيت امرئ القيس:

غَدائِره مُستَشْزِرَاتٌ إلى العُلا تَضِل المَدَارى في مُثنى ومُرْسَلِ

يقــول: «وروى أبو علي تضل العقــاص وهو جمع عقيصة»، ويتابعه في التفســير قائلا: «وقال في تفســيره: وربما عقدت المرأة عقيصة من شعر غيرها فتصلها بشعرها» (41).

ومثله في الشرح كذلك قوله في شرح البيت:

وتضحى فَتِيتُ المِسكِ فوقَ فِراشِها نؤوم الضّحى لم تَنتطِقْ عن تَفَضلِ

«قــال أبو علي هذا البيت فيه ثلاث تبيعات، والتبيع أن يريد الشــاعر ذكر شيء فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه بالدلالة فوصف في البيت بالترف والنعمة وقلة الامتهان في الخدمة» (42).

ويأخذ عنه في الإعراب من مثل قول عنترة: «كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم»، «قال أبو علي: تقديره البيت كالعبد الطويل ذي الفرو - والأصلم نعــت الفرو» (43). وتطرد بعد ذلك إلى اســتعانته بأقــوال العلماء من مثل القتبي وأبي الفرج الأصفهاني (44).

وهذا يقدم لنا صورة واضحة لمحاولته الخروج من أسر الشروح المعتمدة بين يديه بحيث يســتعين بكل ما أثر من ملاحظات متفرقة في الكتب وإن كانت في أصلها تعود إلى الشــرح نفسه وتســند إلى المصادر الأولى ذاتها فيعود إلى الحيز الذي كان فيه وإن لم يخرج عما أثر عن القدماء (45).

ولكننا نسجل له، بجانب قدرته على الإيجاز والاختصار والحذف غير المخــل، محاولته الخروج من مصادره، كمــا بينا، فهو يتحرك بين أكثر من مصدر، وهذا يجعله أكثر تحررا وقدرة على التصرف؛ فنراه يطعم شــرحه

بمقارنات شعرية لطيفة لشعراء محدثين لا ينتمون إلى عصر الاستشهاد، فنقــرأ أبياتــا للبحتري مثلا، ففي الشــرح الذي ذكرناه والــذي نقله عن الأصبهاني نجده يدخل بيتا للبحتري بين كلامه قائلا : «يقول ليس الصباح بأمثل وهو فيك، أي يريد أن يجيء منكشــفا متجليا لا ســواد فيه كما قال البحتري وإلى هذا أشار [46]:

فأزرق الليلِ يَبْدو قَبْل أَبْيَضِه   والغيثُ يبدأ قطرا ثم ينسكبُ

وهــذا لم يكن عفو الخاطــر، ففي الوقت الذي يضرب صفحا عن شــاهد شــعري قديم عند الأصبهاني يورد بيتا من الشــعر الحديث. هذا يدل على أنه قاصد ومتعمد الربط بين القديم والحديث، وهو اهتمام خاص بالمقارنة الموضحة للأبيات، لذلك نجده يستشهد بشعر أبي تمام موضحا من خلاله قول عنترة:

يُخْبِركِ من شَهدَ الوقَيعةَ أنني   أغْشى الوَغىَ وأعفُّ عندَ المَغْنَم

يقول: «إذا حاربت لم أشتغل بمغنم حتى أظفر بعدوي وأغلبه. وقد بيَّنه أبوتمام فقال [47]:

إن الأسودَ أسودَ الغابِ همتُها   يوم الكريهة في المَسْلوبِ لا السَّلب

ففي هذه المقارنة اســتطاع أن يدفع بشرح المعنى دفعة إيضاحية قوية أغنــت عن كثير من فضول القول، ودلــت على ثقافته وقدرته على التقاط الشاهد المعبر عن المعنى المراد.

وقــد أحس هــذه الفائدة وجدوى المقارنة لذلك يعود بعد ســطور إلى الاستشهاد بقول أبي تمام أيضا في معرض شرحه لبيت عنترة :

عَهدي به مَد النَّهارِ كأنمَّا   خُضِبَ البَنانُ ورأسُهُ بالعِظلِمِ

يقــول: عهدي بهذا الفارس وقد تركته مضرجــا بدمائه كأنما خضب رأســه بعظلم وبنانه بمثلها وكنى بالبنان عن الكف. والرأس والكف موضع الخضاب، وقد أحسن أبو تمام حين يقول [48]:

بسُنةِ السيفِ والخطِّي في دَمه   لا سنة الدينِ والإسلام مختضب

فهو هنا اختار القصيدة المتلائمة مع روح عنترة، فبائية أبي تمام، فيها من جرس الحرب شيء كثير، فجاء تمثيله مجسدا جو البيت الخاص، وقد وقف موقف المستحسن والمعجب وليس فقط موقف المقارنة والتوضيح.

وللمتنبــي كذلك نصيب من استشــهاداته، فإذا كان أبو تمام في بائيته يصف جو الحرب في عمورية، فالمتنبي هو الأقرب إلى وصف السيف في مجال الفخر، فهذا طرفة يفتخر بسيفه قائلا:

حُسامٍ إذا ما قمتُ مُنْتَصِرا بِهِ كَفَى العَوْدَ منهُ البدْءُ ليسَ بمِعْضَدِ

فيقارنه ببيت المتنبي قائلا: وهذا مثل قول أبي الطيب [49]:

فظل يُخَضبُ منها اللَحى فتى لا يعيد على الناصلِ

وهذه هي إحدى محاولات البطليوســي للخروج من إسار مصادره التي يتكئ عليها كثيرا، فالاستشــهاد بالشــعر أصل من أصــول الفهم الدقيق للشعر، وقد أثبت البطليوسي أنه معلم يعي مهمته التعليمية.

ومن الملاحظات الطيبة التي تسجل له في تلك المحاولات المتناثرة التي تشي بمحاولته فهم الترابط بين الأبيات وأثر بعضها في بعض، أنه يكتفي أحيانا بالإشارة إلى تكامل المعنى فيما بينها، مثلا بيت عنترة القائل:

تُمسي وتصْبحُ فوقَ ظهْرِ حَشيَّةٍ وأبيتُ فوقَ سَراةِ أدهمَ ملجمِ

يقول: السراة الظهر ومعنى البيت فيما بعده:

وحَشيتي سَرْجٌ على عَبْلِ الشَّوَى نَهْدٍ مراكلُهُ نبيلِ المحزمِ

فبعــد أن يشــرح ألفاظ البيت يقول: «معنى هــذا البيت أن هذه المرأة تمســي وتصبح على فراشها وأنها في (حفظ) ودعة وراحة وأنا في مشقة وتعــب لأني في غزو، ففرشــي ســرج على صهوة فرس». وقــد أخذه أبو الطيب فقال [50]:

مَفرِشي صَهْوةُ الحِصَانِ ولكنْ قميصي مَسْرودة مِنْ حَديدِ

ففي شرح هذا البيت اهتم بربطه بما يليه لتضمن المعنى فيه وتداخلهما فــي أداء هدف واحد، لذلك أدرك أن الكلام عنهما لابد أن يكون متصلا. ويضــاف إلى هذا أنه عاد مــرة أخرى إلى التمثيــل والتوضيح من خلال الشــعر المحدث القريب من عصره، وشفع هذا كله بالإشارة إلى أن المتنبي قد استوحى أو أخذ هذا البيت وفق عبارته، فهو إذن درس مزدوج الهدف من الشرح والتوضيح والنقد.

ومن الأمثلة الجيدة في هذا المجال تعليقه على بيت عنترة أيضا:

حُيِيتَ من طَلَلٍ تقادمَ عـهـدُهُ أقـوى وأقْـفَـرَ بعدَ أمِّ الهَيثَمِ

قال: هذا البيت لا يحسن إلا بأن يروى قبله بيت:

وأقـولُ (لما أن) عرفت ديـارهـا والعين تذرف بالدموع السُّجَّم

حييت من التحية، في الأصل للملك، ومنه التحيات لله. والطلل ما كان له شـــخص في بقية الحائط، وقال الخليـــل: طلل الدار به كالدكان تجلس عليه. وقوله تقـــادم أي قدم العهد به وطال. وأقوى خلا قال الله عز وجل «نَحْنُ جَعَلْنَاهَـــا تَذْكِرَة وَمَتَاعا لِلْمُقْوِينَ». يعنـــي النار وإنها تذكرهم جهنم وينتفع بها المقوون الذين فني زادهم كأنهم خلوا من الزاد. يقول: لما عرفت ديار عبلة بعد أن أنكرتها لطول العهد بها قلت: حييت من طلل قدم عهدي به، وأقوى وأقفر بمعنى واحد ولكنه كرر لاختلاف اللفظين [51].

فنحن نلاحظ أنه في شـــرحه لهذا البيت كانت أهم إشـــاراته هي تلك التي ســـاقها في أول الشـــرح حيث بين أن معناه لا يحسن إلا إذا روي قبله البيت الذي ذكره ولم يضف شـــيئا يوضح هذا الأمر، ولعله رأى أن القصد واضح لا يحتاج إلى بيان، أو لعله رأى أن الشاعر انتقل من قوله:

وَتحُـل عَبْلة بـالجِـواءِ وأهْـلـنـا بـالحَـزْن فالصَمَّان فالمتثلم

إلى التحية في البيت المشروح. ولا شك أن في هذه النقلة فجوة يحسن أن تسدها رواية هذا البيت، وهذا يوضح لنا أن البطليوسي متابع لتطورات المعنى في سياق القصيدة.

أما بقية شـــرحه للبيت فلا جديد فيه يضاف إلى ملاحظتنا السابقة، ولكننا نشـــير هنا مسرعين إلى أن شـــرحه هذا تضمن استشهادا بالقرآن الكريم، وهو قليل في شـــرحه، كما أنه لاحظ أن البيت احتوى لفظين في معنى واحد فأشار إلى هذا مبررا إياه بأنهما مختلفان، وهو ما اختاره أكثر الشـــراح معتمدين على أن العرب تكرر إذا اختلف اللفظان وإن كان المعنى واحـــدا، هذا قول أكثر أهل اللغة على حد تعبير ابن النحاس، بيد أنه أورد من جانب آخر ما ذكره أبو العباس من أنه لا يجوز أن يكرر شـــيء إلا وفيه فائدة [52]، ولا شـــك في أن البطليوســـي اختار الأشهر وأضرب عما عداه من أقوال.

ومن الإشـــارات الداخلة في هذا الموضوع ما ذكره تفصيلا حين عرض لبيتي امرئ القيس في وصف الليل:

فَيَالَكَ من لَيل كأن نجومَهُ ... بكُل مغار الفتْلِ شُدَّتْ بيَذْبُلِ

كأنَّ الثرَيا عُلِّقتْ في مَصَامِها ... بأمراسِ كتَّانٍ إلى صمّ جَنْدَلِ

قـــال أبو بكر: ما رأيـــت أحدا نبه على هذين البيتـــين، وذلك أن الأول منهمـــا يغني عن الثاني والثانـــي عن الأول ومعناهما واحـــد، لأن النجوم تشتمل الثريا، كما أن يذبل يشتمل على صم جندل. وقوله: شدت بكل مغار الفتل مثله قوله: علقت بأمراس كتان [53].

ولا شـــك في أن هذه لفتة من جانبه حين تلمس التشـــابه والتماثل في جوانب البيتين، ولكن فهمه وقف عند حدود النظرة العقلية المجردة معتمدا على دلالة اللغة وتقارب معنى الألفاظ واشتمالها على المعنيين، وغابت عنه الصورة الجميلة التي قدمها لنا البيتان والتكامل النفسي بينهما، فهمّ الليل الطويل الجاثم على صدر الشاعر جعله يصرخ زافرا ألمه «فيالك من ليل.. إلخ»، فهذه حركة النفس المتألمة والمتأملة في النجوم المشدودة التي لا تكاد تتزحـــزح. وبعد أن أعطى صورة كلية لليل ونجومه عاد إلى مســـقط تأمله الأول للنجوم التي هي مقياس وقته كعقارب الســـاعة التي لا تكاد تتحرك، فراح يتناول هذه الجزئية مفصلا. ولا شك في أن الشاعر حين وسع تأمل هذه الصورة وأشاعها في بيتين إنما يجسد الثبات والبطء فيما يحيط به.

ولكن أســـلوب البطليوســـي ووجهة نظره اللغوية هي التي أسلمته إلى الترتيب المنطقي للألفاظ، وحالت بينه وبين النظر إلى تلك الأنسجة الحية المجسدة لحالة الشاعر.

إن مجمل القول في شـــرح البطليوسي أنه شـــرح يقوم على أساس تعليمي لغوي، يتوصل إلى هدفه بشـــرح المعنى مع إدخال بعض المعارف العامة مـــن معلومات تاريخيـــة وبلاغية هي في أغلبها بســـيطة، ومن الشـــواهد المعروفة التـــي وردت ضمن الشـــروح التي مثلـــت مصادره الأساســـية [54]، فهـــو يقرب للمتعلم مـــا تعارف عليـــه العلماء من قبل وتناقلوه، وأغلبها ملاحظات يمكن نســـبتها إلى من سبقه، أما اهتمامه الأكبر فمنصب على الجزء اللغوي منها وهو حريص على إيراد فحواها

مختصرا اختصارا غير مخل، ثم ينتقل فجأة إلى الرأي الأخير والنتيجة المستقاة من التفصيلات، وفي شرحه نموذج واضح لتحكم العقل اللغوي في النص الأدبي ومحل اجتهاده فيه.

ثالثا: معلمون ملفقون: التبريزي والجواليقي

إن هذا الاتجاه غالب على بعض كتب الجيل المتأخر من مؤلفي الأدب، فقد أخذ الأدب القديم صفة القداسـية لأنه الأصل الأول للثقافة الأدبية وللتمكـن اللغوي علاوة علـى المادة التاريخية التـي يحملها، لذلك تعلقت الأجيال التالية لجيل الصدر الأول وفترة الازدهار بما انحدر إليها، وسدت بيدها مجالات الإبداع ولم تعر انتباها لبعض النظرات والمحاولات الجادة والناضجة، فضيقت على نفسها فضاقت بها السبل، وانحصرت في ضنك عسـير تكشـفه هذه المجموعات من الكتب والمؤلفات المقلدة لما سبقها أو ملفقة بينها.

إن هنـاك نوعين من تلـك الكتب، بعضها يلفق بالبسـط حيث يحوي مجموعة من الكتب نثرت مادتها فيه من دون أن تضيف شـيئا جديدا عدا التلفيق والتنسـيق لمادة هذه الكتب، وهذه هي الكتب المبسوطة التي تحوي مجموعة مؤلفات في كتاب واحد، وقد يكون منها بعض الكتب التي لا يأتي مؤلفها بجديد إلا أنه أوتي حظا من التنظيم والترتيب، فيجمع مادة موضوع ما من مصادره الرئيسـية فيضعها في مؤلف واحد تسهيلا للباحثين. ومن هذا النـوع كتب الثقافة العامة التي تحوي مادة غزيرة ومتنوعة يسـتفيد منها طالب العلم.

أما النوع الثاني فهو الملفق المختصر، وأصحاب هذا النوع من التصانيف إنما يؤلفون هذه الكتب للطلبة، وليسـتفيد منها المعلمون في أداء مهمتهم، ولذلك ينحون بها إلى البساطة واختيار أهم ما يمثل المادة الرئيسية، ومن هنا ينحصر جهدهـم في التلخيص أولا والتلفيق ثانيا بين كتابين أو أكثر. لهذا يكون، في أحيان كثيرة، تلفيقا ساذجا لا ماء فيه ولا رونق وفق حظوظ الملفقين من المعرفة والفهـم، فبعضها يأتي وقد احتوى على تلخيص جيد شـامل للفكرة الرئيسـية، فيكون التلفيق مقبولا فيه تناسـب وتكامل بين

المـــواد الملفق بينها، فلا يند ما يشـــي بجهل المؤلف بالمــادة التي بين يديه، وفيه تكامل يؤدي المعنى آخذا من كل شــــرح أهم ما فيه فيضيفه إلى المادة المشتركة ليستوي شرحا جديدا ينسب إلى مؤلف آخر، أما في حقيقته فهو قديم أعيد ترتيبه ونسخه.

إن خير من يمثل هذا الاتجاه هو الخطيب التبريزي، ويضم إليه تلميذه أبو منصور الجواليقي، فهما يتفقان منهجا وأسلوبا، وكلاهما ارتقى نفس المنصب العلمي ففيهما تجمعت خصائص التعليم والتلفيق، مع تمكن ظاهر في فهم التراث واحتواء جيد للمعارف الســـابقة، وإن ظلا في حدود المنهج الذي اعتنقاه.

أولا: الخطيب التبريزي (321-502هـ) [55]

لقد شـــرح التبريزي عددا وفيرا من دواوين الشعر الجاهلي، من أبرز شـــروحه وأشهرها شرحه للمفضليات والحماسة والقصائد العشر، وحين نحاول تحديد المنهج الذي اعتمده في شروحه نجده لا يختلف في تصوره عن تصور الشـــرّاح التعليميين الذين تقدم الحديث عنهم، فيتطابق هدفه مـــع هدفهم، ويتضح هذا من خلال المقدمـــات التي كان يقدم بها لمؤلفاته، فنلاحظ أنه يحرص على التقديم بمقدمة مبســـطة مســـلطا الضوء على الباعث الذي دفعه إلى الشرح وطريقته التي سينتهجها.

بين يـــدي الآن ثـــلاث مقدمات لثلاثة من الشـــروح يتحـــدث فيها التبريـــزي عـــن منهجه، ولم يتخلف أو يغير من خطـــه العام: يقول. في مقدمة شـــرح ســـقط الزند: «ورأيت جماعة من وجوه الكتاب والرؤساء مـــن أهل الأدب وعيون الناس، يرغبون في شـــرح مـــا أهمل من أبياته وإيضاح مشـــكلاته.. وأوردت ما ذكر شـــيخنا أبو العلاء رحمه الله، في ضوء الســـقط في مواضعه، ثم أوضحت مشكلاته، وذكرت معانيه، غير ســـالك طريقة أبي الفتح عثمان بن جني في تفسيره شعر أبي الطيب: في الإكثار من الاستشهادات، وذكر اللغة الغريبة، دون إيراد المعاني، مما لابد منه، وما يفيد قاريه، إذا نظر فيه، فخير الشـــروح ما قل ودل، ولم يطل فيمل» [56].

ويخاطب التبريزي من سـأله شرح المفضليات قائلا: «فعرفتك أنها قد شرحت، وفيما شرحه العلماء المتقدمون كفاية وفيه مقنع، فذكرت أن بعض الشـروح قد طال لكثرة ما ذكر فيه من اللغة الغريبة، والاستشـهاد عليها، ومع طوله فكثير من معاني الشـعر غير معلوم منه، وبعض الشـروح يذكر فيه في البيت ما يتعلق به وما لا يتعلق به.

وإيراد ما لا يحتاج إليه البيت يطول به الكتاب. والغرض من شرح هذه القصائـد الإيجاز والاقتصار على ما يعرف به ما في الشـعر من الغريب والإعراب والمعاني دون ما يتشـعب من اللغة والإعراب، لئلا يشغل القارئ منه والناظر فيه عن الغرض المقصود» [57].

ومثل هذا ما جاء في تصديره لشـرح القصائد العشـر، يقول: «سألتني - أدام الله توفيقك - أن ألخص لك شـرح القصائد السـبع، مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر... وذكرت أن الشـروح التي لها طالت بإيراد اللغة الكثيرة والاستشـهادات عليهما، والغرض المقصود منها: معرفة الغريب والمشـكل من الإعراب، وإيضـاح المعانـي، وتصحيح الروايـات وتبينها، مع الاستشهادات التي لابد منها من غير تطويل يمل، ولا تقصير يخل» [58].

وهـذه النصوص المقدمة للشـروح الثلاثة تضع أمامنـا منهجا واحدا وهدفا مطردا عند التبريزي في شروحه، فهناك سائل يسأله شرحا، وهذا السـائل الوهمي أو الحقيقي ينطق بهدف التبريزي من شـروحه، مسجلا اعتراضا متكررا على الشـروح السـابقة، وقد سجله التبريزي بنفسه في مقدمة «سقط الزند» ناقدا فيه طريقة أبي الفتح في شرحه لشعر المتنبي، ففي هذا الشـرح «إكثار من الاستشـهادات»، وذكـر للغريب، وتقصير في إيراد المعنى المفيد للقارئ.

وهذه الملاحظات الثلاث هي نفسـها التي قدمها بتحذير بسـيط في مقدمة المفضليات والقصائد العشـر، فشـروح هاتين المجموعتين طويلة مثقلة بالغريب والاستشهادات، مع غموض المعنى.

إن هذه الملاحظات التي سـجلها التبريزي بلسـانه، أو بلسان من نطق بما في ذهنه، على الشـروح السـابقة تدفعه إلى أن يقدم لنا بديلا، وهو بديل متكرر في هذه المقدمات يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

أ - معرفة الغريب.
ب - معرفة المشكل في الإعراب.
ج - إيضاح المعنى.
د - تصحيح الروايات وتبيانها.
هـ - استشهادات لابد منها من غير تطويل يمل ولا تقصير يخل.
و - الاختصار.

هذه خطوط العمل الرئيسية عند التبريزي، وضع أمامنا ما نذر حياته كلها له ونعني به الجانب التعليمي التثقيفي، فمنهجه هذا ونصوص أعماله تقدم لنا معلما يوفق بين ما يراه يكمل بعضه بعضا، ويحذف ما يجده مملا، يقدم حاجة المتعلم لا العالم، العابر لا المتريث، لذلك جعل الاختصار هدفا، وبعدها يمس معارف الشعر التي تمثل مدخلا رئيسيا لفهمه مسا خفيا يساعد على الفهم.

وهذا المنهج سليم في خطوطه العامة، حين ننظر إلى الهدف التعليمي المتوخى منه، سواء أكان هدفا لغويا أم محاولة لتقريب معنى النص الحرفي. إن الناظر في شرح التبريزي يخرج بانطباع أنه قد حقق ما رسمه من قبل، فشروحه متوازنة في معارفها قياسا على غيرها من الشروح، وتساعد القارئ على اختراق حاجز اللغة والمسميات مع فهم أولي لمعنى الشعر، وهذا ما يفسر لنا سر ذيوع اسم التبريزي مع هذا الحظ الوافر لكتبه التي تصدرها اسمه فحظيت بالنشر والذيوع والانتشار حتى تضخم اسمه وكبر، وحقيقته أصغر بكثير من اسمه.

نعم، يحمد له دوره وهدفه وأن المنهج الذي رسمه واستطاع تحقيق أهم جوانبه مقبول وجيد والنتيجة وافية بالغرض، ولكن الاعتراض ينصب على الكيفية التي حقق بها هدفه، فمن حقه في مجال التعليم الاستعانة بالجهود السابقة ليقدمها إلى المتعلمين، ولكن لم يقل أحد إن الاستفادة من معلومات الآخرين تعني النقل المباشر بالعبارات نفسها والألفاظ ذاتها من دون إضافة تذكر، فالفرق بين الاستعانة المشروعة بكل الجهود والسرقة الواضحة المكشوفة، أو على الأقل التصرف في مؤلفات الآخرين، واضح حده لا يختلف عليه اثنان، وكثير من الكتب العربية القديمة في مجال

البحــث والنظر يتكــئ بعضها على بعض ولكن من جانب اســتعانة اللاحق بالســابق، بعد هضم المعارف كلها واتخاذ موقف واضح تتضح فيه شخصية الباحــث أو المعلم، وبعدهــا يقدمها للأجيال المتعلمــة أو القارئة وقد مرت بمرآة ذاته فعكستها مشبعة بالروح الجديدة، وهذا ما نفتقده عند التبريزي في شــروحه التي حقق فيها هدفه التعليمي على حساب غيره من المؤلفين، فأجهض مصنفاتهم وحال بينها وبين الناس حين ضم بعضها إلى بعض بعد الحذف والاختصار والاختيار، ووضع اســمه عليها من دون أن يكلف نفسه صياغتها بأســلوبه الخاص، فقد كان يضع نســخة الشرح بين يديه وينقلها بحروفها وكلماتها من دون تبديل يذكر، اللهم إلا الحذف والتكملة من المصدر الآخر، فتكون كتبه نسخا أخرى من هذه الكتب. من قال إن الناسخ مؤلف؟!

وهو في شــرحه لا يجمع مجموعة من الشــروح وينسق بينها فنقول: رجــل لخص متفرقــا في واحد، حتى هذا الأســلوب، على بســاطته، لا يســتخدمه، فطريقته في إجمالها أنه يختار كتابين فينقل من هذا قطعة ومن ذاك أخرى، متوخيا تحقيق الخطة التي رسمها فيكتمل الشرح عنده بهذه الطريقة.

إن وجــوده في المدرســة النظاميــة جعله ينحو إلى المنهــج التعليمي المبســط وســاعده على هذا توافره على مكتبتها واستفادته مما بها من مؤلفــات، فجعل ينهل منها ناســخا من كتبها، مقدمــا ملخصات وافية بالغرض التعليمي.

لقد أدرك الباحثون – قديما وحديثا – قيمة التبريزي الحقيقية فنبهوا إلى ذلك وأبدوا رأيهم فيه مما يدل على أنهم كانوا مدركين لطبيعة سلوكه العلمي. ففــي القديم نجد أن بعض الذين ترجمــوا لحياته تعرضوا لهذا الجانــب، فهــذا صاحب «وفيات الأعيــان» يورد ما ذكره الســمعاني، في «الذيل» و«الأنســاب» يقول: «ســمعت أبا منصور محمد بن عبد الملك بن الحســن خيرون المقرئ يقــول: أبو زكريا يحيى بن علــي التبريزي ما كان بمرضــي الطريقة، وذكر عنه أشــياء ثم قال: وذاكــرت أنا مع أبي الفضل محمــد بن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون، فســكت وكأنه ما أنكر ما قال، ثم قال: ولكن كان ثقة في اللغة وما كان ينقله [59].

فهـــذا القول تقويم لمنزلة التبريـــزي العلمية. ونلاحظ أن فيما ذكره ابن خيرون وفي ســـكوت أبي الفضل الحافظ ما يؤيد هذا، لذلك جعله في تعليقه المتحفظ «ثقة في اللغة وما كان ينقل»، وهذه إشارة إلى فهمه لا جهده.

ولعل البغدادي - صاحب الخزانة - كان أيضا مدركا لحقيقة ما كان يفعله التبريزي، فمثلا نلاحظ إشارته إلى نقوله من طرف خفي، يقول في شـــرح كلمـــة «غضوب» في قول عنترة: «ينبـــاع من ذفـــرى غضـــوب جســـرة» «قال الخطيب في شرحه تبعا لأبي جعفر.. (60)، وفـــي موقع آخر يقول «قـــال أبو جعفر النحاس في شـــرحه، وتبعه الخطيب التبريزي» (61).

وقد كانت إشـــارات القدماء ســـريعة وعابرة ولم يفصلوا القول فيه، أما الباحثون المحدثون فقد وقفوا موقفا واضحا منه، فهذا «يوهان فك» يعلق على شرحه للحماسة بأنه «مجموعة تضم، في مهارة وحذق، نتائج الجهـــود التي بذلها علماء اللغـــة القدامى». يقول عن جهده إنه لا يزيد زيادة تذكر على خلاصة بحوث علماء اللغة في القرن الرابع - العاشـــر كما تبين ذلك في موازنته بشـــرح ديوان الحماســـة الأســـبق منه، ولكنه يمتاز أيضا باختصاره وشـــموله» (62). وقد علق الأســـتاذ عبد الســـلام هارون محقق شـــرح ابن الأنبـــاري بأن التبريزي قد تبـــع ابن الأنباري واستقى من معينه استقاء كاملا (63).

ويتضح هذا أيضا في تساؤل الدكتور فخر الدين قباوة الذي لم يجد بين يديه ما يعين على تحديد مذهب التبريزي، ويرى أن هذا راجع إليه «فهو في مصنفاته لم يبد ما يشـــجع على الجزم في مثل هذا الموضوع، لأنـــه كان ينقل أقوال أســـلافه وأحكامهم برمتها فتطغى شـــخصياتهم المذهبية على شخصيته، ولا تبقى لها حدود متميزة واضحة المعالم. ولما كانـــت تلك الأقوال منقولة عن علمـــاء مختلفي النزعات والمذاهب فقد لبث التبريزي في مصنفاته متنقلا بين وجهات من النظر متعددة. ولهذا نـــراه أحيانا مع مذهب البصريين، وحينا مع مذهب الكوفيين، وآونة مع مدرسة بغداد، وطورا مع جميع المذاهب» (64).

إن البحث عن منهج محدد للتبريزي يعني معاناة نخرج منها بقبض ريح أو حصاد هشيم، فليس له من منهج إلا التعليم من خلال التلفيق، ولا انتماء معين إلا من خلال نظرة عامة جدا حين نراقب كيفية اختياره وانتقائه واختصاره، وإلا فهو تابع للأصول ينقل منها، والمناقشة حوله حري بها أن توجه إلى الأصول الأولى.

وإذا عدنا إلى شرحه للقصائد العشر فسنجد أن الطبعة التي قام بتحقيقها الدكتور قباوة [65]، قد تابعت نقوله من الأصلين اللذين اعتمد عليهما وهما شرح ابن الأنباري وشرح ابن النحاس، وقد عين مواضع النقل فسهل على الدارس والقارئ تبين مواقع نقوله خاصة أن كلا الشرحين اللذين اعتمد عليهما قد تم طبعهما فأصبح التأكد من نقله منهما لا يحتاج إلى إطالة القول، فهو ثابت ونبه عليه الباحثون الذين تعرضوا للتبريزي دارسين. فأصبح القول فيه فضولا وزيادة. وحسبنا الاكتفاء بالأمثلة التي سنتعرض لها في مناقشة أسلوبه وطريقته في النقل.

يقول في شرح بيت لبيد [66]:

وجَلا السّيولُ عن الطلول، كأنَّها زبرٌ، تجِدّ متونها أقلامُها

«أي: جلت السيول التراب الطوال، أي: كشفته. وكل جلاء: كشف. ومنه جلاء العروس، ومنه الجلية: الأمر الواضح. والطلول: ما شخص من آثار الدار. وزبر: جمع زبور وهو الكتاب، فعول [67]، بمعنى مفعول [68]. زبرت الكتاب: كتبته، ودبرته. وتجد [69] أي: تجدد، أي يعاد عليها الكتاب بعد أن درست [70]. ومتونها: ظهورها وأوساطها، وأراد كلها ولم يخص المتون. والهاء في كأنها تعود على الطلول، وفي أقلامها تعود على الزبر [71].

يصف أن هذا السيل قد كشف عن بياض وسواد فشبهه بكتاب قد تطمس فأعيد على بعضه، وترك على ما يبين منه، فكأنه مختلف، وكذلك آثار هذه الديار» [72].

حين نتفحص هذا الشرح نجده قد مزج بين الشرحين مختارا ومنتقيا وموردا الألفاظ نفسها. وعند تحليله كنموذج لطريقة التبريزي في الشرح نلاحظ أنه وجد رواية البيت عند الشارحين متفقة، مع خلاف بسيط، فابن الأنباري قال: «عن الطلول»، بينما كانت رواية ابن النحاس «على

الطلول»، فاختار رواية ابن الأنباري لأنها أقرب إلى المعنى الذي ساقه ابن النحاس بقوله: «قد كشف عن بياض وسواد».. إلخ، هذا إذا سلمنا بأن ابن النحـــاس قد أورد «على الطلول» وليس هذا من تأثير النسّـــاخ، خاصة أن رواية ابن الأنباري هي الشائعة والمعروفة وقد وردت في الديوان والمصادر الأخرى. وهذه المرحلة أولى مراحل خطة التبريزي التي بينها حين قال إنه يصحح الروايات ويبينها.

وعندما تنتقل إلى الشرح نجده قد نقل عن ابن الأنباري إجماله لبعض معنى الشـــطرة الأولى «جلت الســيول التراب على الطلول» ثم يجمله في كلمـــة واحدة هي «كشـــفته» ويتابعه كذلك في شـــرح كلمة «جلا» ومعانيها وألفاظ ابن الأنباري وتعبيراته نفســها، وسقطت كلمة واحدة من قول ابن الأنباري «ومنه الجلية: الأمر البين الواضح»، أسقط التبريزي كلمة «البين» وهو حذف هين.

وبينما يواصل ابن الأنباري مفصلا الشـــرح في الطلل والرســم يغادره التبريزي منتقلا فجأة إلى شرح كلمة «زبر»: «جمع زبور وهو الكتاب» ناقلا النـــص بكلماته. ولما كان ابن الأنباري يميل إلى التفصيل موثقا المعاني عن طريـــق إيراد أقوال العلماء ومن في حكمهم، يتركه التبريزي مع تفصيلاته ليفتح شـــرح ابن النحاس ليقتنص تصريف كلمة، يسوقه ابن النحاس بهذه الصـــورة»: الزبر: الكتـــب، الواحد زبور، وهو فعول بمعنـــى مفعول، معناه: مزبورا أي مكتوبا، كما يقال: جزور بمعنى مجزور. أما التبريزي فحســـبه أن يقـــول: «فعول بمعنى مفعول»، فهو هنا أخذ أقل القليل مدخلا هذا في باب الاختصار، مع أن كلام ابن النحاس كان أقرب إلى توضيح التصريف.

ويعود مرة أخرى إلى ابن الأنباري وقد فرغ من توثيقه وشواهده لينقل عنه معنى القول «زبرت الكتاب: كتبته ودبرته قرأته»، حاذفا أيضا شواهده وتفصيلاتـــه مكتفيا بالكلمة ومرادفها، ليعـــود إلى ابن النحاس الذي انتهى من تصريف الكلمة السابقة لينقل شرح كلمة «تجد بمعنى تجدد»، ولا يجد في هذا الشـــرح البسيط ما يكفيه فينقل مثال ابن الأنباري القائل: «معناه: يعاد عليها الكتاب بعد أن درســـت»، ويتابع معه شرح كلمة «متونها: ظهورها وأوســـاطها»، ويأخذ عنه كذلك التعليل «فأراد كلها ولم يخص المتن»، وعلى

طريقة ابن الأنباري التوثيقية يتابع التوضيح مستشهدا ببيت لزهير، فيتركه التبريـزي متجها إلى ابـن النحاس المنصرف إلى شـرح الوجه الإعرابي، «والهاء في كأنها تعود على الطلول وفي أقلامها تعود على الزبر».

وفـي الختام لا يجد عند ابن الأنباري شـرحا مجملا لمعنى البيت كله فينقله كاملا عن ابن النحاس، وهكذا تتم عنده عملية الاختيار والاختصار والتوفيق والتنقل بين الشرحين ناقلا الألفاظ كما هي.

ونلاحظ أنه قد حقق الهدف الذي رسـمه، فقد شرح الغريب وتعرض للمشـكل من الإعراب وهو بسـيط في هذا البيت، بينما يطيل في أبيات أخرى، وصحح الروايات وألغى الاستشـهاد لعدم وجود المبرر بينما يبقيه في مواضع أخرى، وبداهة أنه قد حقق الاختصار.

إن النمـوذج الذي عرضناه قد زاوج بين الشـرحين بمهارة متجنبا كل استطراد وهو ما سجله على غيره في مقدمته.

ومن الأمثلة التي مزج فيها بين الشـرحين نختار هذا المثال من شـعر لبيد أيضا:

مِنْ مَعْشرٍ، سَنَّتْ لهمْ آباؤُهم ... ولكلِّ قوم سُنة، وإمامُها

يقول: هؤلاء الذين ذكرت من معشـر هذه العادة فيهم سنة. و«لكل قوم سـنة» معناه: سن لهم أباؤهم سنة وعلموهم مثال السنة. و«الإمام»: المثال. والسنة: الطريق والأمر الواضح.

ومعنـى البيت: أنا ورثنا هذه الأفعال عن آبائنا ولم يزل هذا الشـرف فينا متقدما [73].

هذا الشـرح القصير مقسـم إلى قسـمين: الأول منهما أخذه عن ابن الأنبـاري [74]. بنصه دون تغيير، بعد حذف صـدر الكلام ويبدأ بعد ذلك بالاختيار، فنجد مثلا أن ابن الأنباري يشرح مفسرا كلمة الإمام على النحو التالي: «والإمام: المثال». قال الشاعر:

أبـوه قبْلَـه وأبـو أبـيــه ... بَـنَـوْا مـجـد الحـيـاةِ علـى إمـام

معنـاه على مثال. الإمام: الكتاب والرسـول. قال اللـه عز وجل ﴿يَوْمَ نَدْعُـو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِـمْ﴾ [75]. وإمام: الطريق الذي يـؤتم به. قال الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنَّهُمَـا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ..﴾ [76]. يكتفي التبريزي من هذا كله

بالمحصلة النهائيـــة وهي «الإمام: المثال»، ويترك ابن الأنباري مسترســـلا لينقل بقية الشـــرح عن ابن النحاس الذي يمثل القســـم الثاني من الشرح فينقل سطرين، أولهما شـــرح كلمة سنة «السنة: الطريق والأمر الواضح»، وبينما يتابع ابن النحاس الشـــرح مسترســـلا مصرفا الكلمة ومستشـــهدا بالقرآن والأقوال المأثورة، يكتفي التبريزي بالنتيجة منتقلا إلى ســـطر آخر يشرح المعنى.

المثالان السابقان قدما لنا نموذجين للجمع بين الشرحين والمزج بينهما بتصرف معقول، ولكنه في حالات كثيرة يتبع الترتيب البســـيط حيث يأخذ معلومات تامة من أحد الشـــرحين ويكمل بعد ذلك من الشرح الآخر. وفي حـــالات كثيرة يتابع نقل الشـــرح من مصدر واحد مـــن دون أن يلتفت إلى الآخر إلا بعد عدة ســـطور أو أبيات، بمعنى أن يضع نســـخة الأصل أمامه فينقل منها باطراد شـــرح بيت أو أكثر ثم يعود إلى الشرح الآخر ناقلا منه ما يوازي نقله عن الســـابق هكذا من دون نظام أو ســـبب واضح اللهم إلا الاستســـهال مادام المرجع الذي بين يديه يوفر لـــه مادة يمكن اختصارها والتصرف فيها.

ولنختر نموذجا لهذا النوع من الشـــرح ينساق وراء أحد الشرحين، وليكن شـــرحه لأبيات من قصيدة زهير من البيت التاسع حتى الثاني عشـــر [77]. وفيـــه ينقل عن مصدر واحد وهو شـــرح ابـــن الأنباري، ولم يلتفت إلى شـــرح ابن النحاس إلا مرة واحدة ليشـــرح معنى كلمة واحـــدة وبلفظ واحد «العتـــاق: الكرام» وهذا خـــلال أكثر من ثلاثين ســـطرا، لا لشيء إلا لأن ابن الأنباري في شـــرحه المطول لم يتعرض لهـــذه الكلمة فقلب صفحات النحاس بحثا عن شـــرح لها ثم عاد إلى ابن الأنباري ليواصل نقله المطول، وســـنلاحظ أنه في البيت التاســـع وتحقيقا للاختصار لم ينتق من الشـــرح ما يحقق غرضه كما فعل في الأمثلة التي ضربناها من قبل، إنما نقل الســـطور العشـــرة الأولى مع حذف الباقي وهو يزيد قليلا عما سبق، وفيه معلومات جيدة كان في الإمكان إثباتها وحذف بعض ما نقله في الســـطور الأولى للمحافظة على الاختصار.

أما البيت العاشــر فنجده اختار شــرح بعض الكلمــات حاذفا الكثير ممــا ورد عند ابن الأنباري، مع ملاحظة أن بعض المعلومات مشــتركة بين الشــارحين، فيمكن القول إنه استفاد من قلة كلام ابن النحاس ليهديه إلى أهم النقاط.

ولنا هنا أن نتساءل عن ســوقه الغريب لبعض المعاني، ولنأخذ هذا السطر لنرى اضطراب الشرح عنده، فقد شرح معنى القيني بأنه نسبة إلى بني القين، وهذه كما نلاحظ نســبة وليســت شــرحا لمعنى الكلمة الــذي بينه ابــن الأنباري بوضوح حــين قال: «قول قينــي أراد غبيطا، وهو قتيب طويل يكون تحت الرجل، وقيني نســبة إلى القين» فالشــرح واضــح عند ابن الأنباري وغير مفيد عند التبريزي الذي شــرحه على أســاس الإيضاح وحذف الفضول، غير أن عينه كانت على ابن النحاس فاضطرب شرحه.

وحين نتابع شــرح هذا البيت أيضا نجد الاضطراب واضحا، انظر إلى هذا الســطر «ومفأم: واســع. وأراد غبيطا، والغبيــط يكون تحت الرحل، والقتب تحت المتاع»، لقد انتهى شرح كلمة مفأم بأنه الواسع، فما المقصود بقولــه، وأراد غبيطــا.. إلخ. وليس في كلامه ما يشــير إلــى هذا ولكنه اضطــراب التأليف، فالــكلام لا يتضح إلا إذا نقلنا هذا الســطر من ابن الأنبــاري «قوله قيني أراد غبيطا، وهــو قتيب طويل يكون تحت الهودج..» وهــو كلام يعقوب عند ابن الأنباري، ثم إذا نظرنا إلى رأي أبي جعفر عند ابن الأنبــاري أيضا إذن قال: «والغبيط يكون تحــت الرحل، والقتب تحت المتاع. فالقتب للإبل التي تحمل المتاع، والغبيط للرحال». وهذا الكلام، كله أو بعضــه يجب أن ينتقل من هــذا المكان ويتقدم إلى موقعه الطبيعي، وإلا فالكلام ينقصه الكثير من الترتيب والوضوح.

ويواصــل متابعته لابــن الأنباري في البيت الذي يليه، الحادي عشــر، فنجده التزم الحذف والاختصار فنقــل معنى «ركن»، واختصر الأمثلة مع تغيير بســيط، فقد قال ابن الأنباري «يقال اســلك طريق كذا وكذا. فإذا عرض لك طريق عن يمينك وشــمالك فورك فيــه، أي مل فيه ويقال: قد وركت موضع كذا وكذا إذا خلفته وراء أوراكها».

فاختصـــر النموذج الأول بعبـــارة من عنده قد تفـــي بالمعنى، وتابع نقل الألفاظ بذاتها من دون تغيير في شرح كلمة «المتن» وتعبير «عليهن» وأهمل ما عدا هذا قافزا إلى قوله والتقدير: «ووركن في السوبان عاليات متنه أي في هذه الحال» والعبارة قد توحي بأن السياق مقبول، غير أنه بعد التدقيق نجد أن هذه العبارة قد تكون غامضة إذا لم تسبقها جملة ابن الأنباري التي أهملهـــا التبريزي وهي «ويعلون، فيه ضمير الظعائن وتقديره تقدير الحال، فهـــو في موضع نصب في التأويل، والتقدير: ووركن في الســـوبان عاليات متنه. أي في هذه الحال» فهنا تستوي العبارة سليمة واضحة.

وهكـــذا نجد أن اختصارات التبريـــزي لا تخلو من هفوات كثيرة تخرج الكلام عن أصله وأن يسر في كثير من الأحيان بعض شروح الأبيات بصورة جيدة حين يحذف فضول القول أو استطرادات المؤلف.

ولنتابع التبريزي في نقوله عن ابن الأنباري في البيت التالي الذي نراه فيه قد اختار أولا رواية ابن النحاس للبيت وأهمل ما جاء عند ابن الأنباري وفيه خلاف بسيط، فابن الأنباري يرويه هكذا:

كأنَّ فُتَاتَ العِهن في كلِ منزل وَقَفْنَ به حب الفَنا لم يُحطَمِ

أمـــا الرواية الواردة عنده فهي نفســـها التي جـــاءت عند ابن النحاس وبقية الشـــروح الأخرى، كما أنها المعتمدة في الديوان ســـواء المنحدر عن ثعلب والأعلم علاوة على أن ابن الأنباري قد أشـــار إليها في ثنايا شـــرحه وهي تروى هكذا:

كأنّ فتاتَ العِهّنِ في كل مَنزلٍ نَزَلن به حَبُّ الفَنا لم يُحطَّم

لذلك اختار الرواية الأشـــهر وهو محق في هذا في الوقت نفسه الذي أشـــار فيه إلـــى الرواية الأخرى التـــي جاءت عند ابن الأنبـــاري، لكنه مع إهماله لروايته فقد تابعه في الشرح. وفي هذه المرة حذف مقدمات الشرح مع بعـــض المعلومات لينقل الكلام كله من دون تغيير يذكر، موردا أســـماء أصحاب الأقوال، مع أنه كان في كثير من الأحيان يتجاوزها، وليس لنا أن نســـجل عليه شـــيئا ما دام النقل حرفيا فإذا كان هناك من ملاحظات أو مأخذ فالمحاســـب عليه صاحب الكلام الأصلي ما دام قد جاء كاملا غير منقوص. ولكن لنا أن نشير إشارة إلى ملاحظة تكشف لنا أن التبريزي كان

مستغرقا في نقل ما جاء عن ابن الأنباري من دون أن تلفت نظره نقطة أثارها ابن النحاس، وهو مرجعه الآخر، فقد نقل كلام ابن الأنباري الذي يقول فيه: وقال الأصمعي «العهن: الصوف صبغ أو لم يصبغ، وهو هنا المصبوغ» ومع أنه حذف التعليل «لأنه شبه بحب الفناء»، فإن هذا يمكن أن يدرك من السياق العام. أما الذي نسجله فهو أن ابن الأنباري نسب هذا القول إلى الأصمعي، بينما قال ابن النحاس [78] «العهن - ها هنا الصوف المصبوغ، ويقال: لكل صوف عهن إلا في قول الأصمعي فإنه زعم لا يقال له عهن، حتى يكون مصبوغا»، وواضح أن كلام الأصمعي هنا مخالف تماما ومناقض لما نسب إليه عند ابن الأنباري فكان من الواجب على التبريزي الذي كان ابن النحاس أساسا من أسس شرحه ألا تغيب عن ذهنه هذه الملاحظة وينبه إليها لولا أنه كان مشغولا بالنقل من دون أن يلتفت إلى ما تحت عينيه.

وهكذا نلاحظ من عرضنا لشرح هذه الأبيات كيف أن التبريزي قد يدب فيه الكسل فيعتمد على أحد مصدريه ناقلا ما فيه من دون تدقيق، ولكنه سرعان ما يعود إلى المزج بينهما مقتطفا منهما على الطريقة نفسها التي بيناها سابقا.

وعلى المنوال نفسه قد يترك ابن الأنباري فترة لينقل سطورا عن ابن النحاس من دون أن يعير صاحبه الآخر أي اهتمام، ونشير إلى الأبيات من الثامن عشر حتى السطور الأولى من البيت الثاني والعشرين من قصيدة الحارث بن حلزة، فقد خرج عن المزج بين الشرحين، وسطر جل ما جاء في نسخة ابن النحاس مع حذف القليل من الإسناد والاستطرادات، ومثل هذا الأبيات من الرابع والخمسين حتى نهاية التاسع والخمسين من القصيدة نفسها، وينطبق على هذا النقل الأقوال السابقة نفسها، وهناك أمثلة كثيرة متفرقة حصرها صعب، أما عن اعتماده على ابن النحاس فنشير إلى أن الأخير قد شرح تسع قصائد، فزاد على ما في الشروح الأخرى قصيدة الأعشى:

وَدِّعْ هريرةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وهلْ تطيقُ وداعا أيُّها الرَّجُلُ

وكذلك قصيدة النابغة:

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ

لأنه رأى أكثر أهل اللغة يذهب إلى أن أشعر أهل الجاهلية امرؤ القيس والنابغة والأعشى [79]، لذلك اهتم بشرح هاتين القصيدتين مع إهمال بقية الشرّاح لهما، لهذا لم يجد التبريزي مرجعا آخر يعتمد عليه سوى ابن النحاس فنقل ما في شرحه، وحين نقارن بين الشرحين سنجد أنه ليست هناك حاجة إلى قول مفصل في هذا الموضوع، خصوصا أن محقق «شرح القصائد العشر» الدكتور فخر الدين قباوة قد تتبع النقل في الكتاب كله، مشيرا إلى هاتين القصيدتين على الخلاف البسيط جدا بين كلام التبريزي والأصل المنقول عنه.

أما طريقته في الاختصار فهي نفسها التي تعرضت لها سابقا في بعض النماذج، مع ملاحظة أنه هنا في اختصاره محكوم بالأصل الواحد الذي اعتمده، فأحيانا يكون الشرح وافيا لا زيادات فيه ولا فضول فيضطر إلى إيراده كاملا، وأحيانا يكون الأصل ذاته مبتسرا قليل الغناء فيورده التبريزي كما هو من دون أن يضيف جديدا، وفي بعض الأحيان يقتطع كلاما بسيطا من مجمل الشرح ولا نجد مبررا واضحا لهذا ولا نريد أن نكثر من الأمثلة فالمطبوعتان بين الأيدي يمكن مقارنة أي بيت بينهما.

وتبقى القصيدة الوحيدة التي انفرد التبريزي بشرحها مكملا العشر بها وهي بائية عبيد بن الأبرص، ونحن لا نعرف لماذا أضافها من دون غيرها من القصائد، فقد زاد ابن النحاس القصيدتين المكملتين للتسع وبرر هذه الزيادة، أما التبريزي فقد سكت عن التوضيح.

أما شرحه لهذه القصيدة فهو قليل الفائدة وبسيط جدا وقد يتجاوز عدة أبيات من دون شرح، وإذا عرض لبعض الأبيات فغالبا ما يكون شرحا فقيرا لا جديد فيه ولا يزيد على إيراد الروايات الأخرى مع شرح الألفاظ كلها أو بعضها شرحا بسيطا لعله لفّقه من عدة مصادر أو الملاحظات المرافقة لشعر عبيد بن الأبرص من المجموعات الشعرية أو من الديوان، فتصدق عليه ملاحظات أحمد جمال الدين هاشم العمري حين قال: «أما معلقة عبيد بن الأبرص، فقد تاه التبريزي وحار بين أبياتها لا يجد ما يقول». انظر تفسيره على مطلعها:

أَقْفَرَ مِنْ أَهلِهِ مَلْحُوبُ   فَالقُطَبِيّاتُ فَالذَّنُوبُ

هذه كلها مواضع [80]. أما بقية أبياتها فتكاد تكون عاطلة من الشرح، ليس عليها سوى تعليقات طفيفة [81].

ولكننا سنختار بيتا نال حظا وافرا من الشرح من دون سواه حين حاول التبريزي أن يفصل بعض الشيء لنرى كيفية تصرفه، يقول في شرح هذا البيت:

أفلح بما شئت، فقد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب

ويروى: «أفلج» بالجيم و «أفلح» بالحاء: من الفلاح وهو البقاء. أي عش كما شئت، ولا عليك إلا نبالغ، فقد يدرك الضعيف بضعفه ما لا يدرك القوي، وقد يخدع الأريب العاقل عن عقله، ويروي: «فقد يدرك بالضعف».

قيل: سأل سعيد بن العاص الحطيئة: من أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول:

أفلحْ بما شِئْت.. البيت [82].

فهذا الشرح حين ننظر إليه نجده يبدأ بالتنبيه إلى رواية أخرى هي «أفلج» وهذه رواية واردة في «منتهى الطلب» [83]، ويأتي برواية أخرى هي «فقد يدرك بالضعف» وهذه أوردها صاحب «الجمهرة» [84]. أما شرح المفردات فقد قال «أفلح من الفلاح وهو البقاء» أي : عش كيف شئت [85]، ولا عليك إلا تبالغ... إلخ، وهذا المعنى نفسه أورده صاحب الجمهرة قال «أفلح، أي عش، والفلاح البقاء، أي كن كمن شئت. وبعدها عبارة عامة ثم يأتي بخبر بسيط متعلق بالبيت قد يكون منقولا عن أصل قديم.

وهكذا نرى التبريزي قد تطبع بطريقته فلم يستطع الفكاك منها فحدت من قدرته على الاجتهاد والإبداع.

إن من كان هذا سلوكه في كتابه الشروح قد يقع في مزالق واضحة مهما كان حرصه وبلغت دقته، وقد وضحت بعض هذه المزالق في النماذج التي عرضتها من قبل، ولنعبر هنا إلى بعض الهفوات التي سجلتها بجانب إشارات وتنبيهات المحقق في تتبعه لنقوله: مثلا شرحه لبيت لبيد.

باتت وأسبَلَ واكِف منْ ديمةٍ   يروى الخمائلَ دائما تَسْجامُها

ففي هذا الشرح نقل عن ابن النحاس وفيه وقفة إعرابية يقول فيها ابن النحاس: وفيه من النحو أنه لم يأت لـ «باتت» بخبر فالمعنى باتت بهذه الحالة، ثم حذف لعلم السامع ويجوز أن يكون «باتت» بمعنى دخلت في

المبيـت، فلا يحتاج إلى خبر كما تقول: أصبح إذا دخل في الإصباح، وهذا توجيه إعرابي أورده ابن النحاس الذي اكتفى بهذا وواصل شـرحا منتظما في خط آخر. أما التبريزي فبعد أن نقل هذا ترك ابن النحاس وذهب ينقل شرح البيت التالي له عن ابن الأنباري وهو:

تجتاف أصلا، قالِصا، مُتَنبذا ... بعُجوب أنقاء، يميلَ هَيامُها

وفي هذا النقل ينسى أنه قد انتهى من إعراب «باتت» وأفتى سابقا بأن الشـاعر لم يأت بخبر لها وعلل هذا، يعـود هنا ليقول: «تجتاف» موضعه نصب فـي التأويل على معنى باتت مجتافة أصلا [86]. والسـبب في هذا واضح، فإذا كان ابن النحاس له رأي في الإعراب فإن ابن الأنباري له رأي يخالفه أثبته في شـرحه فما كان من التبريزي غير أن نقل التوجيهين من دون أن يحس تناقضا بينهما.

وقد يكون اختصاره مخلا في بعـض الأحيان بالمعنى أو التوجيه العام للمشكلة المعالجة، خذ مثلا تعليقه على بيت امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انْجَلي ... بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

يقول «ألا انجلي» في موضع السكون، وشبه إثبات الياء فيه بإثبات الألف في قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى﴾ [87]. وبإثبات الألف أيضا في قوله:

إذا الجَـوْزاءُ أردفـتِ الـثُريـا ... ظننت بـآل فاطمة الظنونا

وبإثبات الياء في قوله:

ألـم يـأتيـك والأنـبـاءُ تَـنْـمـى ... بمـا لاقـت لـبـونُ بـنـي زيـادِ

وبإثبات الواو في قوله [88]:

هجوتَ زبان ثم جئتَ مُعتذرا ... مَنْ سَبَّ زبانَ، لم تهجو ولم تدعِ

لقد نقل عن ابن الأنباري الشـواهد كلها، غير أنه اختصر العبارة التي ساقها بين يدي هذه الشواهد فتغير وجه التعليل، فليس ثبات الياء قياسا على هذه الشـواهد، إنما هناك قاعدة تنتظمهـا كلها بما فيها بيت امرئ القيـس، والعلة كما أثبتها الأنباري وحذفها التبريزي هي: «وموضع انجلى جزم على الأمر، علامة الجزم فيه سـكون اللام في الأصل، ثم احتاج إلى حركتها بصلة لها، ليستوي وزن البيت، فكسرها، ووصل الكسرة بالياء».

قال الفـــراء: العرب تصل الفتحـــة بالألف، والكســـرة بالياء، والضمة بالواو. ومن ذلك [89].

وهنـــا يتضح الفرق بين عبارة التبريـــزي المخلة بالقصد، وقد ألغى من الكلام نقطة مهمة وجاء بالشـــواهد التي لا تتضح فائدتها إلا حين يسبقها ذلك القول، لذلك يمكن القول إنه لم يكن موفقا في اختصاره.

إن الســـير وراء هفـــوات التبريزي لا يمنعنا من الإشـــادة بقدرته على الاختصـــار والتركيز، فهو حقا يســـتحق أن يكون معلما يقرب الأصول إلى طلبتـــه، ولكن من الظلم للحقيقة أن نعده مؤلفا، فزاوية الإشـــادة تأتي من مساهمته في وضع شروح الشعر الجاهلي في صورة مبسطة مستفيدا من الجهود السابقة مختارا ما يحتاج إليه طالب العلم.

لذلك إذا تجاوزنا الســـابق فلن نجد له من مساهمة في داخل الشروح إلا من بعض الملاحظات نســـجل نماذج منها للتدليل على نوعية تدخله في الشروح. فنحن نجده مثلا فيما يتعلق بقضايا الشكل ينبه إلى بحر قصيدة امـــرئ القيس ولبيد بينما أهمل القصائد الأخرى من دون ســـبب واضح، ونـــراه يبدي رأيا، في هذا الجانب معللا فقد رجح ابن النحاس رواية بيت امـــرئ القيس القائلة: «ألا رب يوم لـــك منهن صالح» على الرواية الأخرى القائلـــة: «ألا رب يوم صالح لـــك منهما» وتابعه التبريـــزي، غير أنه يعلق مضيفـــا: وأجـــود الروايات «ألا رب يوم لك منهن صالـــح» على ما فيه من الكف وهو حذف النون من مفاعيلن [90].

ومثـــل هذا تعليقه على قول زهير: «يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر» فنقل رأي ســـيبويه عن ابن النحاس من أنه مـــردود إلى أصل الأفعال: ويفسر التبريزي الكلام قائلا: «يعني أنه مرفوع غير أنه سكن الراء من يؤخر تشـــبيها بقوله: «فاليوم اشرب غير مستحقب» يريد: اشرب غير مستحقب، فسكن الباء، وهذا الإسكان إنما هو إشمام لا سكون خالص ولا ضم خالص» [91].

وفي مجال شـــرح البيت كله زياداته عبارة عن شـــرح معنى لفظ عام لم يعره الشـــارحان اهتماما، ونادرا ما يزيد هذا علـــى كلمة أو كلمتين لا تأثير لهما في سياق الشرح.

ويورد اجتهاداته بعد أن يعرض الآراء السابقة، مثلا بيت امرئ القيس أيضا:

تقولُ وقد مالَ الغبيط بنا معا　　عقرت بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ

فقد قال - وهو نص ابن الأنباري[92] - «وقوله عقرت بعيري، قال أبو عبيدة: وإنما قالت: عقرت بعيري، ولم تقل «ناقتي» لأنهم يحملون النساء على الذكور لأنها أقوى وأضبط. والبعير يقع على المذكر والمؤنث «وهنا ينتهي كلام ابن الأنباري فيضيف مجتهدا» وإذا كان كذلك فلا فرق بين أن تقول بعيري وأن تقول ناقتي، لأن البعير يقع عليهما».

والجملة في قوله «وقد مال الغبيط بنا معا» في موضع الحال. وقوله «عقرت بعيري» مفعول «تقول».

وإنما مال الغبيط لأنه انثنى عليها يقبلها فصارا معا في شق واحد [93].

وهو اجتهاد بسيط لا جديد فيه إلا محاولة التبريزي المساهمة المباشرة، بالشرح وفي درجة هذا إشاراته إلى ترابط بيتي زهير:

تُعفى الكلوم بالمئينَ، فأصبحتْ　　يُنجِّمها من ليس فيها بمُجْرِمِ

يُنجِّمها قومٌ لقومٍ غرامة　　ولم يهريقوا بينهم ملء محجمِ

فقد أضاف لتفسير البيت الثاني قائلا: وهذا البيت تفسير للذي قبله [94]. وقد أهمل الشارحان الربط بينهما، ولعلهما أحسا وضوح الترابط بينهما، فتدخل التبريزي بهذا الإيضاح الذي ينبه المتعلم - ولا شك - إلى تتابع الأبيات وترابطها.

ومن محاولاته في التفسر قوله حول بيت امرئ القيس:

تَصُد وتُبْدِي عَنْ أسِيلٍ وتتقي　　بناظرةٍ من وحْش وَجْرَة مُطْفلِ

فبعد أن ينقل أهم النقاط الموجودة في مصدرية الرئيسيين يقول: «ومعنى البيت: أنها تعرض عنا استياء وتبسم فيبدو لنا ثغرها. وتتقي أي: تلقانا بعد الإعراض عنا بملاحظتها كما تلاحظ الظبية طفلتها، وذلك أحسن من غنج المرأة» [95]. وهو اجتهاد، وإن لم ينقله عن مصدر مباشر، غير أنه قد استوحاه من الملاحظات المختلفة التي حفل بها الشرحان الرئيسيان.

ولا تخـــرج اجتهاداتـــه الأخرى عن هـــذا الخط، يســـيرة كما عرضنا وبســـيطة وعامة في دلالاتها، وجل القول في شـــرحه أنه نســـخة أحسن اختصارها من مصدرين أكثر من الاســـتطراد. وقد كان كل هدفنا هنا أن نســـجل نوعية اختصاره، أما اجتهاده فهو أقل من أن ينال حظا كبيرا لولا هذا الاسم الكبير والمشهور.

* * *

ثانيا: أبو منصور الجواليقي [96]:

يمثل الجواليقي الامتداد المباشر للتبريزي تمثل فيه علمه وطريقته في أكثر كتبه، ويعنينا هنا الوقوف فقط عند شـــرحه للقصائد السبع الذي أســـماه «الســـبع الطوال بغريبها» [97]. وهو شـــرح مبسط جدا يصـــل إلى الاقتضاب ويقع في خمس وخمســـين ورقـــة فقط أي مائة وعشـــر صفحات، ومتوسط عدد سطور كل صفحة سبعة عشر سطرا ومتوســـط كلمات كل سطر تسع كلمات. وهو كما نلاحظ كتيب صغير ضـــم مع التعليقات البســـيطة نصـــوص القصائد الســـبع التي انعقد الاجتماع حولها.

ونلاحظ أن عناية الجواليقي بالشرح محدودة وبسيطة من حيث طبيعة التناول وحجمه فلا يزيد في أحسن حالاته على سطور قليلة لا تزيد على ستة أو سبعة سطور، ويتناول جوانب عامة وشكلية دائما، ويقل شرحه في الأغلب الأعم فيصل إلى كلمة أو كلمتين، وفي أحيان كثيرة يعرض الأبيات من دون أي تعليق وقد يعرض لبيتين يشـــرح أحدهما ويترك الآخر وهكذا. وهذا الإضراب عن الشـــرح، أو التعليق بلفظ أدق، قد يشـــمل أبياتا عدة وهذا كثير، وحســـبنا أن نشـــير إلى أنه في قصيدة عنترة مثلا تجاوز عن شرح أبيات كثيرة تصل إلى أكثر من نصف القصيدة التي تضخمت عنده، وينطبق هذا على قصيدة عمرو بن كلثوم، وتتفاوت بعد ذلك حظوظ أبيات القصائد الأخرى مما يمكننا من القول بأن شرحه لا يزيد على كونه نسخة لنص القصائد السبع مضافا عليها بعض التعليقات البسيطة مستمدة من الشروح المعروفة.

وحتى في مجال التوثيق، بالنســبة إلى هذه القصائد، لا يمكن اعتباره نصــا موثقا يعتمد عليه اعتمادنا على نصوص التبريزي الذي كان يتحرى الدقة في النقل - على الأقل - عن العلماء المشهود لهم، فمع أن الجواليقي كان يســير في ركب التبريزي فإنه لم يقتد بأســتاذه في هذا، فهو يتهاون مــوردا أبياتا لم يعتد بهــا العلماء، وواضح أنها من المزيد غير المتفق عليه، وخير مثال واضح على هذا ما نلمســه من زيادات غير معقولة في قصيدة عنترة التي تضخمت أبياتها.

أما شــرحه فــلا يزيد على تلخيص لشــرح التبريزي، مقتصا شــرح المفردات أو العبارات عنه، وواضح أنه لم يرجع إلى الأصول الأولى، لذلك لا نجد شيئا ذا بال يمكن عرضه أو مناقشته، فقد اعتمد فقط على نسخة أســتاذه، وقد عرفناها ســابقا، فاختصرها؛ لذلك نراه يسند الأقوال إليه وليست هي كذلك، يقول في شرح بيت عمرو بن كلثوم:

وإن غـدا وإنَّ الـيـوم رَهــن   ويـعـد غـد بمـا لا تَعلمينا

يقول: «قال الشــيخ الإمام أطال الله بقاءه عن هذا البيت: إنه قد علق قلبــي بهذه المرأة، والأقدار تأتــي، ولا أدري ما يكون من أمرها» [98]. هذا النص يوحي بأن الجواليقي ســمعه من أســتاذه، ولكن هذا النص موجود بكلماته في شــرح التبريزي [99]. وهو منقول عن شــرح ابن النحاس [100]، وهذا يدل على أن الجواليقي لم يرجع إلى أي مصدر آخر، وإلا فهذا شرح ابن النحاس كان يســتطيع مراجعة القول ونسبته إلى صاحبه بدلا من أن يقول إنه من قول الإمام.

هذان نموذجان نقدمهما ليمثلا لنا طريقته في الشرح، وفيهما غناء لمن يقارنهما بشرح التبريزي.

لَعمرُكَ إنِ الموتَ ما أخطَأ الفتَى   لَكالطوِل المرخَى وثنياه باليَدِ

الطــول: الحبل. وثنيــاه: ما ثنى منه. وقوله: ما أخطــأ الفتى: أي في إخطائــه الفتى في أن يطول عمره، بمنزلــة حبل ربطت به دابة يطول لها في الكلأ حتى تراه. فيقول: الإنسان قد مد له في أجله وهو آتيه لا محالة وهــو في يد من يملك قبــض روحه، كما أن صاحب الفرس الذي قد طول له إذا شاء اجتذبه وثناه إليه» [101].

فهذا النص منقول حرفيا عن التبريزي [102]، ونلاحظ أنه نقل الشرح بألفاظه من دون تعليق أو إضافة، فقط حذف عبارتين من التبريزي هما «ويقال: طرفا، لأنهما يثنيان»، والعبارة الأخرى هي «وموضع «ما» نصب وهو في تقدير المصدر».

واحْبُ المَجامِلَ بالجزيلِ وصرْمه باقٍ إذا ضَلعَت وزاغَ قوامُها

«المجامل: الذي يجاملك بالمودة ظاهرا وسره على خلاف ذلك. وأحب: من الحبا وهو العطية. وقوامها: ما تقوم به. وضلعت: مالت وجارت: أي إذا مالت مودته أضمر المودة ولم يجر لها ذكر. يقول اخصص من يظهر لك جميلا بأكثر مما يظهره لك».

«وصرمه باق: أي ثابت وقطيعته ثابتة عندك لا تظهرها فاستبقه ولا تعجل له بالقطيعة» [103]. فهذا النص فيه حذف كثير، فقد جرد الشرح من كل إضافة مقيدة أو استطراد زائد مكتفيا بكل الشرح العام، وحين نقارن هذا الشرح بما عند التبريزي نلاحظ:

1 - حذف الرواية الأخرى وما يتعلق بها.

2 - حذف رواية أبي الحسن «بن كيسان» وما يتعلق بها.

3 - حذف بعض الكلمات البسيطة المفسرة.

4 - حذف قول التبريزي «حبوته»، إذا خصصته بالعطاء».

5 - حذف كذلك قوله «والواو في قوله وصرمه باق واو الحال، وزاغ: مال، والزيغ الميل»:

وهذه إضافات تفيد المعنى العام ولكن الجواليقي اكتفى بالتعليقات العامة لهذا الشرح، مسقطا كل ما كان يراه بعيدا عن النص، فهو حقا تلخيص للتلخيص.

وبهذا الشرح تتم حلقات الشروح الملفقة التي اهتمت بالاختصار والتيسير مع نقل كل ما أثر عن القدماء، وبها وعلى نهجها سارت الشروح التعليمية في العصور المتأخرة.

3

نص المعلقات بين يدي الثقافة اللغوية

«لا نريد في دراستنا لمناهج الشرّاح القدماء أن نزج بهذا المفهوم أو ذاك، لأن لكل عصر أحكامه ونظرته وثقافته، فمن العسير إقحام أعقد النظريات الفنية عند أصحاب المنهج اللغوي من المحدثين وربطها بطريقة العرب القدماء»

المؤلف

قبل الدخول في الحديث عن أصحاب المنهج اللغوي من شرّاح القصائد السبع يستحسن الوقوف عند هذه التسمية حتى تكون واضحة المعالم لا لبس فيها، فمصطلح «المنهج اللغوي» تحيط به مفاهيم عدة، وهذا يستدعي تحديد الجهة التي ننطلق منها في استخدام هذا المصطلح.

إن هناك خطا عاما ورئيسيا تلتف حوله كل التيارات المختلفة داخل هذا المنهج، فكلهم، قديما وحديثا، يتفقون على أن دراسة الأدب يجب أن تعنى بمادته الرئيسية وهي اللغة، ومن هذه الأرضية ينطلق أصحاب هذا المنهج نحو إزالة إبهام الكلمات من خلال تقصي معناها ودلالتها وموقفها المتميز في النص.

ويرى المحدثـون من أصحاب هذا المنهج أن النظـر إلى النص من خلال مادته الرئيسية، اللغة، أمر بديهي لا يحتاج إلى بيان، وطرح هذا من جديد في العصر الحديث ليس من جهة التقرير، لكنه رد فعل ضد عشـرات النظريات التـي رافقت تحليل الأدب في العصور الحديثـة، حين مد النقاد نظرهم إلى علم النفـس والاجتماع والاقتصاد، وتشـعبت الدراسـات القائمة على هذه النظريات، فأوغل أصحابهـا كثيرا داخلين إلى دقائق هذه العلوم، فأدى هذا إلـى إهمال طبيعة العمل الفنـي وابتعدوا عن مهمة التحليل الفعلي له. لذلك قامت ردة الفعل هذه تدعو إلى التركيز: «أولا وقبل كل شيء على تلك الأعمال الفنية ذاتها. إن المناهج القديمة في علم البلاغة، أو النظريات الشـعرية، أو العروض يجب أن تراجع ويعاد تقريرها في مصطلحات حديثة» [1].

والعـودة من جديد إلى الأسـاس الذي انطلقت منه دراسـة الشـعر والتركيز على عناصره الأساسـية لا تعني عودة الأساليب القديمة بل هي عودة مشـبعة في أعماقها بتراث ضخم من النظريات والمعارف التي تعمق النظـرة القديمة، فتطرحها من خلال منظار حديث، وهذا ما نلمسـه في دراسات أصحاب هذا المنهج من المحدثين.

في داخل إطار المنهج اللغوي الحديث تتدرج اتجاهات كثيرة، فكل ناقد أو مجموعة من النقاد نظروا إلى القضية من زاوية مختلفة، فالناقد الإنجليزي «أ. أ. ريتشاردز» ركز على علم دلالة الألفاظ وتطورها، فأجرى دراسة عملية لكيفية قيام الكلمات بإيصال المعنى، فأصدر بالاشتراك مع «س.ك.أ وجدن» كتاب «معنى المعنى» الذي درسا فيه اللغة من هذه الوجهة.

وقد واصل «ريتشـاردز» دراسـاته المختلفة حول هـذا الموضوع حتى وصل إلى نتائج واضحة عن ماهية الأدب واسـتخدامه للغة واختلافه عن الاستخدام العلمي لها، ليصل بعد ذلك إلى أن الأدب يمثل نوعا من التوافق النفسـي عند الكاتب، وأن القارئ إذا عرف كيف يقرأ جيدا اسـتطاع أن ينقل هذا التوافق إلى نفسه. ويصر «ريتشاردز» على هذه القراءة المتعمقة الجيدة، لأنها هـي التي تستطيع أن تستقبل القيمة الحقيقية للعمل الفني. وهذا الإصرار على القـراءة الجيدة كان له أكبر الأثر على النقد الحديث الذي دعا إلى المزيد من الاهتمام بقراءة النص قراءة جيدة [2].

ومع أن «أ. أ. ريتشـــاردز» كان مهتما اهتماما خاصا بلغة الشعر ودلالات الألفاظ فإن اهتمامه بدراسة أحوال متلقي الشعر ودراساته للاستجابات المختلفـــة للقراء، وتركيـــزه على أحوالهم النفســـية، يجعله صاحب نظرية نفســـية في فهم الشعر وموسيقاه، وتركيب الألفاظ ودلالاتها، ولكن نظرته المعتمـــدة على علم النفس أفادت كثيرا أصحاب المنهج في قراءة النصوص التي كان يحرص عليها حرصا واضحا.

ويتضح المنهج اللغوي عند أصحاب المنهج الموضوعي الذين ركزوا على دراسة الأثر الفني كأنه كائن مستقل تدرس خصائصه بعيدا عن شخصية الأديـــب والعوارض الخارجية، فأنصار هذا الاتجاه الموضوعي يبحثون في البناء الفني للقصيدة ويفحصون لبناته فحصا دقيقا من دون الدخول إلى أي شيء خارجي يتصل بالمجتمع وعلاقاته، محللين الشعر تحليلا دقيقا لا يخرج عن كيانه وجوهره اللفظي المعنوي التصويري.

وأهـــم اتجاهات النظـــرة الموضوعية ذلك الاتجاه الـــذي تمثله جماعة النقـــد الجديد في أمريكا، ومن أبرز أعلامها رانســـوم آلن تيت وويمزات وكينث بيرك الذيـــن تتجه بحوثهم اتجاها لغويا بلاغيا، ويعنون بما تحمله ألفـــاظ الأديب من رموز، وما في النص الأدبي من مفارقات، ويتســـع في تحليل العناصر اللفظية والأســـلوبية، متعقبا سياق الألفاظ ومواطنها من الكلام ومقارنا بين اســـتعمالاتها حين تدل علـــى أفكار ومواقف وعلاقات وصور. ويتســـع بتحليله النحوي فيبحث في علاقات التراكيب وفي فواتح الشـــعر والنثر وفي الوصل بـــين العبارات، ويبحث في الألفاظ المشـــتركة متعمقا في بحث بلاغة الأسلوب ودلالات الحروف [3].

وفي زمن مواز كانت النظرية الحديثة، الشـــكلية الروســـية والبنيوية، تأخذ مكانها لتســـود الســـاحة النقدية وتطرح مقولاتها التي أصبحت من المعلوم المشهور في الثقافة النقدية العربية في العقود الثلاثة الأخيرة.

فهـــذه عودة إلى النظرة اللغوية الفنية القديمة التي كانت محل اهتمام القدمـــاء من النقاد والبلاغيين واســـتوت منهجا متكاملا عند عبد القاهر الجرجاني [4]. وكانت مدار دراســـات من جـــاء بعده حتى وصلت إلى تلك القوالب المحفوظة.

هذه خطوات عامة لاتجاهــات أصحاب المنهج اللغوي الحديث، ولا نريد في دراستنا لمناهج الشرّاح القدماء أن نزج بهذا المفهوم أو ذاك، لأن لكل عصر أحكامه ونظرته وثقافته، فمن العسير إقحام أعقد النظريات الفنيــة عند أصحاب المنهج اللغوي من المحدثين وربطها بطريقة العرب القدمــاء. ولكن الجامع الأساســي الذي يلتقي حولــه أصحاب المنهج الواحد هو ذلــك الأصل الملتف حول الثقافة اللغويــة، وبعد ذلك فلكل عصر حظه من الثقافة.

إن الشروح العربية القديمة للشعر، تعتمد أساسا على الفهم اللغوي للنــص، هذا الفهم الذي تكون أبســط صوره شــرح المفردات ثم تتعمق النظرة لتصل عنــد النقاد والبلاغيين إلى مســتوى عميق بالغ الجودة كمــا تمثلت في نظريــة النظم عنــد عبدالقاهر. ومنهــج اللغة بمعناه الاصطلاحي وعلومه وفهم قوانين اللغة وتراكيبها وصلتها بالأداء الفني هو الأســاس الذي قامت عليه الشــروح الثلاثة التي ســنعرض لها في هذا الفصل وهي: «شــرح ابن كيســان» و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري و«شــرح القصائد التســع المشــهورات» لابن النحاس، فهذه الشــروح الثلاثة تتبع أســلوبا واحدا في تناول النص مع تميــز كل واحد منها بخصائص لصيقة به. ويمثل ابن كيســان المقدمة الطبيعيــة للشــرحين الآخرين، فقد جمع في شــرحه خصائصهما في صورة أولية، لتتضح بعد ذلك فيها أحسن تمثيل، بينما تتقارب شخصية ابــن الأنباري وابن النحاس، فكلاهما لــه اهتمام واضح بالعلوم اللغوية تدريسا وتأليفا، وكلاهما ارتبط بمدرسة ذات اتجاه لغوي متميز معروف، فابن الأنباري اســم بارز حين تعد أسماء رجال المدرسة الكوفية، ومال ابن النحاس إلى المدرســة البصرية، هذا مع وجود مرونة واضحة عند الاثنين في تناول القضايا اللغوية.

وهمــا يعتمدان النظــرة اللغوية للنص من خــلال تتبع التفصيلات اللغوية التي تمثل أساسا أوليا للفهم، وهذه النظرة قد تضيق منحصرة في مجــال الحــد الاصطلاحي لعلــوم اللغة من نحــو وصرف وجس خفيف للمعنى. وقد تكون النظرة أكثر اتساعا فتشمل الفهم الحي للغة

بدلالاتها وتاريخها ومعطياتها العميقة للمعنى وكيفية استخدام الشاعر لها وتتبع التفصيلات الكثيرة المتصلة بالفهم اللغوي، وهذا ما يقدمه لنا الشارحان في شرحيهما.

والمنهج اللغوي، في حدوده المعقولة الخاصة بعصرهما، هو الذي ينتظم فيه هذان الشرحان اللذان يمكن اعتبارهما أهم شرحين للقصائد السبع، فقد جمعا حصيلة جهود العلماء السابقين الذين ساهموا في جمع هذه القصائد والتعليق عليها. وقد ظلت تلك الملاحظات متناثرة لا يجمعها جامع حتى جاء هذان الشارحان ليكونا المرآة الحية لعصرهما التي عكستها وصهرتها وأقامتها بناء جيدا ومعقولا، لذلك لم يستطع من جاء بعدهما التخلص من إسارهما، فهذان الشارحان هما المرجعان الرئيسيان، ليس فقط لنصوص القصائد السبع أو التسع، ولكن لكل ما أحاط بها من معلومات ساعدت على فهمها، وقد جاءت هذه المعلومات عن علماء كانوا أكثر التصاقا بهذه النصوص فهما ودراية، لذلك كانت ملاحظاتهم أصلا عزيزا لمنطلقات الفهم.

ومع أن هذين الشرحين متفقان في المنهج العام وفي المعلومات الأساسية التي يستخدمانها في شرحيهما فإنهما من جهة أخرى يختلفان في التفاصيل الدقيقة وفي ذوق كل واحد منهما، فابن النحاس يغلب عليه الفهم اللغوي في حدود ضيقة قياسا على طريقة ابن الأنباري، فهو معني بحدود اللغة الاصطلاحية من نحو وصرف وما يدور حولهما من معارف. ويرى أن إشباع التفسير في هذه العلوم وتقصيها يعني أن الشرح قد اكتملت أطرافه. ومن خلال هذا الخط العريض البارز يقدم شرحه من دون أن ينسى المعارف الأخرى من تفسير للمعنى والاستشهاد بالشعر والتنبيه على العلوم البلاغية وتبيين الحوادث التاريخية، كل هذه متوافرة في شرحه، ولكنها تأتي في الدرجة الثانية بعد علوم اللغة.

أما ابن الأنباري فيشاركه في عموم الجزئيات لكنه يختلف في طريقة التناول، فهو أكثر حرصا على التوازن بين تلك المعارف كلها، فاستوى الفهم اللغوي عنده فهما شاملا لكل ما يحيط بالكلمة الشعرية، وبجانب التوازن نجد ذلك التفصيل الواضح في تقديم كل تلك المعارف، فيشبعها عرضا

وتقديما في إطار متسع، فيقدم لنا فهم الكلمة الشعرية ضمن وسطها اللغوي والفني والتاريخي والاجتماعي والسياسي، فتكتمل الصورة أمام القارئ. وهذا لا ينفي أنه تستهويه النظرة اللغوية أحيانا، ولكنه لا يفقد نظرته المتسعة للنص.

وضمن هذين الخطين في التناول يمكن أن نضع كل واحد منهما تحت تسمية تجمل اتجاهه، فابن الأنباري كان ممثلا للمنهج اللغوي العام، بينما يمثل ابن النحاس المنهج اللغوي الخاص، وضمن هذين الإطارين سنعرض لهما موضحين المنهج العام الذي يشملهما، مع تأكيد أنهما لا يختلفان في نوعية ما يقدمانه من معلومات، ولكن يتباينان في كيفية التناول والعرض واختلاف كل واحد عن الآخر في عنصر التركيز والاهتمام... ونبدأ بسابق لهما:

ابن كيسان[5]:

يمثل شرح ابن كيسان المقدمة الطبيعية لأصحاب المنهج اللغوي من الشرّاح، فهو أحد الشروح المبكرة التي تعود إلى أواخر القرن الثالث، وفي شرحه اجتمعت الأسس الأولية لأهم شرحين عرفناهما وهما شرح ابن الأنباري وشرح ابن النحاس، وقد كان مصدرا أساسيا للشرح الثاني، فنقل عنه كثيرا من رواياته واجتهاداته وآرائه، لذلك فالبدء به يعني تسليط الضوء على مقدمات هذا المنهج في شرح النصوص. ومع الأهمية الخاصة لهذا النص فليست بين أيدينا نسخة كاملة منه، فالقطعة الموجودة في برلين ناقصة ومضطربة لا يعتمد عليها. وقد عرف «بروكلمان» هذه النسخة بأنها شرح لمعلقات امرئ القيس وطرفة ولبيد وعمرو والحارث[6].

وهذا التعريف غير دقيق، فالنسخة المصورة المأخوذة عن هذه النسخة ناقصة، ويبدأ الشرح فيها من البيت الثاني من معلقة امرئ القيس حتى السادس منها ثم يأتي سقط حتى البيت التاسع عشر، ومنه حتى البيت التاسع والعشرين، ثم يأتي سقط آخر يبدأ بعده البيت الرابع والسبعون من معلقة طرفة، وفق ترتيب ابن النحاس - أي مع نهاية المعلقة - ثم

تأتـــي قصيدة عمرو بن كلثوم كاملة، وإن اضطرب ترتيبها بعض الشـــيء. وفي ختامهـــا يأتي النص التالي: «قال أبو جعفر محمد بن نصر بن غالب (الغالبي): إلى ها هنا أملى علينا أبو الحســن بن كيســان، رحمه الله، ما فســر من هذه القصائد وهي خمس قصائد، ثم مضى إلى سبيله من دون أن يتمها، فلما مات قصدت أبا أحمد الجريري من ولد جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وهو شيخ من مشايخ أبي العباس ثعلب، وقد سمع أبا العباس المبرد وأكثر، فســألته تفســير قصيدة عنترة بن شداد فأملاه علي إملاء» (7). وبعد أن شرح قصيدة عنترة تتلوها قصيدة زهير.

ولعل «بروكلمان» لما رأى الناســخ قد نص على أن ابن كيســان ســمع خمس قصائد، وأضاف إليها شــرح قصيدة عنترة وقصيدة زهير، رجح أن الســاقط من نسخة ابن كيســان قصيدتا لبيد والحارث، بيد أن الحقيقة غير ذلك، فالظاهر أن ابن كيسان شرح القصائد السبع كلها بدليل ما نقل عنه ابن النحاس في شرحه لها.

ويظن أحمد خطاب أن «يكون هذا الشــرح الذي بين أيدينا شرحا آخر أو يكــون قد أعاد إملاءه علــى تلاميذه ولكنه لم يتمــه» (8). ويرجح رأيه الخاص بإعادة الإملاء نص المستملي الذي يقول: «أملى علينا ما فسر من هذه القصائد»، فهذا قد يوحي بأن التفســير سابق الإملاء، ولا أعتقد أنه شــرح آخر لأن ما فيه من نصوص تطابق ما اختاره ابن النحاس من هذا الشرح الذي بين أيدينا.

إن نظرة بسيطة إلى ورود اسم ابن كيسان وآرائه في شرح ابن النحاس تنتهي بنا إلى أنه قد غطى مســاحة القصائد السبع المشهورة، لينقطع بعد ذلك بالنســبة إلى القصيدتين المضافتين، مما لا يدع مجالا للشك في أنه قد شرح القصائد السبع.

أما بالنســبة إلى المخطوطة فليس فيها ما ينســب إليه إلا أبيات امرئ القيــس وطرفــة وقصيدة عمرو، ويختــص أبو أحمد الجريري بالشــرح البســيط لأبيات عنتــرة الذي يتراوح لكل بيت بين الســطر والثلاثة، وهو شرح للمفردات مع جس خفيف للمعنى. أما شرح قصيدة زهير فهو منقول عن شرح ثعلب للديوان من دون تغيير يذكر.

من الصفات المتبقية بين أيدينا من هذا الشرح سنشير إلى الخط العام لطريقة ابن كيسان في الشرح والتفسير، ولنعرض هذا المثال:

وإن تكُ قَدْ ساءتْكِ مني خليقة فسُلّي ثيابي مِنْ ثيابك تَنسلِ

التفسير: ساءتك من السوء. خليقة: مخالقة. فسلي ثيابي من ثيابك: ضربه مثلا لما بينهما من مخالطة القلبين كاختلاط الثياب بالثياب. تنسل: تسقط، يقال نسل ريش الطائر ينسل إذا سقط.

ومعنى هذا البيت يقول: إن خلائقي حسنة فإن كرهتها فلا شيء يرضيك إلا الصرم، أي لا مزيد عندي، ولكن قد غلبت على قلبي فخله حتى تقع المفارقة، وقد قيل إن الثياب القلب، وتأولوا قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [9]. أي طهر قلبك بألا يكون فيه كفر. وقد قيل مثل هذا في قول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه لَيْسَ الكريمُ على القَنا بمحرَّم

إنما أراد قلبه، وربما جعلوا الثياب كناية عن الإنسان نفسه [10].

هذا النموذج يوضح الخطوط العامة لمنهجه الذي سار عليه، فهو عادة يبدأ بكلمة «التفسير» ويعني بها شرح المفردات والمصطلحات، ويشير إلى الصور والكنايات إن وجدت، وينتقل بعد ذلك إلى المعنى العام قائلا: «معنى البيت» أو «المعنى» ويعني به المعنى الإجمالي موردا بعض الآراء الأخرى في بعض الأحيان كما هو واضح من هذا المثال، ويستشهد كذلك بالشعر كلما وجد هذا ضروريا أو متلائما مع السياق.

وهذا الأسلوب هو الأساس الذي قامت عليه الشروح اللغوية، والشرّاح في هذا الخط ما بين موجز مقتضب وآخر مسهب يميل إلى التفصيل. ويمثل ابن كيسان خطا وسطا بين الطريقتين.

ونلاحظ أنه في طريقته المبسطة والمعتدلة لا يبتعد كثيرا عن مقصد البيت الأساسي، فيقدم لنا مدخلا طيبا وفهما معقولا للمعنى، يتلقاه القارئ فتنطبع في ذهنه صورة كافية له لا إسراف فيها. وحينما يجد أن هناك رأيا أو عدة آراء جديرة بالعرض يبسطها بطريقة واضحة وكافية من دون إطالة، فيكون استطراده مقبولا لا يخل بسياق الشرح، على نحو ما ترى في شرحه لهذا البيت من معلقة امرئ القيس أيضا:

وما ذَرَفت عَيْناكِ إلاَ لِتَضْربي   بِسَهْمَيْكِ في أَعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

فهو يسير على طريقته التي رأيناها في البيت السابق، يفسر الألفاظ أولا ثم المعنى الإجمالي، ثم يشرح بسطور قليلة معنى الأقداح في الاصطلاح الجاهلي مبينا درجاتها ويربط هذا الاستطراد بأصل الكلام قائلا: «فأراد أن عينيها قامتا مقام سهمين» [11]. ويشير إلى معنى آخر للبيت فيقول: «وقد فسر معناه على غير هذا، قالوا: أراد وما ذرفت عيناك إلا لتجرحي بهما قلبا معشرا أي مكسرا، من قوله برمة أعشار إذا كانت مكسرة قد جبرت، فأدنى شيء يصيبها يذهب بها، كأنه أراد أن قلبي قد أثر فيه الحب مرارا فصار بمنزلة الهالك. الأعشار: لا واحد لها» [12].

وقد تتعدد الآراء الوجيهة فيحرص على إيرادها بإيجاز واقفا منها موقف المناقش إذا لم تجد قبولا عنده [13]. فمثلا في شرح هذا البيت:

ونحنُ التارِكون لِما سَخِطنا   ونحُن الآخِذُون لِما رَضينا

يقول: «المعنى: إذا سخطنا شيئا تركناه وإذا رضينا شيئا أخذناه، وفيه (...) [14]. بأنا إذا سخطنا شيئا من أخلاق غيرنا لم نتخلق به، وإذا رضينا شيئا من أخلاق غيرنا امتثلناه. وفيه معنى ثالث: أي ما سخطناه لم نستقبل به فنحن له تاركون لأنا لا نسخط، وما رضيناه تلقينا به فنحن له آخذون. وفيها معنى رابع: أي إذا سخطنا شيئا دفعناه عن أنفسنا، وإن رضينا شيئا اجتلبناه لأنفسنا، وكان معنى هذا أنا لا نقيم على ما نسخطه، فنحن أبدا له على رضا» [15]. وتتبع المعاني المحتملة لا يتم عنده بهذه البساطة من جهة تسجيل الآراء المختلفة، بل هو يشير إلى أن المعنى يأتي من تركيب البيت ومكانه من سياقه في القصيدة، فالتغيير مهما كان بسيطا يلقي بظلاله على المعنى، وذلك فهو يحس إحساسا دقيقا بالسياق اللغوي وأثره، فهو حين يشرح هذا البيت:

بِيوم كَريهةٍ ضَرْبا وطَعنا   أقرّ بِهِ مَواَليكِ العُيونا

لا يفصله عن سياقه وعلاقاته اللغوية فيربطه بالبيت السابق له وهو:

قِفي قَبْلَ التَّفرق يا ظعينا   نخَبِّرك اليقينَ وتُخبِرينا

فيسوق تفسيره قائلا: «والباء من صلة قفي، وإن شئت من صلة نخبرك»، وإذا كان اللغوي يهتم بالتعيين فقط فإن الشارح يتجاوز هذا إلى أثره في المعنى، يقول: «ومعنى هذا البيت: إذا كانت الباء من صلة قفي أي

قفي، بهــذا اليوم الكريه (تحاربنا) فيه فاصدقينا عن مودتك وأخبرينا ما في نفسك، أغيّرك هذا اليوم أم أنت على مودتك؟ وإذا كانت الباء من صلة نخبــرك، أي قفي لنخبرك بيوم حربنــا وتخبرينا بما عندك فيه هل (...) يغيــرك ذلك إذا تحدثت بما بين أهلي وأهلك من الحرب» [16]. ويتابع هذا الفرق الدقيق في البيت اللاحق مديرا المعنى على وجهيه، مشيرا إلى هذا بقوله: «وهذا البيت يبين المعنى الذي فسرناه فيما قبله:» [17].

وهذا الإحســاس بتماســك الأبيات وتكامــل معانيها نلمســه في عدد الملاحظات، فكثيرا ما ينبه إلى هذا الترابط بين الأبيات قائلا: «ومعنى هذا البيــت في أثر الأبيات التي قبله» [18]. و«فمعنى البيت في أثر ما تقدم» [19]، وفي موقع آخر يقول: «وبيان ذلك في الأبيات التي تلي هذا» [20]، وهذه إشارة لازمة توضح تماسك أبيات القصيدة وتكاملها.

ومثل هذه الملاحظات إنما تشــير إلى أنه كان واعيا لخط ســير المعنى في القصيدة، وقد انعكس هذا الوعي على سلامة الفهم للقصيدة.

وله كذلك لمسات أخرى جيدة خاصة ببيان المعنى الدقيق للبيت ودلالته، فهو يشــير إلى اختيار طرفة للشيخ الكبير في قوله: «عقيلة شيخ كالوبيل يلندد» فيقول: «وجعلها للشيخ لأنه أضن بها وأقوم عليها» [21]. ويشير إلى استخدام الشاعر لكلمة طوال في قوله:

وأيـامٍ لنا ولهمْ طِـوال　　　عَصَيْنا المَلْكَ فيها أَنْ ندينا

فيجــس معنى هذا اللفظ المتميز فيقــول معلقا: «طوال من نعت الأيام وإنما جعلها طوالا لأنها أيام حرب وشر واليوم إذا كان كذلك طال» [22].

وفي وقفته هذه اســتطاع أن يقرب معنى البيت ويحس دلالاته العميقة ومقصده واتجاه معناه ضمن جو القصيدة العام، بعد أن أزال عثرات اللغة وإبهام اللفظ المستغلق ووضح المجاز والحقيقة.

فهــذا الأســلوب، إذا وضع في إطار عصــره برز أمامنا ابن كيســان واحدا من الشــرّاح المحافظين على التناســق والتوازن في شرحهم، الذين يجمعون بين الاهتمام اللغوي وشــرح المعنى بصورة مقبولة للقارئ، بحيث يكون هنــاك حد معقول من الفهم لمعنى القصيــدة العام وإدراك الألفاظ ضمن ســياقها... ولم يخرج ابن كيســان عن اتجاهات عصره من اهتمام

باللغة والرواية، وإيراد أقوال العلماء والمقارنة بالشعر والاستعانة به لفهم معنى الأبيات، فقد حرص، من دون إسراف، على الاستعانة بهذه الوسائل لتقريب نصوص القصائد السبع.

ونُوجدُ نحنُ أَمنَعهُم ذِمارا وأَوفاهم إذا عَقَدُوا يمينا

فيقف أمام الأوجه الإعرابية المحتملة في الفعل «نوجد» فيقول: «ولك (في) نوجد الرفع والنصب والجزم، من جزمه جعله نسقا على جواب الجزاء في البيت الأول «نجد أو نقص» ونوجد. ومن نصبه نصبه على إضمار أن. ومن رفعه رفعه على الابتداء، ونحن هاهنا عماد، وأمنعهم نصب، وإن شئت رفعت أمنعهم وجعلت نحن اسما مبتدأ، وإن شئت جعلت نحن توكيدا لما في نوجد ما أذكر، ونصبت أمنعهم على خبر نوجد، والذمار نصب على التفسير [23]. فهو هاهنا يعرض لثلاثة وجوه من الإعراب كمادة اللغويين في عرض الأقوال، ولكنه لا يطيل في الإعراب مكتفيا بعرض الوجه الإعرابي، إن وجد له أكثر من قول، اعتمادا على رواية معتمدة أو احتمال مرتبط بالسياق العام، كما وضح من المثال السابق.

وقد يوجز القول أو الوجه الإعرابي الآخر بصورة مقتضبة ولكنها مؤدية للمعنى أو الرأي، مثل إعرابه لكلمة «يمين» في بيت امرئ القيس:

فقالت: يمينُ الله مالكِ حيلةٌ وما إنْ أرَى عنكَ الغَواية تنَجَلي

«يمين الله: أحلف بيمين الله، فلما ألقى الباء نصب على إضمار الفعل. وروى بعضهم يمين الله بالرفع، أي: يمين الله قسمي» [24]. فهو هاهنا يعرض أبسط الآراء الإعرابية من دون إهمال الرأي الآخر إن وجد. ويكاد يكون هذا الأسلوب في العرض مطردا. ولا نلمس عنده اجتهادات ذات أهمية بارزة، مع أن لابن كيسان مكانة خاصة عند أهل اللغة.

وهذا لا ينفي وجود ملاحظات لغوية واجتهاد في التعليل والاختيار القائم على الترجيح الواضح من جانبه، فهو - مثلا - يعرض لبيت طرفة:

فلوْ كانَ مولاي امرأ هو غَيرهُ لفرَّجَ كَرْبي أو لأنظرني غَدِي

فيقدم لنا روايتين للبيت مع إعرابهما، أولاهما ما رواه الأصمعي وهو خاص بشطرة البيت الأولى ويقول فيها: «فلو كان مولاي ابن أصرم مسهر»، فيعرض لإعرابها قائلا: «والنحو في هذا إذا قال: فلو

كان مولاي امرأ: نصب، لأن مولاي اسم معرفة وامرؤ اسم نكرة، يجوز رفـع امرئ ونصب المولى على ضعف، فقد جاء في الشـعر مثله، قال حسان بن ثابت:

كأَنَّ سبيئة من بيتِ رأسٍ　　　يـكون مـزاجها عَسَلٌ ومـاءُ

فرفع عسل وماء، وهما نكرة، بيكون ونصب مزاجها وهي معرفة. وفي بيـت طرفة هو أقوى لأنه وصفه بقوله: هو غيره، فدنا من المعرفة. وأما من روى «فلو كان مولاي ابن أصرم مسهر» فله أن يقول ابن أصرم مسهرا، وله أن يرفـع ابن أصرم ويجعل الخبر مولاي وهو الوجه لأنهما معرفتان متكافئتـان. واخترنا رفع ابن أصرم لأنـه معرفة مقصودة قصدها، وكل ابن عم لي فهو مـولاي، ولم يقصد قصد واحد بعينه فلذلك اخترناه أن يكون خبرا [25].

فهـو في هذا النص يسـتطرد علـى غير عادة منه، فالموضـع والرواية يستدعيان التنويه، وحين نلاحظ استطراده نجده قد سار على النهج التالي:

1 - إعـراب معلل: فلو كان مولاي امرأ نصب؛ لأن مولاي اسـم معرفة وامرؤ اسم نكرة.

2 - وجه إعرابي آخر مع شاهده الشعري.

3 - ترجيح مع التعليل.

4 - إعراب الرواية الأخرى من جهتين.

5 - ترجيح إحداهما مع التعليل المعقول الآتي من الفهم الدقيق لمقصد العبارة.

إن هذه المراحل التي عرضناها لأسـلوبه في التناول النحوي كشـفت عـن منهجه في عرض الآراء المختلفة مـع الترجيح. ومن الطريف أن هذا الاختيار هو الذي سـار عليه ابن النحاس متابعا ابن كيسـان في اختياره، وهو أيضا ما رجحه ابن الأنباري.

ولا نجد له في الصرف إلا إشـارات بسيطة لا تشكل رأيا خاصا، فهي أشـبه ما تكون بالمقـولات العامة المتعارف عليها مثـل الإدغام مثلا: «عي تكـون عيى، أو أن الميراث أصلـه ورث وأبدلوا الواو يـاء، كما قالوا تجاه وأصله من الوجه، وأن حديا الناس تصغير حدوى أو حديا على أنه اسـم لمصدر صغر فكان للواحد والاثنين والجمع» [26].

إن هذا العرض الموجز قد ينبه إلى آرائه التي اعتمد عليها ابن النحاس اعتمادا مباشــرا، مع التنبيه إلى أن ابن النحاس كان يدفعه ذوقه واتجاهه اللغوي إلى اختيار ما يتلاءم مع حاجته، لذلك كانت أهم نقوله تجسد هذا الجانب من جهة تفســير الألفاظ والإعــراب مع مس خفيف للمعنى، وهو بهذا لا يقدم لنا كل جوانب شرح ابن كيسان من لمسات دقيقة، ولكن هذا لا ينفي أهمية نقوله عنه والذي سلكه مع عشرات الأقوال للعلماء في شرحه الكبير أن هذه القطعة الصغيرة من هذا الشرح حددت لنا مقدمة متوازنة للشــروح التالية التي كانت في مجملها خاضعة للمنهج اللغوي الذي حصر جل اهتمامه في البناء اللغوي، فأســرف البعض فأصبح النص الشــعري هامشــا لمقولات النحو واللغــة، واعتدل الميزان عنــد البعض الآخر فكان اتســاع الإطار عندهم أساسا طيبا لفهم النص الشــعري بظروفه اللغوية والتاريخية. وهذا ما سيتضح عند الشارحين اللذين تجسد عندهما المنهج اللغــوي، بمفهومه القديم، في أتم صــوره وأكثرها تعبيرا عنه، ونعني بهذا شرح كل من ابن الأنباري وابن النحاس.

* * *

أولا: ابن الأنباري [27]: المنهج اللغوي وثقافة النص

يبدأ كتاب «شــرح القصائد الســبع الطوال والجاهليات» من دون خطة تبين منهجه، فقد شــرع فــي التصدي لقصيدة امــرئ القيس، ممهدا لها بتمهيد تحدث فيه عن امرئ القيس حديثا فيه أطراف من النسب مع تتبع لبعض صفات هذه الأســماء، ثم يعرج علــى خبر والد امرئ القيس وقصة قتله وطلب ابنه ثأره من بني أسد قاتليه، وما تخلل هذا من مقطعات شعرية وقصائد قالها امرؤ القيس أو غيره من الشعراء، ويعرج بعد ذلك إلى حديث دارة جلجل، وهو خاص بالمناسبة التي قيلت فيها المعلقة أو بعض أبياتها.

وفي تمهيده لقصيدة طرفة يمر ببعض أخباره، وخاصة القصة المرافقة لخبــر مقتله، ليدخــل بعد ذلك في شــرح القصيدة. وفي صدر شــرحه للقصائد الباقية يتحدث عن المناســبات التي رافقت أو مســت طرفا من الأحداث التي كانت سببا لإنشائها ثم يشرع في شرح أبياتها.

وقـد يكون كتابه هذا يمثل أسـلوبه فـي تأليف الكتـب القائمة على الإمـلاء، لذلك جاءت تلك المعلومات هامشـا أوليا للقصيدة المشـروحة. وقـد أهمل تماما الحديث عـن هذه القصائد من حيـث كونها مختارات معروفة، بل باشـر الشرح بعد تلك المقدمة المبسـطة، لذلك يستقل شرح كل قصيدة ممثلا وحدة كاملة، يمكن سـلخها ونشرها وحدها، مع مراعاة بعض الإشـارات البسـيطة والإحالات النادرة التي تدل على أن شرح هذه القصائد إنما أُملي مرة واحدة، وكل شـرح من شروح هذه القصائد يحمل في سطوره أسـلوب ابن الأنباري في الشرح والتفسـير جامعا التفاصيل الدقيقة والمفصلة التي يتميز بها شرحه.

وقبل أن نحدد الإطار الذي ينطوي تحته هذا الشرح يستحسن أن نقدم بعض النماذج التي يمكن أن يدور حولها الكلام موضحين أسلوبه وطريقته، مع التسـليم بأن هناك كثيرا من النماذج الدالة على طريقته، وسـأعرض ثلاثة نماذج ندير حولها الكلام في تحليل أسلوب هذا الشارح المتميز.

وأول هذه النماذج يقدم طريقته في البسـط وتتبعـه للآراء المختلفة، ويؤكـد المثال الثاني هـذه الطريقة مع بعض الإيجاز وبـه جزئيات تكمل السـابق، أما المثال الثالث فهو يقدم أسلوبه في الإيجاز المعقول مع تقديم المعنى كاملا من دون الدخول في التفصيلات الدقيقة أو الاستطرادات.

المثال الأول:

زَعَموا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العيـ   رَ مَـوالٍ لَـنـا وأَنّـا الـوَلاْءُ

قال أبو نصر أحمد بن حاتم: لم يقل الأصمعي في هذا البيت شـيئا. وقـال أبوعمـرو: معناه أن إخواننـا الأراقم يلوموننـا ويصفوننا بالباطل، ويضيفون إلينا ذنب غيرنا، ويعلقونه علينا، ويطالبوننا بجناية كل من جنى عليهم ممن نزل صحراء أو ضرب عيرا، ويجعلونهم موالي. والمولى في هذا الموضع: بنو العم. قال الله تعالى: «وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي»[28]، وأراد بني العم. قال الشاعر[29]:

ومِن الموالي مَوْليانِ فمنهما   مُعطي الجزيل وباذلُ النَّصر

ومـن الموالـي ضَـبٌّ جـنـدلـةٍ   لَحِـزُ المـرُوة ظاهـر الغمْرِ

أراد: بني العـم. وقال قوم: الموالي في هذا البيت معناهم الأولياء. أي اجعلـوا كل من فعل هذا الفعـل وليا لنا. قال الله عز وجل: «وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَـى لَهُمْ» (30)، «أراد: لا ولي لهم. وقال النبي صلى الله عليه وسـلم: «أيما امرأة تزوجت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل»، أراد: بغير إذن وليها. وقال الأخطل:

كانوا موالي حق يطلبون به   فأدركوه وما ملوا وما لغبوا

يعني أولياء حق. وقال أيضا:

فأَصبَحْتَ مولاها من الناس كلهم   وأَحْرى قريش أن تهاب وتحمدا

وقـال المفضل بن محمد، وأبو علي وأبو مالك: أراد بالعير الوتد، وإنما سـمي عيرا لنتوئه من الأرض، مثل عير النصل والسـهم، وهو الناتئ في وسطه. يقول: كل من ضرب وتدا في الصحراء فأذنب في الأراقم ألزمونا ذنبه. وقال أبو الحسـن الأثرم: حدثني أبو عمرو عن خراش العجلي قال: العير أراد به كليبا ابن وائل، أي جعلتم كل من قتل كليبا أو أعان على قتله ابن عم لنا، فألزمتمونا ذنبه ظلما.

وإنما سـمي كليبا عيرا لجلالته وعلو شأنه وسـؤدده. والعرب تسمي السيد العظيم من الرجال عيرا. وإنما قيل للسيد من الرجال عير لأنه شبه بالحمـار في الصيد إذ كان أجل ما يصطاد. من ذلك الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم، أن أبا سـفيان استأذن عليه فحجبه، ثم أذن لـه، فقال: ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجهلتين! قال: «يا أبا سفيان، أنت كما قال القائل: كل الصيد في جوف الفرا». والفرا: الحمار، يهمز ولا يهمز. أنشدنا أبو العباس:

إذا اجتمعوا عليَّ واشقذُوني   فصرت كأنني فَـرَأُ مُتـارُ

ومتار.. من الآثار. والجهلتان: جانبا الوادي.

وقال قوم: أراد بالعير الحمار نفسه. يقول: يضيفون إلينا ذنوب كل من سـاق حمارا ويجعلوننا أولياءهم. وقال آخرون: العير جبل في المدينة ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «حرم ما بين عير إلى ثور». يريد: جعلوا كل من ضرب إلى ذلك الموضع وأراده وبلغه أولياءنا.

وقوله «وأنا الولاء» معناه وأنا أصحاب الولاء، فحذف الأصحاب وأقام الولاء مقامه، كما قال الشاعر، أنشدنا أبو العباس:

وكيف نُصاحب من أصبحتْ　　خَلالَتُه كأبي مرحب

أراد: خلالة أبي مرحب. وقال الآخر:

وشرُّ المنايا ميّت وسط أهله　　كهلك الفتى قد أسلم الحيَّ حاضرُه

أراد: وشر المنايا ميتة ميت، فحذف الميتة وأقام الميت مقامها. والولاء: العون واليد، يقال: هم عليه ولاة ولائه، أي: عون ويد. والولاء في العون ممدود. والولي في المطر يكتب بالياء.

وإن كفت من اسم زعموا وخبرها، وكلا اسم أن، وضرب العير صلة من، وما في ضرب يعود على من، وموال رفع لأنه خبر أن، والأصل فيه موالي فاستثقلت الضمة في الياء لسكونها وسكون التنوين. ولنا صلة، وأن الثانية نسق على الأولى والنون والألف اسم أن، والولاء خبرها [31].

المثال الثاني:

كأنَّ سَرَاتَهُ لَدَى البَيْتِ قائما　　مَدَاكُ عَروسٍ أو صَلايَةُ حَنْظَلِ

معناه: كأن على ظهره حجرا أملس يسحق عليه العطار المسك وغيره. أراد به ملاسة ظهره واستواءه، واكتناز اللحم عليه. شبهه بالصلاية في استوائها.

وروى الأصمعي: «أو صرابة حنظل»، وروى: «كأن على الكتفين منه إذا انتحى». وقال يعقوب: السراة أعلى ظهره. وسراة الجبل أعلاه، وسراة النهار أعلاه. وسرو حمير أعلى بلادهم. ويقال كتف وكتف. وانتحى: اعتراض. و«مداك عروس» معناه صلاية عروس، لأنها قريبة عهد بالسحق، فهي تبرق. يقول: فهو أملس يبرق، لأنه أجود ليس بكثير الشعر. والصراية: الحنظلة التي قد اصفرت، لأنها من قبل أن تصفر مغبرة، فإذا اصفرت صارت تبرق كأنها قد صقلت. قال الشاعر:

كأنَّ مفَالق الهاماتِ منْهم　　صَرايـاتٌ تَـهَادَاهـا جَـوَار

وقال الآخر، وهو امرؤ القيس يصف فرسا:

إذا اسْتَعْرَضَتْ قُلتَ دُبّاءةٌ　　من الخُضر مغموسةٌ في الغُدُرْ

الدباءة: القرعة: يقول: كأنها من بريقها قرعة من الخضر مغموسة في غدر الماء. وقوله مغموسة، ليس يريد أنها مغموسة في الماء منقعة فيه، ولكن هذا كقول القائل: أنت مغموس في الخير. وقال ابن مقبل:

كأن دُبّاءة شد الحزامُ بها فهي جوزاهوجَ بالتقّريبِ والحُضُرِ

وروى أبو عبيدة: «أو صراية حنظل» بكسر الصاد. وقال: شبه عرقة بمداك العروس أو بصراية حنظل، وهو الماء الذي ينقع فيه حب الحنظل لتذهب مرارته، فهو أصفر مثل لون الحلبة. يقال يصرى صريا وصراية. وقال أبو نصر: إنما قال صلاية حنظل لأن حب الحنظل يخرج دهنه فيسرق على الصلابة. والمداك: الحجر الذي يسحق به. والمدوك: الذي يسحق عليه. وقال بعض البصريين: مداك من داكه يدوكه دوكا، إذا طحنه. وروي هذا البيت في هذا الموضع:

وأنْتَ إذا استدبَرْتَه سَدَّ فرجَه بِضافٍ فُويقَ الأرضِ ليس بأعزل

الفروج واحدها فرج: ما بين قوائم الفرس من الانفتاح. والضافي: الذنب السابغ.

قال الشاعر:

«ورفَّعْن أذيال المُرُوط الضوافيا»

وروى محمد بن حبيب هذا البيت في هذا الموضع، وليس هو موضعه عند يعقوب وغيره:

كأنَّ الثريَّا علقت في مصامِها بأمراسِ كَتَّان إلى صُم جنْدلِ

قال: شبه تحجيل الفرس في بياضه وصفائه بنجوم شدّت بحجارة، فشبه الحوافر بالحجارة. والسراة اسم كأن، ولدى البيت محل، ومداك عروس خبر كأن، والصلاية نسق على مداك (32).

المثال الثالث:

مُؤللتانِ تَعرِفُ العِتقَ فيهما كسامِعَتَي شاةٍ بحَوْملَ مُفْردِ

«مؤللتان» معناه محددتان كتحديد الألة. والألة: الحربة، وجمعها الأل. ويقال أله يؤله ألا، إذا طعنه بالألة. وقيل لامرأة وقد اهترت: هذا رجل يخطبك. فقالت: «أيعجلني أن أحل، ماله ألّ وغل». قال أبو

جعفر: المرأة التي قيل لها هذه أم خارجة التي ولدت ســـت قبائل. قال غيــره: يمدح من الأذنين أن يؤللا، أي يحــددان ويقل وبرهما. وقوله: «تعــرف العتق فيهما»، يقول: إذا رأيتها رأيت الكرم فيهما لتحديدهما وقلــة وبرهما. تقول عرفتــه معرفة وعرفانا. والعتــق: الكرم. وقوله «كسامعتي شاة» أي كأذني شـــاة. والشاة هاهنا: الثور. و«حومل» اسم رملة. فشـــبه أذنيها بأذني ثور وحشـــي، لحدة سمعهما. وأذنا الوحش أصدق من عينه عنده، وأنف السبع أصدق من عينه. وجعله مفردا لأنه أشـــد توجســـا وتفرطا، ولأنه ليس معه وحش يلهيه ويشغله، وإذا كان كذلك كان أشد لتسمعه وارتياعه. قال: والظباء والبقر إذا فزعت كان أحسن لها وأســـرع من أن تكون آمنة منقبضة. فيقول: قد سمع حسا فهو مذعور.

وقال أبو جعفر: العتق في الأذنين ألا يكون في داخلهما وبر، فهو أجود لتســـمعهما. ومؤللتانِ مرتفعتان بإضمارهما. والكاف في موضع رفع على النعت لهما [33].

هذه ثلاثة أمثلة نستطيع أن نرى فيها صورة لطبيعة شرح ابن الأنباري. وطريقتــه وهي طريقة تــكاد تكون مطردة تتحرك بين البســـط والتركيز، فهناك هذا الخط العام للفهم اللغوي في معناه العميق والمتسع الخارج عن حدوده الاصطلاحية وإشـــباع النص بالمعلومات المحيطة به لتتســـع صورة الألفـــاظ ودلالاتها عند المتلقي لينطلق بعـــد ذلك إلى الأبعاد الأخرى التي يرتضيها أو يعتنقها في فهم الشـــعر، فليســـت هذه إلا الخطوة الأولى من المراحل وأهمها.

وإذا نظرنا إلى هذه الشروح في خطوطها العامة فإننا نلاحظ أن هناك عناصر معينة واضحة يمكن أن نعتبرها الملمح المتوافر في كل شـــرح وهي: **التوثيـق** أولا ومنـــه إلى **شـــرح الألفاظ** في معناها العـــام والخاص داخل البيت الشعري، ثم يتعرض إلى **التراكيب** التي تحتاج إلى بيان ويتخلل هذا **الإشـارات الصرفية واللهجات** ثم يعمد إلى **شـــرح المعنى**، وهو شـــرح يكون مجملا حينا وفي مكان واحد أو مفرقا بين الســـطور بعد شرح أي جزئية. وفي تعرضه للمعنى يتنقل بـــين الروايات المختلفة للبيت وتوجيهات المعنى

فيها، ويمر علـــى بعض الملاحظات البلاغية بصورة مختصرة، ويختم هذا كلــه بإعراب مـــا يراه لازما فيطيل أحيانا مفصـــلا ولكنه في مواقع كثيرة يكتفي بأقل القليل.

ويتخلل هذا كله سيل كبير من الأخبار والأحاديت والحكايات والشواهد الشعرية والقرآن والأحاديث والمأثورات. كل هذا يساق ضمن أقوال العلماء مسندا كل رأي إلى صاحبه، وسنقف بعد ذلك بالتفصيل عند أهم ما تمثله هذه الأمثلة الثلاثة من جوانب منهج ابن الأنباري:

أولا: التوثيق:

شـــرح ابـــن الأنباري من أقدم الشـــروح التـــي بين أيدينـــا، وإذا كانت «المفضليات» و«الأصمعيات» و«الحماسة» قد وصلت أولا مختارات بنصها كاملة من دون أي تعليق. ثم جاءت الشروح المختلفة بعد ذلك، فإن القصائد الســـبع مـــع الظن بأنها مختارات ســـابقة، وصلت إلينا وفـــي معيتها هذه الشـــروح، وهذا يعني أننا أمام النص أولا وتوثيقه، ومن ثم يأتي الشـــرح. يبدأ ابن الأنباري في أول شـــرحه للبيت غالبا بالتوثيق، وهو لا يلتزم بهذا الخط دائما فقد يأتي التوثيق في ثنايا الشرح أو في نهايته، ولكنه في كل الحالات لا يترك البيت من دون أن يطمئن إلى روايته.

نبدأ بأول هذه النمـــاذج الثلاثة، بيت الحارث، فنلاحظ أن هذا البيت مـــن حيث النص لا خلاف حوله، فهو من أبيات القصيدة التي اتفق الرواة بشـــأن ثبوته وموقعه من النص وجملة كلماته وحركاته، لذلك ســـكت ابن الأنباري والسكوت عند من يعنى بمثل هذا الموضوع تأكيد.

وعندمـــا نعود إلى الشـــروح الأخرى نجد أن هذا البيت قد ســـلم من الخلافات وســـلم كذلك البيت الثالث من الخلافات، ويبقى الشاهد الثاني محلا لخلافات الرواية على هذه الصورة:

أ - خلاف حول شطرة كاملة: هي عند ابن الأنباري نقلا عن مصادره: «كأن ســـراته لدى البيت قائما». ولكنه يشير إلى رواية أخرى انحدرت عن أحد الثقات هو الأصمعي الذي روى الشطرة هكذا «كأن على الكتفين منه إذا انتحى». وحين نعود إلى رواية الديوان المنحدرة عن هذه الرواية نجدها

فعلا كما أشار ابن الأنباري [34]. ونجد الزوزني كذلك في شرحه يعتمد على رواية الأصمعي مع تغيير بسيط في إحدى الكلمات وروايته تقول: «كأن على المتنين» بدلا من «كان على الكتفين» [35]. وهذا النص نجده في شرح ابن النحاس وقد نسبه الأصمعي كذلك [36].

إذن هذه الشطرة اختلف حولها الرواة فانحدرت إلى الكتاب وأثبتها ابن الأنباري مرجحا إحداها ومشيرا إلى الثانية بإسنادها. وهذا خلاف حقيقي من الصعب تبين الصواب فيه أو القطع به، لذلك فالسلوك العلمي التوثيقي هو هذا الذي قام به ابن الأنباري، وسنلاحظ أنه حين عرض المعنى لم يغفل هذه الرواية وأعطاها حقها من البيان والتوضيح.

ب: ونوع آخر من التوثيق وهو خاص بشكل الكلمة حين يتغير حرف منها وهو أمر يعنى به أهل اللغة، فقد يتغير المعنى أو سير الكلمة ذاتها في اللغة، ففي الشطرة الثانية تأتي الرواية المثبتة في النص «صلاية حنظل»، أما الأصمعي فإنه يرويها «صراية حنظل» بالراء، وهذه هي رواية الديوان المثبتة، وأشار إليها ابن النحاس [37]. ونجد اسم الأصمعي يدور حولها في اللسان [38].

إذن هي من الثابت نسبته إلى الأصمعي الذي انفرد برواية البيت على هذه الهيئة فأثبتها ابن الأنباري في سياق الشرح مختارا الرواية الأخرى.

ويأتي سؤال: لم أهمل ابن الأنباري رواية الثقة الأصمعي؟ هل كان ترجيحه لتلك الرواية الأخرى وإهماله لرواية الأصمعي عفويا أم سيرا وراء الشائع أم هو تدبر وتقليب للرأي ومن ثم جاء الترجيح؟

إن إحساس ابن الأنباري اللغوي كان وراء هذا الاختيار، وهو اختيار وترجيح وليس إنكارا للرواية الأخرى. إن تأمل المعنى الدقيق لكلمتين (صلاية وصراية) وسياقهما في البيت وتآزرهما مع الصورة العامة له يقودنا إلى هذا الترجيح الذي أقره ابن الأنباري اعتمادا على فهمه وحفظه العجيب للغة، فالبيت إنما هو تفصيل دقيق لجوانب الجمال والكرم والتفرد في فرس امرئ القيس، ففي سياق هذا الوصف، وبعد أن تحدث عن سرعته في أكثر من صورة راح يصف شكله الظاهري مقرونا بصفاته الجسمية، وفي هذا السياق يأتي بهذا البيت واصفا ظهره وهو

«لدى البيت قائما» أي نزع عنه سرجه وما كان يلقى عليه فأصبح مكشوفا، فأراد الشاعر أن يبين الملاسة والاستواء واكتناز اللحم منبها إلى أنه يبرق «لأنه أجرد ليس بكثير الشعر» - وهذه من صفات الحسن - ولعله أراد أن يشير إلى جمال لونه ونصاعته، وقد وجد في مداك العروس القريب العهد بسحق الطيب ما يحقق الهدف الذي أراده، فالمداك ملساء بطبيعتها ونسبتها إلى العروس تعني قرب العهد بالسحق فتبرق. إذن لقد تحققت صفتان، الملاسة واللمعان، ولم يكتف الشاعر بهذه المقارنة، فأضاف صفة أخرى مؤكدة للسابقة ونعني بها قوله «صلاية حنظل» أو «صراية حنظل»، ومع أن اللفظتين متقاربتان في المعنى فإن هناك جانبا دقيقا وخفيا يعطي الأولوية لإحداهما من دون الأخرى فالصلاية هي مدق الطيب، فإذا سحق عليه الحنظل يخرج دهنه على الصلاية، إذن فقد تحقق في هذه الصورة أمران، الملاسة وهذا متحقق بالصلاية الناعمة، واللمعان الآتي مما يخرج من الحنظل المسحوق الذي يبرق. وحين نقارن هذه الصفة بما سبقها - مداك عروس - نجد أنهما متطابقتان تؤديان إلى نفس النتيجة والهدف لذلك جاء الحرف (أو) بينهما.

أما الرواية الأخرى «صراية حنظل» (39). فإنها تقدم فقط طرفا واحدا من الصورة ونعني به البروق واللمعان، ولكن ينعدم جانب آخر مهم وهو الاستواء والملاسة اللذان تبرزهما على أحسن ما كون كلمة صلاية. ومن هنا ندرك أن ابن الأنباري لم يكن غافلا عن هذا الفرق الدقيق وهذا ما يتلاءم مع منهجه في دراسة النصوص الشعرية.

جـ: ونوع ثالث من التوثيق يتصل بضبط الكلمة، فأبو عبيدة يوافق الأصمعي في أنها «صراية حنظل» ويختلف معه في الضبط، فقد أجراها الأصمعي بالفتح - فتح الصاد - أما أبو عبيدة فقد ضبطها بالكسر. واتبع ضبطه بتفسير للمعنى يتوافق مع روايته، فهو لا يرى أن الشاعر يصف ظهر الفرس وإنما «شبه عرقه بمداك العروس أو بصراية حنظل، وهو الماء الذي ينقع فيه حب الحنظل لتذهب مرارته، فهو أصفر مثل لون الحلبة». فانصرف إلى جهة اللون وهذا قد لا يتلاءم مع خط البيت العام.

د: ونـــوع رابـــع من التوثيـــق يتصل بترتيـــب البيت في الســـياق العام للقصيدة، ففي بعض الأحيان نجد بعض الخلافات بشـــأن ترتيب بيت من حيـــث التقديم والتأخير وقد لا يكون لهذا الخلاف أهمية كبرى خصوصا إذا كانت الصورة العامة أو المعنى يكملها البيت في سياقه ضمن القصيدة ويمثل جزءا قابلا للتحرك البسيط، وهذا ما نلمسه في البيت الذي ساقه أولا قائلا: وروي هذا البيت في هذا الموضع:

وأنت إذا استدَبَرتهَ سدَّ فَرْجَه   بضافٍ فُويقَ الأرضِ ليس بأعْزَلِ

إذن فهناك من روى هذا البيت في هذا الموضع بينما قدمه ابن الأنباري قبل البيت المشروح وعلق عليه تعليقا بسيطا.

وهنا أســـجل ثلاث ملاحظات: الأولى أن تقديم هـــذا البيت وتأخيره يسير جدا، حيث يســـبق بيتا واحدا فقط، وهذا لن يخل بالصورة العامة، فالحديـــث عن وصـــف الفرس من جهـــة هيكله وتركيبه. وإمكان اتســـاق الصورة ممكن ومقبول على عكس ما سنلاحظه في بيت مقبل.

والملاحظة الثانية من جهة الســـياق الدقيق، فالشـــاعر وصف سرعة الفرس أولا وعرض لأســـباب هذه الســـرعة المتمثلة في أن: «له إطلا ظبي وســـاقا نعامة» ونوعيـــة هذه الســـرعة «وإرخاء ســـرحان وتقريب تتفل»، فالقرائن تشير إلى التتبع المنطقي، حيث يتحدث عن شدته أو عظم أجنابه أو الذي يطلعهما حمل [40].

ومـــن ثم يعرج على ذنبه الســـابغ وهكذا حتى يصـــل إلى وصف ظهره لذلك يأتـــي البيت في موضعه ليعقبه في البيت اللاحق حديث عن النحر المخضب بدماء الهاديات [41].

أمـــا ترتيب الرواية الأخرى فهو ينقل الســـياق من القدمين إلى الظهر وبعدها إلى النحر، وهو بهذا لا يحافظ على الترتيب.

والملاحظة الثالثـــة خاصة بالرواية أيضا، ففـــي رواية ابن الأنباري المثبتـــة في النـــص قال «ضليع إذا اســـتدبرته»، بينمـــا الرواية الأخرى «وأنت إذا اســـتدبرته..»، فالبيت الـــذي اختاره كان يضيف صفة أخرى وهـــي الضلاعة أي القوة وانتفاج الجنبين، وهـــي تكمل ما جاء في البيت السابق له.

ومهما اختلفت الآراء فسيظل انسجام الرواية الثانية ممكنا مقبولا. هناك نوع من الاختلاف في الترتيب يخل بالصورة الشعرية ووحدة السياق فيكون خروج البيت عن سياقه وانتقاله إلى موضع آخر مؤديا إلى اختلاف معناه وتبدل زاوية النظر إليه، وهذا ما نلمسه في إحدى الروايات التي ساقها ابن الأنباري قائلا: «وروي محمد بن حبيب هذا البيت في هذا الموضع وليس هو موضعه عند يعقوب وغيره»:

كأن الثريّا عُلقت في مَصامها بأمراس كَتَّان إلى صم جَنْدلِ

قال: شبه تحجيل الفرس في بياضه وصفائه بنجوم شدت بحجارة، شبه الحوافر بالحجارة وتحتاج هذه اللمحة التوثيقية إلى وقفة للتفصيل:

ورد هذا البيت - أولا - متقدما على الموضع الذي هو فيه بأبيات عدة وفي سياق بعيد عن وصف الفرس، فقد جاء ضمن تأملات امرئ القيس في الليل الذي أرخى سدوله عليه بأصناف الهموم، وهذا الليل ثابت لا يكاد يتحرك فكأن نجومه مشدودة بحبال إلى جبل، أما الثريا فهي «مشدودة بجبال فليست تمضي». فالبيت جزء من صورة أخرى لا صلة لها بالفرس على عكس الذي يرويه متأخرا عن هذا الموضع بأربعة عشر بيتا، لذلك فالموضعان مختلفان وبالتالي فالتفسير في كلا الموضعين يختلف اختلافا كليا ضمن الوحدة العامة للقصيدة وتتابع أجزائها، وهذا ما لمسه ابن الأنباري وحرص على إثباته متنبها إلى معناه في الموقعين، قال: «وفيه تفسيران: أما أحدهما فإنه شبه تحجيل الفرس في بياضه بنجوم علقت في مقام الفرس وهو مصامه، علقت بحبال كتان إلى صم جندل، يعني الحجارة، شبه حوافره بالحجارة [42]. فهذا تفسر من يرويه أخيرا بعد صفة الفرس، وعلى التفسير الثاني يصف الليل يقول: كأن النجوم مشدودة بحبال إلى حجارة فليس تمضي [43].

فهذا التوضيح يكشف لنا عن قدرة ابن الأنباري على تبين المعاني الدقيقة وترابط القصيدة واكتمال الصور المتتابعة، واكتساب الكلمات والصفات معاني جديدة ومختلفة في كل موقع.

وسلط هذا الضوء على أثر التوثيق ودوره في إعطاء البيت كيانه ضمن بناء القصيدة العام، وأثره الواضح في صلب المعنى.

ثانيا: المصادر

واضح أن ابن الأنباري هو آخر الحلقات التي اكتمل عندها خطا الشرح والتفسير اللذان واكبا هذه النصوص، فجمعها بعد تفرق فاستوت عنده وعند جيله بناء متكاملا.

إن الناظر في أسماء العلماء الذين نسبت إليهم الأقوال في كتابه يدرك مدى استفادته من جهود السابقين، والمتأمل في مقدار تردد أسمائهم يعرف مدى استيعابه لمأثوراتهم. فقد تردد بعضهم - الأصمعي وأحمد بن عبيد على سبيل المثال - في أكثر من مائة موضع. فهو يعتمد على السابقين مع جهده الخاص في الشرح والتوضيح والتفسير والإعراب بعد أن بذل جهدا بارزا في الجمع والتبويب.

ومن أمثلتنا الثلاثة نلاحظ طريقة استفادته من مصادره بإسناده الأقوال إلى أصحابها، فقد جاء حديث مسند لأبي نصر أحمد بن حاتم - رواية الأصمعي - ينفي أن الأخير قد شرح هذا البيت، ومن ثم عرج على من هو في طبقته، ونعني به أبا عمرو فأخذ عنه معنى البيت كله، وتدور أسماء أخرى من مثل المفضل بن محمد وأبو علي وأبو مالك وأبو الحسن عن أبي عمرو عن خراش، ونلاحظ أننا وإن كنا نجهل أبا علي وأبا مالك فإن من الثابت أن المفضل بن محمد معروف مشهور جدير بعرض رأيه وتقديمه. ومثل هذا مقام القول الآخر الذي انحدر عن ابن الحسن الأثرم: علي بن المغيرة الأثرم، الذي كان ابن الأنباري ينظر إليه بتقدير كبير [44].

أما آخر الأسماء في هذا المثال فهو أبو العباس ثعلب، رأس المدرسة الكوفية في عصره التي قامت على فهم خاص للمثال والشاهد، وعندما احتاج الحديث إلى ضبط الكلمات اعتمد على الشواهد التي أوردها ثعلب [45].

من مثل هذه الأسماء تتكون الأقوال والآراء التي يستند إليها. وقد جاءت في هذا البيت شارحة الألفاظ والمعنى مع إبراز الخلافات مرورا بضبط الكلمات ليستوي البناء متكاملا.

ولا يختلف المثال الثاني من حيث الاستعانة بهذه المصادر، فقد جاء الأصمعي مرة أخرى ولكن من بوابة التوثيق، ويعود راويته أبو نصر أحمد بن حاتم ليورد تفسيرا من تفسيرات الصلاية، وبجانبه يعقوب بن السكيت

مفســـرا لفظا من ألفاظ البيت، ويشـــارك في نفي رواية محمد بن حبيب. ويأتي أبـــو عبيدة بضبط إحدى الكلمات مع تفســـير لها ليعرج إلى رواية محمد بن حبيب نافيا لها.

وهكذا تتراوح مصادره بين الرواية والضبط والشرح فالمعنى من دون أن يفقد تميز شخصيته الخاصة التي تتحرك بين هذه كلها.

وليـــس في المثـــال الثالث إلا إســـناد أقوال إلى أحمد بـــن عبيد، أحد الأســـس الكبيرة التي اعتمد عليها في شرحه، فهو في مقام الأستاذ، فقد انحدرت أقواله عن طريق والده الذي أخذ عنه.

وهكذا من الأقوال الشفوية والمكتوبة يستوي هذا الكتاب حاويا جل ما أثر عن العلماء فيما يتعلق بالقصائد السبع متنا وشرحا.

ثالثا: المفردات

لما كان الشـــارح لغويا متمكنا فإنه يتجه إلى الفهم اللغوي في مستوياته المتعـــددة، وأولى الخطوات هي فهم الألفاظ ودلالاتها الدقيقة كما عرفتها بيئة الشـــاعر، فهذا هو أول مدخل من مداخـــل الفهم. ولنرجع إلى أمثلته الثلاثة لنرى أسلوبه في تناول المفردات، أول مستوى من مستويات التعامل مع اللفظ أن يزيل إبهامه الأولي فيشرحه شرحا بسيطا أوليا يمكن القارئ من اختراق حاجزه إلى معناه من مثل «انتحى: اعترض» فهذه إشـــارة أولى للمعنى، ولا نعتقد أن القارئ يحتاج إلى أكثر من هذا خصوصا في شـــرح معنـــى فعل من الأفعـــال. ولما كانت كلمة «انتحى» تحتـــوي على معان عدة فقد أشـــار إلى المعنى المراد، ومثل هذا شـــرحه للاسم «حومل: اسم رمله» وللصفة «العتق: الكرم» وكذلك «الضافي: الذنب السابغ».

ويخطو خطوة أوسع قليلا، فإنه، وإن كان يشرح الكلمة بكلمة، فالحاجة قائمة إلى إزالة شـــبهة قد تعلق في ذهن القارئ أو من أجل فائدة يحسن إدراكها، فمثلا يقول: «المداك الحجر الذي يســـحق به»، فهذا البيان وضح معنى اللفظ داخل البيت ولكنه لا يكتفي بهذا بل يضيف مكملا و«المدوك: الذي يســـحق عليـــه»، فهذه وإن كانت لا تمس المعنى مباشـــرة فإنها تكمل مجـــال اللفظ أمام القارئ. ومثل هـــذا أيضا نراه بصورة أكثر تفصيلا في

شــرحه لكلمة الولاء قال: «الولاء: العون واليــد»، فهنا قد تم معنى اللفظ ولكنه يزيده أيضــا «هم ولاة ولائه أي عون ويد، والولاء في العون ممدود، والولي في المطر يكتب بالياء» وهو بهذا يريد أن يزيل شــبهة قد ترد على القارئ في كتابة الكلمة وضبطها.

وفي هذا المجال - أعني المعنى الواحد للفظ - نجد أن المدى يتســع أحيانــا ليعطي الكلمة دلالاتها الدقيقة في ســياقها، فقــد يكون المعنى واحدا ولكنه يكتســب تحديدا معينا في الســياق، ومــن أمثله ذلك قوله «السراة: أعلى ظهره. وســراة الجبل أعلاه، وسراة النهار: أعلاه. وسرو حمير أعلى بلادهم».

لقد وضع معنى اللفظ في البيت من الشــرح الأول فإضافاته الأخرى تأكيــد لثبات دلالته. ويتوغل أكثر مع الألفاظ فيقف عند الصفة «مؤللتان» - فــي المثال الثالــث - فهذه اللفظــة معناها محدد ولكنهــا ذات طبيعة خاصة، لأنها ليســت كثيرة الشيوع، لذلك نجده يشبعها شرحا وتوضيحا. وحــين نعود إلى كلماته نلاحظ أنه بــيَّن المعنى بدقة موضحا أصل الصفة ومصدرها، وصاغ قصد الشــاعر بكلمات معينة «محددتان كتحدد الآلة»، وهذه هي الصفة التي أراد الشــاعر الإشــارة إليها. ويحرص الشارح على أن يبين اتجاهــه فيبين أنه أراد الحربة وهي محددة ودقيقة، وبعدما أزال كل إبهام تقلبت عليه صفة اللغوي فوجد مناســبة يتابع من خلالها تحليل اللفظ مشيرا إلى جمعه وتصريفه واستعماله مع استخدام مقولة تعود إلى عصر الاستشهاد.

ونلاحــظ أحيانا أنه قد يكون للكلمة معنى أكثر شــيوعا فيحدد المعنى المقصــود حتى لا يكون ثمة أدنى التباس، مثلا في قول طرفة «كســامعتي شاة» يقول: «والشاة ها هنا: الثور»، فلو أنه ترك هذا اللفظ من دون تحديد معناه في موقعه لانصرف الذهن إلى معنى آخر.

وهناك مرحلة أخرى من شــرح الألفاظ أكثــر تعقدا ومدعاة للخلاف واضطراب الرأي، لذلك يسعى ابن الأنباري بشمول طريقته، إلى أن يضم الآراء بعضهــا إلى بعض واضعا الاحتمالات كلها أمام القارئ مرجحا حينا بطريقة صريحة أو موحية وتاركا الترجيح في أحيان أخرى.

ومن هذا النوع ما نلاحظه بالنسبة إلى الكلمتين: الموالي والعير من المثال الأول، ولنر كيف يتشعب القول حول هاتين الكلمتين.

يمكن أن نجعل ملاحظاته بشأن قول الحارث «موال لنا».. فيما يلي:

القول الأول: أنهم أبناء العم، وهو المختار عند ابن الأنباري، فيما نرجح، لأنه بجانب تقديمه له على غيره من المعاني نص عليه بقوله: «والموالي في هذا الموضع: بنو العم» وقد راح يستشهد بالقرآن الكريم أولا ثم عرج إلى الشعر ليؤكد هذا المعنى، وينتقل بعد ذلك إلى قول آخر غير منسوب من أن الموالي هم الأولياء، ويأتي بمرجحات هذا القول من القرآن، وبحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك ببيت للأخطل.

فهذان اتجاهان في الفهم يعرضهما ليكونا بين يدي القارئ، وكلاهما محتمل مع ملاحظة اجتهاده في الاختيار والترجيح.

ويبرز أمامنا مستوى أكثر تعقيدا وتأثيرا في النص حين نتابع تعليقه على الكلمة الأخرى «عير»، إذ انهمرت معلوماته وأفكاره موضحة هذه التسمية، ويستحسن أن نتابعه في المعلومات التي جمعها والآراء التي عرضها مسندا كل قول إلى أصحابه:

القول الأول: عن المفضل بن محمد وأبي علي وأبي مالك: وأجمعوا على أنه الوتد، وهنا يكون المعنى «كل من ضرب وتدا في الصحراء فأذنب في الأراقم ألزمونا ذنبه».

القول الثاني: عن أبي الحسن عن أبي عمرو عن خراش العجلي: والعير أراد به كليب بن وائل، ويكون المعنى على هذا القول: أي جعلتم كل من قتل كليبا أو أعان على قتله ابن عم لنا، فألزمتمونا ذنبه ظلما. وبشأن هذا الرأي يرى أن القول يحتاج إلى إيضاح العلاقة بين العير وكليب، ولذلك، يشير إلى ما تعارف عليه العرب من أنهم يسمون السيد العظيم عيرا، ونلمس هنا استطراد وسعة معلوماته، مستقصيا الصلة بين هذه الصفة والاسم، فيذكر أن السيد اكتسب الصفة «لأنه شبه بالحمار في الصيد، إذ كان أجل ما يصاد». ويشبع هذا المعنى تفصيلا من أخبار وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم مع ضبط الكلمة والشواهد الشعرية، كل هذا استطراد في إطار تعميق اللفظ وإعطائه بعده التاريخي من خلال دلالاته في البيئة.

القول الثالث: ما قاله قوم من أنه «أراد بالعير الحمار نفسه»، وهنا يكون المعنى أنهم يضيفون إلينا ذنوب كل من ساق حمارا ويجعلوننا أولياءهم.

وقول رابع: قاله آخرون «العير جبل في المدينة». فالمعنى يكون هنا: جعلوا كل من ضرب ذلك الموضع وأراده وبلغه أولياءنا.

أربعة تفسيرات للفظة واحدة أوردها كلها بشواهدها مادام احتمال صدقها وتعبيرها عن المعنى مقبولا وعلى القارئ بعد ذلك أن يختار ما يراه مستقيما مع سياق القصيدة.

وهو وإن لم ينص صراحة على تفضيله واختياره فإن طريقته في العرض تكشف عن وجهة نظره، ونستطيع القول باطمئنان إن درجات اختياره كامنة في ترتيبه للأقوال نفسها، وهذا الترجيح يأتي من خلال محورين، السند أولا وتناسقه مع المعنى، ثانيا حين النظر إلى الأقوال الأربعة من خلال السند نلاحظ أن القول الأول قد آزره ثلاثة من الرواة هم: المفضل بن محمد الضبي وهو في مجال الرواية والعلم، ولم ينفرد بالقول فقد كان معه كل من أبي علي وأبي مالك. ولا نملك تعينهما غير أن ضمهما للمفضل يؤكد مكانتهما عند ابن الأنباري.

أما القول الثاني فهو حسن الإسناد منحدر عن أبي عمرو فخراش العجلي، فهو لا يقل عن سابقه وإن جاء بسند واحد.

أما القولان الثالث والرابع فلم يسندا إلى شخص بعينه، فهم (قوم وآخرون) لذلك كان حقهما التأخير.

هذا هو السند في منطقية ترتيبه للاختيار ويعاضده المعنى في دقته، فهو لم يعتمد على السند فقط وإنما صدق السند يقوي المعنى، فحينما نعود إلى المعنى الأول نجده قد اتسق مع سياق القصيدة، فالشاعر يتحدث عن إخوانهم الأراقم، وأنهم حملوهم ذنب غيرهم وخلطوا البريء بالمذنب. وهنا يأتي بمثل أو صورة تدل على التهور في الاتهام وتحميلهم ذنوب من لا صلة لهم بهم. فقد أراد الشاعر أن يوحي بمعنى العموم، ولما كان العرب كلهم ضارب وتد في الصحراء، فهذا دلالة على تتبع أو هي أسباب الاتهام. فهذا المعنى الذي ساقه أولا يجسد قصد الحارث في بيته هذا، فهو أقرب

إلى الروح الشعرية وسياق موضح القصيدة لذلك جاء أولا، فقد تضافر سنده ومعناه على تقديمه. ويأتي بعده المقصود بالعير كليب بن وائل وهو معنى قريب من هموم المتنازعين.

ورتب آخر قولين - الثالث والرابع - وفق قرب المعنى من سياق البيت، فلا شك في أن ضرب الحمار أقرب من القول القائل: ضرب إلى ذلك الموضع.

إن هذا المستوى من شرح المفردات هو الجانب الذي يبين موسوعية ابن الأنباري واستقصاءه لوجهات النظر التي تتراءى أثرا بينا على فهم المعنى الكلي للبيت، وقد تكون محلا للجدل والنقاش. وزيادة في بيان هذا الوجه المهم، سنخرج قليلا عن إطار هذه النماذج الثلاثة إلى أمثلة أخرى تؤكد طريقته، وهي ثلاثة أنواع من الكلمات: اسم وفعل وصفة، بجانب بعض الكلمات ذات الدلالة المعينة في البيئة، وبشأن هذه الكلمات دار نقاش وتعددت الآراء.

أما الاسم فهو عنيزة في قول امرئ القيس:

وَيَومَ دخلْتُ الخِدْرَخِدْرَ عُنَيْزَةٍ　　　فقالتْ لَكَ الويلاتُ إنكَ مُرجلي

يعرض لهذا الاسم من خلال وجهتي نظر، أولاهما: أنها «المرأة التي كانت حملته في هودجها فكان يحاول منها ما يحاول، فتمايل الهودج مرة به ومرة بها فتقول له عند ذلك: لك الويلات إنك مرجلي» [46].

وهذا الرأي هو المختار عنده، لذلك أطال التعريف به وربطه ربطا محكما بشرح البيت، مشيرا إلى الحركة والقول من جانبها في الشطرة الثانية. فهذا حجة على أنها امرأة تخاطبه. مع ملاحظة أنه اختار رواية البيت التي تؤكد هذا الرأي.

وبعد ذلك يورد الخلاف بشأن شخصية هذه المرأة: فابن الكلبي يقول: لا أعرف عنيزة، وقال الأصمعي: عنيزة لقب لفاطمة. وقال أبو نصر: عنيزة امرأة. فليس ثمة خلاف على أنها امرأة ولكن الخلاف هو: من تكون؟ وابن الأنباري هنا يوافق على التفسير العام ولا يتدخل في التفاصيل.

ولكن هذا لا ينفي أن هناك رأيا مخالفا للاتجاه السابق وهو الذي يقول به ابن حبيب معتمدا على رواية أخرى للبيت يقول: .. إنما الرواية: «ويوم دخلت الخدر يوم عنيزة»، وقال: عنيزة: هضبة سوداء بالشحر ببطن فلج،

والدليـــل على أن عنيزة موضع قولـــه: «أفاطم مهلا». «فابن حبيب لم يكتف بالتفســير وإنما أورد رواية تؤكد قوله ثم أيد رأيه بدليل من سياق القصيدة نفســها. لذلك أثبت ابن الأنباري رأيه وتفســيره، وإن اختار رواية المفسرين وإجماعهم فاختياره لا يعني إغفال آراء الآخرين، وهذا سلوك مطرد عنده.

أما الفعل فيكفي أن نشير إلى شرحه لقول امرئ القيس أيضا:

قِفاَ نَبْكِ من ذكْرَى حَبِيبِ ومنزلِ   بسِقطِ اللوى بين الدَّخولِ فحَوْمَلِ

ففي شرحه لهذا البيت استطراد استقصى فيه الخلاف حول احتمالات معنـــى اللفظ «قفا»، وقـــد عرض للأقوال المختلفـــة وفهمها الخاص لهذا اللفظ من خلال الاستخدام اللغوي.

قدم ثلاثة تفسيرات رئيسية، وقد أعرض عن شرح القول الأول لوضوح دلالاته، ثم بســـط بعد ذلك القولين الآخرين بسطا يكشف إلمامه بأسلوب العرب، فالقول الثاني آت من سلوك لغوي عند العرب، «لأن العرب تخاطب الواحد بخطاب الاثنين» (47)، وراح يحشد الأدلة المتمثلة في القرآن الكريم وأقوال العرب وطائفة من الأبيات الشعرية التي تكررت فيها هذه الظاهرة.

ويعلله أيضا تعليلا نابعا من البيئة ذاتها، يقول: «والعلة في هذا أن أقل أعـــوان الرجل في إبله وماله اثنان، وأقل الرفقة ثلاثة، فجرى كلام الرجل على ما قد ألف من خطابه لصاحبيه».

أما القول الثالث فهو حالة من حالات اللغة، فالشاعر أراد أن يقول: «قفن بالنون»، فأبدل الألف من النون، وأجرى الوصل على الوقوف، وأكثر ما يكون هـــذا في الوقف، وربمـــا أجرى الوصل إليه. فهذا الـــرأي يقدم لنا حالة من حالات اللغة، وهو أشبه ما يكون بالضرورة ولكنه حشد شواهد كثيرة تدعمه.

ويقدم رأيا رابعا لا يدرجه ضمن الأقوال السابقة، يقول: يقال: إنما ثنى لأنه أراد: قف قف بتكرار الأمر، ثم جمعهما في لفظة واحدة. والدليل على أنه خاطب واحدا فقط في موقع آخر فقال:

«أعنيَّ على برقٍ أريك وميضَه»

ومع أن ابن الأنبـــاري أعطى هذا الرأي حقه من البيان، فإنه لم يخف عصبيتـــه الكوفية حين أخر هذا القول لأنـــه رأي أبي العباس المبرد، وهو رأس البصريين (48).

وقد تكون الكلمةُ المفُسَــرَّة ذات دلالة معينة فــي البيئة، خصوصا إذا تعلقت بعادة أو ســلوك، وهذا النوع كثير ويكفي أن نشير إلى شرحه لمعنى الســهم في قول امرئ القيس: «لتَضْربي بسهميك» [49]. ومعنى قول زهير: «مغانم شتى من إفالٍ مزّنَّم» [50]، وقول عنترة: «وَيْكَ عَنْتَر أقدم» [51].

والنمــوذج الثالث صفة من الصفــات، والصفات يكثر دائما بشــأنها الجدل لأنها قد تشــير إلى أكثر من معنى. ففي تفسير لكلمة (المهيب) في قول طرفة:

«تَريعُ إلى صَوْتِ المهِيبِ وتَتقِي» [52].

يذهــب إلى رأيــين، أولهما أن المقصــود «هو الذي يصيــح بها: هوب هــوب، والمهيب هنا فحلها»، بينما يذهب الرأي الآخر إلى فصل المعنى إلى شطرين أولهما «المهيب صاحبها وراعيها» متقية بذلك «رَوْعاتِ أكْلف الذي هو فحلها» [53].

هذه أهم ملامح واتجاهات شــرحه للألفــاظ الذي يبدأ من كلمة إزاء كلمة على شرح طويل يستوعب إمكانات اللفظ المتعددة ودوره داخل النص الشعري، وفي هذه المرحلة يتجاوز حد اللفظ إلى المعنى العام ودقائقه.

من المهم هنا الإشارة إلى أن هذا التوجه الموسوعي في التعامل مع المفردات يكشــف لنا جانبا مهما من اتجاهات النقد اللغــوي في أحدث نظراته، والتي توجه الاهتمام إلى الثقافة الضرورية لفهم النص الشعري انطلاقا من الثقافة المتصلة بالبعد اللغوي وتاريخه واســتعمالاته. لقــد كان ابن الأنباري يقدم لنا ثقافة كلية للمفهوم اللغوي وهذا هو الاتجاه الجوهري في هذا الاتجاه.

رابعا المعنى:

إن شرح الألفاظ يلامس المعنى المراد تقديمه على المستوى اللغوي الذي يمثله الكاتب، فيدور حوله موســعا دلالتــه. فالإطار واحد واللفظ والمعنى متداخــلان والألفــاظ مدخل ومقدمــة للمعنى، ومن مجموعهــا وتآزرها يتشــكل المعنى. ولذلك نلاحظ أن ابن الأنباري لا يحرص على جمع المعنى في ســطور وإنما يكتفي باستطراده الملازم لشــرح الألفاظ، ويحرص في أحيان أخرى على إيراد شرح كامل للمعنى.

وهذا التداخــل لن يصرفنا عن النظر إلى هــذه التفصيلات الدقيقة والمفيدة التي ســاقها المؤلف. وســنعرض لها كما عرضنا شــرحه لمعاني الألفاظ ابتداء من الصورة المختصرة فالمبســوطة، مع ملاحظة أن إشــارة بســيطة أو عابرة للمعنى قد تمس نقطة ذات بعد عميق يفوق في دلالتها السطور المسهبة ويفتح أبوابا واسعة أمام المتذوق.

أول صورة من صور شــرحه للمعنى نجدهــا في المثال الثالث الذي لم يشــرح فيه المعنى شــرحا مجملا وإنما أشبعه شرحا من كل جوانبه، يبدو فيــه تدرج معقول مع مســح جوانب دقيقــة، وإن كان جل كلامه يتجه إلى مناقشة الجزئيات، خصوصا أن هذا البيت في مجمله جزء من صورة كلية رسمها الشاعر لناقته، لذلك اتجه الشارح إلى توضيح الجزئيات وطاقاتها الخفية التي أراد الشاعر إبرازها حينما جعل أذني ناقته محددتين كريمتين مشــبها إياهما بأذني ثور وحشــي «بحومل مفرد»، ويوضح المقصد الذي أراده الشــاعر بقوله «مؤللتان» فيقول: «يمدح من الأذنين أن يؤللا»، وتابع المعلومــة التي أضافتها جملة «تعرف العتق فيها» ويقول: «إذ رأيتهما رأيت الكرم فيهما لتحديدهما وقلة وبرهما». وهذان تفســيران بســيطان تناولا شكل الأذن ودلالته المعنوية المرافقة للصورة الحسية.

وبعد أن فرغ هذا التحديد الأولي خطا خطوة أوســع متلمســا ما وراء الصورة وأهدافها وذلك بتحديده لهذه الجزئيات.

أ - «شبه أذنيها بأذني ثور وحشي لحدة سمعهما».

ب - «وأذن الوحش أصدق من عينيه عنده».

جـ - جعله مفردا لأنه يكون أشــد توجســا وتفزعا، ولأنه ليس معه وحش يلهيه ويشــغله، وإذا كان كذلك كان أشد لسمعه وارتياعه. قال: والظباء والبقر إذا فزعت كان أحسن لها وأسرع من أن تكون آمنة منقبضة».

حين نمعن النظر في هذه اللقطات التي انتقاها الشارح ليقدم لنا المعنى نلاحظ أنه انتقل بالشــرح من البسيط والمباشر إلى ما وراء هذا من مقصد أراده الشــاعر بهذا التشــبيه. فأشار أولا إلى محل التشــبيه واتبعه بالعلة، وواصــل الانتقال إلى كلية عامة تشــمل جنس الوحوش، ثم جس نقطة أكثر

دخولا في المعنى الشعري حين تتبع عنصر الانفراد حيث تزداد حدة التوجس فهو منصرف كلية إلى سمعه وليس هناك ما يلهيه، فالسمع يتخذ أقصى حالات الاستعداد، وأشار من طرف خفي إلى ارتياعه، وهذا عنصر مكمل، ثم وضع كلية أخرى تشمل الظباء والبقر، مشيرا إلى أن حالة التوتر في الوحش باعثة على الجمال لأن القلق والحركة يتجلى فيهما نبض الحياة.

من هذه الجزئيات استوى معنى البحث بصورته الأولى ثم واصل السير إلى القصد الداخلي النابع من البيئة ومعطياتها وخبرة الشاعر بها، موسعا الفهم كاشفا ما وراء السطور، فهو هنا لا يقدم المعنى الظاهري ولكنه يستقصي جوانب التشبيه، واضعا أمامنا ما أراد الشاعر أن يبثه في كلماته المركزة. في هذا المثال - الثالث - لم يتحدث عن المعنى الكلي بعبارة واحدة لإحساسه بأنه جزء من صورة تحتاج إلى تتبع جزئياتها، أما في المثال الثاني فلعله أحس بأن مقصد الشاعر يحتاج إلى إشارة عامة للمعنى كله، لذلك بدأ شرحه بتركيزه له في سطر واحد وهو قوله:

«معناه: كان ظهره حجرا أملس...إلخ».

حين ننظر إلى هذا الإجمال للمعنى نلاحظ أنه بسطه في أدنى صورة له بعيدا عن ألفاظ البيت التي تحتاج إلى شرح وتوضيح لدلالاتها، فكأنه يهيئ الأذهان للفهم من خلال الإشارة إلى هذا الخط العريض. وفي الجزء الثاني من شرحه ينتقل إلى الهدف الذي من أجله ساق الشاعر عباراته وتشبيهاته من ملامسة الظهر واستوائه واكتناز اللحم. فهذه الغاية العامة، من حيث المعنى هي التي سعى إليها الشاعر ليختتم شرحه للمعنى بتكملة أخرى مشيرا إلى تشبيهه بالصلاية.

إن هذا السطر المجمل للمعنى فيه فوائد جمة لمن يريد فهما أوليا للبيت حتى يتمكن من اختراق حواجز المصطلحات ومسميات البيئة، ولكنه من جانب آخر، لا يزيد شرحه على كونه نثرا عاديا وبسيطا بالنسبة إلى المتمكن الذي أدرك هذا من قراءة البيت وموقعه من السياق، وقد اعتصره ابن الأنباري مختصرا معناه الحرفي لا معناه الدلالي الذي نلاحظه عنده في لمسات دقيقة في مواقع أخرى، وهذا لا ينفي أن كلماته هذه حوت فوائد لا محل لنكرانها إذا راعينا تقدم عصره.

ومع ذلك فإنه لـــم يكتف بهذا المعنى الإجمالي، الذي كان مقدمة أولى للشـــرح، فبعـــد ذلك يتنـــاول البيت من أطراف عدة كمـــا وضح من خلال التوثيق وشـــرح الألفاظ، فهو يضيف عناصر أخرى مع شـــرحه لكل لفظ ويصب هذا كله في مجرى إدراك البيت وفهمه، ولا يترك جزئية إلا ويتابع دلالاتها، فإذا جمعتها إلى كلماته الأولى أحسســـت مدى التشعب والتجوال الذي قادنا إليه ابن الأنباري.

نعود الآن إلى المثال الأول لنرى كيف استطاع ابن الأنباري أن يبين معناه. وأحب أن أشـــير هنا إلى أن هذا البيت، مع أهميته في ســـياق القصيدة، وعنصر التهكم، وتصوير المغالاة في التهم، وهو ما بيّنه الشـــارح، فإنه من جانـــب آخر محدود الطاقة الفنية لا يتحمل أكثر ما قال فيه الشـــارح من حيث المعنى اللغوي والسياق العام.

لقد شـــرحه أولا، ولعله أحس بأنه يحتاج إلى فهم أولي لخطوطه العامة وعـــرض كل احتمالات المعنى، فنقـــل المعنى عن أبي عمـــرو، ولعل الترتيب والتنســـيق والألفاظ له، وقد ضم في إجمالـــه للمعنى معنى الأبيات الثلاثة المتعاقبة التي تم بها، وعندما يصل إلى شـــرح البيت نجده لم يكتف بالمعنى المختار فقط وإنما ذكر بإجمال أهم اتجاهات الشرح، قال: «ويطالبونا بجناية كل من جنى عليهم ممن نـــزل صحراء أو ضرب عيرا ويجعلونهم موالي..». ففي هذا الشـــرح المبسط أجمل احتمالات المعنى التي سيفسرها فيما بعد، فكأنـــه يعد الذهن لها فركز معاني «العير» المختلفة في اتجاهين رئيســـيين أحدهما: نزول الصحراء وهذا يشمل أصحاب الرأي الأول وأصحاب الرأي الرابع الذين فسروه بأن معناه كل من نزل أو ضرب إلى جبل المدينة.

أما الثاني: فهو تفســـير الكلمة عند أصحـــاب الرأيين الثاني والثالث، فالعير صفة محددة لكليب وكذلك هو اسم للحمار، فهي تؤدي معنى واحدا مرة اســـما ومرة صفة.. وهكذا استطاع أن يلم الجزئيات المفصلة للمعنى التي كانت واضحة في ذهنه في هذا التلخيص المركز.

ويتابع بعـــد ذلك التفصيلات المكملة لما ســـبق، فيعطي كل وجهة نظر حقهـــا من التفصيل، مديرا المعنى وفق كل وجهـــة منها، فإذا فرغ من هذا أدار الكلام حول المعنى الكلي ليتناســـب مع هذا الفهم، فعلى الرأي القائل

إن الموالي هم الأولياء يكون شــرح المعنى «أي جعلوا كل من فعل هذا الفعل وليا لنا»، ومع الذين قالوا: العير هو الوتد يكون المعنى: يقول: كل من ضرب وتــدا في الصحراء فأذنــب في الأراقم ألزمونا ذنبــه» وهكذا. ولم يبخل بالشاهد والمثل والأقوال المؤكدة لهذه الآراء، مزيلا كل التباس ومضيفا إلى هذا كله فوائد لغوية جمة تفيد من يريد التوسع.

الأمثلة الثلاثة التي دار حولها التحليل قدمت لنا الخط العام الذي ينتظم فيه شــرح ابن الأنباري ويســير عليــه، وبداهة أنه من الصعب تماما أن تحوي هذه كل خصائص شــرحه، لذلك ســأخرج قليلا عن إطارها لتوضيــح بعض الملامح العامة. وعلى ســبيل المثال ننظر إلى شرحه لبيت عنترة [54].

وحَليلِ غانيَةٍ تَركَتُ مجدَّلا   تمكُو فريصته كشِدقِ الأعْلَمِ

فهذا البيت حوى عددا من التراكيب المتميزة هي: «حليل غانية» و«تركت مجدلا» و«تمكو فريصته» و«شدق الأعلم». لذلك عني ابن الأنباري ببيانها والنظر إلى المعنى من خلال التفصيل في شرحها.

كان شرحه للتركيب الأول (حليل غانية) شرحا لغويا بسيطا، أما التركيب الثاني (تركت مجدلا) فقد كان أكثر دخولا في بيان هدف الشــاعر، فقدم شــرحه على مستويين، أولهما شــرح عام: «قوله مجدلا: معناه مصروعا»، أما المستوى الآخر فهو يدفع بفهم المعنى إلى أبعد من المعنى الحرفي نافذا إلــى الدلالة، يقول: «وأصله أنه لصــق بالجدالة، وهي الأرض»، ففي هذا التفسير للمعنى تجسيد لهوان المقتول، وهذا هو هدف الشاعر.

وفــي التركيب الثالث (تمكو فريصته) تبرز إمكانات الشــرح عنده حين يتابع هذا التركيب من عدة زوايا، فبعد الشــرح المبســط المجمل معنــاه يبدأ في تجزئته، فالمــكا: الصفير، ولهــذه الكلمة إيقاع صوتي يحتــاج إلى بيان؛ ولذلك يستشــهد بقول أعرابــي يوضح المعنى، «قال الأصمعي: قلت لمنتجع بن نبهان: ما تمكو فريصته؟ فشبك بين أصابعه ثم وضعها على فمه ونفخ». فهذه الحركة ليست بيانا لمعنى اللفظ بكلمة إنما هي تمثيل وتجسيد لصوت الجرح، وهي متلائمة لما في الفعل من حركة وصوت.

أما الشـــق الثاني من هذا التركيب وهـــو كلمة «فريصة»، فإنه بدأ أولا - كعادتـــه - بتحديد المراد منها بموقعها من الجســـم، ثم بين خصائصها المتمثلة في الارتعاد. ويزداد المعنى عمقا حين يضع يده على قصد الشاعر الذي عبر عنه أحســـن تعبير، قال: «وإنما خص الفريصة لأنها إذا طعنت هجمت الطعنة على القلب فمات الرجل. فأخبر عن حذقه بالطعن وأنه لا يطعن إلا في المقاتل وقلبه معه، ولو كان مدهوشـــا لم يدر أين يضع رمحه. وإنما يصفر الجرح إذا ذهب الدم كله، لأنه ريح بعد الدم».

إن هذا الشـــرح الموجز حـــوى مجموعة من العناصر، فبعد أن جســـد الإيقاع الصوتي بيّن ســـبب اختيار الفريصة بالـــذات، وجاء بيانه موضحا الدلالـــة من جهتـــين: أولاهما خاصـــة بالطعنة القاتلـــة، والأخرى خاصة بالطاعن الذي كشـــفت طعنته عن صفتـــين: حذقه بالطعن وثبات جنانه.. ويتحســـس بعد ذلك دلالة صفير الجرح، فهو لا يكون إلا بعد خروج الدم، وهذه إشارة إلى سعة الجرح.

ويتابع شرحه للتركيب الأخير (كشدق الأعلم) مركزا على المقصد الذي أراده الشـــاعر وهو أنه «أراد سعة الطعنة، أي كأن هذه الطعنة في سعتها كشدق الأعلم»، والأعلم الجمل في رأيه استنادا إلى السياق نفسه [55].

إن شـــرحه لهذه التراكيب يقوم أساسا على إدراكه للمقصد الذي أراد الشـــاعر أن يشـــيعه من خلال الإيحاء به عن طريق هذه التراكيب الدالة عليه، لذلك يختار الزاوية المؤدية إلى هذا الغرض.

وفي شرحه إحســـاس دقيق بخلجات النفوس التي عبر عنها الشاعر، فهذا زهير بن أبي سلمى يخاطب المتنازعين قائلا [56]:

فلا تَكْتمنَّ اللهَ ما في صدُورِكمْ لِيَخفى ومَهما يُكتَمِ اللَّهُ يَعلمِ

ففي هذا البيت إشارة خفية ودقيقة تمس النفس البشرية، لذلك يشرح البيت في مستويين: أولهما ظاهر عبّر عنه أبو جعفر أحمد بن عبيد فقال: «معنى البيت لا تظهروا الصلح وفي أنفســـكم أن تغدروا، كما فعل حصين بن ضمضم إذ قتل ورد بن حابس بعد الصلح»، فهذا معنى بســـيط مرتبط بالســـياق العام وآت من النظرة الأولى مع الاســـتعانة بالمعلومات التاريخية المحيطة بالنص.

وهنـــاك معنـــى خفي ودقيق عبر عنـــه ابن الأنباري قائــلا: «معناه: لا تكتمـــوا الله تعالى ما صرتم إليه من الصلح وتقولوا إنا لم نكن نحتاج إلى الصلــح، وإنا لم نســـترح من الحرب، فإن الله جل وعــلا يعلم من ذلك ما تكتمونه»، وهذا التعبير خاص بالنفوس حين تركب القبيلة رأســها، وتعتقد - كبرا - أنها ليســت في حاجة إلى الســلم، لذلك تابع الشاعر القول في البيت الذي يليه:

وما الحَرْبُ إلا ماعَلِمْتُمْ وذُقْتُمُ ... وما هُوَ عَنْها بالحَدِيثِ المرجَّمِ

فهذه المعرفة تكشــف لكم عن مدى حاجتكم إليه، لذلك نلاحظ أن ابن الأنباري تابع الإشــارة إلى هذا الجانب مـــوردا رأي أحمد بن عبيد الممثل للرأي الأول عارضا رأيه المستطرد مع تفسيره الأول.

ويحفل شرحه بمثل هذه الإشارات التي تشير إلى الإحساس النفسي وتعبير الشـــاعر عنه. وهذه الإشـــارات لا تزيد على كونهـــا دراية وفهما للنفس البشرية.

ومثال آخر يندرج تحت الخط السابق، يقول في شرحه لبيت الحارث:

لا أرى مَنْ عَهِدتُ فيها فأبكي الـ ... ـيوم دَلْها وما يـردّ البُكاءُ

يقول: لا أرى من عهدت من أحبابي في هذه المنازل، فأنا اليوم أبكي شـــوقا إليهم، «إني حيث رأيت آثارهم تذكرت مـــا كنت فيه منهم، فهاج ذلك البكاء» (57).

فهو في شرحه هذا يعبر عن المعنى الكامن في البيت دون مجاوزة الحد أو الإسراف في التحليل.

ومن ملامح اســتقصاء المعنى ذلــك التتبع الدقيق للآراء والشـــواهد الشـــعرية التي تجســـد المعنى وتبينه مع الإحســـاس بالصـــورة أو الحركة الحادثة في البيت، مثل شرح بيت عنترة (58):

بَرَكت على ماءِ الرِّداعِ كأنّما ... بَرَكَتْ على قَصَبٍ أجَشَّ مُهضَّمِ

يجـــس اتجاه المعنى بقوله: «يقول: كأنمـــا بركت على زمر. والمعنى أنها بركَت فحنت، فشبه صوت حنينها بصوت المزامير، أي كأن حنينها مزامير». ويقرب المعنى بالاستشهاد الشعري الملائم:

ماذا يُغير ابنَتي رِبع عويلهُما لا ترقُدان ولا بُؤسي لمن رقَدا
كلتاهما أبطنتْ أضلاعُها قَصَبا من بَطن حَلْية لا رطبا ولا نقدا

وهـــذا الرأي الذي قدمه هو واحد من عدة آراء، ولما كان كتابه حصيلة لتراث الأجيال الســـابقة فإنه بعد فراغه من عرض رأيه ينطلق إلى ما أثر عـــن العلماء، فأبو عبيدة يقول: «إنمـــا أراد القصب المخرق الذي يزمر به الزامر. فشبه صوت حنينها بصوت المزمار»، وهذا الشرح يلتقي مع الرأي الذي ســـاقه أولا. أما ابن الأعرابي فيقـــول: «أراد أنها بركت على موضع نضب ماؤه وجف أعلاه وصار له قشـــر رقيق، فإذا بركت عليه ســـمعت له صوتا، لأنه ينكسر تحتها». وكل هذه التفسيرات محتملة ومعقولة، وإن كان رأي ابن الأعرابي أقرب إلى البيئة وألصق بالصورة العامة.

ومثل هذا تتبعه لنغمة بيت زهير التهكمية في قوله عن الحرب:

فتغْلُلْ لَكم ما لا تُغِلُّ لأهْلِها قرى بالعِراقِ من قَفِيز ودِرهم

«قال يعقوب: هذا تهكم، أي هزء. يقول: لا يأتيكم منها ما تســـرون به مثل مـــا يأتي أهل القرى من الطعام والدراهـــم، ولكن غلة هذا عليكم ما تكرهـــون. قال أبو جعفر: فتغلل لكم معناه أنكم تقتلون وتحمل إليكم ديات قومكم، فافرحوا فهذه لكم غلة» (59).

وفي مجال شـــرح المعنى نلاحظ وعيه بموقع البيت من الســـياق، كما لاحظنا في النماذج التي قدمناهـــا، ونلاحظ أنه يحس ترابط المعنى عبر الأبيـــات المتتالية، وهذا واضح في الشـــرح كله، ينـــص أحيانا عليه منبها، ويتركه في أحيان كثيرة لوضوحه في المعنى.

وفي مقام التمثيل نذكر هنا تعليق أبي جعفر - أحد مصادره الرئيسية - على بيت عنترة:

إنْ تُغدِقي دُوني القِنَاع فإنّني طَبٌّ بأخْذِ الفارس المُستلئِمِ

«معناه: إن تســـتري مني فإنني أنا الحامي مثلك أن تسبي، فلم تسترين عن مثلي؟ يرغبها في نفسه» (60)، ويتابع هذا المعنى في البيت الذي يليه:

اثْنِي عليّ بما عَلِمْتِ فإنني سَمْحٌ مُخَالطَتي إذا لم أُظْلَمِ

ولا شك في أن الرابطة بين البيتين تحتاج إلى بيان، وهذا ما يكتمل في قوله في شـــرح هذا البيت الأخير: «وقال أبو جعفر: قد قال قبل هذا: إن تغدقي دوني القناع، ثم قال: أثني علي بما علمت، لأن المعنى: إذا رآكِ الناس

قد كرهتني وأغدقت دوني القناع توهموا أنك استقللتني واسترذلتني، وأنا مســتحق لخلاف ما صنعــت، فأثني علي بما علمت» [61]. فالإشــارة إلى الصلة التي تربطه بالبيت السابق له توضح المعنى وتبين اتجاهه [62].

هذا هو الأسلوب المطرد في شرح ابن الأنباري للمعنى، فهو ملتزم – في خطــه العام – بالفهم اللغوي ودلالته العريضة الآتية من الفهم المتميز لكل ما يحيط بالنص، فالوصول إلى النص من خلال أرضيته اللغوية هو دخول مشــروع إليه، حيث تتشكل في النفس علامات تســاعد على التغلغل فيه ومس جذوره العميقة، وبعد ذلك يملك كل باحث حق التفســير بعد الفهم واللقاء المباشر مع النص ضمن بيئته.

وأشــير هنا إلى أن المعنى، وإن قدمتــه في هذا الحيز الضيق فإنه كل متحد توحي به لنا كل العناصر التي تحدثت عنها ســابقا، وتشــمله كذلك العناصر التالية:

خامسا: شواهد واستدلالات:

يعزز ابن الأنباري رأيه بمختلف السبل ولا يدخر وسعا في هذا السبيل مادامت هناك فائدة للنص في أحد جوانبه العامة أو الخاصة، والاستشهاد عنده يقوم أساسا على ما تعارف عليه العلماء بشأنه، ولما كان النص عربيا جاهليا فالرأي يكون متناسبا مع سلوكهم الشعري واللغوي وحياتهم العامة. ولما كانت هذه القصائد تعبر عنهم فإنها تعبر عن البيئة ولا يمكن فهمها إلا بها، لذلك سعى جاهدا إلى تحقيق هذا الجانب كما هو واضح من الأمثلة الثلاثة، وسأعرض لهذه الشواهد بأنواعها المختلفة.

[أ] القرآن الكريم:

ليس في المثالين الثاني والثالث أي استخدام للقرآن الكريم، بينما نجده في الأول حريصا على أن يورد آيتين اســتخدمتا لفظا واحدا «الموالي» في سياقين مختلفين، أولهما الموالي بمعنى أبناء العم، والثاني بمعنى الأولياء، وواضح أن ابن الأنباري يحرص على أن يشير إلى هذين الاستخدامين مبينا قوتهما بكل الوســائل المتعادلة، وكأنه يقول إن هذين الاستخدامين عاليان

فـــي درجتهما اللغوية ومتعــادلان في صحتهما، ولما كانــت كلمة «الموالي» ليســت لفظة عادية بل هي مصطلح ذو دلالة دقيقة خاصة باستخدامات العرب، فإن القرآن وهو في مجال التشريع يكون هو المرجع الأول لتحديد معنى هذا اللفظ، فيكســبه دلالة أكبر، فالاستشــهاد بالقرآن يعني وضع القارئ أمام قمة الاســتخدام اللغوي في موضعــين مختلفين. ويبقى بعد ذلك، بالنســبة إلى البيت، الرأي الذي تؤكــده الملامح الأخرى والمرجحة، لذلك كان ابن الأنباري حريصا على أن يسوق مع كلا الاتجاهين في المعنى آية قرآنية كأنه قاض يضع الأدلة كلها معطيا الرأي الآخر حقه وذلك بعد أن يرجح ما يراه مناسبا. وفي هذا إشارة إلى إمكانات متعددة لفهم النص الشعري على أساس ما تحمله الكلمة من بعد ثقافي.

[ب] الحديث الشريف

ويتبع الحديثُ الشــريف القرآن الكريم في المقــام الروحي لا اللغوي، لذلك قل استشــهاده به فلم نجد له أثرا في المثالين الثالث والرابع، وجاء في المثال الأول شــاهدا على استخدام الموالي بمعنى الأولياء، وفي موضع آخر جاء من وجهين، أحدهما خطاب الرســول الكريم لأبي سفيان موردا كلمة «الفرا» الذي هو أجلّ ما يصطاد، والموضع الآخر كلمة «العير» بمعنى الجبل، فالاستشهاد الأول تعزيز لما جاء به القرآن والشعر وليس هو ابتداء في الاستشــهاد، والثاني اسم لجبل حول المدينة، لذلك يجد أصحاب هذا الرأي بعض التأييد. ولا يزيد استشهاده بالحديث على هذه الحدود.

[ج] فهم الشعر بالشعر

وهذا هو الأساس الذي يعتمد عليه في فهم الشعر معنى ولفظا وتركيبا، حيث يتوافر البعد المجازي الذي يقرب بين القارئ والنص الشعري. لذلك نال الشــعر اهتماما واضحا عنده، فقد كان وســيلته الأولى في فهم معنى البيت الشعري وعونا له على الشرح والتوضيح، مع إتاحة الفرصة للمقارنة المفيدة التي تكشف عن هدف الشاعر. ويمكن النظر إلى شواهده في هذه الأمثلة الثلاثة من جهات متعددة:

1 - **توضيح معنى لفظ من الألفاظ**

على نحو ما نرى في شرحه لكلمة «الضافي» بمعنى الذنب السابغ، إذ يجد في هذه الشطرة: «ورفعن أذيال المروط الضوافيا» ما يبين معناها فيوردها مكتفيا بها في مجال البيان.

وهناك نوع آخر من الألفاظ تحتاج إلى تحديد حينما تختلف وجهات النظر حولها كما رأينا في كلمة «الموالي»، فيورد ثلاثة شواهد أولها على معنى أنهم أبناء العم:

ومن الموالي موليان فمنهما مُعطى الجزيل وباذلُ النصرِ

ومن الموالي ضَبّ جندلةٍ لحز المروة طاهر الغِمْرِ

أما الشاهدان الآخران فهما لتأييد الرأي القائل بأن الأولياء هم أولياء الحق.

2 - **توضيح معنى دقيق**

كأن مفالق الهاماتِ منْهم صَرايـاتٌ تَـهَـادَاهـا جَـوَارِ

استعان بهذا البيت لتوضيح لمعان الصراية، حيث وجد فيه تعبيرا معقولا عن هدف الشاعر، ولا يكتفي بهذا الشاهد فيأتي بآخر: يقرب معنى البيت، وقد اجتمعت فيه عناصر طيبة ترفع من رتبته، فهو أولا للشاعر نفسه (امرئ القيس)، والموضوع في كلا البيتين واحد، فكلاهما وصف للفرس، ويضاف إلى هذا اتحاد زاوية الوصف، فالشاهد ركز على لمعان الموصوف وبريقه، فكان اختيار الشارح له اختيار من يتعامل مع قاموس الشاعر اللغوي؛ فقد كان هذا الاستدلال يحتاج إلى بيان فشرحه، وليس هذا استطرادا ولكنه محاولة لوضع اليد على المقصد فيه حتى لا ينصرف الذهن بعيدا عما جاء به الشاعر الذي وضح معنى الانغماس في الماء في حقيقته المادية المفرطة، لذلك أتبعه بالعبارة ذات الدلالة المعنوية وهي قول القائل «أنت مغموس في الخير».

ولجأ إلى هذه الشواهد لتفسير الضبط اللغوي: كلمة فِرا وتركيب «إنا الولاء» أي أصحاب الولاء .

وهكذا تدور استشهاداته الشعرية حول الجزئيات المختلفة متغلغلة في كل عناصر الشرح.

أما درجة الذين استشهد بأقوالهم فهم من الذين تعارف العلماء على اعتبارهم مصدرا للاستشهاد، وقد نسب بعضها إلى قائليها: الزبرقان بن بدر والأخطل وعامر بن كثير المحاربي والنابغة الجعدي والسليك بن السلكة وابن مقبل، وكلهم يعودون إلى تلك العصور: الجاهلي والإسلامي أو الأموي.

وهناك أبيات لم تنسب إلى أصحابها، وكثير من الشواهد القديمة عنده غير منسوبة، ولكن قياسا على الشواهد المنسوبة يمكن الاطمئنان إلى أن المستشهد بشعرهم يعودون إلى العصور ذاتها التي يعتمدها ابن الأنباري للاستشهاد اتباعا لمنهجه العلمي الذي سار عليه.

[د] آخر الاستخدامات هي أقوال العرب وسلوكهم

وهذا أصل من أصول الفهم لفنهم الشعري واستخداماتهم اللغوية. وهذه المعلومات كثيرة في كتابه يستعين بها في التوضيح والتفسير، وفي هذه الشواهد الثلاثة نلاحظ أنه استعان بقول لأم خارجة التي ولدت ست قبائل وذلك في سياق شرحه للبيت الثالث. وفي المثال الأول بين أن العرب «تسمي الرجل العظيم عيرا»، فهذه التسمية آتية من سلوك نابع من البيئة. وهذه الدراية والخبرة بالبيئة هي أساس من أسس الفهم الثقافي للنص عنده، وهذا واضح في كل موضع من مواضع الكتاب.

سادسا: البنية النحوية

اعتاد ابن الأنباري أن يختم شرحه لكل بيت بإعراب أهم ما فيه من وجوه إعرابية، ولا يتخلف عن سنته هذه .

وفي الأمثلة الثلاثة التي وقفنا عندها لا يخرج عن هذا الأسلوب، ففي البيت الأول تعرض للأوجه الإعرابية من وجهة نظر عامة، وغطى إعرابه البيت كله تقريبا، وتخلل هذا الإعراب تحليل صرفي لكلمة «موال» والأصل فيه موالي فاستثقلت الضمة على الياء لسكونها وسكون التنوين.

وفي المثالين الآخرين اقتصر على بعض اللمحات المبسطة والمفيدة، وقد شمل الإعراب في البيت الثاني أهم مواقع الإعراب فيه، فتحدث عن اسم كأن وخبرها والمعطوف عليه وتعين الظرف في البيت.

واختار في البيت الأخير كلمتين أساسيتين فأعربهما وترك البقية لوضوح إعرابها، ولكنه في بعض الأحيان، عندما يكون الإعراب محتملا لأوجه عدة تطغى شخصيته اللغوية فيخصص سطورا كثيرة لعرضه بحيث يعطيه مساحة الشرح كله [63]. هذه أهم النقاط التي يشملها شرحه والتي يمكن ملاحظتها، أو بعضها في بقية كتابه حاولت بقدر الطاقة أن أوجزها من خلال أمثلة محددة تغطي أسلوبه في الشرح.

سابعا: الملاحظات البلاغية

نقرر أولا أن الشرّاح لم يعنوا كثيرا بتتبع التفصيلات البلاغية وتفقد تلك التفريعات التي كانت سائدة عند النقاد والبلاغيين في ذلك العصر. وقد اهتم الشرّاح - فقط - بجلاء غوامض النص، منبهين إلى أهم ما فيه من خلال الفهم اللغوي والمعارف الأخرى التي تخدم المعنى العام وتوضحه.

وهذا لا ينفي أن هناك إشارات، كلما دعت الحاجة، إلى مواضع الجمال في البيت، منبهين إليها بأبسط الاصطلاحات وأيسرها كقولهم: هذا تشبيه أو كناية، وقد يكتفون بصيغة عامة كقولهم: «مثل» أو «تمثيل»، وما إلى ذلك من إشارات.

ولم يكن ابن الأنباري إلا واحدا من هؤلاء الشرّاح، فهو لم يعر الملاحظات البلاغية اهتماما بينا، فهو منصرف إلى جلاء النص الشعري ضمن الإطار اللغوي، ولا تمثل أجزاء الصورة الفنية إلا بعضا من اهتمامه، وكذلك كانت إشاراته إلى هذا الجانب عامة وبسيطة لا تزيد على كونها وسيلة من وسائله المختلفة في الشرح والتفسير والبيان، لذلك جاءت موجزة يشير إليها بكلمة عامة، فإذا قال: هذا مثل أو تمثيل، لم يعقب على هذا بما يفصل اتجاه التمثيل في البيت بل هو جزء من شرح المعنى الكلي فقط، وقد يتبعه أحيانا بكلمات توضح اتجاهه، مثلا في تعليقه على بيت زهير:

رَأيتُ المَنَايا خَبْطَ عشْواء من تُصبْ تُمِتْهُ ومَن تُخْطئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

يقـــول: «وهـــو مثل، معناه أن المنايـــا تأتي بما لا تعرفـــه، فمن أصابته أماتته، فكأنها ناقة عشواء لا تبصر، وقد ندت فهي تقتل من أصابته» [64].

وقد يتابع صورة التمثيل، فهو مثلا يعرض لبيت عمرو بن كلثوم:

متى نَنقلْ إلى قومٍ رَحانا يـكونوا فـي الـلقـاءِ لها طحينا

فيقـــول: «وقوله: متى ننقـــل إلى قوم رحانا يكونـــوا كالطحين للرحى، أي كالحنطـــة، وهذا مثل معناه متى حاربنا قوما كانوا كذلك». ويتابع هذه الصورة في البيت اللاحق:

يكونُ ثِفالُها شَرقيَّ سَلْمى ولُـهـوتُـهـا قُـضَـاعـةَ أجـمـعـيـنـا

يقول: الثفال: جلدة أو خرقة تجعل تحت الرحى، ليكون ما ســـقط من الطحين في الثفال وهذا مثل ضربه، أراد شـــرقي ســـلمى للحرب بمنزلة الثفال للرحى.

قال زهير:

فتعرككُم عركَ الرحى بثفالها وتَـلْـقَـحْ كِشافا ثم تُـنْـتَـجْ فتتْئم

واللهـــوة: القبضة من الطعام تلقيها في الرحى، وجمعها لهى. وهو مثل أيضـــا أراد أن قضاعة تطحنهم الحرب كما تطحـــن الرحى ما يلقى فيها من طعام [65].

ويحاول أحيانا توضيح اتجاه البيت من الخبر والإنشاء مثل:

رزقت مرابيعَ النَّجوم وصابَها وَدْقُ الـرَّواعِـد جَـودُهـا ورِهـامُـهـا

«رزقت: دعاء لها، أي رزقها الله تبارك وتعالى مرابيع الســـحاب، وهو أول ما يكون من مطر الربيع [66]» ويعود مرة أخرى إليه قائلا: «وقال بعض أهل اللغة: قوله: رزقت مرابيع النجوم خبر وليس بدعاء» [67].

وينبه إلى الاستفهام البلاغي مثل:

أغَرَّكِ منِّى أنَّ حُبَّكِ قَاتِلي وأنَّكِ مَهْما تأمُري القَلْبَ يَفعَلِ

«قولـــه «أغرك مني» لفظ اســـتفهام ومعناه التقريـــر»، ولا يكتفي بهذا فقط بل يربطه بشاهد شعري يبين اتجاه الاستفهام، فيقول: «وهو بمنزلة قول جرير:

ألستم خيرَ مَنْ ركب المطايا وأنـــدَى الـعـالمينَ بـطـونَ راحِ

فاللفظ لفظ الاستفهام، والمعنى: أنتم خير من ركب المطايا [68]:

ومثل هذا تعليقه على قول زهير:

أمِنْ أمِّ أوفى دِمنةٌ لم تَكلم بـحَـوْمَـانـة الــدَّرَاجِ فـالمتـثـلَّـمِ

«وقـــال الأصمعي: قوله «أمن أم أوفـــى» معناه: أمن دمن أم أوفى دمنة لم تكلم، أي أمن منازل أم أوفى. وهذا على التفجع، كما قال الهذلي [69]:

أمنك برقٌ أبيت الليل أرقبه كأنّه في عـراص الـدار مصباحُ»

ويشـــير إلى التشـــبيه في مواضع قليلـــة، وهي لا تزيد على إشـــاراته السابقة، مثلا يعلق على بيت امرئ القيس:

وبَيضةِ خدرٍ لا يُرامُ خباؤها تَمتَّعت مِن لهْوِ بِها غير مُعجَلِ

فيقول: «وإنما شـــبهها ببيضة في خدرها لأنها مخدرة مصونة لا تبرز للشـــمس، ولا تظهر للناس، فشـــبهها بالبيضة لصفائها وملاستها، ويقال: شبهها ببيضة النعام [70]. ومثله تعليقه على قول امرئ القيس أيضا:

كأن ثبيرا في عَرَانين وَبْلِه كَبيـرُ أُنــاسٍ فـي بـجـادٍ مُـزَمَّـلِ

يقول: «قد ألبس الوبل أبانا، فكأنه مما ألبســـه من المطر وغشاه، كبير أناس مزمل، لأن الكبير أبدا متدثر. وقال أبو نصر: إنما شـــبه الجبل وقد غطاه الماء والغثاء الذي أحاط به إلا رأسه، بشيخ في كساء مخطط وذلك أن رأس الجبل يضرب إلى السواد والماء حوله أبيض» [71].

ولكنـــه قد يفصـــل أحيانا داخلا فـــي مجال التنظير والإشـــارة إلى القواعد العامة والســـلوك الفني، ففي مجال التشـــبيه نراه يقول تعليقا على قول عنترة:

جادَتْ عليه كلّ بِكر ثَرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُـــلَّ حـــدِيـــقـــةٍ كـــالـــدِّرهـــمِ

«وقوله كالدرهم: معناه أنها امتلأت كلها فكأن استداراتها بالماء استدارة الدرهم وليس أنها كقدر الدرهم في الســـعة. والعرب تشبه الشيء بالشيء ولا تريد به كل ذلك الشيء، إنما تشبه ببعضه. ومن ذلك قولهم: «بنو فلان بأرض مثل حدقة الجمل» والأرض واســـعة، إنما يريـــدون أنها كثيرة الماء

ناعمة العشب مخصبة، ولم يذهبوا إلى سعة العين ولا ضيقها، ويقولون: بنو فلان في مثل حولاء الناقة، وهي هَنَةٌ مثل المرآة تسقط مع السلى فبها ماء صاف» [72].

فهو هنا لم يكتف بالتنبيه إلى التشبيه فقط ولكنه أخذ يدخل في مضمار التنظير مع تبيين اتجاهات التشبيه وقواعده والزاوية التي انحدر منها هذا التشبيه والهدف منه، فكلمة درهم في هذا السياق توحي بأمرين: الحجم والاستدارة، لذلك فصل موضحا وجه الشبه نظريا وتطبيقيا.

وتنال الكناية نصيبا يسيرا من إشاراته الصريحة، فينبه إلى موقعين أولهما قول امرئ القيس:

وإنْ تَكُ قد ساءتكِ منّي خَليقة　　فسلّي ثيابي مِنْ ثِيابك تَنسُلِ

وذلك في شرحه للمعنى، فيقول: «والمعنى: إن كان فيّ خلق لا ترتضينه فسلي ثيابي من ثيابك، أي قلبي من قلبك. والثياب هاهنا كناية عن القلب...» [73].

ومرة أخرى في بيت طرفة:

وفي الحيِّ أحْوى يَنفض المَرْدَ شادِنٌ　　مُظاهِرُ سِمْطي لؤلؤٍ وزَبرْجَدِ

«الأحوى: ظبي له خطتان من سواد، وإنما أراد سواد مدمع عينه، فشبه المرأة بالظبي، والأحوى كناية عنها» [74].

ولكننا نلاحظ أنه في شرحه العام كان يتعرض للجوانب الجمالية في النص فيبينها عن طريق الإشارة إليها أو الشرح المبين لها مع المقارنة المستمرة للنصوص الموضحة لها، وهناك كثير من الملاحظات اللطيفة، ولنضرب مثالا على هذا الجانب بهذا النص الذي جسد إحساسه بالصورة الفنية لبيت امرئ القيس:

وألْقَى بصحْراءِ الغَبيطِ بَعَاعَه　　نزول اليماني ذي العيابِ المحمَّلِ

«يقال: ألقى فلان عليه بعاعه، أي ثقل وما معه من المتاع، فضربه مثلا للسحاب، أي: أرسل ماءه وثقله كهذا التاجر اليماني حين ألقى متاعه على الأرض ونشر ثيابه، فكان بعضها أحمر، وبعضها أصفر، وبعضها أخضر. يقول كذلك ما أخرج المطر من النبات والزهر، ألوانه مختلفة كاختلاف ألوان الثياب اليمانية» [75].

ففي هذا النص حاول، ما وسعته الطاقة، تجسيد الصورة العامة موضحا أبعادها راسما إياها وفق إيحاء البيت عنده، وقد استطاع أن يكمل الإطار الخارجي لهذه اللوحة الفنية التي رسمها امرؤ القيس.

الملاحظات العروضية

الحديث عن العروض في مثل القصائد السبع قد لا يحمل شيئا مميزا، لأن هذه القصائد هي أحد المصادر التي انحدرت عنها القواعد العروضية. فالشاعر الجاهلي اكتسب الجو الموسيقي بسليقته الفنية. وعندما جاء من يضع الأسس العروضية اعتمد على هذه القصائد وأمثالها لاستخراجها منها، فهي شاهد على القاعدة، ولذلك فإن تفسير الخروج عن قواعد العروض فيها إنما هو الشذوذ الذي يؤكد القاعدة، ولذلك يحتاج إلى التفسير المتلائم لينسجم معها، أو يكون هو إحدى الضرورات المقبولة التي يمكن إباحتها لمن يأتي بعدهم. ونحن لا ننتظر تجاوزات واضحة في هذه القصائد السبع؛ لذلك قلّت تعليقات الشرّاح على هذا الجانب.

ولكن هذا لا يعني أن القصائد السبع قد خلت تماما من بعض الملامح البسيطة التي تجاوز بها الشاعر القاعدة العامة. وهي في مجملها من العام المعروف أو الذي أشار إليه العلماء مفسرين شارحين أو مخطّئين في بعض الأحيان.

إذا أهملنا تلك المفردات التي أصبحت من مقررات العروض [76]، يمكن النظر إلى الملاحظات العروضية التي سلم بها أهل العروض وتداولها العلماء فدخلت في باب الجائز المطرد الجواز، فأصبح التنبيه إليها تأكيدا لها، ومن هذه الملاحظات صرف ما لا ينصرف أو بتعبير ابن الأنباري «الإجراء»، وقد قدمها نظريا وتطبيقيا، فنظريا ساقها قائلا في مجال التعليق على صرف كلمة «ظعائن» في بيت زهير:

تَبصَّر خليلي هل ترى من ظعائنٍ　　　تَحَمّلنَ بالعلياءِ من فوقِ جُرثمِ

يقول: وأجرى الظعائن لضرورة الشعر. قال الفراء والكسائي: الشعراء تجري في أشعارها كل ما لا يجري، إلا «أفعل منك» فإنهم لا يجرونه في وجه من الوجوه، لأن «من» تقوم مقام الإضافة، فلا يجمع بين إضافة وتنوين [77].

ومثــل هذا تعليقه على إجــراء «عنيزة» في بيت امــرئ القيس يقول: «وعنيزة مخفوضة بإضافة الخدر إليها، وكان ينبغي أن ينصبها بلا تنوين، لأنها لا تجري ....، ولكنه خفضها بتنوين لضرورة الشعر» (78).

ومثل هذه القاعدة تحريك الساكن في آخر البيت لضرورة القافية.

فيقول تعليقا على تحريك لام «تنسل» في قول امرئ القيس أيضا:

«فسلّي ثيابي من ثِيابك تَنْسُلِ»

«واللام كسرت لأنه احتيج إلى حركتها للقافية، والمجزوم إذا احتيج إلى حركته كُسر» (79).

وقد أدرج تحت هذه القاعدة عددا من الأبيات مثل تحريك لام «فيغسل» في قول امرئ القيس:

فعَادى عِداء بيْن ثور ونعَجةٍ   دِراكـا ولـم يُنضجْ بمـاءٍ فيُغسَلِ

وحقها الســكون موردا القاعدة نفسها (80)، وكذلك تحريك دال «يزدد» في قول طرفة:

«وإلا تردّوا قاصي البَرْك يزْدَدِ» (81).

وتحريك ميم كلمة «أقدم» في قول عنترة:

«قيل الفوارس ويْكَ عنترُ أقدمِ»

قال: «وموضع أقدم جزم على الأمر والياء صلة لكسر الميم» (82).

مثلــت هذه تخريجــات للترابط بين الحركة الموســيقية للبيت والموقع الإعرابــي ومحاولة التخلص مــن تضارب الوجهتين بإيجــاد هذا المخرج الذي يتلاءم مع طبيعة الشعر دون الإخلال بالقاعدة النحوية أو الصرفية، خاصة أن هذا لا يمثل انتقالا من حركة إلى حركة بل هو انتقال من سكون إلى حركة.

ولكــن التضارب مع القاعدة النحوية الذي وجد له هنا مخرجا معقولا يصطــدم أحيانا بعقبات من الصعب أو من التعســف إيجاد مخرج لها إلا بالوقوع في حيز الخطأ والتعسف كما نلاحظ في بعض الأمثلة ومنها بيت امرئ القيس:

كأن ثبيرا في عرانين وبْلِهِ   كَبيـرُ أُنــاسٍ فـي بِـجـادٍ مُـزمـلِ

فمزمـــل نعت لكبيـــر أناس وفي موقع رفع بينمـــا الروي مجرور، لذلـــك كان الاتجاه إلى التخريج في الإعـــراب فيقول: «ومزمل نعت لكبيـــر في المعنى، أجـــراه على إعراب البجاد للمجـــاورة» [83]. وهو تخريج ضعيف ومتعسف.

وهناك نموذج آخر من التجاوز نلاحظه في بيت زهير:

وَمَنْ يعصِ أطرافَ الزِّجاج فإنَّهُ يُطيعُ العَواليْ رُكِّبتْ كُلَّ لهذَم

فقد سكن الشاعر ياء «العوالي» وكان القياس المطرد أن يفتحها «لأنها نصبـــت بيطيع» وفي هذا خروج عن اللغة العاليـــة [84]. لذلك لم يجد لها العلماء مخرجا إلا بالاعتماد على اللغات (اللهجات) فوجدوها في لغة من يقول: رأيت الجواري بتسكين الياء، واللغة الجيدة فتحها [85].

فهـــذه محاولات لجعل القواعد مطردة يعرضها ابن الأنباري مع درايته بأن الشاعر ينطق سليقة.

وهناك من العيـــوب ما لا يمكن تغطيته أو إيجاد المبرر المعقول له ومن هذا بيت الحارث:

فَمَلَكْنا بذلِكَ النَّاس حتَّى مَـلَـك المـنـذرُ بـن مـاءِ الـسَّـمـاءِ

ففـــي هذا البيـــت إقواء ظاهر لا يرد ولا يفســـر ولا يمكن إلغاؤه، فقد نص أبو الحســـن الأثرم وابن السكيت على أنه «لا يتم معنى البيت اللاحق إلا به»، لذلك لم يجد بدا من الاعتماد على التفســـير الذي رواه الأصمعي على لسان صرد بن المسمعي، يقول: «لا يضير إقواؤه فقد أقوى النابغة في قصيدتـــه الدالية وعاب عليه ذلك أهـــل المدينة، وإنما هذه القصيدة كانت أشبه بالخطبة، قام بها الحارث مرتجلا» [86].

وهذا التفســـير لا يمثل حجة تنفي أو تبرر الإقواء وليس إقواء النابغة مسوغا له.

وكون الحارث وقف بها خطيبا، إن صح هذا، لا ينفي الخطأ أو يبرره. ومن الأجدر بنا أن نقبل هذا الإقواء شـــذوذا مؤكـــدا للقاعدة. وهو خطأ إعرابي وليس خطأ موســـيقيا، فنحن نفترض أن الحـــارث حرك القافية تبعـــا لحركـــة قافية القصيدة كلها، أما الخلل فقد جاء في ســـياق الجملة الإعرابية لأن الموسيقى أقرب إلى الشعر.

هــذه أهم الملامح الشــكلية من حيث العروض وهـــي، في أكثرها، من الـــذي انحدر عن العلماء الذين علقـــوا عليها مبررين، وانحدرت منهم إلى الشرّاح ومن تابعهم. ونؤكد مرة أخرى أن هذه القصائد هي التي انحدرت عنهـــا القواعد العروضيـــة فكان التبرير هو الأصـــل عند من عرض لهذه الهنات، وتأتي التخطئة في حدود بسيطة.

* * *

ابن النحاس: المنهج اللغوي الخاص (87)

إذا كان ابن الأنباري لم يقدم لكتابه بمقدمة تشـــرح الخط العام الذي سيســـير عليه فإن ابن النحاس حرص علـــى أن يبين هذا الخط العام في سطور مقتضبة موضحا الباعث الذي دعاه إلى شرح هذه القصائد السبع والقصيدتـــين اللتين أضافهما، يقول: « .. الذي جـــرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الإكثار في تفســـير غريب الشـــعر، وإغفال لطيف ما فيه من النحو، فاختصرت غريب القصائد الســـبع المشـــهورات، وأتبعت ذلك ما فيها من النحو باســـتقصاء أكثره ولم أكثر الشواهد ولا الأنساب ليخف حفظ ذلك إن شاء الله» (88).

وهذه السطور القليلة يمكن النظر إليها من زاويتين أساسيتين أولاهما: أنه ســـجل على الذين ســـبقوه من أهل اللغة في شرحهم للشعر أنهم كانوا يكثرون من تفسير غريب الشعر، وأنهم يغفلون كذلك «لطيف ما فيه من النحو».

والأخرى: خطته الخاصة في الشـــرح التي تنحصر في اختصار غريب القصائد الســـبع، واســـتقصاء أكثر ما فيها من النحـــو، وعدم الإكثار من الشواهد والأنساب.

فهذه الخطة تقدم لنا عالما لغويا يفسر الشعر ويشرحه من الزاوية التي يـــرى أنها الجانب المهم، أو أنه أراد أن يفســـره من الزاوية التي يفيد فيها كثيرا؛ لذلك من الســـهل أن نقول، دون أن نتجاوز الحقيقة، إن شـــرح ابن النحـــاس عبارة عن دروس وآراء متفرقة لعلوم النحو مطبقة على الشـــعر، وليس هذا في حاجة إلى بيان فكل سطر من الكتاب شاهد حق على ذلك، والدافع الكامن في نفس الكاتب واضح من المقدمة التي قدم بها لكتابه.

وإذا أردنا أن نشير إشارة أولية إلى اتباعه لهذا الخط، فسنجده واضحا في دخوله المباشر على شرح القصائد دون الوقوف أمام المقدمات التاريخية التي يقف عندها الشرّاح عادة، كما فعل ابن الأنباري مثلا، فهذا تأكيد على أنه لن يكثر من الأخبار والأنساب.

فنحن إذن أمام شرح يمثل المنهج اللغوي الخاص في حدوده الضيقة حتى لاتنقلب الصورة، فهذا الكتاب دراسة للنحو من خلال الشعر، ولذلك حفل بالاجتهادات اللغوية من نحو وصرف ولهجات بجانب شرح المفردات وتفسيرها، بينما تنزوي جوانب الشعر الأخرى في إطار ضيق فلا يمسها إلا مسا بسيطا ولا يشير إليها إلا إشارة عابرة.

ولكن هذا الفهم الخاص جدا للفهم اللغوي لن يصرفنا عن النظر في هذا الشرح من خلال نظرة أكثر اتساعا، بعض الشيء، مبتعدين عن انطباعات النظرة الأولى، فاهتمامه باللغة لا ينفي أنه تعرض لشرح معنى الشعر، وقدم ملاحظات جيدة ومفيدة، ومن شرحه هذا استمد من جاء بعده، وخاصة الشرّاح، شيئا كثيرا، فقد قامت شروحهم على حذف الاستطرادات، وحافظوا على التوازن في الشرح، فاستمرت مؤلفاتهم على صورة أفضل، لذلك سنحاول في السطور التالية أن نسجل بعض الملاحظات على بعض الشواهد من شرحه؛ لنبين ما فيها من معلومات واجتهادات دون أن نتجاهل نظرته اللغوية وفهمه الخاص للنصوص.

إن طريقته متمثلة في أكثر شرحه وفق نصيب كل بيت من القول قل أو كثر، لذلك سأختار ثلاثة نماذج تكون محلا للتحليل، محاولا أن أبين من خلالها سمات شرحه مع الاستعانة ببعض المواضع الأخرى إذا لم يف المثال بالحاجة.

<u>المثال الأول:</u>

شرحه لبيت الأعشى:

«االن رَاتْ رجلا اعشى اَضّرَبه رَيْـبُ المَنـونِ ودهْـرٌ مُـفـنِدٌ خَـبِـلُ

ويروي: مفسد تبل، قال الأصمعي: «الأعشى الذي لا يبصر بالليل»، و«الأجهر» هو الذي لا يبصر بالنهار. قال أبو زيد: يقال عشى يعشي عشى فهو

أعشى وفي المؤنث عشواء، ويقال عشا إلى النار يعشو عشى وعشوا فهو عاش إذا أتاها ببصر ضعيف، قال أبو زيد: وذلك يكون في أول الليل، وقال الحطيئة:

متى تأتِه تَعشو إلى ضوءِ نارِه تجدْ خيْرَ نارٍ عندها خير موقدِ

وقال الأصمعي: المنون: المنية. سميت منونا لأنها تنقص الأشياء، وقيل في قول الله عز وجل: «لهم أجر غير ممنون» معناه غير منقوص. قال الأصمعي: وهو واحد لا جمع له، ويذهب إلى أنه مذكر، وأنشد:

«أمِنَ المنون وريبها تتوجَّعُ»

قال: ريبها: فجائعها. وقال الأخفش: المنون جمع لا واحد له. وقال أبو عبيدة: المنون: الدهر، سمي منونا لأنه يذهب بمنة الأشياء أي بقوتها، وقال الفراء: المنون يذكر ويؤنث، وأنشد:

مَنْ رأيتُ المنونَ عُزِّينَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضامَ خَفيرُ

والمفند: من الفند وهو الفساد، ويقال: فنده إذا سفهه، ومنه قوله عز وجل إخبارا «لولا تفندون». وخبل: من الخبال وهو الفساد، وقال الله عز وجل «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا». وأنشد أبو إسحاق:

أبَني لبُيني لستمُ بيدٍ إلا يدا مخبولة العضْدِ

ومن روى تبل فكأنه قد أصيب بتبل أي بذحل، وقوله: «أأن رأت» أن في موضع نصب والمعنى «أمن أن» رأت رجلا أعشى صدت، ثم حذفت من. ولك أن تحقق الهمزتين فتقول: أأن، ولك أن تخفف الثانية فتقول: أان وعلى هذا قرئ «أانذرتهم» و«أأنذرتهم» وقال بعض النحويين: إذا خففتها جئت بها ساكنة وهذا القول خطأ، لأن النون في «أأنذرتهم» ساكنة، وكذلك في «أأن» فلو كانت ساكنة لاجتمع ساكنان» (89).

المثال الثاني:

فَتْعرَككُم عَركْ الرَّحى بثِفالِها وتلقْح كِشافا ثم تحمل فتتئِم

الثفال: جلدة تجعل تحت الرحى، وليس يريد: عرك الرحى ثفالها، لأنها لا تعركه وإنما المعنى: عرك الرحى ومعها ثفالها أي عرك الرحى طاحنة. وقال الله عز وجل «تنبت بالدهن»، والمعنى: ومعها الدهن، كما

تقول: جاء فلان بالسيف أي ومعه السيف، ويقال: لقحت الناقة كشافا، إذا حمل عليها في كل عام. قال الأصمعي: وذلك أراد النتاج، والمحمود عندهم أن يحمل عليها سنة وتجم سنة، ويقال: أضربت الناقة إذا فعل ذلك بها، وأضربها الفحل، فإذا حمل عليها كل سنة، قيل ناقة كشوف، وقد أكشف القوم: إذا فعل هذا بإبلهم، وإنما شبه الحرب بالناقة لأنه جعل ما يحلب منها من الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن، كما قال:

إنَّ المهالبَ لا يزال لَهم فَتى　　　يُمْرى قوادِمَ كُلَّ حَرْبٍ لاقِحِ

وقيل: إنما شبه الحرب بالناقة إذا حملت، ثم أرضعت ثم فطمت، لأن أمر هذه الحرب يطول. وهو أشبه بالمعنى. «وتتئم»: تأتي بتوأمين الذكر تؤم والأنثى تؤمة» [90].

المثال الثالث:

ألا أيهذا اللائمي أحضُر الوغى　　وأن أشهَدَ اللذّاتِ هل أنْتَ مخلِدي

ويروي: ألا أيُّها اللاحي أن أحَضَر الوغى»، واللاحي: اللائم، يقال: لحاه يلحوه ويلحاه إذا لامه. «والزاجر»:الناهي. ويروي: «ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى» على إضمار أن، فهذا عند البصريين خطأ لأنه أضمر ما لا يتصرف وأعمله وأضمر بعض الاسم. ومن رواه بالرفع فهو على تقديرين: أحدهما أن يكون قدّره: أن أحضر، فلما حذف رفع، ومثله على أحد مذهبي سيبويه قوله عز وجلّ: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ». سورة الزمر آية 64. المعنى أن أعبدَ. والقول الآخر، في رفع أحضر، وهو قول أبي العباس: أن يكون في موضع الحال، ويكون «وأن أشهد» معطوفا على المعنى، لأنه لما قال: أحضر دل على الحضور كما تقول: من كذب كان شرا له. ومعنى «هل أنت مخلدي»: هل أنت مبقيّ.

ومعنى البيت: ألا أيهذا اللائمي في حضور الحرب لئلا أقتل، وفي أن أنفق مالي لئلا أفتقر، ولا ينفعني ذلك من الموت شيئا فدعني أنفق مالي ولا أخلفه» [91].

من شرحه لهذه النماذج الثلاثة سنحاول أن نحللَ شرحه مثلما فعلنا مع ابن الأنباري، وسننظر إلى كل جانب من الجوانب على حدة لتتضح طريقته في معالجة عناصر الشرح المختلفة وسنبدأ من النظرة التوثيقية حتى النظرة الفنية.

أولا: التوثيق

بعـــد أن أثبت رواية البيت الأول التي اطمأن إليها، وهي مطابقة لما في ديوان الشـــاعر، عرج على الروايات الأخرى الجديرة بالنظر، قال: «ويروي مفســـد تبــل» وأعطاها حقها من الشـــرح في ختام قولـــه: «ومن روى تبل فكأنه قد أصيب بتبل أي بذحل»، كما بين في سياق شرحه الكلمة الأخرى «مفســـد» وهي ذات معنى واضح متضمن لشـــرح الكلمـــة الأخرى البديلة «مفند» والتي جاءت من «الفند وهو الفساد».

يخلو الشاهد الثاني من أي خلافات في التوثيق، فقد ثبتت روايته عند الموثوقـــين. أما المثال الثالث فهنـــاك روايتان أخريان وردتا بجانب ما أثبت في النص المختار. ويتفق ابن النحاس وابن الأنباري في مرحلة التوثيق هذه بالنسبة إلى هذا البيت، فقد رجحا رواية واحدة هي المثبتة في صدر النص مع خلاف بسيط [92]، كما أنهما أوردا نفس الروايتين الأخريين فأسند ابن الأنباري إحداهما إلى التوزي وأغفل إســـناد الثانية، أما ابن النحاس فقد أورد الروايتين مغفلتي الإسناد.

ثانيا: شرح المفردات

المرحلة الثانية هي شـــرح الألفاظ، وهذا يســـير عنده في مستويات متعددة ضمن خطة العام فيبدأ من أبســـط المعلومات إلى أعقدها، فأولا يشرح اللفظ شرحا بسيطا يسهل المعنى وهو المتبع عند كل الشرّاح مهما اختلفـــت اتجاهاتهم، ففهم اللفظ في أول مســـتويات معانيه هو الخطوة الأولى وهذا ما لاحظناه عنده بالنسبة إلى الكلمات التي تحتاج إلى شرح، وحين ننظر إلى البيت الأول برواياته نجد أن أهم الكلمات هي «أعشى»، «ريب»، «المنية»، «المفند»، «خبل»، «تبل»، وهذه الكلمات الســـت تنال عنده حقها من الشـــرح الذي يبدأ أولا من المعنى القريب المتعارف عليه ســـواء أكان الشرح من عنده أم اختاره ورجحه، فالأعشى الذي لا يبصر بالليل، والريب: الفجائع، والمنون: المنية، المفند: الفســـاد والخبال: الفساد أيضا، والتبـــل: الذحل، ومثل هذا ما نلاحظه فـــي المثالين الأخيرين ففي المثال الثاني يشـــرح الكلمتـــين: «ثفال وتتئم»، وفي الثالـــث: «اللاحي والزاجر»

وهذا التفسير أولي يوضح موقع اللفظ من السياق وهو أيضا المستوى الأول للفهم عند المتعلم، من دون النظر إلى الخلافات وذلك ليستقر المعنى العام عنده.

وينتقل إلى المستوى الآخر من شرح المفردات، وهو مستوى مكمل للسياق ولكنه ينحو نحو التفصيل، فيعرض آراء العلماء المختلفة، وما تتضمن من تخصيص يحدد اللفظ ومعناه بصورة دقيقة أو تتضمن تفريعات تزيد من قدرة اللفظ على التعبير وإخصاب المعنى العام.

كان التفسير العام لكلمة «أعشى» أنه هو الذي لا يبصر ليلا، وهذا هو رأي الأصمعي، ولكن الشارح يضيف إليه قول أبي زيد: «وذلك يكون في أول الليل» فهذا تخصيص للفظ وتحديد لمعناه أكثر دقة.

ومثل هذه كلمة «المنون» التي دار معناها في اتجاهين، أولهما رأي الأصمعي وهو أن «المنون: المنية». والآخر رأي أبي عبيدة وهو: «المنون: الدهر».

وهذه الخلافات على بساطتها قد يكون لها بعض الأثر في اتجاه المعنى في البيت، لذلك أوردها ابن النحاس، وإن أهمل مناقشتها ولعله كان يرجح الرأي الأول، رأي الأصمعي. ففي تفسير اللفظ الأول اختار الأشهر والأعم فإذا سلم بأن العشى ضعف في البصر فهو شامل لليل كله مع احتمال الرأي الآخر.

وتفضيله رأي الأصمعي واضح من إهماله لهذا القول حينما عرض لنفس الموضوع في مكان آخر [93]. أما تأخيره تفسير أبي عبيدة للكلمة الأخرى: «من أن المنون: الدهر»، فهذا الرأي يصطدم بتركيب البيت اللغوي حيث إن الدهر معطوف على «ريب المنون» فقد اجتمع عليه «ريب المنون ودهر مفند»، فالتفسير بالدهر يعني تكرار المعنى، أو عطف لنفس المعنى ولا شك في أن هذا يضعف ويقلل من أهمية هذا القول، فالأقرب أن يكون المعطوف أمرا جديدا يضاف إلى سابقه.

وفي وقوفه أمام هذين اللفظين يقدم لنا مرحلة ثالثة من مستويات شرحه للألفاظ بإدراك إيحائه وخصوصيته وليس فقط معناه العام، فإدراك المنبع الذي انحدر منه اللفظ يجسد لنا ما كمن فيه من دلالة، وقد مس هذا الجانب مسا خفيفا في حديثه عن كلمة أعشى، ولكنه

يتضح بصورة أقوى في وقوفه أمام كلمة المنية التي راح يوضح أصلها الأول وفق كل تفسير، فالذي قال إن المنون هي المنية لأنها تنقص الأشياء يعطي معنى مختلفا عن رأي القائل إنها الدهر لأنها تذهب بمنة الأشياء أي قوتها.

فهذه المحاولة منه تضع أمامنا أصول الألفاظ ليفيد منها قارئ الشعر المتمكن الذي يتعامل مع الألفاظ تعاملا خاصا عميقا.

ومن هذا المستوى في الشرح ما نراه في المثال الثاني حين أخذ يوضح اتجاه التركيب اللغوي ودلالته الدقيقة، ففي قول زهير: «عرك الرحى بثفالها» وقوله: «تلقح كشافا». يقدم لنا نموذجين لطريقته أولهما خاص بالفهم النحوي للمعنى، فحينما خفي المراد كان لابد من توضيح يحدد اتجاه المعنى العام فقول زهير: «عرك الرحى بثفالها» قد ينصرف معه الذهن إلى أن المقصود «عرك الرحى ثفالها» وليس الأمر كذلك، لأنها لا تعركه وإنما المعنى: «عرك الرحى ومعها ثفالها، أي عرك الرحى طاحنة».

وهذا الفهم لطبيعة التركيب اللغوي نابع من الرواية اللغوية التي وضحت من استشهاداته بجانب منطوق المعنى نفسه.

أما التركيب اللغوي الآخر: «تلقح كشافا» فأولا من وجهته الأولى ومنطوقه اللغوي الأولي النابع من البيئة نفسها، ثم يتدرج معه حتى يصل إلى دلالته الخاصة في داخل البيت ويتم هذا التدرج بهذه الصورة:

أ - يقدم المعنى اللغوي قائما بذاته: «لقحت الناقة كاشفا، إذا حمل عليها كل عام».

ب - يوضح علة أن تحمل الناقة كشافا بقوله: «وذلك أردأ النتائج، والمحمود عندهم أن يحمل عليها سنة وتجم سنة».

جـ - المرحلة الأخيرة يربط هذا التركيب اللغوي بالمعنى الكلي للبيت، وهذا ما سنعرض له حين الحديث عن المعنى.

وهذا التدرج المعقول في شرح معنى هذا التركيب اللغوي هو الذي يقيم العلاقة الحميمة بين دلالته العامة في البيئة والدلالة المكتسبة في سياقه داخل البيت، وهذه هي الأرضية السليمة لفهم النص الشعري.

وننبه هنا إلى أن هذه المعلومات اللغوية منحدرة عن العلماء السابقين وقد استطاع الشرّاح الأوائل أن يقيموا منها بناء متكاملا هو هذا الذي بين أيدينا.

ثالثا: المعنى

لا يحرص ابن النحاس كثيرا على إجمال المعنى العام، وإن فعل هذا فبإيجاز شديد، وواضح أنه في المثال الأول أهمل الإشارة إلى المعنى الكلي مكتفيا بإزالة غوامض الألفاظ والتراكيب والإعراب. وهذا يتلاءم مع منهجه الذي بينه، فالمعنى في حدوده اللغوية يتضح حين تشرح الألفاظ.

ولكننا نجده في المثال الثالث يقدم المعنى العام بصورة متكاملة وبسيطة موضحا الهدف الذي أراده الشاعر ولكن بعيدا عن التركيب الشعري وفي حدود بسيطة من دون أن يبتعد عن المعنى الحرفي مقدما الحد البسيط للفهم الفني، فشرحه أقرب ما يكون إلى جمع معاني الألفاظ المفسرة مع بيان العلة أو السبب البسيط الواضح، فتفسيره لبيت طرفة يقوم على توضيح تقسيمات المعنى الذي يقوم على أن هناك لائما يلومه على حضور الوغى خوفا عليه من القتل، ويمنعه من الإنفاق خشية الفقر، ولما كان الموت لا يرد فلينفق ماله ولا يخلفه.

فهذا شرح بسيط ويسير للمعنى لا يزيد على كونه صياغة نثرية لمعنى البيت.

ولكن اجتهاداته في إبراز معنى الأبيات لا تقف عند هذه الحدود، فتفريعاته اللغوية التي تمس المعنى مفيدة لمن أراد أن يقيم عليها دراسة فنية، بجانب ما يقدمه من معلومات تنير الطريق وخصوصا في استخدامات الألفاظ والمعلومات العامة.

وهو في كثير من المواضع يتعرض للمعنى من زاوية أكثر عمقا عما لمسناه في هذا البيت، وهذا ما نلاحظه في شرحه لبيت زهير - المثال الثاني - فقد أورد مستويين لفهم المعنى، ملتمسا الصورة التي رسمها الشاعر في تشبيه الحرب بالناقة الكشوف، فهو يضع يده على عنصر ذي دلالة بالغة الأهمية وذات بعد عميق معبر عن الجو العام الذي جسدته الصورة حين ربط بين در الحليب عند الناقة والدماء التي تسيل بقوله:

«وإنما شبه الحرب بالناقة، لأنه جعل ما يحلب منها من الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن». فهذا ليس تحديدا للتشبيه أو تبيانا للمعنى المباشر ولكنه تعبير جيد يجسد المعنى العميق الكامن في هذه الصورة.

ولكن إحساسه الدقيق بالصورة المرسومة وتعبيره عنها بما يحقق معناها، لم يمنعه من أن يمد بصره مرة أخرى إلى جانب آخر من المعنى، مادام الإمكان قائما، فيعيد صياغة المعنى بصورة أخرى متابعة لمن قال: «إنما شبه الحرب بالناقة، إذا حملت ثم أرضعت ثم فطمت، لأن أمر هذه الحرب يطول».

إذن فهذان تفسيران يحتملهما المعنى العام للبيت ويشير إليهما التشبيه، ولذلك لم يقف ابن النحاس موقف المتردد، فمع تقديره للمعنى الأول، فإنه يبدي وجهة نظره بوضوح واعتدال حينما يقول تعليقا على المعنى الأخير «وهو أشبه بالمعنى»، فهذا الترجيح لم يكن عفو الخاطر فمنبعه فهمه لاتجاه المعنى العام وسياقه، فمنطق اللغة وتطور المعنى، وتمام البيت يشير إلى هذا الاتجاه «وتلقح كشافا ثم تتحمل فتتئم» فهذا الحمل المركب هو الذي يسوغ هذا الفهم، لذلك اتبع ترجيحه بتفسير كلمة «تتئم» المؤكدة لهذا المعنى. يضاف إلى هذا أن تطور المعنى في البيت الذي يليه يؤكد هذا الاتجاه:

فتُنْتِج لكم غِلمانَ أشأَمَ كلهم كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتُفطِم

فمجال التفسير الأول يمنع ابن النحاس من اهتمامه بمنطقية سياق المعنى في البيت.

ولابن النحاس في مجال شرح المعنى ملاحظات كثيرة تميز بها عن غيره من الشرّاح وهي تدل على قدرته على التحرر من الآراء الشائعة، ومن هذه الملاحظات ذلك التخريج الأخلاقي والمنطقي لقول امرئ القيس:

إذا ما بكَى مِن خلفِها انصرَفت لهُ بِشِقٍ وتحْتِي شِقُّها لَم يُحَوَّل

يقول: «ومعنى البيت أنه لما قبلها، أقبلت تنظر إليه وإلى ولدها، وإنما يريد بقوله انصرفت له بشق يعني أنها أمالت طرفها إليه، وليس يريد أن هذا من الفاحشة، لأنها لا تقدر أن تميل بشقها إلى ولدها في وقت يكون منه إليها ما يكون، وإنما يريد أنه يقبلها وخدها تحته» [94].

ولا شك في أن تفسيره هذا - وإن تعارض مع السلوك الذي اشتهر به امرؤ القيس - فيما تروي الروايات، فإنه محتمل ويتناسب مع الفهم اللغوي ويحتمله معنى كلمة شق وإطراد التفسير مع السياق.

وهناك جانب آخر يعضد قوله، فالشاعر في كثير من الأحيان يكرر بعض المعاني وهذا ما نجده في ديوان امرئ القيس أحيانا. وفي مجال حديثنا أنه تحدث عن موقف مشابه وقريب من المعنى الذي فسر به ابن النحاس هذا البيت، ونعني به قوله [95]:

وَمِنهنَّ سَوفى الخَودَ قدْ بَلَّها النَّدى ... تُراقِبُ مَنْظُومَ التَّمائمِ مُرضِعَا

يَعِـــزُّ عَلَيْهَـــا رِيبَتـــي ويســـوؤها ... بُكَاهُ فَتَثْنِي الجيدَ أَنْ يَتَضَوَّعا

فمنطوق هذين البيتين أقرب إلى المعنى الذي فسر به ابن النحاس بيته السالف الذكر. وفي موقع آخر نراه يوافق على رد معنى بيت ليس من جهة أخلاقيـة اعتمادا على اللغة فقط، ولكن من جهـة مجافاة المعنى للمنطق العام، وهذا يتضح في رده لرواية بيت امرئ القيس أيضا:

يُضيءُ سَناهُ أوْ مصابيحُ راهبٍ ... أمـال السَّليطَ بـالـذُّبالِ المُفَتَّلِ

وهـو يرد هـذه الرواية من جهتـين أولاهما: أنه يعتمـد على الرواية الأخرى القائلة:

«أهانَ السَّليط بالذبال»

فيفسـرها قائلا: «ومعنى أهان أي لـم يعز وأكثر الإيقاد به..» ثم يعلق قائـلا: «ولا معنى لرواية من روى: أمال السـليط» [96]. ويعضد رأيه، من جهة أخرى رواية الأصمعي للبيت وهي:

كأن سناه في مصابيح راهب ... أهـان الـسـليـط لـلـذبـال المفتل

وهذه الدراية الجيدة بالألفاظ تنعكس على فهمه لموقعها من السـياق ودلالاتها التاريخية وما توحي به عند أصحاب البيئة مع قدرته على النفاذ إلى الجانب العميق منها وانسـجامه مع التعبير الشـعري البليغ، وهذا ما نلمسه في دقائق شرحه لهذا البيت للحارث [97]:

أتلهى بها الهواجر إذ كـ ... ـل ابـن هـم بـلـيـة عـمـيـاء

فنلاحظ أنه بجانب تفسـيره للألفاظ يقف عند مراكز التعبير القوية في البيت والكلمة المشـعة ذات الدلالة المتميـزة نافذا إلى معناها الدقيق داخـل السـياق أو إلى دورها الخـاص فيه، فمن الوجهـة الاصطلاحية المحددة للفظ يلمس ما في كلمة «بلية» من خصوصية معينة، لذلك يقول: «البلية: الناقة يموت صاحبها، فتشد عيناها وتربط عند قبره حتى تموت» وهذا الفهم معروف ومتداول عند الشرّاح، ولذلك بعد أن يشرح هذا الحد الاصطلاحي يربطه بالسـياق ويوضح موقعه من البيت قائلا: «فيريد: أن صاحب الهم يتحير كتحير هذه الناقة» فهذا التعبير اكتسـب صفة معينة تضاف إلى المعنى.

ويتوغل مع الفهم اللغوي فيقدم لنا فهما أدق وأكثر شـفافية حين يقف أمام قول الشـاعر «ابن هم» فمعنى هذا التركيب واضح في دلالته القريبة لذلك عني بإبراز قيمته الفنية بصورة دقيقة مع محاولة الترجيح من جانبه يقول: «وابن هم: صاحب هم. يقال هو أخوهم وابن هم. وابن هم أبلغ في هـذا لأن معناه أن الهم أحاط به فصار بمنزلـة أبيه وأمه»، وقال الله عز وجل: «وأمّا من خَفَّتْ موازينهُ فأمُّه هاويةٌ» [98].

فهذا التفسـير نفـذ إلى الجانب المتميز في هـذا التركيب اللغوي في البيت ولكنه يختم هذا كله بشـرح بسـيط للمعنى الكلي في البيت قائلا: «والمعنى: إن صاحب الهم إذا تحير نجوت من الهم على ناقتي، ولم يلحقني تحير». فهذا تبسيط للمعنى وتسطيح له.

ويتضح منهجـه اللغوي من نظرته إلى المعنى تبعا للاتجاهات المحتملة للتركيب اللغوي الذي قد يتشـعب عنده إلى اتجاهـات عدة لذلك يحاول دائما التنبيه إلى هذه الاحتمالات. ففي شرحه لبيت لبيد[99]:

«غُبس كواسِبُ ما يُمَنُّ طَعامُها».

يقـول: «ما يمن طعامها فيه ثلاثة أقـوال: أحدها أن المعنى أن أحدا لا يطعمهـا فيمن عليها، إنما تصيد لنفسـها، والقول الآخر: إنها لا تمن بشـيء مما تصيده، ويقال: إن الذئب إذا صاد شـيئا أكله مكانه، والقول الثالث: أن معنى ما يمن طعامها: ما ينقص. قال الله عز وجل: «لَهُم أجرٌ غَير مَمنون» [100].

وزيادة في إيضاح طريقته في شرح المعنى وبيانه، سأدرج بعض النماذج التي ينفرد كل واحد منها بإحدى خصائص طريقته في عرض المعنى مع توضيح الملمح الخاص في كل منها:

1 - الإحساس الدقيق بالمعنى العام

فَمدَافِعُ الرَّيان عُري رَسْمُها خَلَقا كما ضَمِنَ الوُحِيُّ سِلامُها

«ومعنى البيت أنه يصف أن هذه الديار بمنزلة كتاب في حجر، لأنه لا يتبين من بعيد لأن نقشه ليس بشيء مخالف للونه، إنما يتبين إذا تقرب منه ويستدل ببعضه على بعض، يصف أن هذه الديار لا يتبينها إلا من قرب منها، لخلائها وبعد الأنيس عنها» (101).

2 - الإحساس بترابط المعنى وحل التناقض حوله

خَذولٌ تراعي رَبربا بخَميلةٍ تَناوَلُ أطرافَ البرَير وتَرتدي

«وقد قال في البيت الذي قبل هذا، وفي الحي أحوى، والأحوى: الظبي. فيقال: كيف يكون الظبي بقرة؟ فالجواب عن هذا: أنه شبه في البيت الأول بالظبي، ثم شبه في الثاني بالبقرة، كما تقول: فلان أسد حية، أي مثلهما» (102).

ومثل هذا محاولته في حل التناقض الناتج من طبيعة التركيب الشعري والذي يحتاج إلى بيان وفهم دقيق للغة، وهذا ما تبرز فيه موهبة ابن النحاس الخاصة، ففي بيت عنترة:

هلا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلة بما لم تَعلمي

يقول: «قوله: «إن كنت جاهلة بما لم تعلمي» يقال: ما في هذا من الفائدة وليس أحد إلا ويجهل ما لم يعلمه. والجواب عندي في هذا أن في البيت تقديما وتأخيرا، والمعنى هلا سألت الخيل بما لم تعلمي، إن كنت جاهلة، يا ابنة مالك والمعنى: هلا سألت الخيل عما لم تعلمي، والباء بمعنى عن» (103).

فهو في هذا الشرح قام بعمليتين لغويتين استهدفتا حل التناقض، أولاهما: أعاد تركيب الجملة بصورة موضحة للمعنى الذي أراد شرحه، والأخرى أن هذا الترتيب الجديد عليه أن ينسجم مع التعبير اللغوي في السياق، فنبه إلى أن الباء تأتي بمعنى عن.

3 - **الإحساس بترابط الأبيات**

وإنّا سوف تُدركنا المنايا مُـــقـــدَّرة لــنــا ومُــقــدَّريـــنـــا

يقـــول: «ومعنى هذا البيت فــي اتصاله، بما قبله، أنـــه لما قال: «هبي بصحنـــك» حضها على ذلك فالمعنى فأصبحنا من قبل حضور الأجل، فإن الموت مقدر لنا ونحن له مقدرون» (104).

4 - **المقارنة**

فإذا شَرْبت فإننــي مُستهـلِكٌ مالي وعرضي وافرٌ لم يُكْلم

وإذا صَحَوتُ فما أقصِّر عن نَدى وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

يقول: «وجمع في هذين البيتين أنه سخي على السكر والصحو، وأحسن من هذا قول امرئ القيس:

سَماحةَ ذا وبرَّ ذا وَوَفاء ذا ونـائـلَ ذا إذا صـحـا وإذا سَـكِـرْ

وإنمـــا قدم هذا على بيـــت عنترة لأنه جمع هذه الأشـــياء في بيت واحد» (105).

ومقارنته هذه بسيطة أما تعليله فساذج ومحدود، ولكن على ضوء خطه العام في الشرح يمكن اعتبار هذه الملاحظات، وهي كثيرة، محاولة منه في إيضاح المعنى وبيانه.

هذه النماذج تقدم ملمحا لاتجاهات شرح المعنى عند ابن النحاس، فمع غلبة الجانب اللغوي على شرحه، لم يمنع هذا أن يعطي البيت حقه بصورة معتدلة أو لنقل إنها مبتســرة ولكنها تحمل فوائد جمة. وقد كشفت بعض هذه الملامح عن صفة التفرد الكامنة في شرحه وقد كان يستطيع أن يقول شــيئا كثيرا لو كان هدفه شـــرح القصائد من حيث هي لا على أنه وسيلة لفهم اللغة وقضاياها والخلافات الدائرة حولها.

رابعا: الاستشهاد

نـــص ابن النحـــاس في مقدمته على أنه لن يكثر من الشـــواهد، وهذا مـــا تحقق فعلا، فبالمقارنة مع ابن الأنبـــاري في هذا الجانب نلمس الفرق بينهما، فقد أكثر الأخير من الشواهد التي مثلت أصلا بين الأثر في الشرح يغني عن كلام كثير.

ولكن شـــرح ابن النحاس لم يخل من بعض الشواهد التي كان لابد من وجودها لتوضيح معنى أو تقرير استخدام لغوي أو تحديد له إلى آخر هذه الإشـــارات حين تكون الحاجة ماســـة، وهذا ما نلاحظه من خلال الأمثلة الثلاثة التي مثلنا بها.

[أ] القرآن الكريم

وضح الاستشـــهاد بالقرآن الكريم في هذه الأمثلة فقد ورد فيها كلها، فـــوردت أربع آيات في المثال الأول وآية واحدة في كل من المثالين الآخرين، وهذا هو وجه الاستشهاد وأنواعه:

النوع الأول:

استشـــهاد على شـــرح معنى لفظ من الألفاظ وفق وجهة نظر المفسر، وهذا ما نلاحظه في الآيات الثلاث الآتية:

- قولـــه عز وجل: «لَهُم أجرٌ غير ممنون» شـــاهد على تفســـير ممنون بمعنى منقوص.
- قوله عز وجل: «لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ»، فند بمعنى سفه.
- قوله عز وجل: «لَوْ خَرجوا فِيكم ما زادوكم إلا خبالا» تفسير الخبال بمعنى الفساد.

النوع الثاني:

من الاستشـــهاد بالقرآن الكريم هو توضيح الاستخدام اللغوي في الأبيـــات والتدليل على اطراده في اللغة لـــوروده في النص الأول في الصفاء اللغوي، وهذا ما نلاحظه في آيتين، إحداهما لا خلاف بشأن دلالاتها على ما يريد وهي الآية الواردة في المثال الثاني والتي ساقها تدليـــلا على أن الباء فـــي قوله: «بثفالها» بمعنى «مـــع ثفالها». وكان شـــاهده قوله تعالى «تنبت بالدهن»: أي ومعها الدهن. فهذا شـــاهد على أسلوب لغوي معروف خلافا لما توحي به النظرة الأولى لأثر الباء في المعنى.

أمـا الآية الثانية التي استشـهد بها على الاسـتخدام اللغـوي فقوله تعالى: «أأنذرتهـم»، وقد وردت في المثال الأول عنـد الحديث عن جواز تحقيق الهمزة أو تخفيفها في قول الأعشى: «أأن رأت رجلا» قياسا على قراءتين لهذه الآية الكريمة.

النوع الثالث:

من الاستشـهاد بالقرآن الكريم، ما هو خاص بوجوه الإعراب المختلفة، وهذا واضح في المثال الثالث وخاص برفع الفعل (أحضر) في قول الشاعر: «ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى» وقد تبع الشارح أحد مذهبي سيبويه، في تفسير إعراب الآية القرآنية «أفغير الله تأمرونني أعبد أيها الجاهلون».

[ب] الاستشهاد بالحديث

لم يستشـهد في الأمثلة الثلاثة بالحديث الشـريف، وهذا أمر طبيعي فقد قل استشـهاده به بصورة عامة في الشـرح كله، ولكنه قد يورد بعض أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وخصوصا في توضيح معاني المفردات. وهذا أمر مقبول لما هو معلوم من أن درجة الاستشهاد بالحديث النبوي على الصياغة اللغوية تتأخر عن القرآن الكريم والشعر.

ولكنه يمكن النظر إليه في توضيح بعض المفردات الخاصة بالبيئة مثل استشهاده في معرض شرحه لبيت امرئ القيس:

ومرَّ على القَنان من نفَيانِه   فأنْزَلَ منه العُصمُ من كل مُنزَلِ

«والأعصم منها ما كان في معصمه بياض أو لون يخالف لونه، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن المتبرجات من النساء لا يدخل منهن الجنة إلا مثل الغراب الأعصم» ويعني صلى الله عليه وسلم أن من يدخل الجنة منهم قليل [106]. ولا تختلف نوعية الاستشهادات الأخرى عن هذا المثال [107].

جـ - الاستشهاد بالشعر

وهو الأكثر وضوحا من غيره من عناصر الاستشهاد الأخرى حيث يلجأ إليه في التفسير والتوضيح والمقارنة والترجيح. ويقدم لنا في المثالين الأول والثاني نماذج لاستشهاده بالشعر وطريقة الاستفادة منها، ففي المثال الأول أربعة شواهد بينما يقدم في المثال الثاني شاهدا واحدا.

أول نوعية من الشواهد خاص بشرح المفردات حين استشهد في المثال الأول على كلمة الأعشى فجاء بالبيت:

متى تَأتِه تَعشو إلى ضوء نارِه تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقدِ

وفيه دلالة على من لا يبصر بالليل [108]. ومثل الشاهد الآخر:

ابنى لبُيني لستُم بيدٍ إلا يـــدا مـــخـــبـــولـــة الـــعَـــضـــدِ

وقد جاء شاهدا على أن الخبال بمعنى الفساد.

والنوع الثاني من الشواهد الشعرية ساقها موضحا وجهتي نظر بشأن كلمة المنون التي رأى الأصمعي أنها مفرد لا جمع له، وأنه مذكر وشاهده:

«أمن المنونِ وريبه تتوجَّع»

بينما الشاهد الآخر ساقه الفراء مشيرا إلى أن المنون يذكر ويؤنث:

من رأيتُ المنونَ عزَّينَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضامَ خَفَيرُ [109]

والنوع الأخير شـاهد على اتجاه المعنى، وهـو ما جاء في المثال الثاني حين أورد قول الشاعر:

إنَّ المهالبَ لا يزال لهم فَتى يُمْـرى قـوادِمَ كُـلَّ حَـرْبٍ لاقِـح

فهذا شاهد على أحد التفسيرات القائلة إن زهيرا يشبه الحرب بالناقة «لأنه جعل ما يحلب منها من الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن».

إن استشـهاداته الشـعرية لا تخرج عن هذا النطاق أو ما هو بمقامه وإن قام بالمقارنة أحيانا أو فضل بيتا على بيت. ولكن النصيب الأوفى إنما هو لشـواهد اللغة والنحو التي يسوقها ضمن استطراداته اللغوية الكثيرة، فمن السهل نسبة أكثر شـواهده إلى مواقعها من كتب اللغة والنحو وليس هذا بغريب على ابن النحاس الذي ألف كتابا في «تفسـير أبيات سيبويه» وشارك في تأليف كتب النحو واللغة.

خامسا: قضايا اللغة

تشغل قضايا اللغة والإعراب حيزا بارزا من كتابه، فهي الأوليات المفيدة لفهم البيت الشـعري وهي تبرز عنصر التخصص في شرحه. وهذه صفة غالبة عليه فلا تكاد صفحة تخلو من اجتهاداته وبهذا اقترب شـرحه من

كتب النحو؛ فقد حشد فيه عددا كبيرا من الآراء التطبيقية. ولا أعتقد أن هناك حاجة ماسة إلى الإشارة إلى صفحات بعينها، فالكتاب كله ناطق بهذا وهذا أمر مفهوم على ضوء خطته التي رسمها في السطور القليلة التي افتتح بها كتابه [110].

ويكفي هنا أن نعتمد فقط على أمثلتنا الثلاثة فقد حفلت بالاستطرادات اللغوية والنحوية، ففي المثال الأول عني بتصريف كلمة الأعشى، وتابع، كما بينت سابقا، خلاف العلماء بشأن كلمة «منية» هل هي مفرد أو جمع. كما لاحظنا حين الحديث عن استشهاده بالقرآن كيف حرص على الوقوف أمام همزة (أأن رأت رجلا) متحدثا عن التحقيق والتخفيف.

ولم يجد في المثال الثاني من قضايا النحو واللغة ما يستحق الوقوف عنده، ولكنه في المثال الثالث يقف وقفة مطولة بشأن بيت طرفة في روايتيه (ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى) والرواية الأخرى (ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى) بنصب أحضر، مبينا الرأي النحوي الذي يراه، فهو أولا يرد رواية النصب كما رد تعليلها القائل إن النصب على إضمار أن [111]، ويرى أن هذا خطأ عند البصريين، وقد رده من جهتين: الأولى لأنه أضمر ما لا يتصرف وأعمله، والثانية أنه أضمر بعض الاسم [112].

سادسا: الملاحظات البلاغية

لا تمثل الإشارات البلاغية أصلا بارزا في شرحه يعتد به أو يمثل اجتهادا كبيرا، فهي لا تزيد على ملامح صغيرة ينبه إليها تنبيها عابرا أو يحاول أن يبسط المعنى على ضوء إحدى النظرات الفنية معتمدا في أحيان كثيرة على ما أثر عن العلماء الذين نبهوا إلى الصور الفنية المرسومة في هذا البيت أو ذاك، ولم يكن يبدي رأيا واضحا يحسب له اللهم إلا في صياغته الخاصة للتعبير.

ولكن من الإنصاف أن نقول إن ملاحظاته البلاغية، على ندرتها وقلتها قياسا على تضخم المادة اللغوية، تقدم لنا معلومات طيبة جمعها وحفظها في كتابه من الاندثار وأفاد منها من جاء بعده، وهي بذاتها تقدم فائدة معقولة للقارئ حيث يفهم من خلالها وجها من وجوه البيت الشعري.

ولا نجد في شــرحه تلك التقسيمات البلاغية المعروفة من بيان وبديع وتشبيه واســتعارة إلى آخر هذه التقسيمات إلا في حالات نادرة، فهو في تنبيهه وإشارته إلى الجوانب الجمالية يكثر من القول إن هذا تمثيل أو مثل، وتحت هذه الإشارة تنطوي أكثر تلك التقسيمات المعروفة في البلاغة، فهو معني بتوحيد المجاز والصورة الفنية على عمومها من خلال هذه التســمية التي قد تعني أحيانا تشــبيه التمثيل أو الاستعارة أو الكناية.. لذلك يمكن اعتبار إشــارته العابرة تلك تنبيها إلى جانب الجمــال في البيت من جهة العمــوم. ولكنــه قد يحدد الجانب البلاغي وفق ما نعرف من تقســيمات، مــع ملاحظة أن مصطلحات البلاغــة والنقد كانت في عصره لا تزال في مرحلة البداية، والنقاش بشــأنها لا يزال مســتمرا ولم تتخذ بعد سماتها الخاصة [113]، ولعله لذلك آثر الإكثار من إطلاق هذا اللفظ العام متضمنا الصورة الجمالية الخاصة من دون أن تشغله التقسيمات والتفريعات.

ولكنــه قد يؤثر التحديد إذا كان الوجه بارزا وبعيدا عن مجال الخلاف البلاغي فيشــير إلى الاســتفهام البلاغي أو استفهام التعجب مثل إشارته إلى قول لبيد:

فوقَفْت أسألها وكيفَ سؤالنا صـمـا خَـوالـدَ مـا يَـبـينُ كلامها

يقول: «ومعنى كيف ســؤالنا على التعجب أي كيف نســأل ما لا يفهم؟ [114]، فهو في إشــارته هذه بين استفهام التعجب ووجهته في أقل الكلمات ومن أبسط الجهات، ومثل هذا تعليقه على قول الأعشى:

صدَّتْ هُريرة عنا ما تكلمنا جَهْلا بأم خُلَيدِ حَبْلَ من تَصِل

يقول: «وقوله: حبل من تصل» اســتفهام فيه معنى التعجب أي حبل من تصل إذا لم تصلنا ونحن نعزها وفي الكلام معنى التعجب» [115].

ويلحظ أحيانا وضوح التشبيه فيبينه في قول لبيد:

وجَلا السَّيول على الطّلُولِ كأنَّها زُبُــر تُجِــدّ مُـتُـونَـهـا أقلامُـهـا

«ومعنى هذا البيت: أنه يصف أن هذا الســيل قد كشــف عن بياض وســواد، فشــبهه بكتاب قد تطمس فأعيد على بعضــه وترك ما تبين منــه فكتابه مختلف، وكذلك آثار هذه الديــار» [116]. فهو هنا لم يكتف

بالإشارة إلى موقع التشبيه وإنما حاول أن يفصل بعض الشيء موضحا الصورة العامة لامسا جانبا لطيفا استمده من قول الشاعر، فاستطاع أن يبين بوضوح موضع الشبه وكشف وجه الشبه من كشف السيل لهذه الطلول والكتابة وموقع الاختلاف بين الجديد والقديم.

ويلفت نظره كيف جمع امرؤ القيس بين تشبيهين في قوله:

دريرٍ كَخُذروف الوَليدِ أمَرَّه تَتَابُعُ كفيّه بِخيطٍ مُوصَّل

يقول: «ومعنى البيت: أن هذا الفرس سرعته كسرعة الخذروف وخفته كخفته، فجمع في هذا البيت تشبيهين» [117].

ويضاف إلى ذلك بعض المواضع القليلة النادرة التي أشار فيها إلى التشبيه صراحة موضحا بعض جوانبه أو موضع الاستشهاد فيه [118].

ويُهمل تعيين الاستعارة والكناية نصا إلا في حالات قليلة لا تكاد تذكر، فقد وردت الاستعارة في موضعين، أحدهما قوله في بيت امرئ القيس:

فَأضْحَى يَسُح الماءَ حول كَتيفةٍ يكُبّ على الأذقانِ دَوْحَ الكنهبل

والأذقان - هاهنا - مستعارة وإنما يريد الرؤوس وأعالي الشجر [119]، ومثله تعليقه على قول الحارث:

لم يغرّوكم غرورا ولكن يَرفَعُ الآلُ جمعَهم والضَّحاء

«والآل بالغداة والعشي، يريك الشخص على صورته، فقيل له: آل، لأن الشخص يقال له آل. حكى الأصمعي أنه قال: حيا الله طللك وآلك وشخصك وسامتك فسمي آل على الاستعارة» [120].

أما الكناية فيشير إليها إشارة عامة في بعض المواقع، مثلا في قول عنترة:

يا شاةَ ما قنَص لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمَتْ عليَّ وليْتَها لمْ تحْرمِ

يقول: «والشاة - هاهنا - كناية عن المرأة وهي منصوبة لأنها نداء مضاف، وفيه معنى التعجب» [121]، ففي هذا المثال جمع بين نظريتين بلاغيتين إحداهما خاصة بالكناية والأخرى إشارة إلى الاستفهام البلاغي وما فيه من التعجب، وينبه في مواضع أخرى إلى الكناية [122].

وتكثر إشـــاراته إلـــى التمثيل بصورة واضحة، وهو بهذا يجنب نفســـه تحديـــد نوعيته وإن احتوت بعض عباراته على بيان النوع في مواقع قليلة، لذلك يدخـــل ضمن التمثيل كل من تشـــبيه التمثيل والاســـتعارة والكناية التمثيلية مع ملاحظة أن هذه التقســـيمات تتداخل عند القدماء ولا تتضح إلا عند الأجيال المتأخرة.

وسأورد في السطور القادمة بعض الأمثلة التي تدخل ضمن التقسيمات البلاغية المعروفة. فمن تشبيه التمثيل قوله بشأن رواية أبي عمرو الشيباني لبيت عمرو بن كلثوم:

وقد هَرَّت كلاب الجنّ منا وشَذّبنا قَتادَة من يلينا

«يقول: «وقال أبو الحسن: وهو على هذه الرواية تمثيل شبه من كان شديد البأس بالجن أي من كان شديد البأس فقد أخذناه، فكيف بغيره» [123].

وتتضمـن إشـــاراتـه الاســـتعارة التمثيلية كما نلاحظ في قوله عن بيت زهير:

لدَى أَسد شاكي السِّلاحِ مقاذفٍ له لِبدٌ أظفارُه لم تُقلَّم

«أظفاره لم تقلم: أي تامة» وهذا تمثيل، ومثله قوله عن قول امرئ القيس:

«فسلي ثيابي من ثيابك تَنسل»

«يعنـــي قلبـــه من قلبها كأنه تمثيـــل، قال الله عز وجـــل: (وثيابك فطهر)» [124]. ومن الاستعارة كذلك قوله في بيت لبيد:

فَبِتلك إذ رقصَ اللّوامع بالضّحى واجتابَ أرديةَ السَّرابِ إكامُها

يقول: «وهذا تمثيل، يصف أن السراب قد غطى الأكام فكأن الأكام قد لبسته [125]».

ومثله قول لبيد أيضا:

وغداة ريح قد وَزَعَتُ وقِرةٍ إذ أصْبَحت بيد الشمال زمِامها

يقول: «وهذا تمثيل لأنه جعل للشمال يدا، وجعل للغداة زماما، وإنما المعنى أن البرد فيها شديد وأن الشمال الأغلب عليها فكأنها بمنزلة من يقودهـــا، ومعنى هذا البيت أنه إذا اشـــتد البـــرد، كفَفته بإطعام الطعام وإيقاد النيران» [126].

فهذان البيتان اعتبرهما أبو هلال العسكري من شواهد الاستعارة [127]، ونلاحظ هنا أنه في البيت الأول وضح ما قصده الشــاعر بصورة حرفية محاولا أن يتبين حدود الصورة الخارجية فقط في كلمات مقتصدة، بينما أطــال قليلا في المثال الثاني مجتهدا في بيان المعنى وتحديد اتجاه المعنى من خلال هذه الصورة التي رســمها الشــاعر، فبين جهة التمثيل وهي أنه جعل للشــمال يدا وجعل للغداة زماما أي بلفظ البلاغيين استعار للشمال يدا من الإنســان وزماما من الناقة، فهو بين حدود الاستعارة فقط ثم ربط ما أراد الشــاعر أن يقول في هذه الصورة وتوضيحه وهو شدة البرد لغلبة ريح الشــمال الباردة فكأنها تقــوده. ومن هذا المعنى يتــدرج ليربط هذا بســياق المعنى العام في القصيدة كلها حيــث الفخر بإطعام الطعام وإيقاد النيران حين يعزان.

وفي هذه المحاور تدور إشــاراته البلاغيــة مكتفيا بالعام الذي اتفق عليه الشــراح حتى أنهم كانــوا يتفقون في إيرادهــا وعرضها مكتفين بالتنبيه مع أقل قدر من كلمات التوضيح فتضيع وسط تلك التفصيلات الدقيقة الأخرى [128].

سابعا: الملاحظات العروضية

فــي الحديث عن الملاحظات العروضية عند ابن الأنباري أشــرت إلى أن هــذه القصائد هي النموذج الفني فمنها ومن أمثالها انحدرت القواعد العروضيــة، لذلك لم تكن الملاحظات العروضية إلا تفريعات خاصة داخلة فــي الجواز والضــرورة المقبولة، أمــا الخروج الصارخ عــن القاعدة فهو الشذوذ المؤكد للقاعدة.

لذلك فالملاحظات العروضية العامة التي تمس القصائد الســبع والتي دار الحديــث عنها عند العلماء هي نفســها الواردة عند ابن الأنباري وابن النحاس جمعها هذان العالمان، فما ورد عند ابن الأنباري هو نفســه الوارد عنــد ابن النحاس وينطبق عليه القول نفســه، لذلك ســأمر مرورا عابرا على بعض الملاحظات. مــع التركيز على بعض المواضع التي اهتم بها ابن النحاس وحده، أو فصل فيها بعض التفصيل. أولى الملاحظات البســيطة

تلك الخاصة بصرف ما لا ينصرف، وهذه قاعدة متفق عليها أشار إليها الشارحان إشارة عابرة في بعض الأحيان وأهملاها في مواضع عدة، وهذه بعض مواضع إشاراته، في قول امرئ القيس:

علا قَطَنا بالشَّيم أيمَن صوبه وأيسَرُه على السِّتار فَيَذبُل

يقول: «ويذبل كان يجب ألا ينصرف لأنه معرف، وهو على وزن الفعل المستقبل غير أن صرفة ضرورة، لأنه يجوز للشاعر أن يصرف ما لا ينصرف» (129). ويعلق على صرف ظعائن في بيت زهير:

تَبَصر خليلي هلْ ترى من ظَعائِنٍ تحمَّلن بالعلياء من فَوْقِ جُرثُم

«وصرف ظعائن لما اضطر، لأنه رده إلى أصله لأن أصل الأسماء أن تكون منصرفة حتى يدخل عليها ما يمنعها من الصرف. وقال سيبويه: وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها، يعني يردونه إلى أصله. وقال الأخفش سعيد بن مسعدة: ليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يرجعون فيه إلى لغة بعضهم» (130).

وقريب من هذا اللجوء إلى التسكين ضرورة مع أن القياس اللغوي يقتضي الحركة كما نلاحظ في قول الحارث:

فاتركوا الطيخَ والتَعدى وإمّا تَتَعاشَوا ففي التَّعاشي الدّاءُ

يقول تعليقا على سكون الياء في كلمة التعدي: «وكان يجب أن تحرك الياء لأنها في موضع نصب غير أنه لما اضطر سكن الياء في موضع النصب كما تسكن في موضع الرفع والخفض». ولكنه من جهة أخرى يورد رواية لأبي الحسن يقول: «فاتركوا الطيخ والظلال» ويعلق عليها قائلا: «وهذه الرواية أجود لأنه لا ضرورة فيها» (131). وهناك بعض المواضع التي يجوز فيها للشاعر أن يتصرف مع بعض التحفظ كما نلاحظ في بعض الاستخدامات اللغوية. وهي بهذا لا تدخل في الأجزاء الخاصة بالعروض إنما هي من مقررات الاستخدام اللغوي للشاعر وهذا ما نلاحظه في عرضه لبعض النماذج من مثل قول الحارث بن حلزة:

فَتَرى خَلْفَهاَ من الرَّجعِ والوقْعِ مَنينا كأنَّه إهباء»

يقـــول: «وزعم بعض أهل اللغة: أن هذه الرواية خطأ لأن الواحد هباء، قـــال الله عز وجل: «فجعلناه هباء منثـــورا»، وإنما يجمع هباء على أهبية، فأما إهباء فإنما هو جمع هبى مقصور، غير أن هذه الرواية معروفة، وهي تجوز من جهتين: إحداهما أن للشاعر أن يقصر الممدود، فكأنه قصر هباء ثم جمعه على إهباء» [132].

ومثل هذا تعليقه على بيت لبيد:

تَراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعضَ النفوسِ حِمامُها

حيث ســـكن الشاعر «يرتبط» فيورد بعض الحجج المفسرة [133]، ويقف وقفة مطولة أمام بيت الحارث:

كـأن غُضونَهــنَّ متـــونُ غـــدرٍ ... تُصفِّقها الرِّياح إذا جَرينا [134].

فيقول: «وقوله: إذا جرينا عيب قبيح في الشـــعر، لأن الياء إذا كان ما قبلها مفتوحا فليســـت من حروف المد واللين فهي مخالفة لقوله: ولا تبقي خمور الأندرينا وهذا يسمى السناد في الشعر» [135].

ويتخلل هذا حديث عن عيوب الشعر الأربعة: السناد والإيطاء والأكفاء والأقواء ورأي العلماء في كل عيب واختلافهم حول المسميات وهكذا.

هذه أهم الملاحظات العروضية وهي من المعروف المتداول عند العلماء بحيـــث يمكن القول عنها بإنها نتيجة لوضع القواعد العامة فشـــذت هذه عنهـــا ولم تطرد مع ما قرره العروضيون، ولذلك أفردها بعد إخراجها من القاعدة العامة معلقين عليها وفق طبيعتها، فما تلاءم مع الخط الموســـيقي العام اعتبروه مقبولا أما النادر فهو شـــذوذ مقبول، أما الذي تجافى تماما مع القواعد فهو عيب لا يقاس عليه.

4

الزوزني: نظرات فنية

«لقد صهر الزوزني كل المعلومات المهمة والمتعلقة بالنص وسكبها في شرحه الموجز، فكان خير من مثل الانتقاء والتوازن والقدرة على التعبير عما في هذه القصائد..»

المؤلف

حظيت النظرة اللغوية في فهم النصوص بالنصيب الأوفى من الشروح العربية القديمة، وكانت الأساس الأول، ويكاد يكون الوحيد، في فهم الشعر وشرحه. وقد تخطت حد الفهم الأولي للنص في طبيعته اللغوية إلى طبيعة اللغة ذاتها، فغلبت هذه النظرة على غيرها فوضحت على السطح، بينما انزوت عناصر الشرح الأخرى أجزاء يسيرة مهما كثرت، تمر علينا في ثنايا الشرح كما وضح هذا من خلال دراستنا لها في الفصول السابقة.

ولهذا الأمر تفسيره المعقول الصادر من مجموعة اعتبارات وظروف جعلت منه أمرا محتوما وأكسبته مشروعية حقيقية، فأصبح من الطبيعي أن يكون هذا المنهج

هو الأساس وكل التيارات الأخرى فرعا له تنطلق منه إلى السبل الأخرى. وتفسير هذا يرجع إلى عدة اعتبارات حقيقية أولها خاص بالأدب، وثانيها خاص بالعصر، وثالثها خاص بالتراث العربي.

ذكرنا في حديثنا عن المنهج اللغوي أن الأدب في حده الأساسي لغوي، فاللغة مادته الأساسية، ليس من جهة الوسيلة فقط، فاللغة في الشعر ليست وسيلة إيصال بل هي وسيلة تعبير، وفرق واسع بين لغة الإيصال ولغة التعبير، فالأولى مباشرة وعابرة تصل المعنى إلى غايته كما هو، أما الثانية فإنها تحمل في داخلها عناصر التأثير الذي يثيره الفن في النفس، وهذا التأثير ينبع من طبيعة مركبة متداخلة بين ذات الفنان ووسيلته، لذلك تكتسب اللغة على يد الشاعر بعدا خاصا في الوقت نفسه الذي تدخل فيه طرفا في التجربة الفنية بطبيعتها الخاصة وتاريخها وإمكاناتها واستوائها في نفسه، لذلك يتأمل مع طرف منها ما يراه قادرا على التعبير عن تجربته التي يتركها بين يدي هذه اللغة التي ترتبط بهذا الفن وتحمله إلى النفس المتلقية التي لا ترى وسيلة للفهم إلا بإعادة تركيب التجربة الفنية على أساس من الفهم اللغوي أولا. إذن فطبيعة الأدب العامة المرتبطة باللغة فرضت على شارح الأدب ودارسه الوقوف طويلا أمام هذه الوسيلة من خلال ذلك المنهج الكبير المتمثل في الفهم اللغوي للشعر.

وطبيعة ثانية، خاصة بالعصر، فمنذ ألف سنة من الآن كانت طبيعة التجربة النقدية لا تزال في أدوارها الأولى وفي مرحلتها المبكرة من التعقيد اللغوي والفني ومحاولة تحديد وسائل الإبداع وطبيعتها والتفريق بين التجربة الفنية الناضجة والمتقدمة على غيرها، ولم يكن بين أيديهم من الدراسات إلا هذه النصوص الشعرية يفهمونها من الداخل، كما يحاولون تحديد خصائص اللغة من خلالها في الوقت نفسه الذي يفهمون الشعر على أساس توصلوا إليه من قواعد اللغة، ويضعون النماذج الفنية بعضها إلى جانب بعض في محاولة دائبة لبيان وسائل الإبداع ومن ثم الخروج بالقواعد.

إن هذه التجربة النقدية المبكرة والغارقة في فهم اللغة حتى أذنيها، بجانب نقص الدراسات الأخرى المكملة لها التي لم تبرز إلا في العصور الحديثة، كل هذه بوأت هذا المنهج مكان الصدارة وأصبح هو الأول ويكاد يكون الأخير.

وطبيعة ثالثة خاصة بالتراث العربي نفسه وآتية من منبعين أحدهما: أن الإسلام انطلق أساسا من منبعه العظيم وهو القرآن الكريم، الذي كان البيان واضحا فيه، ونصه أصل لا يقبل التحريف والتغير، لذلك حرص المسلمون أول ما حرصوا على تثبيت مفاهيم الألفاظ ودلالتها والجمل وتراكيبها، فانطلقت الدراسات اللغوية أولا وحظيت بالاحترام اللائق بها، حيث إنها قد قامت لخدمة هذا الكتاب العظيم.

وهذه الطبيعة الخاصة جعلت الفهم اللغوي للنصوص الشعرية مرتبطا بفهم اللفظة القرآنية. واستفاد الشعر من هذا الجانب في الدراسات التي أحاطت بالقرآن وتمثلت في دراسات الإعجاز القرآني.

أما المنبع الآخر فهو خاص بالفن نفسه عند العرب الذي تمثل في الشعر فقط، ومداره الأول اللغة وتركيباتها الدقيقة، فانعدام الاهتمام لأسباب كثيرة بالفنون الأخرى جعل الفن مرادفا للشعر فقط الذي حظي بالتنظير والدراسة مع الاهتمام بأبرز ما فيه، فانحصرت الدراسة في هذا الجانب الذي تمثل في الاهتمام بمادته اللغوية.

وآخر هذه الاعتبارات هو أن الدراسة النقدية التي كانت سائدة آنذاك، حتى في إطار الفهم اللغوي لم تتعمق نظرتها بصورة تطبيقية بارزة، فقد كانت ملاحظات عامة أو تنظيرات تشمل البيت أو البيتين، فهذا عبدالقاهر في نظرته البالغة الجودة في فهم الفن كانت دراسته النظرية مطولة ومتكاملة ولكنها أدارت الحوار حول نصوص قليلة جدا نسبيا، وهذا أمر طبيعي في مجال عرض النظرية.

ولكن من جهة أخرى اهتم اللغويون، ومن في مقامهم، بالدراسات التطبيقية للنصوص الشعرية التي تمثلت في هذه الشروح، مع غلبة الصفة اللغوية المتخصصة، ولكن هذه الدراسات لم تخل من الإحساس بالفهم الفني اللغوي للنص، كما وضح من الفصل السابق.

إن هذه التوطئة ضرورية لبيان الأساس الذي قامت عليه دراسة هذا الفصل، وهو دراسة للنظرة الفنية في شرح القصائد السبع عند القدماء من خلال كتاب «شرح القصائد السبع» للقاضي أبي عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني [1]، فنحن عندما نقول إنها فنية فلا تعني أنها خرجت عن

إطـــار الفهم اللغوي الـــذي دفعت إليه الاعتبارات الســـابقة فانتظمت فيه الدراسات الأدبية. ولم يكن الزوزني بعيدا عن هذا الفهم فقد حافظ على الأســـس التي اهتم بها شراح الشعر، ولم يكن عصره أو شخصه أو ثقافته بقادر على تجاوز الفهم اللغوي.

إن النظرة الفنية التي نقصدها هي تلك التي تنظر إلى النص الشعري على أنه فن، وأن شـــرحه هو الأساس الأول. أما العلوم الأخرى فهي معينة ومســـاعدة، والاقتراب منها بقـــدر الحاجة، فينصرف الشـــارح إلى بيان القصيدة مســـتخدما كل الوســـائل، فتتوازن المعارف كلها في سبيل تقديم النص الشعري للقارىء تقديما معقولا ومفيدا.

وهذا ما حاوله الزوزني في شـــرحه، وهو ما يفسر لنا شهرة هذا الشرح الذي جمع محاســـن أصحاب المنهج اللغوي واختصر الزوائد والاستطرادات وحصـــر فهمه في النص الفني وبيَّنه، في حدود الطاقة، بيان من فهم معنى القصيدة فهما جيدا، ليس من جهة حرفية الألفاظ ولكن بالنفاذ إلى ما يريد أن يقوله الشاعر، مدركا إشاراته وتلميحاته مع الاستعانة والاستفادة من كل المعارف الأخـــرى والاحتفاظ بالتوازن المطلوب بحيث يظل النص الشـــعري هو البـــارز دائما، فقد صهر الزوزني كل المعلومـــات المهمة والمتعلقة بالنص وسكبها في شرحه الموجز، فكان خير من مثل الانتقاء والتوازن والقدرة على التعبيـــر عما في هذه القصائد بما يســـتطيع عصره أن يقدمه، وضمن هذا الإطار يتضح لنا معنى الفهم الفني الذي نقصده في هذا الفصل.

مصادره

حتى لا تنفك العلاقة بين الزوزني وما ســـبقه، تحســـن الإشارة إلى أن شـــرحه قام على أســـاس من صلة بـــين جهده وجهود الســـابقين، صهرها واختـــار من بينها فكانـــت اختياراته وإضافاته واجتهاداتـــه هي التي تمثل طبيعة الجهد الذي بذله.

والنظرة إلـــى مصادر الزوزنـــي تختلف عن مثيلتها بالنســـبة إلى ابن الأنباري وابن النحاس، فهذان كانا قريبي العهد بالرواية الشفوية، وعاصرا مرحلة التدوين الأولى النشـــطة، لذلك برزت الحلقات المتصلة من الرواية

الشفوية مع بعض المدونات الأولى في كتابيهما، وليس الزوزني كذلك، فلم تكن أمامه إلا نصوص القصائد مع الشروح المكتوبة التي رافقتها، لكنه في تعامله مع هذه الشـــروح كان أكثر تحررا واجتهـــادا من الذين عاصروه أو ســـبقوه ممن التزموا بكل ما وصل إليهـــم فنقلوه حرفيا من دون أن تتضح شخصية الشـــارح منهم أو وجهة نظره، فقد تمسك هؤلاء بالنظرة اللغوية التعليميـــة فجاءت تلخيصاتهم ونقولهم صورة مهذبة أو مشـــوهة من تلك الأصول الأولى.

لقـــد كان الزوزني قادرا على الخروج من إســـار المصادر الأولى الوحيدة التي كانت بين يديه، فهو يملك حرية التصرف والاختيار والترجيح والإضافة، وهو يدخل إلى النص الشعري وهدفه النفاذ إلى جوهره، لذلك برز الزوزني شارحا متمكنا ذا نفس شفافة، واستطاع تحت ظلال المنهج القديم أن يقدم تلك اللمسة الطيبة لشرح متوازن الأركان، واتضحت فيه النظرة الفنية للنص التي تحتكم إلى ذوق قادر على تلمس جوانب المعنى في البيت الشعري.

مـــن هذا المنطلق كان اســـتخدامه لمصـــادره، ليس من جهـــة النقل بل الاستفادة الواعية.

ونحن لا نســـتطيع أن نضع أيدينا بصورة مباشـــرة علـــى كل المكونات الثقافية التي شـــكلت شـــخصيته، فقد اختفت ملامح الاستفادة المباشرة مـــن كتاب أو كتـــب معينة، فهو يعتمد على المقـــولات العامة التي أصبحت ملـــكا للتاريخ واللغة عموما، ويورد كل ما يراه مناســـبا لكن من خلال رأيه وفكره الخاص، لذلك قل استشـــهاده بأســـماء العلماء إلا في أقل القليل، وهو في استشهاداته كان أقرب إلى استحضار ما في ثقافته حول الموضوع المستشهد عليه.

لكـــن، من جهة أخرى، يمكن تحديد بعض المصـــادر المكتوبة من خلال إشاراته أو تطابق معلوماته مع ما جاء فيها، أو من خلال إشاراته إلى آراء العلماء المسندة إليهم والتي تمثل استفادة مباشرة منهم.

يمكـــن النظر إلى مصادره من بوابـــة ثقافته العامة التي انصهرت فيها تلك المعلومات، فنحن أمام شـــارح من عصر أحسن الاستفادة من مصادره كما يجب، وملك فهما طيبا للاستفادة منها ليعرض تصوراته الخاصة.

من الواضح أنه كان يعتمد ويعتد بشرح ابن الأنباري، وهذا الاعتداد لا يمثل خضوعه التام لمصدر واحد، ولكن شرح ابن الأنباري - ويشاركه ابن النحاس - ذو طبيعة متميزة يسرها قدم عصره وقربه من رجال العصر الأول، فحوى شرحه كل ما أثر عن العلماء مما كان يمثل أرضية طيبة لكل من يريد أن يشرح القصائد السبع حتى يومنا هذا، لذلك ينخرط الزوزني ضمن المستفيدين من هذين الشرحين.

وحين نعرض لأحد النماذج التي استفاد فيها الزوزني من مصادره نجده يقدم لنا ما تراكم لديه من أخبار ومعلومات وآراء بأسلوبه الخاص المركز الذي تخلص من الاستطرادات ووقف فيه موقف المناقش. وهذا بيت رأينا من قبل كيف شرحه ابن الأنباري وفيه تمثلت طريقته، نعرضه هنا لتكون المقارنة بين الشرحين ممكنة وقائمة:

زَعموا أن كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْرَ مَوَالٍ لَناَ وأَنَّا الوَلاءُ

فهذا البيت أسهب ابن الأنباري في شرحه وعرضه عرضا محيطا بجوانبه من جهات عدة، متابعا كل قول صدر عن العلماء السابقين، ولم يخرج ابن النحاس عما ذكره ابن الأنباري إلا في حدود اهتماماته اللغوية، لذلك لم يجد الزوزني أمام هذا السيل من الآراء إلا أن يصهرها صهرا جيدا ويركزها تركيز العالم المدرك لما هو مفيد بصورة مباشرة لفهم البيت. ولننظر في شرحه الذي عبر فيه تعبيرا جمع فيه كل ما ورد عن العلماء، يقول: «العير في هذا البيت يفسر: بالسيد، والحمار، والوتد، والقذى، وجبل بعينه. قوله: وأنا الولاء، أي: أصحاب ولائهم، فحذف المضاف».

ففي هذا العرض المركز جمع كل ما ذكره العلماء مبسوطا في كتبهم مع الاستشهادات المختلفة. وفي ضوء هذه الاتجاهات في تفسير الألفاظ جاءت اتجاهات المعنى عنده هكذا:

1 - «ثم إن فسر العير بالسيد كان تحرير المعنى: زعم الأراقم أن كل من يرضى بقتل كليب وائل بنو أعمامنا وأنا أصحاب ولائهم تلحقنا جرائرهم».

2 - «وإن فسر بالحمار كان المعنى: أنهم زعموا أن كل من صاد حمر الوحش موالينا، أي ألزموا العامة جناية الخاصة».

3 - «وإن فســر بالوتد كان المعنى: زعموا كل من ضرب الخيام وطنبها بأوتادها موالينا، أي ألزموا العرب جناية بعضنا».

4 - «وإن فســر بالقــذى كان المعنــى: زعموا أن كل مــن ضرب القذى لينتحي فيصفو الماء موالينا».

5 - «وإن فسر بالجبل المعين كان المعنى: زعموا أن كل من صار إلى هذا الجبل موال لنا، ثم يختم تفســيره قائلا: «وتفســير آخر البيت في جميع الأقوال على نمط واحد» [2].

نلاحظ أن اســتفادته من ابن الأنباري واضحة ولكنها واعية مع تحرر من التقيد بتفاصيل الرأي، فهو قد قبل تفســيره في الرأي الأول (العير= الســيد)، وكذلك تقارب معه في التفســير الثالث (العير = الوتد)، وكذلك الخامس (العير = الجبل)، وهي آراء واردة عند غيره من الشــراح، ولكننا نجده في التفسير الثاني (العير = الحمار) أخذ عنه التفسير اللغوي للوتد بمعنى الحمار، لكنه ترك توجيهه للمعنى وفســره تفسيرا خاصا به، فابن الأنباري فسر الحمار على حقيقته أي أنه يسوق الحمار، أما الزوزني فقد حدد الدلالة، فالحمار هو الحمار الوحشــي الــذي هو أجل ما يصاد كما ذكر ابن الأنباري نفسه.

أمــا الرأي الرابــع (العير = القذى) فهو خاص به لم يرد عند الشــراح الآخرين ولعله اعتمد فيه على أحد المراجع الأخرى، أو أنه اجتهاد خاص به، لكنه من جهة أخرى يقترب بعض الشــيء مما ذكره ابن النحاس الذي قال: «أراد أنهم يلزموننا ذنب من أطبق جفنا على جفن، لأنه يقال للعين عير» [3].

وهكذا استطاع الزوزني أن يلم كل المعلومات المتناثرة ويركزها معتصرا أهم ما فيها مع اختيار الزاوية الملائمة.

ومثــال آخر اعتمد فيه على مراجعه، خاصة ابن الأنباري، نلاحظه في هذا البيت:

ووادٍ كَجَوفِ العيْرِ قَفْرٍ قَطَعتهُ   به الذئبُ يَعْوِي كالخَليعِ المُعَيَّلِ

«الــوادي يجمع على الأودية والأوادية. الجوف: باطن الشــيء والجمع أجــواف. العير: الحمار والجمــع الأعيار. القفر: المــكان الخالي والجمع القفــار، ويقال أقفر المكان إقفارا إذا خلا، ومنــه خبز قفار: لا إدام معه.

الذئـــب يجمع على الذئـــاب والذياب والذؤبان، ومنه قيـــل: ذؤبان العرب، للخبثـــاء المتلصصـــين، وأرض مذأبة: كثيـــرة الذئاب، وقـــد تذأبت الريح وتذاءبـــت، إذا هبـــت من كل ناحيـــة كالذئب إذا حذر مـــن ناحية أتى من غيرها، الخليع: الذي قد خلعـــه أهله لخبثه، وكان الرجل منهم يأتي بابنه إلى الموســـم ويقـــول: ألا إني قد خلعت ابني، فإن جـــر لم أضمن، وإن جر عليه لم أطلب، فلا يؤخذ بجرائره، وزعم الأئمة أن الخليع في هذا البيت: المقامـــر. المعيل: الكثير العيال، وقد عيل تعييـــلا فهو معيل إذا كثر عياله. العواء: صوت الذئب وما أشـــبهه من السباع، والفعل عوى يعوي عواء، زعم صنف من الأئمة أنه شـــبه الوادي من خلائه عن الأنس ببطن العير، وهو الحمار الوحشـــي، إذا خلا من العلف، وقيل بل شـــبهه في قلة الانتفاع به كجـــوف العير لأنه لا يركـــب ولا يكون له در، وزعم صنـــف منهم أنه أراد كجـــوف الحمار فغير اللفظ إلى ما رافقه في المعنى لإقامة الوزن، وزعموا أن «حمارا» كان رجلا من بقية عاد، وكان متمســـكا بالتوحيد، فسافر بنوه فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم، فأشـــرك بالله وكفـــر بعد التوحيد، فأحرق الله أمواله وواديه الذي كان يســـكن فيه، فلم ينبت بعده شيئا، فشبه امرؤ القيس هذا الوادي بواديه في الخلاء من النبات والإنس.

يقـــول: ورب واد يشـــبه وادي حمار في الخلاء مـــن النبات والإنس، أو يشـــبه بطن الحمار فيما ذكرناه، طويته ســـيرا وقطعته، وكان الذئب يعوي فيه من فرط الجوع كالمقامر الذي كثر عياله، ويطالبه عياله بالنفقة، وهو يصيح بهم ويخاصمهم إذ لا يجد ما يرضيهم به [4].

هذا البيت لم يتعرض له ابن النحاس بشـــيء لعدم ثبوت نسبته لامرئ القيس، بينما ساهم ابن الأنباري في جلاء غوامضه [5]. لذلك نرى الزوزني يعتمد عليه اعتمادا واضحا ولكن مع تصرف ومراجعة وإضافة.

وقد وضحت اســـتفادته منه في شرح الألفاظ وبيان المعنى، مع ملاحظة أن الزوزنـــي كان حريصا على أن يدلي بدلوه متجاوزا حرفية كلام مصدره، ولعله كان يرجع إلى مصادر أخرى أو يعتمد على ثقافته العامة، فقد تابع ابن الأنباري في شـــرح كلمة «المعيل» أولا، وأخذ عنه شرح كلمة «الخليع» بمعنى المقامر، وهو لم ينص على اسم ابن الأنباري ولكنه يقول «وزعم الأئمة».

ويضيف من جهة أخرى إضافة ليست واردة في هذا المصدر وإن كانت من الشائع والمشهور، ونعني بها تفسيره كلمة الخليع بأنه «الذي خلعه أهله لخبثه»، ويوضح لنا هذا التقليد الجاهلي (6).

وهذا التحرر في شرح الألفاظ ينعكس على المعنى نفسه، فهو يورد رأي ابن الأنباري قائلا: «وزعم صنف من الأئمة أنه شبه الوادي في خلائه عن الإنس ببطن العير، وهو الحمار الوحشي»، ويعلل ابن الأنباري هذا التشبيه بأن جوف العير لا ينتفع منه بشيء (7).

أما الزوزني فإنه أضاف إلى هذا التعليل تكملة من جانبه رأى فيها بيانا لكلمة ابن الأنباري الغامضة، ففسر عدم الانتفاع «لأنه لا يركب ولا يكون له در»، ومن جهة أخرى يضيف تفسيرا آخر وهو قوله «إذا خلا من العلف».

ومثل هذا متابعته للرأي الآخر الذي أورده ابن الأنباري فيما ذكره هشام ابن الكلبي من أن العير هاهنا رجل من العمالقة.. إلخ، فيورده الزوزني بعد أن يحدث تغييرا بينا وأسنده إلى بعض الأئمة قائلا: «وزعم صنف منهم أنه أراد كجوف الحمار...» (8). ثم يروي القصة التي رواها هشام الكلبي.

هذه كانت ملامح تكشف طبيعة استفادته المشروعة من مراجعه، وهي استفادة عالم متمكن قادر على التمييز والاختيار والإضافة.

ونحن لا نهدف ولا نستطيع تتبع مصادر الزوزني بقدر ما نريد تأكيد وتبيين طريقته الخاصة في الاستفادة من المادة الأولية التي يسرتها له المراجع المختلفة، لذلك سنحاول في السطور التالية أن نعرض لبعض مواطن ونوعية الاستفادة التي استفادها من ابن الأنباري، ومن ثم ابن النحاس كجزء من طريقته في صهر هذه المعلومات التي كانت بين يديه.

وقد استفاد الزوزني من ابن الأنباري (9) من عدة جهات، أبرزها الاستفادة العامة التي تشمل المعنى والألفاظ وكل ما يتعلق بالبيت، يختزنها ويمزجها مع ما استقر عنده من ثقافته العامة ومصادره الأخرى، كما وضح من الأمثلة التي قدمتها من قبل.. وهذه الاستفادة لا تخطئها العين المقارنة بين الشرحين، مع التنبيه على أن هناك من المعلومات المسندة إلى روايتها وأصحابها منحدرة إلى الأجيال التالية عن طريق

عدة مصادر رافقت القصائد السبع، لذلك كان الزوزني حريصا على إيراد ما جاء به ابن الأنباري مع الزيادات التي يراها ضرورية مع حقه وجهده في الرأي والشرح.

من الأمثلة العامة والمباشرة للاستفادة ما نراه في شرحه بيت أمرئ القيس:

قِفَانَبْكِ من ذِكرَى حَبِيبٍ ومنزِلِ   بِسِقطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ فحَومَلِ[10]

فقد عرض بإيجاز للآراء الأربعة التي أوردها ابن الأنباري في تعليل التثنية في قوله «قفا»، وقد اختصر الشاهد واختار من بينها، الرأي الأول الظاهر، ثم الثاني مع شاهد واحد مع التعليل، والوجه الثالث مع شاهد واحد، ووقف أمام الوجه الرابع الذي أشار إليه ابن الأنباري إشارة عابرة ولم يوضحه، فأضاف الزوزني إليه واستشهد بقول للمازني مع آية قرآنية.

بِيومِ كَريهةٍ ضَرباً وطعناً   أقرَّبه مَوَاليك العُيونا[11]

ويهمنا هنا أن نشير إلى وقفته أمام قول الشاعر: «أقر الله عينك»، فأورد رأي الأصمعي القائل إنها: أبرد الله دمعك، مع زعمه أن دمع السرور بارد ودمع الحزن حار مع التعليل اللغوي لهذا، ويورد اعتراض أبي العباس ثعلب الذي أكد أن الدمع كله حار مع التفسير المرافق له.

فهذه الآراء ونسبتها كلها واردة عند ابن الأنباري [12]، ولكنه كعادته يضيف رأيا آخر نسبه إلى أبي عمرو الشيباني ويقول فيه: معناه أنام الله عينك وأزال سهرها لأن استيلاء الحزن داع إلى السهر.

ويستفيد منه كذلك - بجانب شرح الألفاظ - في بيان المعنى العام ووجهته التي ينطلق منها، فقد قال ابن الأنباري في شرحه بيت امرؤ القيس:

فقلت لها: سيري وأرخي زمامه   ولا تبعديني من جناك المعلل

فقد نقل قول الأصمعي القائل: «جعلها بمنزلة شجرة لها جنى فجعل ما يصيب من رائحتها وحديثها وقبلها بمنزلة ما يصيب رائحة الشجرة وثمرها [13]. وهو نفسه الاتجاه الذي اتخذه الزوزني في شرح هذا البيت [14].

ومثل هذا موافقته له في فهم اتجاه الاستفهام البلاغي في بيت امرئ القيس أيضا:

أغرَّكِ مني أن حُبَّكِ قاتِلي وأنَكِ مَهْمَا تأمَري القَلبَ يَفْعَلِ

ومنه قول جرير:

ألَستمْ خيرَ مَنْ ركِب المطايا وأنــدَى الـعـالمينَ بـطـونَ راحِ

يريد أنهم خير هؤلاء [15]. وهو الشــرح نفسه الوارد عند ابن الأنباري مع الشاهد [16]. وقد يستفيد منه في فهم الدلالة الكامنة في التعبير الذي ساقه الشاعر وهذا ما نلاحظه في تعليقه على هذا البيت:

أَدعُو بهنَّ لِعاقرٍ أو مُطْفِلٍ بُذِلَتْ لجِيرانِ الجميعِ لحامُها

فقال تعليقا على استخدام الشاعر كلمتي العاقر والمطفل: «وذكر العاقر لأنها أســمن، وذكر المطفل لأنها أنفس» [17]، وهو الرأي نفســه الوارد عند ابن الأنباري [18]. وهذه النماذج التي وضحت لنا استفادته من ابن الأنباري قليل من كثير [19].

وهذا الوضوح في استفادته من ابن الأنباري يقابله غموض وصعوبة تحديد مصادره الأخرى وخاصة ابن النحاس الذي لا نستبعد اطلاعه على شــرحه والاســتفادة منه، ولكن بصورة أقل من المصدر الســابق، وخاصة لأن الشــرحين يعتمدان على الأصول ذاتها، ويوردان المعلومات نفسها، بينما ينفرد ابن الأنباري بالبسط والاستفاضة مع إيراد مختلف المعلومــات المفيدة. أما ابن النحاس فلعل غلبة اللغة على شــرحه هي التي جعلت الزوزني يهمل الإشارة إليه، خاصة أنه كان يعرض من اللغة ما هو عام وبســيط ولا يحتاج في أكثر الأحيان إلى إسناده إلى مرجع معين، لهذا كله خفيت اســتفادته منه، ولعلــه اختزن معلوماته من دون تعيين أو تحديد.

ولكــن هناك بعض المواطــن التي يمكن القــول - اجتهادا من دون جزم أو تحمس - إنها قد تكون من مرويات ابن النحاس اســتفاد منها الزوزني من دون الإشــارة إليه، خاصة إذا وجدنا أنها لم ترد عند ابن الأنبــاري وطابقت مــا جاء عند ابن النحاس، ومــن هذه عرضه لبيت امرئ القيس:

مِكرٍ مِفَرٍ مقبلٍ مُدبرٍ معاً كجُلمودِ صخرٍ حَطَّهُ السيلُ مِنْ علِ [20]

فهو يعرض للغات المختلفة لكلمة«من عل» وهي ثماني لغات أشار إليها كل من ابن الأنباري وابن النحاس، لكن ما ورد عند الزوزني أقرب إلى الأخير خاصة أنه اتفق معه في إيراد شاهد شعري على لغة «علا» وهو:

باتت تنوش الحوضَ نوشاً من عَلا نوشاً به تقطع أجوازَ الفلا

لكنه يختلف معه في تحديد من روى البيت فهو عنده الفراء، بينما ذكر ابن النحاس أنه يونس، وهذا الخلاف قد يشير إلى اعتماده على مصدر ثالث، ولكن ذلك أيضا قد يكون إحدى محاولات الزوزني في الإضافة والتغيير.

ومثل هذا استعانته بشاهد شعري أيضا أورده ابن النحاس في سياق حديثه عن بيت لبيد:

فَعلا فُروعُ الأيهُقانِ وأطفَلَتْ بالجَهَلتينِ ظباؤها ونَعامُها

حيث إن الشاعر أراد أن يقول: «أطفلت ظباؤها وباضت نعامها، لأن النعام تبيض ولا تلد الأطفال، ولكنه عطف النعام على الظباء في الظاهر لزوال اللبس»، ويورد ثلاثة شواهد أحدها تفرد به ابن النحاس وأورده في هذا الموضع ونعني به قول الشاعر:

يا ليت زوجك قد غدا مُتَقَلِّداً سَيفاً ورمحاً

أي حاملا رمحا [٢١].

وبصورة أوضح ذلك التطابق الذي نلمسه في حديثه عن «وفى» و«أوفى» في معرض شرحه لقول زهير:

ومَن يُوفِ لا يُذمم، ومن يُهدَ قلبُهُ إلى مطمئنِّ البِرِّ لا يتَجَمجمِ

يقول: «وفيت بالعهد أفي به وفاء، وأوفيت به إيفاء، لغتان جيدتان والثانية أجودهما لأنها لغة القرآن، قال تعالى: «وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم» [22]، «وهو قريب من قول ابن النحاس» [23].

ولا أريد الاستطراد وراء هذه الملامح البسيطة فكثيرا ما كان يتقارب اتجاه المعنى أو الألفاظ المستخدمة عندهما، لكنها تظل استفادة ممكنة وإن لم تكن حتمية لعمومية الأخبار الواردة حولها وشيوعها [24].

تلك ملامح لبيان كيفية استفادته من مراجعه، وقفنا عند أهم مصدرين معروفين لشــرح هذه القصائد مع ملاحظة أنــه كان مقلا في اعتماده أو ذكره للأســماء التي أخذ منها، فهو ينفذ إلى القصد المطلوب دون الدخول فــي الخلافات الدقيقة، لذلك قلّت الأســماء الواردة في كتابه فلم تتجاوز العشــرين اســما وهي غالبا ما تكون واردة عند ابن الأنباري أو الشــراح الآخرين أو المراجع الأخرى.

وهــذا العدد القليل إنما يعنــي أن الزوزني اهتم بالمادة المروية ولم يكن حريصا علــى إثبات أســماء أصحابها، فهو فقط يســند الرأي لصاحبه عندما يجد فيه خصوصية معينة، أما ما هو شــائع وعام فحسبه أن يقدم خلاصــة الرأي أو الخبر لأنــه معني بالتعبير عن معنــى البيت من أقرب الطرق وأكثرها دقة وتركيزا.

خصائص شرح الزوزني

إن المتأمــل في هذا الشــرح وما أحاط به من شــهرة يدرك أن هناك خصائص معينة امتاز بها عن غيره من الشروح، فمع تقدير العلماء للمادة الجيدة والغزيرة التي توافرت في الشروح الأخرى فإن هذا الشرح استطاع مــن بين كل الشــروح أن يكون صاحب قصب الســبق حتى أصبح مرتبطا باســم المعلقات الســبع، ونال حظوة عرفها مثقفو العربية، ولا شك في أن وراء هذا أسبابا كامنة في الشرح ذاته بأسلوبه وطريقته وملاءمته للأذواق وتغطيته لحاجة المتعلمين والمربين، وهو أيضا عون ســهل وميسور ومبسط للقارئين، وسنحاول في الســطور التالية أن نعرض لأهم هذه الخصائص من خلال الأمثلة المبينة والموضحة.

الحس الفني في الشرح

ونعني به الإحساس بفنية النص الشعري، وأنه الأصل الأول في الشرح مع محاولة الشــارح الاقتراب مــن روحه في التعبير عنــه تعبيرا صادقا مؤديا للمعنى، وهذا الإحساس نلمسه في التصاقه الدائب بالبيت المشروح على العكس من الشــراح الآخرين الذين قد تشدهم جزئية من الجزئيات

فينصرفون عن البيت، ومن هذا ينشأ الاستطراد، أما الزوزني فإنه لا يضع كلمة إلا وقد لمس وحدد فائدتها المباشرة مع النفاذ إلى الهدف الذي أراده الشاعر أو الجو الذي أشاعه في بيته. وهو بهذا يحقق ما ذكره في صدر كتابه من أنه أملاه «على حد الإيجاز والاختصار على حسب ما اقترح على، مستعينا بالله على إتمامه» (25).

ولكي تتضح الصورة أمامنا ننظر إلى هذا البيت الجميل للحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القنّاص عصرا وقد دنا الإمساء

في هذا البيت استطاع الشاعر أن يقيم بناء معبرا عن هدفه من التشبيه بعدة اعتبارات ذات دلالات عميقة، فهذه الناقة تشبه في سرعة سيرها سرعة نعامة ضخمة ذات أولاد تعيش في مفازة، وبعد أن حدد الشاعر خصائص هذه النعامة، وضعها في موقف الخوف حيث تكون أشد سرعة منها في غيره من المواقف، ولم يكتف بهذا بل أقام تركيبا غريبا، معبرا عن هذا الهدف، فهذه النعامة سمعت صوتا ثم دهمها القناص وحدد بعد ذلك الزمن بدلالاته الخاصة «عصرا وقد دنا الإمساء»، وهذ التحديد الزمني فيه من النهار الرؤية ومن الليل الظلمة والخوف. كل هذه المؤثرات توحي لنا بالسرعة الكامنة في ذات النعامة والتي برزت في هذا الوضع الخاص والحدث الطارئ المثير للخوف والداعي إلى استخدام هذه القدرة.

ولا نريد الاستطراد وراء شرح هذا البيت، ولكن حسبنا أن ننظر إلى الكيفية التي شرح بها الزوزني هذا البيت مع مقارنته بغيره من الشراح، ويكفي هنا أن نضع شرح ابن النحاس مثلا لشرح هذا البيت، ثم نعقبه بشرح الزوزني ليتضح الفرق:

يقول ابن النحاس: «آنست: أحست، والنبأة: الصوت الخفي، والقناص: الصيادون، ويقال قانص وقناص وقنص. والعصر: العشي وسميت الصلاة باسم الوقت، كما سميت صلاة الظهر باسم الوقت، والعرب تسمي الغداة والعشي العصرين» (26).

ولنرَ الآن كيف يعرض الزوزني لشرح هذا البيت، يقول: النبأة: الصوت الخفي يسمعه الإنسان أو يتخيله. القناص: جمع قناص وهو الصائد.

الإفزاع: الإخافة. العصر: العشي.

يقول: «أحســـت النعامة بصوت الصيادين فأخافها ذلك عشيا وقد دنا دخولها في المســـاء، لما شـــبه ناقته بالنعامة وســـيرها بسيرها بالغ في وصف النعامة بالإســـراع في الســـير بأنها تـــؤوب إلى أولادها مع إحساســـها بالصيادين وقرب المساء فإن هذه الأسباب تزيدها إسراعا في سيرها»[27].

إن نظرة مقارنة وســـريعة تكشـــف البون الشاســـع بين الشـــرحين في التعبيـــر عن المعنى، وتبين أيهما أقرب إلى التعبيـــر الفني الملائم، أما ابن النحـــاس فإنه لم يجد فـــي البيت ما يثير الإشـــكالات اللغوية التي يجيد عرضهـــا فاكتفى ببيان معنى الألفاظ من أبســـط جهاتهـــا وترك معناها المحدد المرتبط بالبيت إلى المسميات العامة، وأما الزوزني ففي هذا الشرح الموجز اســـتطاع أن يعبر تعبيرا مناسبا عن هدف الشاعر وجسده بأجزائه الخفيـــة، فهو يغادر الفهم اللغوي المباشـــر الذي مهد له بشـــرح المفردات وتحديدهـــا ثم رافق المعنى بتؤدة وأناة، فكان أشـــبه بمن يضع إطارا حول الصورة مع تجسيد ووضع خطوط معمقة تحت أهم الجوانب التي أجملها البيت الشعري من دون أن يخل بأي جزئية من جزئياته مهما كانت بسيطة، منطلقا من المعنى المباشـــر إلى العميق المركـــب. فهو مدرك تمام الإدراك اتجاه البيت الذي عرضه ضمن مستويين واضحين أحدهما حرفي ومعبر عن المعنى بصورته المباشرة وهو قوله: «أحست هذه النعامة..» حتى قوله: «دخولها في المساء..».

هـــذه أول مرحلة، فكلامه هذا يكاد يكون نثرا عاديا لمعنى البيت أجمل فيه المعنى وفق منطوق المفردات كما هي.

لكن هنـــاك مرحلة أخرى هي البعد الفني المقصـــود من هذه الصورة المتحركـــة، وتأتي كلمات الزوزني واضحة ومعبرة ودقيقة ومتلائمة مع روح البيت حيث ينبه إلى اتجاه التشبيه قائلا: «لما شبه ناقته بالنعامة وسيرها بسيرها»، فهو هاهنا يحدد التشبيه العام (الناقة = النعامة) ثم يوجه النظر إلى الجانب الخاص (سيرها = ســـيرها). فهذه الإشارة هي ربط للصورة العامة التي بدأت من البيت السابق والتي لا يمكن إغفالها لصلتها الوثيقة

بتتابع الصورة وتكاملها، ثم يكمل ما بدأه مركزا على عنصر المبالغة بقوله: «بالغ في وصف النعامة في الإسراع في السير بأنها تؤوب إلى أولادها مع إحساسها بالصيادين وقرب المساء»، فهذا السطر جمع عناصر متداخلة ومهمة، فالعودة إلى الأولاد لمثل هذه النعامة دافع للسرعة يحفزها ويزيد من إحساسها بالصيادين، واقتراب المساء عنصر آخر يدفع إلى السرعة في هذا الظرف الخاص، كل هذا يحسه الزوزني في عبارته هذه، ويتضح إدراكه العميق من عبارته التي ختم بها شرحه موضحا لنا اتجاهه في الفهم حين قال: «فإن هذه الأسباب تزيدها إسراعا».

إن أهم ما أشاعه شرح الزوزني في النفس هو هذه الروح المعبرة بدقة والمجسدة لما في البيت الشعري معتصرا أهم ما في اللغة من دلالة وإبراز ما توحي به عبارات الشاعر فيشيع ويبلور أهم ملامح البيت ويصله بما سبقه لتكتمل الصورة المؤدية إلى الهدف العام من دون أن يفقدك الارتباط المباشر بالبيت الشعري.

الحس الفني في شرح المفردات

وطريقة الزوزني في هذا الجانب واضحة في ذهنه، فهو حريص تمام الحرص على إفادة قارئ كتابه، فإذا كان الإحساس الفني الرفيع يقف وراء هذا الشرح فإن وجود الأساس العلمي ضروري، لأنه يقدم للقارئ معلومات طيبة ذات طابع عام، بجانب كونها أساسا لفهم البيت الشعري، وهذا ما نلمسه في هذا الشرح المنظم والمركز الذي يقوم على عدة مستويات من الفهم في أقل عدد من الألفاظ وأكثرها نفاذا.

يبدأ شرحه بتفسير المفردات ذات الدلالة المعينة أو التي تحيطها صعوبة خاصة، فقد تكون لفظة ما مركزا محوريا لفهم البيت كله، فالحد الأول للفظ هو الخطوة الأولى والمهمة التي لا يمكن تجاوزها، لذلك نجده يحرص على أن يقدم لشرح كل بيت بتوطئة يوضح بها الألفاظ.

ونلاحظ في شرحه للمفردات أنه يكتفي بالقليل، فيقدم الكلمة وما يرادفها الذي يعبر عن المعنى الدقيق في داخل البيت، أو يعرض الوجه المراد منها في هذا الموقع مع اختصار واضح، فهو مثلا يقدم في هذا البيت:

حتى إذا يَئِسَتْ وأسْحَقَ خالِق   لم يبلِهِ إرْضَاعُها وفِطامُها

يقول: «الإسحاق: الإخلاق، والسحق: الخلَق، الخالق: الضرع الممتلئ لبنا» [28].

ويكتفي بتوضيح المفردات على هذه الصورة ثم يباشر شرح المعنى بإيجاز، وفي مثل هذا البيت لا نجد في ألفاظه ما يحتاج إلى أكثر مما قال، وما زاد على هذا ففضول يخرج عن اهتمامه.

وقد نجده في مرحلة أخرى أكثر اهتماما بالألفاظ فيعطيها حقها من البيان وتحديد اتجاهها في داخل البيت وربطها بالسياق العام، يقول تعليقا على بيت الحارث:

مُكْفَهِراً على الحَوَادِثِ لا تَرْ   تُوه للدَهْرِ مؤيدٌ صمّاءُ

«الاكفهرار: شدة العبوس والقطوب. الرتو: الشد والإرخاء جميعا، وهو من الأضداد، ولكنه في البيت بمعنى الإرخاء. المؤيد: الداهية العظيمة، مشتقة من الأيد والآد وهما القوة. الصماء: الشديدة، من الصمم الذي هو الشدة والصلادة والبيت من صفة الأرعن...» [29].

فهذا الشرح لهذه الألفاظ وإن اتسم بالتركيز فإنه أعطى كل كلمة حقها وبين اتجاه دورها في البيت، فالمعنى المقابل لها هو المطابق لسياقها فيه، لذلك نجده يحرص على تركيز وتوضيح معنى كلمة «الرتو» لأنها من الأضداد، فحدد معناها الخاص داخل البيت حتى لا يذهب القارىء إلى النقيض، فتوجيهه منسجم مع اتجاه المعنى في البيت كله، فهو المؤدي إلى المراد، لذلك أتبع هذا التوضيح بآخر يشمل البيت كله مبينا أنه صفة للأرعن وهو الجبل الذي قد شبهوا أنفسهم به، لذلك فالمقام مقام شدة وقوة، فكان نفي الرخاوة عنه أقرب إلى المراد.

ولم يخل تفسيره للألفاظ من بعض الملامح اللغوية المفيدة التي تساعد على جس المعنى جسا عميقا، وذلك حين أشار إلى أن الاكفهرار هو شدة العبوس وأن المؤيد آتية من القوة.. إلخ. فهذه المترادفات تصب في مصب واحد هو القوة والبأس وهو ما يريد الشاعر إيصاله من خلال بيته فكان شرحه له تعبيرا مباشرا عن المعنى وليس معلومة لغوية عامة أو أن ما يخص البيت منها جزء يسير أو بسيط.

وهناك مستوى خاص من الألفاظ فيها من خصوصية البيئة شيء كثير، لذلك يكون فهمها ضمن وسطها مع التفصيل اللازم حتى يتضح تأثيرها في السياق وهذا يتطلب وقفة مطولة ليس دافعها رغبة التفصيل اللغوي لكنها الضرورة التي دفعته إلى ذلك، ولكي تتضح جوانب محاولاته التفصيلية نتأمل هذا المثال:

تَربعَّتِ القُفَّينِ في الشَّوْلِ ترتعي حدائقَ مَوليَّ الأَسرةِ أَغيدِ

في شرحه لهذا البيت تبرز جوانب لطيفة، منها وقوفه أمام الألفاظ الغريبة الخاصة بالبيئة كشفا عن معناها كشفا لغويا دقيقا يخدمه فيما بعد في أداء المعنى على أكمل وجه، فهو يسوق شرحه للألفاظ على هذا النظام:

التربع: رعي الربيع والإقامة بالمكان واتخاذه ربعا.

القف: ما غلظ من الأرض وارتفع ولم يبلغ أن يكون جبلا، والجمع قفاف.

الشول: النوق التي جفت وقلت ألبانها، الواحدة شائلة بالتاء لا غير. وأما الشول فجمع شائل من: شال البعير بذنبه إذا رفعه يشول شولا، ويقال: ناقة شائل وجمل شائل. والشول الارتفاع ويعدى بالباء، والإشالة الرفع.

الارتعاء: الرعي، إذا اقتصر على مفعول واحد عن الرعي.

الحدائق: جمع حديقة وهي كل روضة ارتفع أطرافها وانخفض وسطها، والحديقة البستان أيضا، سميت لإحداق الحائط بها، والإحداق: الإحاطة.

المولي: الذي أصابه الولي وهو المطر الثاني من أمطار السنة، سمي به لأنه يلي الأول، والأول: الوسمي، سمي به لأنه يسم الأرض بالنبات، يقال: ولي المكان يولى فهو مولى إذا أمطر الولي.

سر الوادي: وسرارته: خيره وأفضله كلأ، والجمع الأسرة والسرارة.

الأغيد: الناعم الخلق، وتأنيثه غيداء، والجمع الغِيد، ومصدره الغَيد [30].

فنحن نلاحظ في هذا البسط من شرح المفردات أنه أعطى كل كلمة حقها من الشرح بما يخدم دورها وهي في أغلبها ليست محل خلاف في المعنى العام ينعكس على فهم البيت، لكنها تحوي في داخلها صعوبة

خاصة آتية مـــن خصوصيتها في البيئة، فحاول أن يقدم إزاء كل لفظة ما يكشف معناها، لذلك شرح بعضها بإيجاز كما نلاحظ من شرحه للكلمات: «تريع - القف - الارتعاء - الأســرة - الأغيد»، وهذا المســتوى قد ترافقه أحيانــا بعض الإضافات وفق طبيعة كل لفظة، فنجده يحدد كلمة «التريع» في معناها العام بينما يقدم في شرحه لكلمة «القف» نوعين من المعلومات أولهما خاص بالمعنى الدقيق المحدد، والآخر يشير إلى جمعه كإفادة عابرة، ومثل هذا بيانه لكلمة «الارتعاء» التي حدد معناها حين تقتصر على مفعول واحد وقس على هذا بقية الكلمات.

أمــا المســتوى الآخر الذي حــاول فيه الزوزني الخــروج عن اقتصاده المألوف في شــرحه للمفردات فهو تلك الوقفة المبسوطة نسبيا التي حاول فيها إبراز مقدرته اللغوية، وليعطي هذه الألفاظ مدى متســعا لإحساســه أن فهــم البيت محتاج إليه، وهذا ما لمســناه في شــرحه للكلمات الثلاث «الشــول - الحدائق - المولى»، ولكل كلمــة من هذه الكلمات صفة محددة أراد إبرازها، فأولاها صفة محددة لها مسماها الخاص ولكنها قد تختلط بقرينتهــا الدالة على الارتفاع، فمع أن المادة واحدة فإن تحديد مســماها وضبطهــا يدفعان إلى فهمها في ضوء ما تؤديه من معنى في البيت، لذلك حــرص على إيراد الكلمتين مع التأكيــد على الكلمة المرادة في المعنى. أما كلمــة «الحدائق» فليس فيها ما يحتاج إلى بيان ســوى فهم أصلها اللغوي البعيد مع مكتسباته في المدينة كما لاحظها الزوزني.

ويلحق بهذا اســتطراده الآخر لشــرحه كلمة «الولــي» وهو ما حرص الشراح على إبرازه وتحديد مصدره.

وهذا الاستطراد والإســهاب في شرح الألفاظ ظل دائما يمثل المدخل الأول، فتعامله مع الألفاظ تعامل من يريد الوصول إلى فهم البيت والإحاطة بما يريد أن يقوله الشاعر، لذلك كان يحرص على هذا المدخل حرصا بينا مع المحافظة في أغلب الأحيان على الاختصار والتركيز.

ضمن هذا الخط، خط إيضاح الألفاظ وتداخل شــرحه لها بالمعنى، ما نلاحظــه مثلا في موقفه ليــس أمام اللفظة المفردة، لكــن تحليله للتركيب اللغــوي الذي يؤدي معنى معينا ومحددا داخل البيت، فهو هنا ليس شــرحا

للكلمة مفردة في ضوء الفهم اللغوي العام، ولكنه ذلك التداخل بين العام والشائع، مضافا إليه بعده الخاص داخل البيت، وليكن مثالنا هذا البيت لامرؤ القيس:

فقَلتُ له لمَّا تمطى بصُلْبِه   وأردفَ أعجازًا وناءَ بكَلكَلِ

فقد وقف أمام أهم ثلاثة مقاطع مثلت أساس الفهم اللغوي للبيت، لذلك فصلها ووضعها في إطارها السليم الذي يستطيع من خلاله أن يستوي لديه فهم النص: «يقول: فقلت لليل لما مد صلبه: يعني لما أفرد طوله، وأردف أعجازا، يعني ازدادت مآخيره امتدادا وتطاولا، «وناء بكلكل» يعني أبعد صدره، أي بعد العهد بأوله» [31].

في هذا التفسير يعطينا معنى استواء اللفظ في صيغة معينة، فالزوزني حريص كما سنلاحظ فيما بعد على أن يجسد المعنى الحرفي أولا لينفذ بعد ذلك إلى الشرح الدلالي، لكن مستويات الشرح عنده قد تتخذ ما هو أعمق من هذا في البحث عن دور اللفظ داخل البيت من الوجهة الفنية البحتة حين يؤدي اللفظ دورا متميزا وأساسيا، بحيث يستوي المعنى الكلي ضمن المدار الذي يدور فيه هذا اللفظ.

وهذا النوع يكثر عنده لأنه في تعامله مع الألفاظ يسعى دائبا إلى اعتصار فنيتها وحدها الشعري المتميز المكتسب من خلال التركيب العام للبيت، وخاصة إذا كان هذا اللفظ يحتمل عدة احتمالات تتحدد وفق طبيعة السياق العام، وهذا النوع كثير لأنه مرتبط بالفهم اللغوي العام، لذلك يحرص الزوزني على اللفظ ومتابعته وفق كل تفسير ويتابع الأقوال المختلفة حوله ويضع الخطوط الرئيسية لاستواء المعنى وفهم البيت فهما معقولا تبعا لاتجاهات هذه الآراء، وهذا ما نلاحظه في هذا البيت مثلا:

مُشَعْشَعةً كأنَّ الحصَّ فيها   إذا ما الماء خالطَها سَخِينا

في شرح هذا البيت دارت حوله مجموعة من الآراء متابعة للفظ «سخينا» وتتحصر في محورين، أولهما خاص بالرواية والآخر اختلاف حول نوعية اللفظ.

الرواية تتنازع بين روايتين، أولاهما المشـهورة وهي «سـخينا» بالسين والخاء، والأخرى «شـحينا» بالشـين والحاء، وهو يقـدم المعنى وفق هذه الرواية قائلا: «ويروى شـحينا بالشين المعجمة، أي إذا خالطه الماء مملوءة به.. يريد أنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء كثيرا تشبه هذا النور» [32].

أمـا الرواية الأولى فهي المعروفة والمثبتة في صدر الشـرح، وهي تدور فـي إطارين هما كونها فعـلا أو صفة فيقول: «اسـقينيها ممزوجة بالماء كأنها، من شـدة حمرتهـا بعد امتزاجها بالماء، ألقي فيهـا نور هذا النبت الأحمر، وإذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا، هذا إذا جعلنا «سـخين» فعـلا، وإذا جعلناها صفة كان المعنى: كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حارا، نور هذا النبت» [33].

فهو في هذا الفهم اللغوي شكل أساس المعنى المحوري الذي سيتحدث عنه، وكما لاحظنا فقد أحسن التعبير عنه إحسانا طيبا ولصيقا بالمعنى وباحتمـال اللغة المباشـرة مع طـراوة في العرض وحـرص على تقديم اتجاهـات القول. وهو لم يقف عند حدود فهم كل رواية على حدة فقط ولم يهتم بشـرح المفردات، بل تابع العلماء وأخذ عنهم اتجاه الكلمة ومن ثم الجملة، وهذا لا يمثل خروجا عن حدود الشـرح الفني ولكنه أساس من أسسه.

خطوة أخرى:

ولعـل هذه المرحلة تسـلمنا بدورها إلى خطـوة أخرى أكثر تطورا ودخـولا فـي الفهم الفني للغة حـين يبرز إحسـاس الزوزني الدقيق بصيغة ما تقدمها لفظة أو تركيب فيتابعهما جامعا الاحتمالات الممكنة للصفة أو الصورة الفنية التي أراد الشـاعر إشاعتها في البيت، ومثل هذا بيت طرفة:

نداماي بيض كالنجومِ وَقَيْنَةٌ   تَـروحُ علينا بـينَ بُـرْدٍ ومُجسَدِ

ففي مجمل شـرحه لهـذا البيـت أدى معناه بدقة ووقـف أمام كلمة محورية في الرسـم الفنـي الذي رسـمه أو أراده لأصحابه حين وصفهم بأنهم بيض، فنجد الشارح يتابع هذه الصفة بهذه الصورة الوافية والواعية لهدف الشاعر ولإمكانات اللفظ داخل البيت يقول:

1 - وصفهم بالبياض تلويحا إلى أنهم أحرار ولدوا حرائر ولم تعرف الإماء فيهم فتورثهم ألوانهم.
2 - أو وصفهم بالبياض لإشراق ألوانهم وتلألؤ غررهم في الأندية والمقامات ولم يلحقهم عار يعيرون به فتتغير ألوانهم لذلك.
3 - أو وصفهم بالبياض لنقائهم من العيوب، لأن البياض يكون نقيا من الدرن والوسخ.
4 - أو لاشتهارهم، لأن الفرس الأغر مشهور فيما بين الخيل [34].

وهذه الاتجاهات الأربعة كلها تبدأ من البياض بمعناه المادي لتصب في الدلالة المعنوية التي قصدها الشاعر، فالبياض هنا مقصود لما يوحيه في النفس من هذه المعاني التي جمع شملها الزوزني ووضعها أمام هذه الصفة المتميزة، فأي جهة من الجهات إنما هي تجسيد لهدف البيت ومحققة للصفة المرادة، لذلك نجده يختتم قوله بكلمة عامة جامعة قائلا: والمدح بالبياض في كلام العرب لا يخرج عن هذه الوجوه ليجعل بعد ذلك المعنى كله بإيجاز واختصار قائلا: ندامى أحرار كرام تتلألأ ألوانهم وتشرق وجوههم..».

إن هذا التعامل الخاص مع الألفاظ عند الزوزني يوضح لنا النظرة الفنية التي ينظر من خلالها مستخرجا اتجاه الصور الفنية، مجددا بدقة دور الكلمة للمتميز داخل البيت فيساعد القارئ على النفاذ إلى معناه بيسر واتساع في النظرة الفنية. وشرح المفردات عنده ليس شرحا لغويا منفصلا عن معناه الدقيق والمباشر داخل البيت، ولكنه جس للخيط الدقيق الواصل بين معناه العام ودوره الخاص، مع ملاحظة تلازم هذين وتداخلهما، فمعنى اللفظ الأصلي هو أساس الفهم ولكن إذا غلبت على بعض الشراح نزعة المتابعة والاستطراد فإن الزوزني حريص على الاختصار والتركيز ومس الجانب الذي يراه مهما لتوضيح مقصده داخل البيت فقط واتجاهه إلى الاستطراد لا يخرج عما عرضنا.

الحس الفني في شرح المعنى

يتبع بيان الألفاظ مدخل أولي للمعنى العام، وعندما نقول معنى عاما لا نعني تلك الصورة النثرية البسيطة التي تمثلت في صفة غالبة عند كل الشراح، ولكننا نقصد تلك اللمسات ذات الجانب الفني التي

تعبر تعبيرا جيدا عما يريد الشاعر قوله وإيصاله إلى الناس حين ينفذ الشارح في أحيان كثيرة إلى جوانب عميقة ضمن إطار الفهم العام الذي ييسره عصره، فنحن نجد في عبارته، مهما كانت مركزة، من المعلومات ما يجعلنا نصل إلى فهم البيت وصولا فنيا بحتا لا تنازعه أي أمور أخرى.

وفي تعبيره عن معنى البيت لا يقف موقفا سلبيا إزاء إيحاء المعنى فهو يحرص على رسم إطار خاص يبرز فيه معنى كلام الشاعر إبراز رجل فاهم لدقائقه. ولننظر إلى هذين البيتين لنرى كيفية تعبيره عنهما:

فَقضَوا مَنايا بَينهم ثمَّ أصدَروا إلى كلإٍ مستوبلٍ مُتَوَخَم

«يقول فأحكموا وتمموا منايا بينهم أي قتل كل واحد من الحيين صنفا من الآخر، فكأنهم تمموا منايا قتلاهم، ثم أصدروا إبلهم إلى كلأ وبيل وخيم، أي ثم أقلعوا عن القتل والقراع واشتغلوا بالاستعداد له ثانيا كما تصدر الإبل فترعى إلى أن تورد ثانيا، وجعل اعتزامهم على الحرب ثانية والاستعداد لها بمنزلة كلأ وبيل وخيم، وجعل استعدادهم للحرب أولا وخوضهم غمراتها وإقلاعهم عنها زمنا وخوضهم إياها ثانية بمنزلة رعي الإبل أولا وإيرادها وإصدارها ورعيها ثانيا، شبه تلك الحالة بهذه الحالة. ثم أضرب عن هذا الكلام وعاد إلى مدح الذين يعقلون القتلى ويدونها» (35).

في هذا البيت نلاحظ أنه قد التزم بمعنى البيت المباشر خصوصا الشطرة الأولى التي بسطها بسطا يحدد مدلولها، لينتقل إلى صورة الإبل التي أصدرت إلى كلأ وبيل وخيم. والتزامه بمعنى البيت الحرفي في أولى مراحل شرحه سنة سار عليها، فهو يقدم مدلول الألفاظ الحرفي ليتبعها مباشرة بالمدلول الأعمق معيدا تركيب المعنى على ضوء هذا الفهم الجديد، وهذا ما نلاحظه في قوله: «أي أقلعوا عن القتال.. إلخ». ففي هذا البيان، وإن لم يبتعد عن منطوق البيت ومعناه المباشر جسد كلماته المركزة محددا معناها وموضحا اعتمادا على فهمه للرعي والإصدار في صورتهما الحقيقية والرابط بينهما وبين ما أراد الشاعر أن ينقله من هذا التشبيه موضحا بأنه «شبه تلك الحالة بهذه الحالة».

وبيــت زهير هذا يحوي فكرة ورأيا محددا جســدته صورة معينة، أراد الشاعر من خلالها أن يوصل فكرة الاستبشاع لهذا الأمر، وهذه من لوازم طريقة زهير التي اصطبغ بها شــعره حيث الفكرة المســتترة، فهو وإن كان يقصد الجمال الفني فإنه يحرص على الوصول إلى الفكرة النهائية المشبعة بــرأي معين. لذلك كان الزوزني حريصا علــى الالتصاق بكلمات زهير مع التعبير عنها بما يتلاءم مع هذا الخط الخاص للشاعر.

أما البيت الآخر فهو بيت لبيد:

مشمولةٍ غُلِثَــتْ بنابِت عَرفـج كـدُخـانِ نـارٍ سـاطـعٍ أَسْنَـامُـهـا

يقــول: هذه النار قد أصابتها الشــمال وقد خلطــت بالحطب اليابس والرطب الغض كدخان قد ارتفع أعاليها، وسنام الشيء أعلاه، شبه الغبار الســاطع من قوائم العير والأتان بنار أوقدت بحطب يابس تسرع فيه النار وحطب غض، وجعلها كذلك ليكون دخانها أكثف فيشبه الغبار الكثيف، ثم جعل هذا الدخان الذي شــبه الغبار به كدخان نار قد ســطع أعاليها في الاضطرام والالتهاب ليكون دخانه أكثر، وجر «مشمولة» لأنها صفة لمشعلة. وقوله: كدخان نار ســاطع أسنامها، صفة أيضا، إلا أنه كرر قوله «كدخان» لتفخيم وتعظيم القصة من مثل:

أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه وهو أكثر من أن يحصى(36)

فهذا البيت عبارة عن صورة معبرة ســبقتها بعض أطرافها في الأبيات الســابقة حيث صور مرور الفصول على هذا العير وهذه الأتان وتعرضهما لريح الصيف الحارة ثم يجسد اندفاعهما إلى الماء في البيت السابق لهذا البيت حيث قال:

فتنازعا سَبطاً يَطيرُ ظِلالُـهُ كدُخان مُشْعَلةٍ يُشَبّ ضِرامُها

وقد عبر الزوزني عن معنى هذا البيت الأخير قائلا:

فتجاذبــت العير والأتان فــي عدوهما نحو الماء غبــارا ممتدا طويلا كدخان نار موقدة تشــعل النــار في دقائق حطبها، وتلخيــص المعنى: أنه جعل الغبار الســاطع بينهما بعدوهما كثوب يتجاذبانه، ثم شبهه في كثافته وظلمته بدخان نار موقدة (37).

من هذا الشرح ينفذ إلى البيت المقصود الذي قدمنا شرحه والذي هو صورة تــؤدي معنى مختلفا في اتجاه التعبير عن بيت زهير صاحب الرأي والحكمــة، لذلك يحاول تجسـيدها ويعبر عنها تعبيــرا يصل إلى القارئ وصـول متذوق وإلمام متمكن وحاذق النظر. لذلك نلاحظ أنه بعد أن يفرغ من شــرح الألفاظ وبيــان معناها بإيجاز وينفذ إلى هــذه الصورة محاولا الوصول إلى أدق جزئياتها ما أمكنه، يدير اتجاه الشــرح ضمن مسـتويات عدة، فيبدأ أولا بشــرح معنى البيت قائلا: «هذه النار... وســنام كل شيء أعلاه».

فهذا المستوى من شرح المعنى إنما هو محاولة للخروج من إسار ألفاظ لبيــد، فنحن نعــرف أن ألفاظه تمتاز بوعورة آتية مــن خصوصية التعبير عنده، لذلك حاول الشــارح أن يعيد كلام لبيد بأســلوب مبسط، ولنقل إنه صاغــه بلغة تتلاءم مع مفردات القارئين في عصره، فحين نتفحص كيفية تعبيره نجده قد عبر عن كل لفظ بما يلائمه على هذه الصورة:

«مشــمولة = هــذه النار قد أصابتها الشــمال، غلثــت بنابت عرفج = خلطت بالحطب اليابس والرطب، كدخان نار ساطع أسنامها = كدخان نار قد ارتفع أعاليها، وسنام كل شيء أعلاه».

فهذا تعبير عن الكلمات بلغة مناســبة ومؤديــة للمعنى ليتجاوزها إلى ما هو أقرب إلى الفنية فيقف وقفة من يملك نظرا جيدا في فهم الشــعر، ملتفتــا إلــى أدق ما في البيت حين قال: «شــبه الغبار الســاطع... الغبار الكثيــف»، فهو هنا قد حدد أول مراحل التشــبيه في المعنى مع وضع اليد على العلة المســتترة التي قصدها الشاعر ومنها ينطلق إلى تكملة الصورة المركبة والمتجانسة في البيت، ثم جعل هذا الدخان... ليكون دخانه أكثر.

فقد أحاط شــرحه هذا بالصورة وبــيَّن دقائقها وتابعها متابعة واعية، ولعل أبرز مراحل وعيه هذه اللفتة التي ختم بها قوله والتي كشفت انتباهه لما في الصورة من تكرار تمثل في أن الشــاعر جعل الغبار كالنار المشــتعلة التي هبت عليها ريح الشــمال وخلطت بنابت عرفج، وشــبه النار المشتعلة بدخان نار ســاطع أســنامها، وهذه أيضا صفة من جنس الصفة السابقة، لذلك قال: «وجر مشمولة لأنها صفة.. وهو أكثر من أن يحصى».

فهذه السطور استطاعت أن تجسد الصورة وكشفت عن شارح مالك لناصية المتابعة الدقيقة للصورة الفنية التي جسد فيها لبيد انطلاق الأتان والعير واعتكار الغبار تحتها وسطوع ذراته، مما يمكننا من أن نقول إن الزوزني وإن انطلق من قاعدة لغوية مشتركة مع الشراح فإن اهتمامه بما في البيت من طبيعة خاصة جعله يوظف فهمه اللغوي باقتدار للوصول بنا إلى مشارف طبيعة فهم الشعر.

ويبدي الزوزني اهتماما واضحا بالآراء المختلفة والاجتهادات المتعلقة بالقصائد التي يشرحها فيعرضها معتصرا أهم ما فيها من دون أن يحرص على ذكر الأسماء، فيركز هذه الآراء في سطور وكلمات قليلة ثم يختار ويرجح ويضيف ما يراه متلائما مع فهمه للبيت، ففي شرحه لبيت امرئ القيس:

أغَرَّكِ مني أن حبَّك قَاتِلي وأنكِ مهما تأمري القلبَ يَفْعَلِ

نجده يقدم لنا مستويات واتجاهات عدة، فمع استعانته المعقولة بما ورد في مصادره نجده يبدأ بشرح المعنى شرحا حرفيا لا محل فيه للاختلاف مع بيان الاستفهام البلاغي والاستشهاد، يقول: «يقول قد غرك مني كون حبك قاتلي وكون قلبي منقادا لك بحيث مهما أمرته بشيء فعله..» (38).

فقد حدد الاتجاه العام للمعنى بأقل قدر من الكلمات ليعود إليه في صورة أكثر تفصيلا وابتعادا عن الحرفية المباشرة فيقول: «وقيل بل معناه: قد غرك مني أنك علمت أن حبك مذلي. القتل: التذليل، وأنك تملكين فؤادك فمهما أمرت قلبك بشيء أسرع إلى مرادك فتحسبين أني أملك عنان قلبي كما ملكت عنان قلبك حتى يسهل علي فراقك كما سهل عليك فراقي».

فهذه النظرة بعدت عن الحرفية في المعنى إلى الإمكانات القائمة لتوجيه الفهم، فقد اتجه شرحه لكلمة «قاتلي» لا على حقيقة معناها بل على دلالته عند العاشقين وهو التذليل، فعلى ضوء هذا الفهم لهذه اللفظة من جهة وللإمكان القائم في البيت نفسه أدار المعنى على ركيزتين هما:

1 - حبك مذل لي.
2 - أنت تملكين فؤادك.

وهــذه المقارنة بين وضعين من أوضاع القلب أسـلمته إلى تلمس نقطة دقيقة هي الفرق بين قلبين، قلبه المأمور وتوهمها أنه يملك قلبه قياسا على أنهـا مالكة لقلبها، وهذا يوصل إلى نتيجة أخرى هي توهمها بأنه يسـهل عليه فراقها كما سهل عندها فراقه.

وهناك رأي آخر لصيق بالمعنـى الظاهر بينه قائلا: «ومن الناس من حمله على مقتضى الظاهر وقال: معنى البيت: أتوهمت وحسبت أن حبـك يقتلني وأنك مهما أمرت قلبي بشـيء فعله؟ قال: يريد أن الأمـر ليس على ما خيل إليـك، فإني مالك زمـام قلبي»، ولا يقف الزوزني هنـا موقف من يعرض الرأي فقط ولكنه يدلي برأيه قائلا: «والوجـه الأمثل هو الوجـه الأول، وهذا القول أرذل الأقوال لأن مثل هذا الكلام لا يستحسن في النسيب بالحبيب»، فهو أولا يرجح الرأي الأول لأنه المنسجم مع نوعية العلاقة بين محب ومحبوبته، لذلك جاء تعليقه العام على تنافي هذا القول مع أسـلوب النسيب عند القدماء، حيث المحب يكون خاضعا لحبيبته مذلا نفسـه لها وهذا ما يوحي به الشرح الأول.

وتعليقـه هذا يرد على ما ذكره النقاد العرب وعابوه على امرئ القيس حين قالوا: «إذا كان هذا لا يغر فما الذي يغر»، ففي تفسـيره الأول يزيل عـن بيت امرئ القيس هذا الفهم. لذلـك رجحه لأنه رأى فيه تعبيرا أكثر نفاذا في الغزل.

لكن هذا الفهم قد يصطـدم مع معنى البيت التالي الذي يدعوها فيه إلى أن تسل ثيابه من ثيابها إذا ساءتها منه خليقة، يقول:

وان تكُ قد ساءتكِ منيَّ خَليقةٌ فسلّي ثيابي مِنْ ثيابِكِ تَنْسُل

لكن الشـارح الواعي المركز على اتجاهات المعنـى ودلالتها قادر على أن يجعل الرأي الذي سـاقه مطردا ومنسجما مع سياق الأبيات المتتاليـة، لذلك قـدم معنى هذا البيـت الأخير قائـلا: «وقال: إن ساءك شـيء من أخلاقي فاستخرجي ثيابي من ثيابك أي ففارقيني

وصارميني كما تحبين، فإني لا أوثر إلا ما آثرت، ولا أختار إلا ما اخترت لانقيادي لك وميلي إليك، فإذا آثرت فراقي آثرته، وإن كان سبب هلاكي وجالب موتي» [39].

شرح هذا البيت يؤكد اطراد التفسير الذي قدمه على الآخر وإن كان هذا الاتجاه في التفسير يبتعد قليلا عن المعنى اللصيق للبيت ولكنه يقترب من المفهوم الشائع الذي يظهر العاشق مستسلما لحبيبه خاضعا له مستجيبا لرغباته.

وقد قدم لنا مستويين من الفهم متقاربين في مؤداهما العام ولكنهما يختلفان في بعض التفاصيل الدقيقة، وهذا ما نلاحظه مثلا في بيت عنترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أمْ هَلْ عَرفْتَ الدارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[40]

ففي شرحه لهذا البيت نظر إلى الاستفهام الذي صدر به وبالتالي تصدر القصيدة كلها، ومس جزءا أصيلا من تركيب القصيدة العربية الجاهلية، فالأثر الذي تركه هذا الاستفهام ينعكس على فهم البيت، لذلك يقدم الشرح المتلائم مع مستويات المعاني المختلفة، يقول: «هل تركت الشعراء موضعا مسترقعا إلا وقد رقعوه وأصلحوه؟ وهذا استفهام يتضمن معنى الإنكار، أي لم يترك الشعراء شيئا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه»، فهذا هو اتجاه المعنى العام فقد وجهه النظر إلى طبيعة هذا الاستفهام البلاغي.

وينفذ بعد ذلك إلى التعبير عن المعنى الذي يقدمه تبعا للتفسير اللغوي لكلمة «متردم» الذي قدمه في صدر كلامه وهو الواهي، والتردم أيضا مثل الترنم وهو ترجيع الصوت مع تحزن، فهذان التفسيران اللغويان مقبولان ومنسجمان مع طبيعة البيت، لذلك قال مراعيا هذين الوجهين: «وتحرير المعنى: لم يترك الأول للآخر شيئا، أي سبقني من الشعراء قوم لم يتركوا لي مسترقعا أرقعه ومستصلحا أصلحه. وإن حملته على الوجه الثاني كان المعنى: إنهم لم يتركوا شيئا إلا ورجعوا نغماتهم بإنشاء الشعر وإنشاده في وصفه ورصفه...».

إن هذين المثالين قدما لنا الكيفية التي كان الزوزني يشـــرح بها أبيات القصيدة مستحضرا أهم ما قيل ومقدما الاحتمالات الممكنة معتمدا علـــى الفـــهم المنفتح لدور الكلمـــات والتراكيب في الموقف العام للقصيدة.

وهـــذا لا يعني أن الزوزني حريص على حشـــد كل الآراء والاجتهادات المختلفة، فمن ســـمات شـــرحه المتميزة قدرته على التركيز في أداء المعنى ســـواء في إطالته الاضطرارية التي تدفعـــه إليها حاجة البيت أو محاولته الجيدة في التعبير عن بعض الأبيات بتركيز واضح، مع إيصال جانب مهم أراد إبرازه والإشارة إليه، فيقدمه في أقل الكلمات وأكثرها نفاذا إلى المراد منه، فيقول مثلا موضحا بيت لبيد:

أَسْهَلتُ وانتصَبَت كجِذع منيفةٍ جَـرْداءَ يحصَرُ دُونَها جُرّامُها

وانتصبـــت الفرس أي رفعت عنقها، كجذع نخلة طويلة عالية تضيق صدور الذين يريدون قطع حملها لعجزهم وضعفهم عن ارتقائها، شبه عنقهـــا في الطـــول بمثل هذه النخلة، وقوله: كجـــذع منيفة، أي كجذع نخلة منيفة (41).

ففي هذا الشـــرح الوجيز الذي تقيد فيه بمفهوم الألفاظ المباشر عبر عن معنى البيت تعبيرا بســـيطا بأســـلوب فني مقبول وقـــد ربطه بالبيت السابق له حتى تتم حلقات الفهم مع المحافظة على التركيز.

ويمكن أن نضع بجانب هذا البيت بيتا آخر للبيد أيضا ســـلك الزوزني الســـلوك نفسه في شـــرحه مع المحافظة على التركيز، فيقول تعليقا على هذا البيت:

أوَ ملمعٌ وَسَقَتْ لأَحقَبَ لاحَهُ طَرْدُ الفُحولِ وضَربُهَا وكِدامُها

يقـــول: إنها صهباء أو أتان أشـــرفت أطباؤها باللـــبن وقد حملت تولبا لفحـــل أحقب قد غير وهزل وذلـــك الفحل طرده الفحـــول وضربه إياها وعضه أو طرد الفحول وضربها وعضها إياه.

وتلخيص المعنى: أنها تشـــبه في شدة ســـيرها هذه السحابة أو هذه الأتان التي حملت تولبا لمثل هذا الفحل الشديد الغيرة عليها فهو يسوقها سوقا عنيفا (42).

فقد جمع هنا العناصر المكونة للشـــرح مع مراعـــاة اختلاف الألفاظ، وحافظ كذلك على ارتباط البيت بما سبقه، خصوصا أن الشاعر قد انتقل من وصف ناقته بالصهباء إلى وصفها بالأتان ذات الفحل الشـــديد الغيرة. فتركيزه وإيجازه لم يســـقط شيئا من أساسيات فهم البيت بل إنه قربه في صياغة محددة ودقيقة.

ومثـــل هذا النوع من الشـــرح المركز نماذج كثيرة غنية بما تشـــيعه من إشـــباع معقول لاتجاه البيـــت ومعناه، بل إنه يلتمـــس أدق الأجزاء ويحدد إطار الصورة المرسومة في البيت مع ما قد يكون فيها من دقة وغرابة كما نلاحظ في شرحه لبيت طرفة الذي يصف فيه آثار النسع على الناقة:

كأنَّ عُلوبَ النسعِ في دَاياتِها   مَـوارِدَ من خَلْقاءَ في ظَهرِ قَرْدَدِ

يقـــول: إن آثار النســـع في ظهر هذه الناقة وجنبيهـــا نقر فيها ماء من صخرة ملساء في أرض غليظة متعادية فيها وهاد ونجاد. شبه آثار النسع أو الأنساع بالنقر التي فيها الماء في بياضها، وجعل جنبها صلبا كالصخرة الملساء، وجعل خلقها في الشدة والصلابة كالأرض الغليظة [43].

ففي هذا الشـــرح المركز تعبير عن المعنى في صورته المباشرة من دون توجيه خارجي بعيد، ثم يعقب هذا كله بالدخول في مجال التعبير البلاغي إذ يجس التشبيه مبينا من خلاله الزاوية الخاصة التي قصدها الشاعر.

ونلاحظ كذلك في هذه الأمثلة كلها ســـهولة التعبير وبســـاطته ونفاذه إلى المراد في يســـر مع المحافظة على الترتيب في حلقات المعنى المترابطة إذ تســـلمنا كل جزئية إلى ما يليها وهكذا، فلا يجد القارئ أي مشـــقة في المتابعة والفهم.

ونلمس كذلك وعيه بالجوانب النفســـية فيشـــير إليها إشـــارة المدرك لهـــا المحيط بجوانبها، وهذه ثلاثـــة أمثلة توضح هذا الإدراك: المثال الأول وشرحه لبيت امرئ القيس:

ألا أيُها اللَّيلُ الطَّويل ألاَ انْجَلِ   بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثَلِ

يقول: لما ضجر بتطاول ليله خاطبه وســـأله الانكشاف، وخطابه ما لا يعقل يدل على فرط الوله وشـــدة التحير، إنما يستحسن هذا الضرب في النسيب والمراثي وما يوجب حزنا وكآبة ووجدا وصبابة [44].

المثال الثاني شرحه لبيت زهير:

تَبصَر خليلي هَل تَرى من ظعائنٍ   تَحملنَ بالعَلياءِ منْ فوقِ جُرْثُم

«يقــول: فقلت لخليلي: انظر يا خليلـــي هل ترى في الأرض العالية من فوق هذا الماء نســـاء في هوادج على إبل؟ يريد أن الوجد برح به والصبابة ألحّت عليه حتى ظن المحال لفرط ولهه، لأن كونهن بحيث يراهن خليله بعد مضي عشرين سنة محال» [45].

والمثال الثالث بيت لبيد:

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالُنا   صُمّا خوالـدَ ما يبين كلامُها

«فوقفت أســـأل الطلول عن قطانها وســكانها، ثم قال: وكيف ســؤالنا حجـــارة صلابا بواقي لا يظهر كلامها، أي كيف يجدي هذا الســؤال على صاحبه وكيف ينتفع به السائل؟ لوح إلى أن الداعي إلى هذا السؤال فرط الكلف والشغف وغاية الوله، وهذا مستحب في النسيب والمرثية لأن الهوى والمصيبة يدلهان صاحبهما» [46].

فهذه اللمســات، وإن حكمتهــا النظرة المنطقية للمعنــى، فإنها حوت نظرات نفسية دقيقة جديرة بالاعتبار.

وقــد تبع هذا إلغاء كل ما لا يتعلق بالبيت تعلقا مباشــرا، ويتضح هذا من إلغائه الشــواهد الكثيرة والأسماء والإشـــارات العامة إلا القليل المعبر المفيد مكتفيا بالمثال الواحد أو المقولة الواحدة. فهو في استشهاده بالقرآن الكريم والحديث والشــعر لا تختلف دوافعه عن دوافع غيره من الشـــراح، ولذلك اتفق معهم في كثير من الشــواهد وإن تفــرد بعدد منها، لكن هذا الاتفاق أو الاختلاف لا يغير حقيقة واضحة في شــرحه وهي حرصه على أن يكون دور الشاهد واضحا، مكتفيا بالقليل الذي يعبر عن وجهة نظره.

وفي اســتخدامه الشــواهد المختلفة يدور في المحاور المعروفة نفسها التي تتناول الفهم اللغوي من شرح مفردات أو تراكيب لغوية، وهذه الأمثلة التي تقدم لنا كيفية اســتفادته من الشواهد وهي شواهد تفرد شرحه بها،

أ - شـــاهد على شــرح معنى لفظ: مثلا كلمة القاتل بمعنى المذل «والقتل التذليل، ومنه قولهم: قتلت الشــراب إذا قللت غرب ســورته بالمزاج» ومنه قول الأخطل:

فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها   وحَبَّ بها مقتولةً حين تقتلُ

وقال حسان:

إنَّ التي ناولَتني فرددتُها   قُتِلتْ- قُتِلْتَ- فهاتها لم تُقتلِ[47]

ب - شاهد على الحذف مع دلالة الكلام عليه:

يقول: وقوله: «بأمراس كتان» يعني ربطت، فحذف الفعل لدلالة الكلام على حذفه، ومنه قول الشاعر:

مسنا من الآباء شيئاً فكلنا   إلى حسَبٍ في قومه غير واضع

يعني: فكلنا يعتزى أو ينتمي أو ينتسب إلى حسب، فحذف الفعل لدلالة باقي الكلام عليه [48].

جـ - شاهد على مجيء هل بمعنى قد:

«هل أقسمتم أي قد أقسمتم»، ومنه قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان» [49]. أي قد أتى، وأنشد سيبويه:

سائل فوارس يربوع بشدتنا   أهَلْ رأونا بسفح القُفّ ذى الأكَم

أي قد رأونا، لأن حرف الاستفهام لا يلحق حرف الاستفهام [50].

ومثل هذا مجيء أم بمعنى بل:

في معرض شرحه لبيت عنترة:

هَلْ غادَرَ الشُّعراء مِنْ مُتردَّم   أمْ هَلْ عَرفْتَ الدَّارَ بَعْدَ توهم

وأم هاهنا معناه: بل أعرفت، وقد تكون «أم» بمعنى «بل» مع همزة الاستفهام كما قال الأخطل:

كَذَبتْك عينُك أم رأيت بواسط   غلسَ الظلام من الرَّبابِ خيالا

أي بل رأيت، ويجوز أن تكون «هل» هاهنا بمعنى قد كقوله عز وجل: «هل أتى على الإنسان» [51].

د - وقد يقارن معنى البيت بغيره من الأبيات لشاعر من عصر متأخر على نحو ما نرى في شرحه لبيت زهير:

وإنَّ سفاهَ الشَّيخ لاحِلْمَ بعدَهُ   وإنَّ الفَتَى بعد السَّفاهة يحلُمِ

إذ يقول: ومثله قول صالح بن عبدالقدوس:

والشيخُ لا يتركُ اخلاقَه حتى يوارى في ثرى رمسه[52]

هـ - استشهاد على ضرورة: ومثاله بيت زهير حين سكن كلمة العوالي في قوله:

وَمَن يعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنَّه يُطيعُ العوالي رُكِّبتْ كلَّ لهْذمِ

يقول: يطيع العوالي بفتح الياء، لكنه سكن الياء لإقامة الوزن وحمل النصب على الرفع والجر لأن هذه الياء مسكنة فيهما، ومثله قول الراجز:

كأنَّ (ايديهنّ) بالقاع القَرِق أيدي جوارٍ يتعاطين الوَرِق[53]

وهذه الملاحظة واردة عند ابن الأنباري كما بينا من قبل ولكن الزوزني أضاف من عنده هذا الشاهد.

وهناك نوع آخر من الشواهد أخذها من الشراح السابقين، مثلا جاء في سياق شرحه لقول عنترة:

يَنباعُ مِنْ ذِفرَى غضوبٍ جَسْرةٍ زيَّافةٍ مثلِ الفَنيقِ المكدَّمِ

أراد «ينبع» فأشبع الفتحة لإقامة الوزن فتولدت من إشباعها ألف، ومثله قول إبراهيم بن هرمة: «من حوثما سلكوا أدنو فانظور» [54].

وفي هذه المحاور يدور استشهاد بالقرآن الكريم، فهو يشير مثلا إلى خروج لفظ الحرث عن معناه اللغوي وهو إصلاح الأرض وإلقاء البذور فيها واستعارته للسعي والكسب مثلما جاء في بيت امرئ القيس:

كِلانَا إذا ما نالَ شيئاً أفاتهُ ومَنْ يحترِث حرثِي وحرْثَكَ يهْزِلِ

ويستعين على هذا بقوله تعالى: «من كان يريد حرث الآخرة» [55]، حيث خرج اللفظ عن حده اللغوي المادي إلى المعنوي.

ومثل هذا ما نراه في بيت عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهلن أحَدٌ عَلينا فَنجْهلَ فوقَ جهْلِ الجَاهلينا

فيتحدث عن تسمية الجهل جهلا أنه «لازدواج الكلام وحسن تجانس اللفظ، كما قال الله تعالى: «الله يستهزئ بهم» [56] وقال الله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» [57]، «ومكروا ومكر الله» [58] وقال جل وعلا: «يخادعون الله وهو خادعهم» [59] سمى جزاء الاستهزاء والسيئة والمكر

والخداع استهزاء وسيئة ومكرا وخداعا لما ذكرنا [60]. فاستشهاداته تدور في محاور فتح آفاق التعبير ليخرج من محدودية وإشارية اللغة إلى بعدها الفني التعبيري من خلال استدعاء النصوص العالية، وكثير منها كان يدور في الكتب السابقة أو المعاصرة له».

ويحسن هنا أن نشير إلى أن الشارح كان يتابع تطورات القصيدة الداخلية واعيا لتطور المعنى وراصدا حركته بحيث يلم الأطراف التي تبدو متناثرة، حتى يبين التطور الحادث في القصيدة ويحدد نظامها العام، وتستطيع أن ترى مثلا لذلك في شرحه لبيت امرئ القيس:

وليلٍ كَموْجِ البَحرِ أرْخى سُدُولَهُ   عليَّ بأنواعِ الهُمُوم لَيبتلي

فيقول بعد أن شرح هذا البيت: «لما أمعن في النسيب في أول القصيدة التي هنا انتقل منه إلى التمدح بالصبر والجلد» [61].

وهذه الإشارة البسيطة المنبهة إلى حركة التطور في القصيدة قد تأخذ حيزا أكبر حين يجد أن هناك ضرورة لبيان الخطوط الرئيسية التي تسير عليها القصيدة وهذا ما نلاحظه مثلا في ثنايا شرحه لبيت امرئ القيس أيضا.

وَقدْ اغتدى والطَّيرُ في وكُناتها   بِمُنجَرِدٍ قيْدِ الأوابدِ هَيكلِ

فبعد أن تابع أجزاء البيت بدقة وأعطاه حقه من الشرح ربطه بحلقات القصيدة المتتالية وركز مسارها الرئيسي: يقول: «وتحرير المعنى أنه تمدح بمعاناة دجى الليل وأهواله ثم تمدح بتحمل حقوق العفاة والأضياف والزوار، ثم تمدح بطي الفيافي والأودية ثم أنشأ الآن يتمدح في الفروسية» [62].

الملاحظات البلاغية

حرص الزوزني على إكساب شرحه الصبغة الفنية، وقد عني عناية خاصة بهذا الجانب وهذا ما يمكن لمسه في مواقع كثيرة من شرحه، وقد حاول جاهدا استقصاء جوانبها المختلفة حتى يعطيها حقها من البيان ليتضح مداها المتميز في البيت، حتى أنه أحيانا يقصر شرحه أو أكثره على بيان صفة معينة مثلت محورا أساسيا في البيت كما نلاحظ في وقفته المطولة أمام قول امرئ القيس.

كَبِكْرِ المُقاناةِ البَيَاضِ بصفْرةٍ غَذَاها نميرُ الماءِ غيرُ المحلَّل

فيقول مجملا آراء الأئمة من قبله: ثم إن للأئمة في تفسير البيت ثلاثة أقوال:

إن المعنى: كبكر البيض الذي قوني بياضها بصفرة، يعني بيض النعام وهو بيض تخالط بياضه صفرة يسيرة، شبه لون العشيقة بلون بيض النعام في أن في كل منهما بياضا خالطته صفرة، ثم رجع إلى صفاتها فقال: غذاها ماء نمير عذب لم يكثر حلول الناس عليه فيكدره ذلك، يريد أنه عذب صاف، وإنما شرط هذا لأن الماء من أكثر الأشياء تأثيرا في الغذاء لفرط الحاجة إليه، إذا عذب وصفا حسن موقعه في غذاء شاربه. وتلخيص المعنى على هذا القول أنها بيضاء يشوب بياضها صفرة، وقد غذاها ماء نمير عذب صاف، والبياض الذي شابته صفرة أحسن ألوان النساء عند العرب.

والثاني: إن المعنى كبكر الصدفة التي خولط بياضها بصفرة، وأراد ببكرها درتها التي لم ير مثلها، ثم قال: قد غذا هذه الدرة ماء نمير، وهي غير محللة لمن رامها لأنها في قعر البحر لا تصل إليها الأيدي. وتلخيص المعنى على هذا القول أنه شبهها في صفاء اللون ونقائه بدرة فريدة تضمنتها صدفة بيضاء شابت بياضها صفرة، وكذلك لون الصدفة، ثم ذكر أن الدرة التي أشبهتها حصلت في ماء نمير لا تصل إليها أيدي طلابها، وإنما شرط النمير، والدر لا يكون إلا في الماء الملح، لأن الملح له بمنزلة العذب لنا إذ صار سبب نمائه كما صار العذب سبب نمائنا.

والثالث أنه أراد: كبكر البردي التي شاب بياضها صفرة، وقد غذا البردي ماء نمير لكم يكثر حلول الناس عليه وشرط ذلك ليسلم الماء من الكدر، وإذا كان كذلك لم يغير لون البردي، والتشبيه من حيث إن بياض العشيقة خالطته صفرة كما خالطت بياض البردي [63]. فقد تحكمت هذه الصورة المتميزة في اتجاه فهم البيت الذي أفرد له جل شرحه، فهذا التشبيه هو المحور الذي دار حوله المعنى، لذلك يحاول جاهدا أن يوضح

جوانبه وأن يربطها بالاحتمالات الممكنة التي تجسد ما أراد الشاعر أن يقوله فيها، وبالتالي أعطى كل اتجاه في الفهم حقه بحيث استوت الصورة المرادة بأحسن وجه.

وقد يقف أحيانا أمام لمسة رقيقة ودقيقة أشاعها الشاعر في بيت من أبياته فيحاول أن يتابعها ما أمكنه ذلك كما في بيت لبيد:

وتُضيء في وجهِ الظَّلامِ مُنيرةً   كَجُمانةِ البَحْرِي سُلَّ نظامُها

«يقول وتضيء هذه البقرة في أول ظلام الليل كدرة الصدف البحري أو الرجل البحري حيث سل النظام منها، شبه البقرة في تلألؤ لونها بالدرة، وإنما خص ما يسل نظامها إشارة إلى أنها تعدو ولا تستقر كما تتحرك وتتنقل الدرة التي سل نظامها، وإنما شبهها بها لأنها بيضاء متلألئة ما خلا أكارعها ووجهها» [64].

والزوزني حريص أيضا على متابعة الأسلوب البلاغي العام فيستخدم ما اصطلح عليه النقاد والشراح من حديث عن فنون البلاغة داخل هذه القصائد فنجده يكثر من الإشارة إلى التشبيه والاستعارة على وجه أخص مع مس بسيط جدا لبقية الفنون الأخرى [65].

وفي حديثه عن التشبيهات والاستعارات يبرز اهتمامه الخاص بهما، فهو لا يكتفي بالبيان السريع العام كما يحدث عند الشراح اللغويين ولكنه يحاول جاهدا أن يعبر عن هذه الفنون تعبيرا ملما ومبينا أجزاءها واتجاه المعنى فيها بإيجاز، فيقدم ما اشتهر من فنون بلاغية في المعلقات، فنلاحظ مثلا إشارته إلى التشبيهات الأربعة في بيت امرئ القيس:

له أيطلاَ ظبْيٍ وساقا نَعامةٍ   وإرخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تتفُلِ

لكنه في تعرضه لهذا البيت يحاول الخروج عن عباراتهم المقتضبة فيحدد كل جانب بما يشاكله فيقول: «شبه خاصرتي هذا الفرس بخاصرتي الظبي في الضمر، وشبه ساقيه بساقي النعامة في الانتصاب والطول، وعدوه بإرخاء الذئب، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب، فجمع أربعة تشبيهات في هذا البيت» [66].

ومن الأمثلة القريبة من هذا إشارته إلى التشبيه في بيت طرفة:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن   مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

«يقول: وفي الحي حبيب يشـبه ظبيا أحوى في كحل العينين وسمرة الشـفتين فـي حال نفض الظبـي ثمر الآراك لأنه يمـد عنقه في تلك الحال، ثم صرح بأنه يريد إنسـانا فقال: قد لبس عقدين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من الزبرجد.. شـبهه بالظبي في ثلاثة أشـياء: في كحل العينين، وحوة الشـفتين، وحسن الجيد، ثم أخبر أنه متحل بعقدين من لؤلؤ وزبرجد» (67).

وهذا التفصيل الواضح المبسط تبرز أهم ملامحه حينما يسوقه ضمن إجماله العام لمعنى البيت الذي يقوم على ما فيه من تشبيهات معبرة تشير إلى معنى ضمن السـياق، فيجس تشـبيهات الشاعر ويحاول أن يصل إلى مستوياتها المختلفة، فمثلا في شرحه لبيت امرئ القيس:

فأدبرنَ كالجزْعِ المفصلِ بَيْنهُ بجيدِ معمٍ في العشيرة مُخْوَلِ

«يقـول: فأدبرت النعاج كالخـرز اليماني الذي فصـل بينه بغيره من الجواهـر في عنق صبي كرم أعمامه وأخواله، شـبه بقر الوحش بالخرز اليماني لأنه يسـود طرفه وكله أبيض، وكذلك بقر الوحش تسود أكراعها وخدودها وجميعها أبيض، وشـرط كونه فـي جيد معم مخول لأن جواهر قلادة مثل هذا الظبي أعظم من جواهر قلادة غيره، وشرط كونه مفصلا لتفرقهم عند رؤيته (68).

ففي هذا الشـرح حـاول بعد أن أجمـل المعنى العـام أن يتابع أجزاء التشـبيه مع بيان سبب اختيار كل زاوية من زواياه، فاختيار الخرز اليماني لأنه جمع السـواد والبياض فطرفه أسـود وجميعه أبيـض والبقر كذلك، فهو هنا معني ببيان التناسـب والتقابل بين المشـبه والمشبه به، ويتابع هذا التفصيل مسـلطا شروط الاحتراز التي وضعها الشاعر وما تعنيه، فشرط المعم المخول ينعكس على نوعية القلادة، وشـرط كونه مفصلا لأن المشبه، وهو البقر، متفرق وهكذا.

فهـذا البـيان والاسـتطراد وراءه شـارح لا يكتفي بالإشـارة العامة كما فعل الشـرّاح من قبله فقد حـرص على الوقوف أمام هذه الجوانب الفنية المختلفة وفصلها تفصيل من يعرف أثرها في اتجاه المعنى.

وهذه المحاولة في الإلمام بالمنطق الداخلي لسير التشبيه عند الشاعر أو السبب الكامن وراء اختيار هذه الزاوية دون تلك نجدها منبثة في شرحه تطول وتقصر، ولعله كان يقف عند البوابة الفاصلة بين الفهم الفني والغوص وراء الدقائق والتقسيمات المنطقية التي سادت عند البلاغيين، وهو أقرب إلى الأول مع وجود بوادر الصبغة العقلية البحتة التي انتظمت البلاغيين، فمثلا نراه في بيت لطرفة يتابع ا لخط الذي وضح في البيت السابق وذلك حينما راح يبين التشبيه فيه:

وتَبْسمُ عنْ ألمى كأنَّ مُنَوَّرا تَخلَّلَ حُرَّ الرمْلِ دِعصٌ له نَدِ

«يقول: وتبسم الحبيبة عن ثغر ألمى الشفتين كأنه أقحوان خرج نوره في دعص ند، يكون ذلك الدعص فيما بين رمل خالص لا يخالطه تراب، وإنما جعله نديا ليكون الأقحوان غضنا ناضرا، شبه به ثغرها، وشرط لمى الشفتين ليكون أبلغ في بريق الثغر، وشرط كون الأقحوان في دعص ند لما ذكرنا (69).

فواضح هنا أنه يحاول جاهدا تفسير جمال البيت، وهو وإن اكتفى بالنظرة التي حكمتها ضوابط العقل المنطقي، فإن هذا لم يحل دون تعبيره عن أوجه التشبيه تعبيرا معقولا مفيدا.

وهذه المحاولة تعاضدها محاولات أخرى مفيدة حين يفصل فيها تفصيلا واضحا، ويضع أمام القارئ الاتجاه الذي سار فيه الشاعر موضحا ما كان يحاوله دائما في الاقتراب من دوافع اختيار هذا التشبيه، فيشبعه تفصيلا مفتتا أجزاءه ليستطيع تركيبها على أساس ما قدمه له من معلومات، كما نلاحظ في شرحه لهذا البيت لطرفة:

وكرّى إذا نادى المُضَافُ محنَّباً كَسيدِ الغضى، نبهْتَهُ، المتورِّدِ

فيقول بعد أن شرح المعنى العام: «ثم شبه فرسه بذئب اجتمع له ثلاث خلال إحداها كونه فيما بين الغضى، وذئب الغضى أخبث الذئاب، والثانية إثارة الإنسان إياه، والثالثة ورده الماء، وهما يزيدان من شدة العدو» (70).

في هذا النص أحس الشارح أن الشاعر أراد أن يجسد حالة التوثب والاندفاع فاختار نموذجا يحقق هذا وهو ذئب الغضى الذي وفر فيه من الشروط ما يجعل تصور ما يريده ممكنا لمن عرف هذه الحالة

مــن الذئب، لذلك جاءت محاولته عبارة عن إعادة تركيب هذا التشــبيه المتحرك على ضوء الحالات المتعددة التي عرضها الشاعر وأثر كل منها في الحالة العامة المترتبة بعد توافر هذا الوضع الخاص.

ومــن ذلك ما نراه فــي هذا التقصي الدقيق للتشــبيه الغريب الذي ســاقه عنترة في حديثه عن ناقته وتشــبيهها بالظليــم الذي تأوي إليه صغاره فيقول:

تأوي له قُلُص النَّعام كما أوَتْ حِـزَقٌ يمـانيـةٌ لأعـجمَ طِـمْـطِـم

«يقول: تأوي إلى هذا الظليم صغائر النعام كما تأوي الإبل اليمانية إلــى راع أعجم عيي لا يفصح، شــبه الظليم في ســواده بهذا الراعي الحبشــي، وقلص النعام بإبل يمانية لأن السواد في إبل اليمانيين أكثر، وشــبهها بأوي الإبل إلى راعيها، ووصفه بالعي والعجمة لأن الظليم لا نطق له» [71].

فهــذا المثال ينضم إلى ســابقه في محاولته تحديد التشــبيه بدقة واســتقصاء مــع التفســير الواضح للجهــة التي أرادها الشــاعر مع محاولته الدائبــة لتعيين الجزئيات المختلفة والمتشــاكلة والمتقابلة بين المشــبه والمشــبه به، فحدد أولا المعنى المباشــر للبيت ثم عين كل جزء من التشــبيه، فالظليم يقابله الراعي الحبشي وقلص النعام تقابل الإبل اليمانية مع تعيين صفة السواد المتوافرة في إبل اليمانيين. وهكذا يتابع الأجزاء بحيث نخرج مع ختام قوله وقد استوت صورة التشبيه واضحة في الأذهان، محققا بهذا معنى النظرة الفنية للنص التي تعنى أساســا بصوره وتراكيبه واتجاه معناه وحدود ألفاظه. وتطرد بعد ذلك إشاراته إلى التشــبيه ضمن هذه الخطوط التي بيناها وهي تتراوح بين البسط والاكتفاء بأقل الإشارات [72].

ولا تخرج إشــارته ونظرته للاســتعارة عن هــذا الخط، حيث كان يحــاول أن يعين اتجاههــا فهي جزء من كل يوضــح المعنى ويعين على تصوره والإحســاس به، مــع محاولة تلمس الخاطر الــذي كان يحكم الشــاعر حين أنشــأها، فها هو يشير إلى الاســتعارة في ثلاثة أبيات متعاقبة لعمرو بن كلثوم:

وَقَدْ هَرتْ كِلابُ الحَيِ منَّا   وَشَذبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلينا

مَتَى نَنْقُلْ إلى قوم رحانا   يَكونوا في اللقاءِ لها طَحينا

يَكونُ ثِفالُها شَرْقِيَّ نَجْدٍ   وَلهوتُها قُضاعَةَ أَجْمَعِينَا

فيقول في سياق كلامه عن البيت الأول: «استعار لفل الغرب وكسر الشوكة تشذيب القتادة».

وفي شرح البيت الثاني يقول: «لما استعار للحرب اسم الرحى استعار لقتلاها اسم الطحين».

أما البيت الثالث فيقول فيه: «يقول: تكون معركتنا الجانب الشرقي من نجد وتكون قبضتنا قضاعة أجمعين، فاستعار للمعركة اسم الثفال وللقتلى اسم اللهوة ليشاكل الرحى الطحين» [73].

فهذه الإشارات إلى الاستعارة وإن لم يهتم بمتابعتها متابعة تفصيلية فإن عبارته الموجزة أفادت كثيرا وساعدت على الوصول إلى موضع الاستعارة في المثال الأول، ولكنه في المثالين الآخرين اهتم بالمشاكلة في الاستعارة، فقد بين استعارة الشاعر الرحى للحرب وقد ترتب على هذا أن استعار لقتلاهم الطحين، وفي المثال الثالث الذي تناسب فيه كلمة الثفال مع اللهوة، لذلك حرص على الإشارة إلى أن هذا الاتجاه فرضته المشاكلة في الاستعارة حتى تطرد عنده.

ومثل هذا التحديد الذي يقدمه في تفسيره لاستعارة امرئ القيس:

كأنَ ثبيراً في عرانين وَبْلِهِ   كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزَمّلِ

فيقول: «.. ثم استعار العرانين لأوائل المطر لأن الأنوف تتقدم الوجوه» [74]. ومثل هذا محاولته تحديد الاستعارة وتجانس أطرافها في سياق شرحه لبيت لبيد:

صَادَفْن منها غِرةً فاصَبنْها   إنَّ المَنايا لا تَطيشُ سِهامُها

«.. ثم قال: إن الموت لا تطيش سهامه، أي لا مخلص من هجومه، واستعار له سهاما واستعار للأخطاء لفظ الطيش، لأن السهم إذا أخطأ الهدف فقد طاش عنه» [75].

وقد يعرض للاستعارة من أبسط جوانبها فيلاحظ خروج معنى لفظ عن معناه المباشر إلى دلالة معينة داخل البيت، فينبه إلى هذا الاتجاه تنبيها عابرا يعين على الفهم وإن لم يفصل تفصيلا واضحا، مثلا شرحه لكلمة الحبائل في قول لبيد:

أو لَمْ تكن تدري نَوارُ بأنّني وصّال عَقْدِ حبائلٍ جَذّامها

«الحبائل: جمع الحبالة وهي مستعارة للعهد والمودة هاهنا» [76].

في هذا المجال قد يشير إلى استخدام عام عند العرب في الاستعارة حين يرتبط المعنى بلفظ من الألفاظ ويكثر الاستخدام حوله، فيقول مثلا حول هذا البيت لعمرو بن كلثوم:

فإنَّ قنَاتنَا يا عمروُ أَعْيَتْ عَلى الأعداءِ قَبلَكَ أنْ تَلينا

والعرب تستعير للعز اسم القناة [77]. فهذه جهة واحدة من جهات الاستعارة التصقت باللفظ، لكن هناك ألفاظا قد تحوي المعنى ونقيضه من مثل إشارته إلى كلمة «نبيل» في قول عنترة:

وحشيتي سرج على عبل الشوى نهد مراكله نبيل المحرم

يقول: «النبيل: السمين، يستعار للخير والشر لأنهما يزيدان على غيرهما زيادة السمين على الأعجف» [78].

ولا تخرج إشارته إلى الاستعارة عن هذا الإطار، وهي في مجملها ملاحظات عامة وموجزة وبسيطة ولكنها من جهة أخرى مفيدة في تحديد الاتجاه العام للبيت، تفسره للمبتدئ وتيسره للمتمكن القادر على الوصول إلى ما هو أعمق من هذه الإشارات البسيطة.

والزوزني في هذا الأسلوب الموجز لا يخرج عما تقدمه الدراسات الفنية التي تشير إلى هذه الفنون من جهاتها العامة.

ولقد حقق شرح الزوزني توازنا معقولا بين المعارف اللغوية والتاريخية التي وقف عندها الشراح الآخرون وبين الحاجة إلى فهم الجانب الفني في القصيدة بإدراك حدود الألفاظ ودلالة المعنى والصور الفنية، وهذا ما يتيح لنا أن نقول عنه بأنه قد حقق مفهوم الشرح الفني الذي كان يمكن أن يتسع إطاره عند الذين جاءوا بعده وأن تثمر هذه الطريقة

ثمـــرة طيبة في مضمار النقد التطبيقي والفهم الفني للنص الشــعري، لكــن غلبة النزعة اللغوية جعلت النص الشــعري وســيلة لفهم معارف أخــرى، وضياع الهدف المباشـــر هو الذي حـــال دون تطور هذه النظرة الفنية المتميزة.

5

نظرات نقدية تراثية

«إن أي رصد للنظرية النقدية العربية لا تكتمل حلقاته إلا من خلال النظر الجاد إلى ما فعله الباقلاني ومن تابعه في دراسة الإعجاز القرآني»

المؤلف

١ - نظرات شاردة: نصوص المعلقات والنقاد

عند النظر في كتب النقد العربي القديم للبحث عن نصيب القصائد السبع، علينا ألا ننساق وراء خدعة التصور الأولي الذي قد يدفع إلى المبالغة والتضخيم، أو يقلل من قيمة تلك التعليقات، بل يجب أن ننزلها منزلها المناسب ونراها في حجمها وقيمتها الخاصة وأثرها فيما بعدها.

إن هذا التنبيه ضروري في مثل وقفتنا هذه، فقد احتفل النقد القديم بالمعلقات، وأكثر من إيراد الأبيات المختارة منها، وقد استخدم هذه النصوص العالية القيمة لاستخراج معنى متميز أو ليؤكد نظرة مختارة، وقد يورد هناتها لينفذ منها إلى الدفاع أو التبرير لرأي خاص، وهكذا. ومع هذا الفيض الذي نراه من الالتفات إلى

أبيات المعلقات لابد من الإشـارة إلى ملمحين أساسـيين يتشكلان أمامنا منــذ الوهلة الأولى، أولهما: كثرة ورود أبيــات المعلقات عند هؤلاء النقاد، حتى أننا لنخال أن في هذه الشــذرات الكثيرة عالما متكاملا، وليس علينا إلا أن نجمع هذا الشتات لتستوي أمامنا النظرية النقدية العربية القديمة من خلال هذه النصوص المحددة.

أما الملمح الثاني فإنه يتشكل عندما نقترب من هذه النصوص النقدية وننفذ إلى الداخل ونلامســها ملامسة مباشرة، ونضعها بعضها إلى جانب بعض، ســنلحظ أن دورانها المتكرر في عشــرات الكتب إنما مثل تضخما شكليا، فقد انحدرت هذه الملاحظات من رجال الصدر الأول لتلوكها الكتب التالية، ناقلة إياها بكلماتها وجملها، مع إضافات يســيرة هنا، أو ابتســار مخل هناك. حينئذ نقع في هوة التســرع مرة أخرى، ونحكم بأن الحصيلة عبارة عن سمك مستغنى عنه في قاع الشبكة!

ولنقــل إن الانبهار الأول ليس عقليــا، والثاني يفتقد صبر العالم ودقة النظر، وفيه ميل إلى الهجوم غير المبرر دون إدراك لطبيعة وحاجة وظروف كل عصر، وإن ما تراه ضئيلا قد يخفي تحته شــيئا كبيرا، وقد تكون آثاره الإيجابية كبيــرة وعزيزة، وإن تضاؤله الكمــي، وانحصاره في حيز ضيق نســبيا، لا يفتقد القيمة مادام يحوي أصالة خاصة ويقدم نظرات مفيدة، ويرتكز عليها عالما فنيا متكاملا.

وأمــر آخر لابد من الإشــارة إليه، وهو راجع إلــى طبيعة التأليف نفسها، فجل هذه الملاحظات كانت تدور حول أبيات محددة ومعدودة من المعلقــات، تتكرر في المواقع المختلفة والكتب المتتالية. وهذه الملاحظات تنصــب فقط على بعض القصائد، بل وأبيات قليلة جدا، ولذلك نفتقد النظرة الكلية والشاملة من هؤلاء النقاد إلى هذه القصائد، فهذه أبيات مقتطعة من نصوص كاملة تمثل وتقدم في مجموعها قيمة فنية لعصر كامل، وهذه الأبيات قليلة العدد، نســبة إلــى تلك النصوص الأصلية، وهذا الاقتطــاع والاجتزاء يقلل من أهمية موقع البيت في ســياقه، حيث يكتسب - في تناســقه مع الأبيات والمقاطع السابقة واللاحقة - بعدا خاصا.

لكـــن، من جهة أخرى لابد مـــن الاعتراف بأن تلـــك الملاحظات كانت تقال مع افتراض ســـابق وواضح، وهو أن قائـــل تلك الملاحظات ومتلقيها يفترضان ابتداء الإحاطة بنص القصيدة، وأنها مســـتحضرة في ذهنيهما لشـــهرتها، فيقول القائل أو يسجل المسجل ملاحظته ويورد استشهاده وهو واثق بهذه الحقيقة.

وأيضـــا نقول - إحقاقا للحق وإنصافا - إن هذه النظرة التي يشـــي ظاهرها بجزئيتها، إنما جاءت لهدف محدد، ويســـندها نظرات سابقة وشـــاملة لنصوص هذه القصائد كلها، ولدواوين شـــعرائها، مثل شروح المعلقـــات والدواوين، وقد مثلت هذه معينا تقتطع منه هذه الملاحظات، ومن ثم فإن هنـــاك وقفات كاملة ومتكاملة إزاء هذه القصائد وجدناها عند أولئك الشراح وغيرهم من الدارسين، الذين وقفوا عند نص واحد - الباقلانـــي مثـــلا - أو عند قصائـــد أو أبيات متتاليـــة ومتكاملة من قصيدة واحدة.

ولعل من المســـتحب في هذا المقام أن نتذكر تلك النظرات الفنية التي لـــم تثمر نقدا، ولكنها قدمت فنا ناضجا منطلقا من الدراية الدقيقة بهذا الشـــعر، وهذا ما تمتع به شـــعراء العصر الأموي، فقد كانت نقلتهم الفنية المتميزة معتمدة أساســـا على ذلـــك الفهم الدقيق لهذا الشـــعر، وما أكثر الملاحظات المتوهجة التي كانت تشـــي بهذا الفهم. وحتى الشـــعراء الذين أعقبوهـــم، وحاولوا جاهديـــن التحرر من الأطر الســـابقة، إنما هم أيضا كانوا يعونه وعيا نقديا خاصا، سواء جاء هذا بتغيير هادئ أو بثورة عارمة كأصحاب التغيير في العصر العباسي الأول.

هذه إشارات أولية، كان لابد منها، لكي يكون الأمر واضحا ونحن ننظر في ملاحظات القدماء على المعلقات.

تشـــير نظرات البدء الأولى إلى أن بواكير تلك النظرات كانت قائمة على أســـاس المحاولة للفهم الأولي لنص هـــذه القصائد، وبألفاظ أكثر تحديدا، نلتقي بتفســـير النصـــوص، أو أوليات **النقد** التفســـيري الذي يحاول أن يفك مغاليق النص الأدبي، وينفذ إليه ابتداء من الفهم الحرفي المباشر وصولا إلى النظرة الأشمل والإدراك الأعمق للنص، ثم تأتي بعد

ذلك المراحل التالية التي تستخرج أحكاما وقيما فنية، وتعقد مقارنات مفيدة، وهكذا، فهذه المرحلة - النقد التفسيري - هي الأقدم والأبرز، فإدراك النص الأدبي وتحسس قيمته الفنية لا يتحققان إلا بعد وضوح هذه المرحلة الأولى.

ونستطيع القول - باطمئنان - إن هذه المراحل الأولية كانت معلومة عند الأجيال التي عاصرت الشاعر والتالية له، فهذا النشاط النقدي، بمراحله المختلفة، ملازم لقول الشاعر [1]. لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف عند العصور التي كانت تنسب الأقوال إلى أصحابها بوجه أدق، فإنها تمثل لنا حصيلة السابق عليها، كما أنها تقدم أيضا جهود أجيالها.

والأمثلة التي تقدم هذا النوع من الملاحظات التفسيرية كثيرة، منها تلك الطريقة التي اتبعها أبو عبيدة في تفسيره لمجاز القرآن، فقد فسر النصوص الشعرية التي أوردها على ضوء منهجه الذي فسر به القرآن [2]، إذ كان يستخدم الشعر للشرح والبيان، ويشرح ويفسر الشعر كذلك، وهو يبدأ من الحد الأدنى للفهم، يقول: «سريا» أي نهرا، قال لبيد:

فرمى بها عرض السرى فغادرا مسجورةً متجاورا قُلاَّمُها

«مسجورة أي مملوءة، بأقلام شجر يشبه القاقُلِّي وهو نبت ينبت على الأنهار» [3].

وأيضا قال لبيد:

ومقسم يعطي العشيرة حقها ومقذمر لحقوقها هضامها

يقال: «هضمني فلان حقي، ومنه هضيم الكشح أي ضامر البطن، ومنه طلعها هضيم قد لزق بعضه ببعض وضم بعضه بعضا» [4].

وقد يتابع اللفظ في رحلته اللغوية مثل تعليقه على بيت طرفة:

وعنس كألواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

بمعنى أنه يسوقها ويمضيها، وأن المنسأة هي العصاة، وأصلها من نسأت بها الغنم، وهي من الهمز الذي تركت العرب الهمزة من أسمائها، كما تركوا همزة النبي والبرية والخابية، لكنهم يهمزون الفعل منها [5].

وهذا المستوى إنما يســاعد على فك مغاليق اللفظة، وحدود المصطلح اللغــوي مع الإحاطة الســليمة بالنص. وهي التــي تجمعت وحصرت في كتب الشــروح التي استعانت بها. وقد خطت هذه الملاحظات خطوة أخرى قصيرة، حين لا يكون اللفظ، في ذاته في حاجة إلى شرح أو تفسير، لكنه يحتاج إلى إيضاح في سياقه العام أو تحديد أو تخصيص لفك تناقض حين يترك لعموميته مثل قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهلنْ أحدٌ علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

يقول: «إنمــا أراد المجازاة على الجهل، لأن العاقل لا يفخر بالجهل ولا يمتدح به» (6).

وكما أن الشــعر لا يفهم إلا بعد الإحاطة بلغته ومدلولاتها الدقيقة، فإن فهمه، أيضا، يكون عســيرا إذا لم نحط ببيئته، فهو يســتمد حقائقه وأمثلته وأطــره منها، ويســجل طبيعة مجتمعه وتقاليده وســننه، وهــذا لا يكون إلا بالإحاطــة التاريخية بــه. وهذه النظرة الاجتماعيــة لفهم الأدب نجد بعض أسسها عند صاحب كتاب «عيار الشعر» الذي يشير إلى أهمية هذا الجانب قائلا: «أمثلة لســنن العرب المستعملة بينها، التي لا تفهم معانيها إلا سماعا، كإمساك العرب عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاهــا»، وكذلك كيهم للســليم من الإبل ليذهب العر والجرب عن الســقيم منهــا، وكحكمهم إذا أحب الرجل منهم امرأة وأحبته، فلم يشــق برقعها ولم تشــق رداءه فإن حبهما يفســد، وإذا فعــلاه دام أمرهمــا، وتعليقهم الحلي والجلاجل على السليم ليفيق، وكفقئهم عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفا، فإذا زادت على الألف فقأوا العين الأخرى، يقولون إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين، وكســقيهم العاشق الماء على خرزة تسمى السلوان فيسلو، وكإيقادهم خلف المســافر الذي لا يحبــون رجوعه نارا، ويقولون: أبعده الله وأســحقه، وأوقد نارا إثره، وكضربهم الثور إذا امتنعت البقر عن الماء، ويقولون إن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب. وكزعمهم أن التي لا يبقى لها ولد إذا وطئت قتيلا شريفا بقي ولدها، وأن الرجل إذا خدرت رجله وذكر أحب الناس إليه ذهب الخدر، وكحذف الصبي منهم ســنه، إذا سقطت، في عين الشمس وقوله: أبدليني بها أحسن منها، وليجر في ظلمها آياتك:

سقته إياه الشمس إلا لثاثه أسف ولم تكدم عليه بإثمد

وزعمهم أنه إذا فعل ذلك لم تنبت أسنانه عوجا ولا ثعلا، ويواصل ابن طباطبا عارضا أساطير العرب، وكان يستشهد على كل حالة بشعر يستخدمه أو يشير إليها، ويختم قوله بأن هذه «الأشياء لا تفهم معانيها إلا سماعا، وربما كانت لها نظائر في أشعار المحدثين، ومن وصف أشياء تعرض في حالات غامضة، إذا لم تكن المعرفة بها متقدمة عسر استنباط معانيها واستبرد المسموع منها»(7)، ولا جدال حول أهمية هذا الجانب، وإذا كانت الدراسات الحديثة قد حشدت صفحات كثيرة لتثبت أهمية إدراك الأدب من خلال الإحاطة بالوسط أو البيئة أو الموروث، فإن هذه اللمسة تلخص هذه النظرة تلخيصا وافيا.

ولا نشك أيضا في الإضافات المهمة التي تسجلها مثل هذه الملاحظات، فالشاعر حينما قال: سقته إياه الشمس، فإن التفسير اللغوي الأول لا يكشف المعنى العقائدي أو الخلفية الاصطلاحية والاجتماعية الملخصة في هذا التركيب، بل إننا نتجاوز هذا ونقول إن هذا الذي ذكره ابن طباطبا وغيره أيضا يحمل مفتاحا لأبواب كثيرة لأصحاب التفسير الأسطوري الذي ينظرون إليه من منظار ميثولوجي.

إن هذا التفسير المتبادل - أي تفسير الشعر اعتمادا على المادة التاريخية - يقدم أطرا متسعة تساعد المتلقي في فك مغاليق النص، وتضع المصطلح في حدوده التاريخية والاجتماعية. وقد كانت هذه الحقيقة واضحة عند النقاد القدماء، لذلك سعى الرواد الأوائل إلى تغطية هذا الجانب جمعا وتبويبا مع الدراية الكاملة، حين رحلوا إلى البادية وعاشوا في البيئة الأصلية لهذا الشعر.

ونستطيع أن نلمس هذا - بجانب ما ذكرنا من قبل - في مواصلتهم للنقد التفسيري للنص حينما تواجههم صورة لا يغمض لفظها، أو دلالتها الاجتماعية المباشرة، ولكن الذي يبعد هو فهم ملامح الأصل الذي جاءت منه الصورة الفنية، فتصعب الإحاطة بالبيت الشعري، وتغمض جوانبه فيحتاج إلى جهد كبير لحل معانيه، ولنضرب مثالا بهذا البيت من معلقة عنترة:

تأوي له قلص النعام كما أوت حـزق يمـانـيـة لأعـجـم طمطم

فمـا هو الحزق؟ وما معنـى الطمطم؟ وما سـر اجتماعهما معا؟ وما علاقة كل هذا بالنعام التي أوت إلى داعيها؟

كل هـذه مجاهل تحتاج إلـى دراية وفهم خاص، وإلا فـإن هذا النص يصعب فهمه ويعسر تلقيه وتذوقه، ويكون الحديث عنه رجما بالغيب وتقوّلا وافتئاتـا على الحقيقة، لكن - على ضوء الوعي الذي أشـرنا إليه - هناك دائما من يسلط نظره الكاشف ويسخر جهده ليكشف وينير المجاهيل.

هـا هو المفضل الضبي - أحد رواد الثقافة الأوائل وأبرز رواة الشـعر - يقول إنه سـأل رجلا من أعلم الناس عن هذا البيت، قال: «يكون باليمن من السـحاب ما لا يكون لغيره من البلدان في السـماء، قال: وربما نشأت سحابة في وسط السماء فيسمع صوت الرعد فيها كأنه من جميع السماء فيجتمع السـحاب من كل جانب، فالحزق اليمانية تلك السحب، والأعجم الطمطم: صوت الرعد» (8).

لو أننا تركنا أنفسـنا، أو تركنـا القدماء، من دون أن نبحث عن الجذر البيئي لهذه الصورة الفنية، واعتمدنا فقط على التفسـير اللغوي في حده الأول لجئنـا بأمر عجيب، لكـن هذا الدارس المدقق راح يسـتقصي أمر وأصل هذه الصورة التي شكلها الشاعر وركب أجزاءها من خلال معايشته لبيئة عربية عرفها وسـاح في أقطارها متعلمـا وباحثا، ومن ثم أصبحت حقيقـة هذه الصورة واضحة متجلية، ويسـتطيع بعد ذلك محلل الشـعر ودارسه أن ينطلق على أسس علمية سليمة.

إن الاسـتقصاء العلمي الدقيق لم يطغ على الحس النقدي القائم على التذوق الواعي المستند إلى إحاطة دقيقة بنظر أولئك النقاد إلى النصوص المتميزة شرحا وتوضيحا، فهم كما اختاروا وتناولوا القصائد المطولة شرحا وتفسيرا، فإنهم أيضا نظروا في داخلها، مبرزين الأبيات الجيدة، مشيرين إلى الجانب المتميز منها، سواء في المعنى أو الصورة، ولهم في هذا الجانب التعبيـرات والكلمات الخاصة، مثل المعنى المتفرد والتشـبيه العقيم. فعلى مستوى المعنى العام نراهم يقولون على سبيل المثال، إنه «لم يوصف تأهب قوم للزم وتهيئهم للارتحال بأحسن من قول الحارث بن حلزة:

أجـمـعـوا أمـرهـم عـشـاء فـلـمـا   أصبحـــوا أصبحت لهم ضوضاء
مــن منـــاد ومــن مجيـــب ومـــن   تصهـــال خيـــل خـلال ذاك رغاء(9).

أما على مستوى الصورة، فقد شاعت عبارتهم المشهورة «التشبيه العقيم» لذلك ميزوا قول عنترة:

فترى الذباب بها يغني وحده   هـزجـا كفعـل الـشـارب المتـرنم
غردا يســـن ذراعــه بذراعــه   مثـل المكــب علــى الزنـاد الأجذم

وقـــد علق الجاحظ على هذين البيتين بأن القدماء قالوا: لم يدع الأول للآخـــر معنى شـــريفا ولا لفظا بهيـــا إلا أخذه، إلا بيت عنتـــرة، ويرى أنه أجـــاد في صفته فتحامى معناه جميع الشـــعراء فلم يعرض له أحد منهم، ويوضـــح هذين البيتين بقوله: «قال: يريد فعـــل الأقطع المكب على الزناد، والأجذم: المقطـــوع اليدين. فوصف الذبـــاب إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى، فشبهه عند ذاك برجل مقطوع اليدين، يقدح بعودين. ومتى ســـقط الذباب فهو يفعل ذلك. ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة [10]».

ويوغلون في الإشـــارة والتنبيه إلى المعنى الدقيق ودرجات هذه الدقة، بحيـــث يضعون أمـــام المتلقي الجوانب الدقيقة التـــي تميز نصا من غيره، فالأصمعي ينظر في أبيات النابغة:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت   إلــى حـمـام شـــراع وارد الـثـمـد
يـحـفـه جـانـبـا نـيـق وتـتـبـعـه   مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد

ونجده يحاول أن يضع أيدينا على مواضع دقة تصوير الشاعر بقوله: «ولما أراد مديح الحاســـب وسرعة إصابته، شـــدد الأمر وضيقه عليه، ليكون أحمـــد له إذا أصاب، فجعله، حزر طيـــرا، والطير أخف من غيره، ثم جعله حماما، والحمام أســـرع الطير وأكثرها اجتهادا في الســـرعة إذا كثر عددهن، وذلك أنه يشتد طيرانه عند المسابقة والمنافسة، وقال: يحفه جانبا نيق ويتبعه، فأراد أن الحمام إذا كان في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء» [11].

هكذا نلاحظ وهو يحاول توسيع إطار النظر أمام المتلقي، أنه شرح الدلالة العامة للصورة، وعمق مؤداها، ووضع اليد على دقائق الإبداع، ودرجات التركيب فيها، فقد قام خير قيام بدور الناقد المفسر الذي يستنطق النصوص، ويكشف دلالاتها الخفية والتي لا يراها من لا يملك دقته وأناته في النظر.

وقد يصل الناقد القديم بنا إلى مرحلة متقدمة من النظر في النص، حينما لا يكتفي بالوقوف عند جزئية من معنى أو صورة لطيفة أو يكشف فقط خصائص نص معين. ولكنه ينتقل أحيانا من الخاصية المحددة إلى الخصائص العامة لصورة ما مكتشفا تقليدا فنيا دقيقا ويقدم فيه مفتاحا غاية في الأهمية، ويمس جوهر موضوع ما، فها هو الجاحظ مرة أخرى يقف عند عادة الشعراء الجاهليين حين يذكرون الكلاب والبقر في الشعر، هذه الصورة الشائعة في الشعر الجاهلي، يستخدمها الشعراء للدلالة على شيء معين يريده الشاعر، وقد يكون هذا أيضا تقليدا فنيا له أصوله الاجتماعية والدينية قديما. وهذا الملمح هو الذي يشير إليه في سياق تعليقه على قول لبيد وهو يتحدث عن البقرة المسبوعة:

لتذودهن وأيقنت إن لم تذد   أن قد أحم من الحتوف حمامها

فتقصدت منها كساب فضرجت   بدم وغودر في المكر سخامها

يقول: «ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة، أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحا، وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها لكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة الظافرة، وصاحبها الغانم» (12).

إن مثل هذه اللفتات الدقيقة تمد رحاب الفهم، ويصبح مدى الصورة ومفهومها واضحا بناء على نظرة ثاقبة مستقصية قادرة على استخراج الخواص العامة والتقاطها لتكون دليلا لفهم دقيق لشعر مرحلة من المراحل.

وفــي مرحلة أخرى من مراحــل النظر في النصــوص نجدهم كذلك يحاولون المقارنة ويوازنون بينها مقارنة تمييز وتفضيل، اعتمادا على منطق خــاص، هو في حكم التقليد الفنــي أو الاجتماعي أو الخلقي، فذكروا أن الناس عابوا قول طرفة:

أسد غيل فإذا ما شربوا وهـبـوا كـل أمــون وطـمـر

فهذا البيت يشــير إلى أن كرم الذين يمدحهــم إنما هو مرتبط بحالة واحدة، أو تحت ظرف معين، هو حالة سكرهم، وفق تعبير صاحب الموشح: من أن هؤلاء إنما يهبــون عند الآفة التي تدخل على عقولهم، وفضلوا قول عنترة بن شداد العبسي:

وإذا شـربـتُ فـإنـنـي مستهلك مـالـي وعـرضـي وافـر لـم يكْلمِ
وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندى وكمــا علمــت شــمائلي وتكرمي

فبيتــا عنترة هذان هما الجيــدان، لأنه أخبر أن جوده باق، لأنه لا يبلغ من الشــراب ما يثلم عرضه، وأنه احترس من عيب الإعطاء على الســكر وأن الســكر زائد في ســخائه [13]. فجودة بيتي عنترة آتية من إحساسهم بشــمولية معناه وحســن عرضه. ولا شك في أن الناظر إلى هذا الحكم لا يستطيع إلا أن يؤمن عليه.

وهذه الدقة في الموازنة بين النصوص نلمسها في وقفات كثيرة معتمدة على الحس الفني والتذوق الدقيق الذي قد لا ينحو إلى التعليل كثيرا عند الأوائل. لكن العلة واضحة لمن يتأمل، فمثلا يتشــاجر الوليد بن عبدالملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابغة في وصف الليل أيهما أجود. وقد حكَّما الشعبي بينهما، فأنشد الوليد:

كـلـيـنـي لـهـم يـا أمـيـمـة نـاصـب ولـيـل أقـاسـيـه بـطـيء الكواكب
تطاول حتى قلتُ ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصـدر أراح الـلـيـل عـازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وأنشد مسلمة قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـي بـأنـواع الـهـمـوم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

قال: فضرب الوليد برجله طربا. فقال الشعبي: بانت القضية؟» [14].

واضح هنا دور التذوق الحسن، وهو ذوق الخصم نفسه الذي لم يستطع أن يقاوم إعجابه وإحساسه بجمال أبيات امرئ القيس، ولا نعتقد أن الوليد سمعها فقط في هذا المجلس للمرة الأولى، فلعله سمعها من قبل، ولكن إبراز إعجابه بها بيَّن تمييز مواطن الحسن فيها بإنشادها.

وهذا الإحساس الذوقي المجرد يأخذ عند آخرين مدى أبعد في النظر النقدي، فالصولي مثلا يحاول أن يضع إصبعه على عناصر الجمال ويوضحها، وينظر داخل الأبيات موضحا سبب الإعجاب بها، فيرى في قول النابغة «وصدر أراح الليل عازب همه» أنه جعل صدره مألفا للهموم، وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه، الرائحة مع الليل، كما تريح الرعاة السائمة الليل إلى أماكنها، وهو أول من وصف أن الهموم متزايدة بالليل وتبعه الناس. فالناقد هنا يحاول تحديد خطوط المعنى وإبرازها وتفسيرها مشيرا إلى موضع وفي الوقت نفسه يرى أن امرأ القيس هو المبتدئ بالإحسان «فإنه بحذقه، وحسن طبعه، وجودة قريحته، كره أن يقول: إن الهم في حبه يخف عنه في نهاره، ويزيد في ليله، فجعل الليل والنهار سواء عليه قلقه وهمه، وجزعه وغمه».

ونجد أن من القدماء من يقدم وجهة نظر أخرى، ترى أن «ما ذهب إليه امرؤ القيس، مع إحسانه فإنه مخالف للعادة، وهو مستحيل في المعقول ولا يوجبه القياس، والعادة غير جارية به»، لذلك يأتي شاعر آخر يوضح أن هناك فرقا بين هم الليل وهم النهار.

«وإنما أجمع الشعراء على ذلك في تضاعيف بلائهم بالليل وشدة كلفهم، لقلة المساعد، وفقد المجيب، وتقييد اللحظ عن أقصى مرامي النظر الذي لا بد أن يؤدي إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه، فينسى ما سواه» [15].

مـــن المهم هنا الوعي أن نقدر وجهات النظر التي كشــفت عن إعجاب وتذوق، إلى مقارنة وتفســير وتحديد مواطن الحســن وصولا إلى وجهات النظر المتقابلة التي تمثل في تقابلها إمكانية النص ونضج التلقي، ولا شك فـــي أن الملمح الأخير، يقــدم لنا الاختلاف الناجم في هذا التفســير بين طريقتــين في التفكير، أولاهما ترى أن الهم الســاكن في النفس إذا تحكم فـــي صاحبه أجبره على الخضوع إليه، والاستســلام لــه، وأن المبالغة في تصوير العاطفة تدفع إلى القــول إن المحب لا تصرفه العناصر الخارجية من ليل أو نهار أو انشــغال أو تشــاغل، فهذه يتوقــف تأثيرها عند درجة معينة من الهموم، أما امرؤ القيس فقد أراد أن يصور الدرجة الأكثر تشبثا وسيطرة على النفس.

تقــف النظرة الأخــرى - الأقرب إلـــى الواقعية - عند حــدود العادة والمعقول والقياس، وكلها تشــير إلى أن هم الليــل مختلف في نوعيته عن هم النهار، فعندما تشــد أنظار المهموم أو تشغل بشيء خارجي، يمثل هذا محاولــة لكي يدخل في نفســه منازع يصرفه عن الاســتمرار في التأمل الداخلي المؤلم.

وهكــذا نجد أن هــذه النظــرات النقدية أخذت الجانــب العميق من التجربة الإنسانية والمســجلة في النصوص الشعرية، ودارت حول تحليلها والنظــر في دقائقها، فليس الخلاف هنا حول حكمة أو عبارة، ولكنه حول شعور دقيق وآخر.

وحــين النظر في البناء الفني نجد النقــاد القدماء قد تمثلوا الأدوات الفنية التي استمدوها من تراثهم الأدبي ونصوصه المتميزة، وكانت المعلقات أيضا لها مكانة عالية، لذلك كان من المحتم أن تدور أبياتها على ألســنتهم حين الحديث أو استعادة هذه الأدوات والأساليب الفنية.

وقد اهتم دارســو النصوص، والبلاغيون بوجه أخص، بهذا الجانب، لذلــك جاءت نماذجهــم واستشــهاداتهم من هذه النصــوص القديمة، فنراهم - على سبيل المثال - يســتقصون محاسن الاستعارة ويتلمسون دقائقها، ويدافعون عنها - موضحين - حينما تشــكل على البعض، يقول الآمدي: «وإنما اســتعارت العرب المعنى لما ليس هــو له إذا كان يقاربه،

أو يناســبه أو يشــبهه في بعض أحواله، أو كان سببا في أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه، نحو قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقــد عاب امرأ القيــس بهذا البيت من لم يعــرف موضوعات المعاني والاســتعارات ولا المجــازات، وهو غاية الحســن والجــودة والصحة، لأنه قصد وصــف أحوال الليل الطويــل فذكر امتداد وســطه، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث، وترادف أعجازه وأواخره شــيئا فشــيئا، وهذا عندي منتظم لجميــع نعوت الليل الطويل على هيئته، وذلك أشــد ما يكون على من يراعيــه ويترقب تصرمه، فلما جعل له وســطا يمتد وأعجازا مرادفة للوسط، وصدرا متثاقلا في نهوضه حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب، وجعله متمطيا من أجل امتداده لأنه تمطي وتمدد بمنزلة واحدة، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه.

وهذا أقرب الاســتعارات من الحقيقة لشــدة ملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له [16].

فالآمدي هنا يحاول متابعة الصورة، وإبراز أسبابها وغايتها الخفية والكامنــة وراء إظهارها بهذا المظهر الذي اختاره الشــاعر، وإذا كان الفنــان يقذف بالصورة وحدها، فإن الناقــد الثاقب النظر قادر على إعادة تشكيلها مرة أخرى من التسلسل المنطقي الذي لم يكن بعيدا عن حدس الشــاعر، وهو أيضا يحاول تجسيدها عقليا كي يتقبلها المتلقي ويفهم مراميها.

ويكتفــي القاضــي الجرجاني باســتخلاص جوهر الفكرة التي بســطها الآمدي فيشــير إلى هذه الأبيات وإلى أن فيها إفراطا في الاســتعارة، ولكنه مقبول، يقــول: «فجعل له صلبا وعجزا وكلكلا لما كان ذا أول وآخر وأوســط مما يوصف بثقل الحركة إذا اســتطيل وبخفة الســير إذا استقصر، وكل هذه الألفاظ مقبولة غير مستكرهة، وقريبة المشاكلة ظاهرة المشابهة» [17]، فنظرته قائمة على تحديد الاســتعارة ومجانستها لما أتت إليه، منبها إلى أن المقابل أو المعادل التصوري لأول الليل ووســطه وآخره هــو هذه الأجزاء من الجمل من

صلب وعجز وكلكل، أما الحركة فهي متضمنة بما في هذه الصورة من معنى، فهو طويل ثقيل إذا استطيل وخفيف سريع إذا استقصر، تبعا للحالة النفسية المتلقية، وفي هذه مشابهة قريبة، أي أن الأداء الفني استطاع أن يصطاد هذا المعادل القادر على تجسـيد الحالة، ولا يفوته أيضا الإشارة أو التنبيه إلى أن ألفاظه مقبولة غير مستكرهة، فهي مستجيبة له وطيعة.

وهكذا نلاحظ أن صاحب كتاب «الوسـاطة» قد جس حدود الاستعارة واسـتخرج عناصرها محددا معناها، مشـيرا إلى مسوغات قبولها، فهي ليسـت مسـتكرهة، بمعنى أنها جاءت متسـقة مع هدفها، وأنها مرتبة لا تحتاج إلى إعمـال فكر أو إرهاق، وعناصر المشـابهة ظاهرة. فالذي كان يعنيه هنا طبيعة وملاءمة هذه الاستعارة للشيء الذي جاءت لأجله.

وينظر عبدالقاهر الجرجاني من المنظور نفسه، لكن من خلال الدخول في أجزاء الاسـتعارة واستخراج ملامح الجمال الدقيقة، يقول: «ومما هو أصل في شـرف الاستعارة، أن ترى الشـاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد، مثال قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعـجـازا ونـاء بكلكل

لما جعل لليل صلبا قد تمطى به ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب، وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر عن سواده إذا نظر قدامه، وإذا نظر إلى خلفه، وإذا رفع البصر ومده في عرض الجو» [18].

وكمـا نلاحظ، فإن عبدالقاهر قد يتفق في صدر كلامه مع ما ذكر من قبل، ويحاول، أيضا، من جانبه أن ينظر إلى داخل الصورة الفنية، وتركيبها اللغوي، موضحا تواليها واستدعاء بعضها للبعض الآخر من واقع ما يريده الشاعر، وإذا أردنا أن ننظر إلى جملة ما قيل بإيجاز فسنجد:

كلكل = أمام

الليل كأنه جمل له = صلب = فوق

أعجاز = خلف

وهذه بدورها تعطي وتجسد الظلمة السائدة لكل الجهات.

وليس هذا استدعاء عشوائيا، لكنه تتابع ضرورة، فقد استوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر، وعمق المشابهة المادية وأحاط بأطرافها لينفذ إلى الجانب المعنوي منها، وعبدالقاهر يحاول توضيح اجتماع عدد من الاستعارات وتناسق أشكالها بحيث يتم المعنى والشبه فيما يريد، وهكذا نرى أن هذه الأبيات كانت عند الآمدي صورة هي غاية في الجودة، وهي عند القاضي الجرجاني إفراط مقبول، ورآها عبد القاهر تماما محمودا، وكل هذه جاءت من مثل هذه المناقشة الدقيقة لهذا النص [19].

ومثل هذه الوقفة عند أبيات محددة، إنما تعطينا ملمحا حيا لمحاولة الجدية المعتمدة على الإحاطة، واستخدام الإمكانات المتيسرة من خلال فهم محكوم بعصره للولوج إلى كنه التجربة الفنية. وهذه الوقفة، مع إجمالها، لم تكن تخلو من فائدة وإضافة وعون طيب للإحاطة بهذه النصوص.

ولعل من أطرف الوقفات المفيدة تلك التي نلحظها عندما يبدأ القدماء يتحاورون حول نص معين وهم بين مجيز متحمس، وآخر يخطئ ويبرز العيوب، وثالث يبحث عن توفيق بين هذه النظرات. وهذه المحاورات تكشف لنا جانبا من طبيعة التوجه النقدي الذي كان يدور حول الشعر الجاهلي ومن بينه المعلقات. وها هي وقفة عند أبيات لامرئ القيس أيضا، يجمع أطرافها الشريف المرتضى في أماليه، حينما عرض لما يحتمل وجوها مختلفة، وكل وجه يحتمله النص ويتقبله.

القضية المعروضة، هي قول امرئ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها　　　لما نسجتها من جنوب وشمأل

فهذا البيت يوحي بأن هذه الأماكن باقية لم تندثر بفضل هاتين الريحين، لكنه يقول: «فهل عند رسم دارس من معول»، وهذا يناقض قوله السابق، وحول هذه النقطة تحاورت أجيال العلماء [20].

أول هذه الآراء يقول إن الرسم دارس لكن سبب دروسه ليس هاتين الريحين، ولكن لعوامل أخرى مثل تتابع الرياح والمطر، ومن ثم فإنه ليس هناك تناقض، فإذا كانت هناك ريح تكشف وأخرى تغطي، فمن جانب آخر هناك أنواء تقوم بالتعفية.

ويتمسك أصحاب الرأي الثاني بالمفهوم الظاهر للبيت الأول، أي أن الرسم باق غير دارس، ويميلون إلى تأويل البيت الآخر المناقض له، على أنه سيدرس في المستقبل وإن كان في هذه الساعة موجودا غير دارس.

ويشايع هذا أصحاب الرأي الثالث، فهي عندهم بمعنى «أنه لم يدرس أثرها لما نسجتها، بل هي بواق ثوابت فنحن نحزن لها، ونجزع عند رؤيتها»، ويأتون بأمثلة من الشعر مثلا:

ليت الديار التي تبقى لتحزننا   كانت تبين إذا ما أهلها بانوا

وهم لا يرون أن البيت الآخر مناقض له، «إنما هوكقولك: درس كتاب، أي ذهب بعضه وبقي بعضه».

وهذا التعليل أو التخريج إنما هو لجوء إلى إمكانات واحتمالات الاستخدام اللغوي الذي قد يتوسع في مؤداه.

ويلجأ الرأي الرابع إلى صرف الرأي عن الرسم إلى الشخص، فهو تأويل آخر بعيد عن السابق، لأنه يفصل بين المادي والمعنوي، بمعنى أن الشاعر لم يكن يقصد بكلمة «درس» الطلل، ولكن المعنى الكامن في النفس، لذلك يقول: «معناه لم يعف رسمها من قلبي، وهو دارس في الموضع».

ومن ثم فليس هناك أي تناقض، لأن العبارة الأولى خاصة بالقلب، والثانية خاصة بالموقع، وليس بين القولين تناقض لأن الموضوع مختلف.

الوجهة الخامسة لا يزعجها أن يكون هناك تناقض وتعتبره جزءا من التعبير، بمعنى أنه يمكن أن نقول: «لم يعف» لم يدرس، ثم يكذب نفسه بقول: فهل عند رسم دارس من معول.

قف بالديار التي لم يعفها القدم   بلى، وغيرها الأرواح والديم

ويمثال آخر:

فلا تبعدوا يا خير عمرو بن جندب   بلى، إن من زار القبور ليبعدا

ومع أن بعضهم رد أمثلة هؤلاء [21]، فإن جوهر فكرتهم لا غبار عليها من الناحية الفنية، فإذا كان الواقع المادي الملموس يعطي حقيقة واحدة، فإن الجانب النفسي قد لا يقبل هذا ويتردد بين فكرة ونقيضها، خاصة في حالات الحزن والألم، حيث يغطي جيشان العاطفة على الترتيب المنطقي للأشياء، ومن ثم يمكن للشاعر أن يثبت حقيقة وينفيها في الموقف نفسه.

ونأتي إلى الرأي السادس والأخير، وفيه عودة إلى التفسير اللغوي لمفهوم الكلمة ومعناها، نافذا إليها من مدخل الأضداد، فإذا كانت كلمة «عفا» تحمل في داخلها معنيين، أحدهما خاص بالدروس والثاني يشير إلى الزيادة والكثرة، والأمثلة متوافرة من القرآن وأقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستعمال والشعر(22)، فاللفظة إذن لها وجه آخر، ومن ثم يلقي ضوءا جديدا على المعنى، وفي هذه الحالة يكون «لم يعف رسمها»، أي لم يزد ويكثر حتى يعرفه المترسم، ويثبته المتأمل، بل هو خاف غير لائح ولا ظاهر. ثم قال من بعد:

«فهل عند رسم دارس من معول»

فلم يناقض الأول، لأنه قد أثبت الدرس له في كلا الموضعين.

وجهات نظر ست توالت مؤكدة لنا أن مثل هذا الحوار يكشف أنهم أدركوا أن الكلمة الشعرية مشعة وحمالة أوجه يحتملها التأويل ويسيغها الفهم، ومن ثم فلا مبرر للتمسك بمفهوم واحد، ولهذا توالت الآراء حتى وصلت إلى ستة دروب كل واحد منها يفسر ويضيف ويعمق الدلالة والمغزى، بعيدا عن فكرة التخطئة وتهمة التناقض، وقد داروا حول الفهم اللغوي المباشر الذي يفسر الكلمات ويطرح معانيها ليصل إلى المعنى الدقيق المراد.

مع أن وجهة أكثر هذه الآراء قد اعتمدت والتصقت بالنص وبمفهومه اللغوي، فإنها من جهة أخرى استطاعت أن تحرك نظرها فيه مستكشفة أبعاده وإمكان فهمه الفهم الدقيق، وقد أثمرت هذه المحاولة وجهات نظر استطعنا أن نحصرها في ستة أوجه، مرتكزها الأساسي الفهم اللغوي، حيث يكون الخلاف حول المعنى الدقيق والموحي للكلمة. وقد يحاول بعضهم أن يستخرج دلالة أعم وأعمق من شرح الكلمة، لكنه ينظر إلى الموقف الذي قيلت فيه.

ونلمس أيضا ذلك الاهتمام الواضح بنظام البيت الشعري وتناسق القصيدة، وقد وجهوا نظراتهم لتمييز هذه الجوانب الدقيقة والمتعلقة بالبناء اللغوي والفني، ولأن إحساسهم بالقصيدة المسموعة المنطوقة غالب على غيره، لا يغفلون سياقها الصوتي داخل البيت بجانب تناسقها اللغوي، وهذا الإحساس بالصوت هو الذي جعلهم يرفضون ويعيبون المعاظلة حيث

تتراكب الكلمات بعضها فوق بعض، فيبرز التنافر وتثقل الكلمة على اللسان فيصعب النطق بها، مثل قول امرئ القيس «غدائره مستشزرات إلى العلا»، فالتنافر والثقل وعسر النطق واضح فيه.

ولكن هذا لا ينفي إدراكهم قيمة اللفظة في سياقها من حيث دلالة معناها، فهي كلمة جامعة شاملة تنقل إحساس الشاعر بالصورة التي يراها نقلا موحيا، فكلمة «مستشزرات» جمعت أشكال الشعر التي تشكلها، وقد شرحوها بقولهم إن معنى البيت «أن حبيبته لكثرة شعرها، بعضه مرفوع وبعضه مثني وبعضه مرسل، وبعضه معقوص ملوي بين المثني والمرسل» [23].

وليس هناك من كلمة يمكن أن تؤدي هذا الشمول والاستقصاء والنظرة المحيطة بكل هذه الأشكال مثل هذه الكلمة التي استخدمها الشاعر.

وتوقفوا عند الأصوات في البيت الشعري، فعابوا التنافر ولم يرضوا كذلك كثيرا عن التكرار من دون ضرورة أو حاجة ملحة، واعتبروه حشوا، فابن الأثير يرى أنه معيب في موضع دون موضع: «فهو معيب في استعماله في صدور الأبيات الشعرية وما والاها، أما الموضع الذي لا يعاب فيه فهو الأعجاز من الأبيات، لمكان القافية، إنما جاز ذلك، وإن لم يكن عيبا، لأنه قافية، والشاعر مضطر إليها، والمضطر يحل له ما حرم عليه».

والمتأمل في هذا القول يلمس أن قائله لا يميل إلى التكرار، وهو مجاز عنده فقط عند الاضطرار لا غير، ويستشهد على هذا بقول عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فقوله «أقوى وأقفر» من المعيب، لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة، إذن الضرورة لا تكون إلا في القافية [24].

وقضية التكرار هي جزء من الفكرة العامة والخاصة بالحشو، وهم يفسرونها كما لاحظنا من هذا المنظور، وهي الزيادة في البيت الشعري من دون حاجة ملحة، خاصة عندما يضطر الشاعر، بعد أن استوفى معناه من أطرافه، إلى أن يكمل البيت شكلا بإضافة جديدة ليستوي البناء الموسيقي للبيت.

وقد كان هذا الاضطرار محلا للتوقف عندهم، فقد يستطيع الشاعر أن يجعل إضافته تعميقا لما يريد أن يعبر عنه، فيخفي الحشو، وتصبح هذه الزيادة جزءا أساسيا من المعنى المراد. وقد يكون الحشو واضحا بحيث يكون وجوده لا يحمل إضافة، وحذفه لا يؤثر شيئا.

ولا تخلو المعلقات - عندهم - من مثل هذه الاضطرارات، ولعل المثال المشهور ما قاله القاضي الجرجاني في ملاحظته على امرئ القيس وعدي بن الرقاع، فقد قال الأول:

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقال الآخر:

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

هذا وتخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغني عنه وما لا فائدة في ذكره، لأن امرأ القيس قال «من وحش وجرة»، وعديا قال: «من جآذر جاسم»، ولم يُذكر هذان الموضعان إلا استعانة بهما في إتمام النظم، وإقامة الوزن، ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنويون في «وجرة» و«جاسم»، فإنما يطلب به بعضهم الإغراب على بعض، وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء، وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا عن وحش وجرة وغزلان بسيطة، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع، وأما العيون فقل أن تختلف لذلك [25].

قد حكم الجرجاني في نصه هذا بأن هذا حشو اعتمادا على الإحاطة، أو درايته بأن هذا التشبيه، وذكر هذا الموضع، لا يضيف جديدا إلى الصفة المقصودة منه، فالتشبيه قد تم حينما ذكر أن العيون تشبه عيون الوحش أو الظباء، أما الإضافة فهي حشو وزيادة لا مبرر لها إلا الحاجة إلى إتمام النظم.

وقد توقفوا كذلك عند ما أسموه بالتصريع المعلق، أي أن يذكر المصراع الأول، ويكون معلقا على صفة يأتي ذكرها في أول المصراع الثاني، ومثالهم أيضا، بيت لامرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فإن المصراع الأول معلق على قول: «بصبح» وهذا معيب جدا [26].

وهذا الرأي القائم على أن كل جزئية من البيت الشعري يجب أن تكون مستقلة مكتملة في ذاتها مكملة لغيرها، هو رأي له مؤيدوه، ولا نجد من يعارضه قديما، والخلاف يكون فقط حول الفهم ذاته، لذلك نجد أن هناك من لا يؤيده، بل يرفضه، ليس على أساس معارضة فكرة التصريع المعلق ولكن من منطلق أن هذا العيب لا وجود له في هذا البيت، وأن المصراع الأول مستقل بنفسه، غير محتاج إلى الذي يليه أصلا، لأنه لو وقف على قوله: «ألا أيها الليل ألا انجلي» لكان مفيدا، لأنه سأل الليل أن ينجلي وينكشف، وهذا كلام تام مستقل بنفسه، كقوله: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل».. بل أتم استقلالا منه، لأنه إذا ذكر الحبيب والمنزل ولم ينعتهما، كان الكلام يخرج عن الإفادة. وقوله لليل: «ألا انجلي» معناه واضح، كأنه قال «ما أطولك يا ليل فانكشف» [27].

ولكننا قد نجد من لا يتوقف عند التسليم بالتعليق، ورفض اعتماد الأقسام بعضها على بعض من ناحية المعنى الواحد أو العبارة اللغوية المكتملة. كما في حديث صاحب كتاب «المثل السائر» عن تضمين الإسناد الذي يقع بين بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور، بحيث يكون الأول منهما مسندا إلى الثاني، فلا يقوم الأول بنفسه، ولا يتم معناه، إلا بالثاني، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر.

وهذا عنده ليس معيبا، «فلا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر، وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالأخرى، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى، والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى، فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير» [28] ويذكر مثالا من القرآن الكريم، يشير فيه إلى ترابط الفقرات فيه، فلا تفهم كل واحدة منها إلا بالتي تليها، وإن هذه كالأبيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض.

وعناية القدماء بنظام القصيدة واضحة من إشارتهم إلى شروط المطالع والانتقال من معنى إلى آخر أو من جزء إلى الذي يليه، فحسن التخلص باب كبير استقر في دراستهم النقدية، وحثوا على أن يكون ختام القصيدة يحمل معه استيفاء الفكرة التي أرادها الشاعر، لذلك نجدهم - على سبيل

المثـــال - يتوقفون عند ختام معلقة امرئ القيس، الذي افتقدوا فيه الختام المســـتوفى، فكان تعليقهم الذي يجمله ابن رشـــيق قائلا: «ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة مشـــتهية، ويبقى الـــكلام مبتورا كأنه لم يتعمد جعله خاتمـــة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو، وإســـقاط الكلفة، ألا نـــرى معلقة امرئ القيس كيـــف ختمها بقوله يصف السيل عند شدة المطر:

كأن السباع فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات، وهي أفضلها»[29].

واللافـــت لنا في هـــذا النص أن الناقد هنا لم يقف عنـــد هذا موقف اللائم أو المعيب ولكنه شـــخَّص الظاهرة، وفسرها، وامتدحها، فقد سجل إحساسه وتعلق النفس بالقصيدة، لانعدام الختام، وفســـر هذا بأن الشـــاعر قد يكون متعمدا ليحدث هذا الأثر، فهذه نقطة جديرة بالنظر. ومن جهة أخرى يرى أن الشاعر لم يسر وراء النظام الهندسي للقصيدة، وأنه ترك نفسه على سجيتها متحررا من أي ضغط يجبره على أن يضع ما لا ينســـجم مع ما في نفسه، أو على حد تعبير الناقد، «كل ذلك في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة».

لذلك لـــم يكن للقصيدة ختام أو نهاية محددة، أو قاعدة واحدة، لكنها عالـــم مفتـــوح لا يحده حد، تماما كهذا الســـيل الذي اســـتمر محطما كل السدود. وهذه النهاية المفتوحة هي وقفة متميزة لهذه القصيدة التي تعيد مرة أخرى إلى دورة الحياة التي بدأت بالقحط والمحل.

إن الناقد هنا كان متفهما، وواعيا مدركا لهذه التجربة الفنية، واستطاع بحسه الدقيق أن يضع يده على جوهر التجربة الفنية، ومن ثم كان حكمه، أن هـــذه القصيدة، بهذا وغيره، هـــي أفضل قصائد المعلقات الأخرى التي اســـتوفت الشـــروط الشـــكلية. وهو من جهة أخرى لم يلجأ إلى التفسير السهل المســـتهلك، من أن القصيدة أو أن ختامها قد ضاع واندثر، بل قبل الأمر الذي رآه واعتمد حسه الذوقي في تقييم هذه التجربة.

هذه اللمســـات، وأمثالها، تمثل الوعي النقدي الذي كان يتشكل بهدوء ودقة، ويضع أطرا معبرة، ويســـلط أضواء كاشفة على النصوص القديمة، قائما بدوره النقدي خير قيام.

ويبقـــى جانب أخير لابد من أن ننظر فيه، خصوصا أن الكتب القديمة قد أولته اهتماما واضحا حتى غلب على أصحاب الحكم المتســـرع، إطلاق الـــرأي العام من أن النقد القديم انحصر فقط في الملاحظات الشـــكلية، وتتبع القاعدة اللغوية.

ومـــع أن هذا الاهتمام ليس تهمة تدفع، فهذا أيضا نشـــاط أساســـي يرتبط بالعمل الفني، فالســـلامة والصحة اللغويـــة، ودقة المعنى وارتباطه بواقعه، هذه هي الوســـائل الأساسـية في نظام فني يعتمد على النشـــاط اللغوي في جانبه التعبيري، كما أن دراسة الخروج على القاعدة أو الالتزام بها أو التمتع بجوازتها، إنما تمثل جانبا يستطيع الناقد الواعي أن يستخرج منه البذور الكامنة فيه من جمال وإبداع.

ولأن هذه القضايا تمثل هامشـــا أوليا من هوامش الدراســـة القديمة، يهمنا الإشـــارة إلى بعض ملاحظاتهم لتكتمـــل أمامنا دائرة النظر النقدي لهذه القصائد.

إن القصائد الســـبع ســـابقة على كل القواعد الشـــكلية لوســـائل الفن الشـــعري، وهي أصل يعتد به في استخراج هذه القواعد من لغة وموسيقى وتقاليد فنية ثابتة، لكنها مع ذلك لم تسلم من وقفات لاحقت مواطن الخروج فيها من اطراد القاعدة، وحوت الشذوذ الذي يرافق مثل هذه القواعد.

ولعل أهم جانبين يمكن الإشارة إليهما هنا هما:

- القاعدة النحوية.
- القاعدة العروضية.

وهذان الجانبان يلتقيان عند نقطة واحدة في كثير من الأحيان.

في المســـتوى الأول - القاعـــدة النحوية - نلمس بوضـــوح اطراد هذه القواعد بشكل واضح، فهي أصل معتمد من حيث السليقة والقاعدة، ومن ثـــم خلت من أي خـــروج إلا النزر اليســـير. وإذا راعينا الخلافات اللهجية للقبائل، نجد أنها قد استوت سليمة نقية لا تشوبها شائبة.

حتـــى هذا القليل نجد أن الدارســـين القدماء قد حاولـــوا إيجاد تخريج أو تفســـير مناســـب يحفظ لقواعدهم الاحترام والثبات والاطـــراد. وقد مر علينا أكثره في الفصول السابقة مثل حركة القافية «مزمل» في بيت امرئ القيس [30].

وقد بذلوا محاولات للتبرير، فقالوا إنه جر للمجاورة، مثل قولهم: جحر ضب خرب، وقدم آخرون تخريجات أخرى [31].

ومثله دوران بيت الحارث:

فملكنا بذلك الناس حتى ملك المنذر بن ماء السماءُ

فالإقواء فيه واضح مع أهمية هذا البيت لسياق المعنى، وكذلك تسكين الفعل «يعتلق» في بيت لبيد [33]:

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلقْ بعض النفوس حمامها [32]

وإذا كانت تمثل الملاحظات الخاصة بالشكل، فإنهم أيضا نظروا إلى المعنى من حيث مستوى الصحة والخطأ، لذلك يرون أن طرفة قد أخطأ حينما قال: «كسكان بوصى بدجلة مصعد».

يقولون إنه أراد أن يشبه عنق الناقة بالدقل فأخطأ حينما شبهها بالسكان [34]، وأنه قصر في عدم مطابقته للواقع أو الشائع عندهم، مثل قوله:

كأن جناحي مضرحي تكنفا حفافيه شكا في العسيب بمسرد

ويقولون: إنما توصف النجائب برقة شعر الذنب وخفته، وجعله هذا كثيفا طويلا عريضا» [35].

لا نريد أن نسير وراء أمثال هذه الملاحظات، فهي لا تزيد على كونها أمثلة على تلك العناية الخاصة بضوابط الشكل والحرص على تتبعها، وهي إشارة أولية إلى هذا النوع لتكتمل حلقة النقد القديم حول الشعر الجاهلي - والمعلقات بوجه أخص - وإن هذه الدائرة مكتملة لم تهمل جانبا مهما إلا حاولت ريادته بما ملكت من وسائل متيسرة لها آنذاك.

وإن هذا النشاط النقدي، مهما اختلفت حوله الآراء، ينهض ليكون دليلا على الوعي والاهتمام بإدراك النص بدرجات متفاوتة، تبدأ من البسيط والأولي والمهم لتنتهي إلى الأهم والأعمق، ورب إشارة أو لمحة فتحت بابا كبيرا يستطيع النافذ منه أن يوسع الإطار ويمس الجوهر والدقيق الخفي.

الباقلاني ومعلقة امرئ القيس

جاءت الملاحظات الكثيرة التي بذرها رواد الجمع الأول مفردة مجزأة، فارطة العقد، لا يسلكها خط واحد، أو ينتظمها فكر يشد بعضها إلى بعض، لذلك قل أن نجد نصا واحدا قد استوفي النظر فيه. هناك، فقط،

ملاحظات على قصيدة أو قصائد لشاعر أو أكثر، ولكننا نفتقد نظرة كاملة في قصيدة واحدة إلا ما ندر، وقد بقيت متابعة دراسة النص الواحد عند شـراح الدواوين والمجموعات. وهذه محكومة بظـروف كثيرة، قد يصعب معها اسـتخلاص نظرة كلية وكاملة عـن نص معين. وإن كانت الملاحظات المتناثرة تستقرئ النص كله.

إن دراسـة شعر الشـاعر الواحد والنظر فيه، وكذلك دراسة القضية الأدبية العامة دراسة متكاملة، كل هذا لا يغني عن النظر في النص الواحد الذي بقي بعيدا عن الاهتمام الدقيق الذي ينظر فيه نظرة استيفاء ومتابعة في ضوء فكري محدد [36].

ويأتـي الباقلاني متفردا في منهجه وطريقتـه، فإذا كان الآخرون قد وقفوا عند البيت والبيتين، يستحسنون ويسجلون ملاحظة لغوية أو معنوية، فإن الباقلاني يقبل على موضوعه حاملا معه أمرين. أولهما: استكشـاف وبيـان لإعجاز القـرآن، والثاني: اختياره لنص طويـل من نصوص الأدب العالية الرتبة، ناقدا إياه. فقد نظر نظرة نقدية شـبه متكاملة في قصيدة امرئ القيس المعلقة. ثم نظر في قصيدة البحتري. وتم هذا في ضوء فكرة واضحة في ذهنه، فكانت هذه المحاولة الفريدة جديرة بأن ينظر إليها وأن تفهم أطرافها.

لـم يكن الباقلاني دارس أدب، لكنه كان مفكرا عقائديا، يعكس طبيعة فكر عصـره. فكان لا بد من أن يواجه القضية الكبرى التي شـغلت ذلك العصر، ونعني بها قضية «إعجاز القرآن»، أسراره ودقائقه. ولما كان القرآن الكريم ينتمي من حيث الشكل إلى جنس الكلام، فإن الربط بينه وبين كلام البشـر قائم يسـتدعيه العقل، ومن ثم كان لا بد من النظر إليه ومقارنته بفن الكلام، من شعر وخطب ونثر رفيع، وكانت هذه المقارنة واردة للذهن، بل وواقعة فعلا.

والباقلانـي مـن الذين ينظرون إلى أن أسـرار الإعجـاز القرآني قائمـة في ذات القرآن الذي أمامنا، فـلا مجال للصرفة - أي صرف النـاس عن محاكاتـه - كما أن هذا الإعجاز لا يرد إلى جزء دون آخر، كالإخبار بالغيب أوالتشـريعات، ولكن ينظر إليه كلا كاملا، وعلى وجه

أخـــص، النظر فيه من داخل تركيبه وبنائـــه اللغوي، وفي تميزه. وهذا هـــو الواجب ينفرد فيه القرآن، فالمعجزات الأخرى متحقق بعضها عند أنبياء آخريـــن. فالقرآن يتميز بهـــذا البناء اللغـــوي الخاص واللافت للنظـــر، وبكلمة محـــددة: الإعجاز القرآني كامن فـــي بلاغته، ومن ثم علينا محاولة إدراك هذا من خلال التأمل فيه كاملا، ولذلك كان لا بد من طرح هذين السؤالين:

- ما هو الإعجاز القرآني؟
- كيف يختلف ويتميز نظم القرآن عن شـــعر الشعراء وخطب الخطباء ما دام هو من جنس الكلام نفسه؟

حين الحديث عن إعجاز القرآن - أو المعجزة القرآنية - علينا أن نشير ابتداء إلى الأســـس الثلاثة التي اعتمدها الباقلاني في تحديده لشـــروط المعجزة، ومن ثم انطباقها على القرآن. فهو يضمن حديثه شـــروط الشيء المعجز حين يشير إلى أنه:

- خارج عن العادة.
- ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه.
- لا يقدر عليه العباد.

وتحت هذه الشروط تنحدر تفصيلات أخرى.

وإذا نظرنا إلى حديثه عن القرآن سنجده يشير إلى توافر هذه الشروط كلهـــا. فيقول: «الكلام إذا بلغ غايته وتجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى إلى أمد يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات وجاز أن يقع موقع الدلالات [37].

هذه شـــروط المعجزات الدالة على الرســـل مطبقة على جنس الكلام بحيـــث يصل إلى الغاية والكمال ويتجاوز حد البلاغة، وهذا يعادل الخروج عـــن العادة. وأنـــه لا يقدر عليه أهـــل الصناعة، ويعجز عنـــه الكامل في البراعة، ومن ثم فقد انفرد الله بالقدرة عليه.

والقـــرآن معجز لتوافر الشـــروط الثلاثة فيه، فهـــو خارج عن أصناف الكلام المعروفـــة. وكما يقول الباقلاني: «إنه خارج عن العادة، وإنه معجز، وهذه خصوصية ترجـــع إلى جملة القرآن، وتَمَيزٌ حاصل في جميعه» [38].

فالقــرآن – إذن – توافر فيه كمال من جهة القول، وعجز من جهة البشــر القائلين عن مواجهته. مع ملاحظة حقيقية أساســية وهي أن هذه المعجزة نزلت على قوم امتازوا بالفصاحة وافتخروا بها.

ولا بد هنا من التوقف عند مفهوم العجز البشــري، فعدم الاســتطالة لا يعني عند الباقلاني نقصا. أو عدم وصول إلى الكمال النسبي، لكنه يشير إلى طبيعة القدرة الإنسانية وحدودها ضمن القوانين العامة التي تتحرك فيها:

يقــول إن المعجز هو «الذي لا يقدر عليــه العباد، إنما ينفرد الله تعالى بالقــدرة عليه، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تســتحيل قدرتهم عليه، كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام، فنحن لا نقدر على ذلك. وإن لم يصح وصفنا بأنا عاجزون عن ذلك حقيقة» [39].

فهــو هنا لا يعيب العبــاد، لكنه يبين مقدرتهــم. وأن هناك حدودا قد تتحرك ضمنها طاقة الإنســان، وضمن هذه الحــدود يتفاوت الناس فيما بينهم قدرة وعجزا.

لكــن من جهة أخرى فإن كمال المعجــزة لا يعني أنها النهاية التي ليس بعدها شــيء، فإن الله قادر على كل شــيء، ومن ثم، بالنسبة إلى القرآن، فــإن «الله وحده يقدر أن يأتي بنظم أبلــغ وأبدع من القرآن كله، أما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه، مما تصح قدرتهم عليه» [40].

إن الجانب الخاص الذي يميز القرآن عن غيره من الكلام، هو خروجه عن حد العادة، أو البلاغة البشــرية، ودخوله فــي القول المعجز، وإن هذا حاصــل فيه كله. وهــذا الإعجاز يمكن تلمســه في خصائص الأســلوب القرآني، حين مقارنته بكلام البشــر، ومن هنا تبدأ محاولته بالإشارة إلى طبيعــة هذا التميز من خلال حديثه عن خصائص القرآن ومقارنته بفنون العرب القولية.

يمكننا أن نستخلص من حديثه عناصر عامة توافرت في القرآن ميزته عن غيره من كلام العرب، منها أنه:

- ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة على هذا الطول.
- إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب.

● إن القــرآن على كثرته وطوله متناســب فــي الفصاحة، لا اختلاف ولا تفــاوت فيه، مع تصــرف وجوهه، فهو إذن ليس من جنس الكلام الذي يتفاوت ويختلف، وهو لا يتوسط أو ينزل عن مستوى الفصاحة.

ومن ثم فمثل القرآن بتنوع مادته واستواء بلاغته، لا يصح أن يقع اتفاقا أو مصادفة كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة.

● مرد الإعجــاز القرآني إلى نظمه وليس إلى عناصر أخرى يمكن أن تدرك بالتعليم.

هذه هي العناصر مجملة، ويرى الباقلاني أن الذي يستطيع إدراك هذه الخصائص هو الذي له دراية وعلم بهذا الفن القولي.

ونســتطيع الآن أن نســمــع كلماتــه مباشــرة وهي تشــير إلى هذه العناصر، يقول:

● «ليــس للعــرب كلام مشــتمل على هــذه الفصاحــة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناســب في البلاغة، والتشــابه في البراعة على هذا الطول، وعلى هذا القدر»[41].

● «إن نظــم القرآن على تصــرف وجوهه، وتبايــن مذاهبه خارج عن المعهود من نظــام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد»[42].

● وإن هذا القرآن «على كثرته وطوله متناســب في الفصاحة على ما وضعــه اللــه تعالى به، فقال عز من قائل «الله نزل أحســن الحديث كتابا متشــابها مثاني تقشــعر منه جلود الذين يخشــون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهــم إلى ذكر اللــه» وقوله «ولــو كان من عند غير اللــه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا». فأخبر ســبحانه أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال»[43].

● ونظــم القرآن ليس من جنــس كلام الناس الــذي يتفاوت ويختلف ولكنــه يتصــرف من الوجوه المختلفــة «على حد واحد في حســن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إســفاف فيه إلى الرتبة الدنيا»[44]، فهو مع عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا

يتفــاوت ولا يتباين، على ما يتصــرف عليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصــص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد وتبشير وتخويف...» (45).

وإذ كان القرآن كذلك فإن كلام البشـــر لا يرتفع إلى هذا الشـــأن، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائــد محصورة، «يقع فيهــا الاختلال والتعمــل والتكلف والتجوز والتعســف. كما أن الشعراء يختلفون تبعا لما يكتبون، فمنهم من يجود فـــي المدح من دون الهجو، ومنهم مــن يبرز في الهجو من دون المدح.. إلخ. ومن ثم فإنك متى تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت التفاوت في شـــعره وفق الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنـــى، فـإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقــف دونه، وبان الاختلاف على شعره» (46).

لذلك فالقرآن «لا يصح وقوع مثله اتفاقا، كما يتفق للشـــاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب كما يلحق كلامه بالوحشيات، فإنما يتفق للشـــاعر في لمع من شـــعره وللكاتب في قليل من رســـائله، وللخطيب في يســـير من خطبه، ولو كان كل شـــعره نادرا ومثلا سائرا، ومعنى بديعا، ولفظا رشيقا، وكل كلامه مملوءا من رونقه ومائه، ومحلى ببهجته وحســـن روائه، ومن يقع فيه المتوســـط بـــين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المســـتثقل والغث المستنكر، لم يبن الإعجاز في الكلام، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام» (47).

وإذا كان النظــام المتميز هو الفاصل الوحيد بين القرآن وغيره، فإن الباقلانـــي يرفض أن يكون مرد الإعجاز ما يذهب إليه بعض الناس من أن الإعجـــاز يؤخذ من وجـــوه البلاغة من بديع وبيـــان، أو البديع، فإن هذه الأمور تنقســـم إلـــى ما يمكن الوقوع عليـــه والتعمل له، وما يدرك بالتعلم، فهذا لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، فالإعجاز مرده إلى ما لا ســـبيل إليه بالتعليم ومن ثم فإن الآية التي ذكر فيها التشبيه ليس مرد إعجازها إلى موضع التشبيه، ولكن لألفاظ الآية ونظمها وتأليفها، وليس مرد الإعجاز موضع التشبيه» (48).

إن نقطة الارتكاز التي اعتمد عليها الباقلاني هي أن الإعجاز القرآني شيء آخر غير بلاغة البشر، وأنه من الكلام المعجز الذي لا يتوصل إليه، وأنه لا يتفاوت ولا يتباين، بينما كلام الفصحاء يتفاوت، يعلو ويسفل، يتناقض ويتلاءم. وكل هذه عيوب مدركة تحدث عنها نقاد الشعر في نقدهم.

ومن ثم فهو يشير إلى بديهة من البديهات، وهي أن الإنسان مهما بلغ شأوه، عاجز؛ فالنقص وعدم الكمال سمة بشرية، فهي لا تضيره، ولا يعتبر عاجزا ما دامت إمكاناته تقف عند حدود الممكن الذي يدرك بالتعليم. أما المعجز فهو شيء خارج للعادة.

ونستطيع أن نقرب الأمر بقولنا: إن التغلب على المرض ممكن في حدود قدرة الإنسان وتعلمه، أما إعادة الموتى فهي معجزة، وكذلك رد البصر إلى أعمى ميئوس منه تعتبر معجزة داخلة في خوارق العادات. وعلى هذا القياس، فالبلاغة سمة بشرية فيها بلوغ القصد بجانب الانحطاط والقصور، أما القرآن فهو يدخل في حيز الإعجاز.

ومن ثم فإن الذي يمكن أن يوصل إليه بالتعلم يتقارب فيه الناس، ويرمون فيه إلى حد، فإذا تجاوزوه وقفوا بعده لم يمكنهم التخطي إلا أن يحصل ما يخرق العادة، وينقض العرف، وهذا لا يكون إلا للدلالة على النبوات.

لذلك فالإنسان قد يقذف طبعه في النادر البيت البديع والقطعة في ديوان الشاعر، وقد يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين وقطعة أو قطعتين، وهذا قليل. وإذا اطرد كلامه في هذا المسلك لأمكن أن يدعي فيه الإعجاز، لكننا نعلم قلة الأبيات الشوارد، والكلمات الفرائد وأمهات القلائد، فالباقلاني لا ينكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة، ولفظة بديعة، لكنه ينكر أن يقدروا على نظم سورة كاملة يصلون فيها إلى الحد الأعلى في البلاغة[49].

ولا يدرك هذا الإعجاز إلا من له دراية بالفن الذي جاءت فيه، لأنه يملك العلم الذي يمكنه من هذا الإدراك، لأن الإنسان المتناهي في الفصاحة والمتمكن منها ومن علم الأساليب متى سمع القرآن، عرف أنه

معجـــز، وأدرك أنـــه وغيره عاجزون إزاء هذا القـــرآن. وعجزه ليس عجز عدم قدرة، لكن لإدراكه اســـتحالة الوقوع، فـــإذا كان إخراج اليد البيضاء مـــن الجيب خارجا عن العادات، فهو لا يجوزه من نفســـه، وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره [50].

ولا تفتقر نظرة الباقلاني إلى سند واقعي وفني، فإن تميز بعض أعمال الشاعر من دون غيرها يشير إلى هذا، ونحن نعلم أن الدفقة الفنية المتميزة نادرة شحيحة، لحظة عزيزة، يصعب على الفنان التمسك أو الاحتفاظ بها طويلا. لذلك قل أن نجد قصيدة أو عملا فنيا متكاملة أطرافه، تصل إلى حد واحد من التميز.

إن هذه الفكرة، بعيدا عن التوقف عند الإعجاز، جديرة بالنظر والمتابعة وما أكثر الشواهد عليها من ألسنة الشعراء أنفسهم وسلوكهم.

2 - الباقلاني ومعلقة امرئ القيس

اســـتقرت - إذن - في ذهن الباقلاني حين دراســـته لإعجاز القرآن تلك الفكرة الرئيســـية التي اعتمد عليها ونعني بها: الكمال إزاء النقص، الكمال الإلهي إزاء النقص البشـــري من خلال دراسته الإعجاز القرآني، و«إن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم ويتقدم في بلاغته على كل قول» [51].

ولكـــي يقدم دليلا عمليا على ما ذهب إليـــه كان لابد من أن ينظر في كلام العرب ليميز بينه وبين القرآن، وقد أورد أمثلة كثيرة ونماذج من أدب العرب وتحدث عنها، ولكي يعطي فكرته حقها من البروز، اختار شـــاعرين بارزين: من القدماء امرؤ القيس، ومن المحدثين البحتري.

وقـــد وقع اختيـــاره - أولا - على امـــرئ القيس «فهـــو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه، وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وقائدهم الذي يأتمون به، وإمامهم الذي يرجعون إليه، كيف ســـبيله، وكيف طريق سقوط منزلته عن منزلة القرآن» [52].

ويشير إلى أنه لا شك «في جودة شعر امرئ القيس وبراعته وفصاحته وأنه أبدع في طرق الشعر أمورا اتُّبع فيها، من ذكر الديار والوقوف عليها، إلى ما يصل بذلك من البديع الذي أبدعه، والتشـــبيه الذي أحدثه، والمليح

الذي تجد في شـعره، والتصرف الكثيـر الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسـم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسـة وعفو، ومتانة ورقة، وأسـباب تحمد، وأمور تؤثر وتمدح، وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشـعره فلانا وفلانا ويضمون أشـعارهم إلى شعره، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شـعره في أشـياء لطيفة، وأمور بديعة، وربما فضلوهم عليه، أو سووا بينهم وبينه، أو قربوا موضع تقدمه عليهم، وبرزوه بين أيديهم».

وكمـا اختار أمير شـعراء الجاهليين، وقـع اختياره أيضـا على أهم قصائـده، ونعني بها المعلقة، لتكون محلا لمناقشـته وإبراز فكرته فهي من المختارات، فقد اختاروها في «السبعيات» [53]، لهذا عمد إليها فهي - كما يقـول - قصيدة متفـق على كبر محلها، وصحة نظمهـا، وجودة بلاغتها، ورشـاقة معانيهـا، وإجماعهـم على إبـداع صاحبها فيها، مـع كونه من الموصوفـين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة، فنقفك علـى مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلـى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقـرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سـوقي، يقرن بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه [54].

اختار الباقلاني من المعلقة ستة وثلاثين بيتا تمثل تقريبا ثلثي القصيدة وراح - علـى حد تعبيره - يبين عوارهـا متناولا الأبيات المختارة بيتا بيتا، مسـلطا ثقافتـه ومجيلا فيها عقلـه الجدلي الذي يتميز بـه. ولم تخرج مناقشته عن حدود السائد من الثقافة آنذاك.

نسـتطيع القول إن مدار ملاحظاته ينصب ويـدور حول مجموعة من القضايـا، وبتحديد أدق، ينصب على الثنائي الأساسـي في كل عمل فني، والذي تناوله النقاد قديما ونعني به:

- المعنى.
- اللفظ وقضايا الشكل الفني [55].

فهذه هي المتطلبات الأساسية التي كان يدور حولها النقاد ويسجلون حولها ملاحظاتهـم، ومن ثم اعتمدها الباقلانـي لخدمة غرضه الذي يسعى إليه. ولن تكون هذه الملاحظات غريبة على قارئ الكتب القديمة،

فقد جمع الباقلاني شتاتها وأضاف إليها وحاكاها في مواجهته لنص امرئ القيس هذا، وسننظر في هذه الجوانب لنرى الكيفية التي سار بها في نقده.

أولا: المعنى

في حديثه عن المعنى ومتابعته التقييمية له، نجده يدور حول أربعة محاور أساسية، تجتمع فيها بعض توجهات النقد العربي القديم، ونجملها فيما يلي:

- فكرة الكمال.
- التناقض.
- مستوى الصحة والخطأ.
- النظرة الخلقية.

وهذه المحاور الأربعة تمثل أهم الجوانب التي احتضنها التراث النقدي العربي بالنسبة إلى المعنى، ولن نعدم أمثالها في النقد القديم عند الأمم الأخرى.

أ - فكرة الكمال

فكرة مطردة عند القدماء، فالفن لا يحاكي الواقع أو يعكسه ولكنه يرسم صورة محسنة، متجاوزة حرفيته لتكمل نقصه، يرسم الصورة المثالية المعوضة لهذا النقص، وليست هذه المرة الأولى التي يعاب فيها امرؤ القيس، ففي الحكومة المشهورة في النقد القديم والتي عقدتها أم جندب، بينه وبين علقمة، نجدها فضلت وصف علقمة الفحل لفرسه على وصف امرئ القيس لجواده، وكانت حجتها قائمة على أساس أن وصف فرس علقمة كان يدنيه من الفرس المثالي، بينما ينزع وصف فرس امرئ القيس إلى الجانب الواقعي، وفي هذا التوجه اقتراب من شرط أرسطو من أن التعبير الفني هو ما يجب أن يكون لا ما هو كائن.

إن فكرة الشـــيء الكامل، أو تصوير الشـــيء على هيئـــة المثال الذي لا يدرك، سمة من سمات النظرة القديمة، لذلك أخذت المبالغة أو الغلو حظا من العناية عند بعض من تصدى للنقد، ومن ثم فليس من الغريب أن تكون نظـــرة الباقلاني تمر، في بعض ملاحظاته من خـــلال هذا المقياس الذي يقيس عليه شعر امرئ القيس.

عندمـــا نتأمل هذه الأمثلة ســـنرى أن الباقلاني يدور حول هذه الفكرة التي استقرت عند النقاد القدماء، يقول في تعليقه على بيت امرئ القيس:

ففاضت دموعُ العين مني صبابةً   على النحر حتَّى بلَّ دمعي مِحْمَلي

« .. ثـــم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محمله، تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول: حتى بل دمعي مغانيهم وعراصهم. ويشبه غرضه إقامة الوزن والقافية، لأن الدمع يبعد أن يبل المحمل، وإنما يقطـــر من الواقف والقاعد علـــى الأرض أو على الذيل وإن بل فلقلته وأنه لا يقطر» [56].

فقد لاحظ أن إحســـاس الشاعر بأن دموعه قد أفرطت في الإفاضة، لا يعكســـه منطوق كلماتـــه، ويتضح هذا مـــن جهتين همـــا: أن الدمع بل المحمل، بينما كان المفـــروض - وفق قانون المبالغة - أن يقول: بل مغانيهم وعراصهم. أي أن على الشـــاعر ألا يكتفي بالمحمل فقط لكنه يتجاوزه إلى الساحة المحيطة!

والملاحظة الثانية التي يسجلها الباقلاني على الشاعر هي أنه استخدم كلمة «يبل»، بينما كانت المبالغة تقتضي أن يقول يقطر ويسح ليكون أبلغ.

وواضح أن الملاحظتين ترتكزان على التقصير في المبالغة، أي القصور عن الوصول إلى الكمال في تصوير الحالة التي أمامه.

وهذه الفكرة تتضح في صورة أوضح حين تعليقه على قول الشاعر:

إذا قامتا تضوَّع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريَّا القرنفل

قـــال: «ولو أراد أن يجود أفاد أن بهمـــا طيبا على كل حال، أما في حالـــة القيـــام فقـط، فذلك تقصيرا!». «ثـــم فيه خلل آخر: لأنه بعد أن شـــبه عرفها بالمسك، شـــبه ذلك بنســـيم القرنفل، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص» [57].

بون شاسـع بين الذي يعتمد على معيار اسـتقر في ذهنه وتسلط على أحكامه وبين فنـان ينظر بمنظار مختلف يتلاءم مع طبيعة ما يصور، وإذا كانت فكرة الكمال تستدعي أن تكون رائحة المسك صفة دائمة لازمة ليكون هـذا أكمل، فإن امرأ القيس تختلـط في ذهنه صورة أخرى، هي من مادة الواقع الملموس، فحين الحركة يتطاير العطر بعد سـكون فينتشـر مغيرا طبيعـة ما حوله، وهذا التلازم بين الحركـة والرائحة يلتقطه حس الفنان ويعمل فيه خياله فيشيع فيه حياة خاصة، بينما اكتفى الناقد بالوقوف عند فكرة الأشمل والأكمل من وجهة نظر منطقية.

ومثل هذه أيضا الملاحظة الثانية فهو يرى أن التشبيه يكون بين ما هو أدنى إلى الأعلى في بابه، «والمسـك» - فـي رأيه - أعلى درجة من رائحة النسيم الحامل لرائحة القرنفل، ومن ثم لا مجال هنا للتشبيه. وهذا تحكم آخـر لفكرة ثابتة قائمة على الأكمل - والأعظم - وليس هذا يلازم - فقد كان حس امرئ القيس أدق، وقد ضرب بعرض الحائط كل المقولات ما دام يرى نبض الحياة في موضوعه، فحركة نسـيم الصبا - بما تحمل من ريا القرنفـل - كانت في خيال امرئ القيس هي الصورة المكملة لهذا المسـك الذي يتضوع منها.

وهناك أيضا فكرة أخرى مكملة للسـابق، تدور في ذهن الناقد القديم ركـن إليها الباقلاني في نقده، ونعني بها التقليد الفني المتبع، الذي حمده النقاد واستراحوا إليه، فعلى سبيل المثال، لا يعجبه قول الشاعر:

أغرَّكِ مني أنَّ حبَّك قاتلي وأنك مهما تأمُري القلب يفعل

يورد على هذا البيت ملاحظاته ومنها أنه لا يحق للشاعر أن ينكر تدلل الحبيبة: «وكيف ينكر عليها تدللها، والمتغزل يطرب على دلال الحبيبة» [58].

ولم يدرك الباقلاني أن قبول الدلال من المحب لا يمنع إنكاره له.

ب - التناقض

ويمثـل التناقض في المعنى المحور الثاني الذي سـلطه الباقلاني على المعلقـة، فهو يأخذ على الشـاعر أنه يقول الشـيء ونقيضه، وواضح هنا أنه لا يتحـدث عن التناقض في موقفين وقصيدتين مختلفتين، حيث نجد

أن هنــاك من أجاز هذا، أو على حد تعبيــر قدامة بن جعفر الذي لا يرى الشاعر المتناقض مخطئا «من أجل أنه لم يكن في شرط شرطه يحتاج إلى ألا ينقض بعضه بعضا، ولا في معنى ســلكه في كلمة واحدة، ولو كان فيه لم يجر مجرى العيب؛ لأن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا، بل إنما يراد منه، إذا أخذ في معنى من المعاني - كائنا ما كان - أن يجيده في وقته الحاضر لا أن يطالب بألا ينسخ ما قاله في وقت آخر» [59].

لكن التناقــض المعيب هو الذي يأتي في الموقــف الواحد أو القصيدة الواحدة، بحيث لا يكون الشــيء وعكسه في الموقف نفسه، وهي أيضا من مقولات النقد القديم القائمة على أساس من المنطق.

لقد وقف عند قوله:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها — لما نسجتها من جنوب وشمأل

قائــلا: ثم في هذه الكلمة خلل آخر، لأنــه عقب البيت بأن قال: «فهل عند رســم دارس من معول»، فذكر أبو عبيدة: أنه رجع فأكذب نفسه، كما قال زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم — نعم، وغيرها الأرواح والديم

وقال غيره: أراد البيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله، وبالثاني أنه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان.

وليــس في هذا انتصار، لأن معنى «عفا» و«درس» واحد، فإذا قال: «لم يعف رسمها»، ثم قال: «قد عفا، فهو تناقض لا محالة» [60].

وواضح أن الباقلاني في إصراره على تناقض الشاعر يقف عند حرفية الدلالة، فإذا كان الشاعر قد قال أولا: إن رسمها لم يعف، ثم عاد فوصفه بأنــه رســم دارس فإنما هذا آت من أنه يرى الشــيء واحدا، فالبقايا من الطلل، وإن ظهرت، لا تمثل القائمة الحية، فقد خلا وأقفر، فدروســه آت من خلوه، وبقاياه تظل بقايا طلل ولا تزيد على هذا ومن ثم فهو سواء ظهر بعضه أم درس كلــه، معناه الماثل أمامه واحد لا يتغير، يهيج الذكرى ويثير صورة الراحلين. وهذا الجو بكامله هو الذي أثار شجون الشاعر، وأخذت معانيه تضرب في أماكن عدة، وليســت التفاصيل إلا تعداد مراحل معينة للذكرى في الذهن. ونتذكر هنا قول عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده　　　　أقــوى وأقـفـر بـعـد أم الهيثم

وتحت هذا المنظور - التناقض - يقف أيضا عند قول الشاعر:

وإن شِفَائي عبرةٌ مهراقةٌ　　　　فهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

يرى في هذا البيت أنه: «مختل من جهة أنه جعل الدمع في اعتقاده شافيا كافيا، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى، وتحمل ومعول عند الرسوم؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن، ثم يسأل هل عند الربع من حيلة أخرى» (61).

فها هو الباقلاني مرة أخرى يصر على أن الشاعر إذا حدد شيئا فلا ينصرف إلى غيره معتبرا أن هذا نوع من التناقض، فالشاعر هنا قد حدد أولا أن الدمع المراق فيه شفاء له، ثم انصرف عن هذا وراح يبحث عن معول يشفيه فيقف متسائلا: هل يجده عند مثل هذا الرسم؟ وبين الفكرتين تناقض، أو عودة مرة أخرى إلى البحث والتعدد بعد التحديد.

ويحاول الباقلاني أن يزيل هذا التناقض وأن يضع بديلا وهو أن على الشاعر أن يذكر أن الدمع لا يشفيه ولا يعزيه، ومن ثم هو يبحث عن معين جديد، وهو اقتراح ممجوج ولا جديد فيه، وهو يخضع للمقولة نفسها التي تعتمد على المبالغة وتجاوز الحد، بينما كان الشاعر ينطلق عن إحساس متميز يجسد اللحظة التي لا تقول شيئا واحدا فقط ولكنها تشي بأكثر من شيء يجسد اللحظة، فالشعر هنا إذا كان قد وقع حقا في تناقض بين فكرتين، فإن هذا التناقض الظاهر لا يمثل خللا فنيا ما دام الموقف النفسي والفني يحتملانه، ففي لحظة اهتزاز الشعور والعاطفة قد نثبت شيئا ونتجاوزه وننفيه، وليس هذا تناقضا، لكنه استجابة طبيعية لهذا الموقف.

ولن تعوزنا الحيلة، حين نستعمل أيضا الفهم العقلي الذي يسير عليه الباقلاني، فنقول إن الدمع يمكن أن يشفي، أو يخفف الحزن، لكن ألا يمكن أن يجد عند الطلل معولا آخر يلجأ ليخفف عنه، أو أنه مجلبة للدمع الشافي، ومن ثم يتحد الاثنان؟!

ولابـد هنا من ملاحظـة أن التناقض في الفن الـذي وقف الباقلاني يعيبه ويقلل من مقدرة الشـاعر لوقوعه في شـعره، هـذا التناقض يؤدي وظائف خاصة بعيدة عن تحكـم المقاييس العقلية المحددة التي لا تتطابق مـع تموجات العاطفة القادرة على إزالة التناقض من خلال الخيال القادر على صهره ودمجه في حالة واحدة تقبله كاملا بإيحاءاته المتميزة.

إن الكلمة الشعرية حاجتها مختلفة في نوعيتها عن حاجة وخصائص الكلمة العادية للمنطق، لأن الشـعر يسـتخدم الكلمة والصورة والإيحاء اسـتخداما خاصا قد يصل في لحظة ما إلـى حكم عقلي، لكن هذا لا يتـم إلا فـي المحصلة النهائية وتبقـى التفصيلات في منأى عن حرفية القياس المنطقي.

فالفـن لا يحارب المنطـق ولكنه يقدم منطقا خاصـا لفهم الحياة من حولنا، وهذا هو الجانب المهم الذي عجز عن إدراكه الباقلاني.

ج - مستوى الصحة والخطأ

قضيـة الصحة والخطأ في الفن متصلة بالتفكير المنطقي والمتمسـك بحرفية الواقع، فالقائلون بها يعتمدون على مدى صدق المقولة ومطابقتها لهذا الواقع أو مخالفتها له، وهذا هو الذي نلمسه في الملاحظات المنحدرة إلينا في كتب النقد.

وهذا الواقع الذي نشـير إليه ليس فقط الواقع المادي ولكنه يتجاوزه إلى مـا هو في حكمه مثـل الواقع اللغوي، وما أكثر الملاحظـات المتعارف عليها بحيث يشـكل الخروج عليها خطأ لا يقبل، ويمتد هذا إلى ما هو أدق بحيث تصل إلى الصورة الفنية والمجاز المقبول حين يشيع وينتشر فيلزم الشعراء به.

وهكـذا نجد أن كتـب النقد قد توالدت فيها هـذه المتابعات لمثل هذه الأخطاء، وقد تشـعبت الأطر التي يركن إليها الناقد محاسبا على أساس من المعيار المسبق والمتحكم.

وأقرب الأمثلة التي يسـير عليهـا الباقلاني على ضوء هذه التصورات ذلـك المثال الذي يحتكم إلـى الواقع الملموس، أو مطابقـة المقولة للواقع حينما ردد ما عابه النقاد على قول امرئ القيس:

إذا ما الثُّريَّا في السماء تعرّضتْ   تعرُّض أثناء الوِشاح المُفَصَّلِ

يقــول: «قد أنكــر عليه قوم قوله: إذا ما الثريا في الســماء تعرضت»، وقالوا: الثريا لا تتعرض، حتى قال بعضهم: سمى الثريا وإنما أراد الجوزاء، لأنهــا تعرض، والعرب تفعل ذلك، كما قــال زهير: «كأحمر عاد» وإنما هو أحمر ثمود [62].

ولابد هنا من الإشــارة إلى أن الباقلانــي عندما أورد هذا البيت مثالا على مخالفة الشــاعر للواقع وسوقه للتخريجات والتفسيرات المختلفة له، نجده بعد ذلك لا يســلم بأن هذا البيت معــاب من حيث عابوه، ويعده من محاسن القصيدة [63]. وهذا اجتهاد يحسب له.

لكن هذا التســاهل إزاء هذا البيت يقابله رفض كامل في موقع آخر لبيــت رأى أن في معنــاه ما يجافي المألوف والســائد، فهو في أول بيت من المعلقة حينما دعا الشــاعر إلى الوقوف والبكاء على الأطلال، يقول: «فأول ذلك: أنه اســتوقف من يبكي لذكر الحبيب، وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي، إنما يصح طلب الإسـعاد في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه ويرق لصديقــه في شــدة برحائه فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشــيق رفيقه، فأمر محال».

فــإذا كان المطلوب وقوفه وبكاءه أيضا عاشــقا، صــح الكلام من وجه وفسد المعنى من وجه آخر! لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه، والتواجد معه فيه! [64].

واضــح أن الباقلانــي قد جرفته هنــا النظرة الحرفيــة، فلم يفهم من هذه الدعوة إلا شــيئا واحدا، هو أنــه ليس هناك من منطق واضح لدعوة الآخرين إلى البكاء مع الشاعر على ممن يحب. لذلك كان فهمه منحصرا في أن:

- ذكرى الحبيب لا تســتدعي بكاء الرفيق، فليس هناك من ســبب لأن يبكي هذا المرافق على حبيب صديقه.
- وإذا كان بكاء الرفيق على الحبيب لأنه عاشق له، فكيف لا يغار هذا على حبيبه.

وهذا تصور قاصر يريد ألا يتجاوز المعنى المباشر إلى الدلالة الأشمل، فالحبيب هنا مطلق وليس محددا، فكل بكاء إنما ينصرف إلى ما يخص الشخص ضمن هذه الصورة الجماعية، وهل كان يخلو عربي مرافق لامرئ القيس من إحساس بالحزن على الأحبة الراحلين؟ فتعدد وشمول هذا الموقف يستدعي مثل هذه الدعوة.

ومن البداهة المسلم بها أنه من البعيد جدا أن الشاعر كان يدعو مرافقه إلى أنه محب للحبيب نفسه! إن الإسعاد أو التسرية تأتي من هذا البكاء الجماعي، ففيه تقليل من حدة الحزن الوحيد، فعندما يكون الألم جماعيا يحس الإنسان بأنه لا ينفرد بألمه ولكن هذا الألم جزء من كل. ألم يسمع الخنساء وهي تقول:

ولولا كثرةُ الباكين حولي — على إخوانهم، لقتلت نفسي

وما يبكون مثلي أخي ولكن — أُعزي النَّفْسَ عنه بالتأسي

يعرج بعد ذلك على تفسير الأصمعي لهذا البيت - بيت امرئ القيس - رافضا قوله من أن حزن الشاعر باق ما دام الرسم باقيا، فلو عفا لاسترحنا. والباقلاني يرى أن هذا الانتصار لمعنى الشاعر يوقعه في خلل وأنه «يكون من مساويه أولى، لأنه إن كان صادق الود، فلا يزيده عفا الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد» [65].

وهكذا نرى أن مطابقة المعنى للواقع المادي أو اللغوي أو ما ألفه الناس، مثل الصخرة الصلبة التي يتكئ عليها الباقلاني في نقده لهذه القصيدة، ولم يكن محقا فيما ذهب إليه، فلم يكن الشاعر بناقل للواقع أو تارك نفسه أسيرا لغيره، ولكنه كان يحاول أن يعبر عن اللحظات التي يحس بها إحساسا فنيا واعيا.

د - النظرة الخلقية

النظر إلى الفن من خلال المقياس الخلقي قديم، إن لم يكن أقدم المقاييس، وهي نظرة آتية من منبع اجتماعي من جانبيه الديني والتهذيبي. ولا نعدم - في كل العصور - وجود مؤيدين - لها - ومعارضين، ونحن نجد بعض النقاد العرب من ينظر إلى هذا الجانب نظرة تقدير أو يعطيه اهتماما خاصا، بينما يقف آخرون ليفصلوا بين الجانب الخلقي والديني

والفن، وتحت جناح الفصل بين الأخلاق والفن قبل الكثير من شعر الهجاء والشـــعر الخليع من دون حرج، وكما يقول قدامة بن جعفر: وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا رداءته في ذاته (66).

ومـــن الطبيعي ألا نرى مثل هذا التســـامح عند الباقلاني، فلا يقبل أبيات امـــرئ القيس التـــي تخرج عن المألـــوف والمقبول من التصريـــح والتلميح إلى الكشـــف والصراحة، فهو يرى أن عقر الشاعر لمطيته سفاهة، وأن هذا البيت لو سلم من العيوب «لم يكن فيه شيء غريب، ولا معنى بديع، أكثر من سفاهته، مع قلة معناه، وتقارب أمره، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا» (67).

ويسلط بعد ذلك مقياسه الخلقي على أبيات امرئ القيس المشهورة:

فقلتُ لها: سيري وارخي زمامَه ... ولا تُبْعديني من جَنَاك المُعَلَّلِ
فمِثْلُك حُبْلى قد طرقتُ ومرضعٍ ... فألهيتُها عن ذي تَمائِمَ مُحْوِلِ
إذا ما بكى من خَلْفها انصرفتْ لهُ ... بشقٍّ وتحتي شقُّها لم يحوَّلِ

إن حكمـــه على هذه الأبيات يقوم على أن الشـــاعر قد وصف نفســـه بأنه زير نســـاء، وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن، لأن الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال.

ويـــرى أن كونه مفســـدة لهن لا يوجب له وصلهن وتـــرك إبعادهن إياه، بل يوجب هجره والاســـتخفاف به، لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش، وركوبه كل مركب فاسد! وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره، أما البيت الثالث فهو: «غاية في الفحش، ونهاية في الســـخف، وأي فائدة لذكره لعشـــيقته وكيف يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب، ويرد هذه الموارد؟! إن هذا ليبغضه إلى كل من ســـمع كلامه، ويوجب له المقت! وهو - لو صدق - لكان قبيحا، فكيف: ويجوز أن يكون كاذبا» (68).

واضح، إذن، مقياســـه الخلقي الذي أســـقط، من خلاله، هذه الأبيات لصراحتهـــا وانكشـــاف معناهـــا وخروجها عـــن المألوف، ومـــن المؤكد أن الباقلانـــي لم يكن يقف منفردا في حكمه هذا، بينما كان الشـــاعر بعيدا كل البعد عن هذا الحكم فهو منســـاق مع الصورة الفريدة التي استطاع أن يبدعها في أبياته هذه.

وبهـذا تكتمل الجوانـب الأربعة التـي اعتمدها الباقلانـي في نظرته للمعنى. وما لا شك فيه أن المقولات التي كان الباقلاني يرددها هي حصيلة كاملة للنقد الذي وجه إلى هذه المعلقة، جاء الباقلاني وسلكه في خط واحد متتابع، وأكسبه نظرته ضد النص للدفاع عن فكرة الإعجاز القرآني.

ثانيا: قضايا الشكل الفني

لـن يخرج الباقلاني فـي تناوله قضايا اللفظ - والشـكل الفني - عن ثقافـة عصره وما وفرت لـه من فهم وقدمت له مـن معلومات أولية. ففي متابعته لهذه القصيدة المعلقة سـنلمس أن المسـارات المهمة التي كان يسير فيها أصحاب الملاحظات النقدية من القدماء، هي نفسـها التي يسير فيها، ومن ثم نجده يثير موضوعات من مثل: الاختلال اللغوي - الألفاظ ودلالاتها - الترادف - التطويل والحشـو والتكرار - الأساليب الركيكة - الصيغ غير المقبولة - الألفاظ الحوشية - الوحدة داخل البيت - الوحدة في القصيدة.

هذه هي النقاط الرئيسـية التي كان يلتقطها وهو يستعرض القصيدة، مسـتخدما إياها لبيان أن اندفاعة الفيض الشعري عند الشاعر المتميز لا تخرج عن الطاقة الإنسانية المحددة المحكومة بقدرته إزاء الكمال الرباني. وكان إلحاحه على هذه الفكرة يجعله يطلق العنان لتفسيراته لهذه الجوانب التي راح يتلمسها.

نجده يتوقف عند الكلمات التي يعتقد أنها وحشية صعبة لا يرى مبررا لصعوبتها ولا فائدة منها، خاصة إذا كانت قد وردت وسط كلام يشبه كلام المولدين في سهولته، فيقول في تعليقه على قول الشاعر:

فلما أجَزْنا ساحة الحيّ وانتحى　　بنا بطن خبْتٍ ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

«وهذا بيت متفاوت مع الأبيات المتقدمة، لأن فيها ما هو سـلس قريب يشـبه كلام المولدين وكلام البذلة، وهـذا قد أغرب فيه وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة، وليس في ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامه فائدة».

يعيب هنا على الشاعر أمرين:

- استخدامه للوحشي من الكلام من غير طائل.
- تفاوت النسج بين الوحشية والسهولة.

ويمكن أن ندخل في هذا الباب ملاحظته على بيت الشاعر:

مهفهفةٌ بيضاء غيرُ مفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجنْجَل

حيث يرى أن هذا البيت فيه مخالفة في الطبع للأبيات المتقدمة عليه، وأن فيه نزوعا إلى الألفاظ المستكرهة [69].

لكنه، من جهة أخرى، يرى أن الكلام الغريب واللفظة الشريدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها. كقوله تعالى في وصف يوم القيامة: «يوما عبوسا قمطريرا..».

ولعل هذا الاستدراك من جانبه يشير إلى أنه يرفض تفاوت الأسلوب من دون حاجة فنية. وعدم مشاكلة الأبيات وانسجامها.

ومع صحة هذه المقولة في عمومها. فإن الملاحظة الرئيسية التي لابد من إثارتها في هذا الموضع هي أن الباقلاني في متابعته للمفهوم السائد آنذاك بشأن الفصاحة والألفاظ المستأنسة المألوفة يتجاهل حقيقة أساسية وهي أن السهولة والوعورة اللتين أحس بهما، هما انعكاس لشعوره الخاص إزاء ألفاظ الشاعر. فميز بين نوعين من الألفاظ، وقد لا يكون هذا الشعور هو نفسه عند الشاعر وسامعيه في عصره، فباب الألفاظ آنذاك واحد، وألفتهما متساوية، فاحتجاجه ساقط لأنه ليس حكما دقيقا على ألفاظ شاعر تفصله عنه أربعمائة سنة.

وكما عاب التوحش، لا يفوته التوقف عند الترادف وما هو في حكمه حيث الألفاظ والجمل التي تؤدي معنى واحدا. فهو يشير أولا، إشارة عابرة، إلى استخدام الشاعر لكلمة عفا ثم درس بمعنى واحد. ثم يشير إلى قوله:

فقمتُ بها أمشي تَجُرُّ وراءنا على إثرنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَجَّل

يقول: «وفيه تكلف. لأنه قال: «وراءنا على إثرنا»، ولو قال «على إثرنا» كان كافيا، والذيل إنما يجر وراء الماشي، فلا فائدة لذكر وراءنا» [70].

وكما تتبع الألفاظ نظر في الأساليب النحوية واللغوية، وتتبعها من ناحية السلامة اللغوية، فيعلق على قول الشاعر «لما نسجتها من جنوب وشمأل» قائلا: «وقوله «لما نسجتها»، كان ينبغي أن يقول: «لما نسجها» ولكنه تعسف فجعل «ما» في تأويل تأنيث لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير من دون التأنيث، وضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف» [71].

وتدور أمثلته الأخرى حول هذا، مثلا:

- وقوله: «لم يعف رسـمها» كان الأولى أن يقول: «لم يعف رسمه» لأنه ذكـر المنزل. فـإن كان رد ذلك إلى هذه البقاع والأماكـن التي المنزل واقع بينهـا. فذلك خلل، لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزل حبيبه، بعفائه، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره (72).

- «وقوفا بها صحبي على مطيهم»، وقوله «بها»: متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ. ففي ذلك تكلف وخروج عن اعتدال الكلام» (73).

فظلَّ العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهدَّاب الدِّمقس المفتَّل

وفيه شـيء وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشـحم، فلا يعلم أنه وصف شحمها، وذكر تشبيه أحدهما بشـيء واقع للعامة، ويجري على ألسنتهم، وعجز عن تشـبيه القسمة الأولى فمرت مرسلة! وهذا نقص في الصنعة، وعجز عن إعطاء الكلام حقه (74).

تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ معشرٍ عليَّ حراصا لو يُسرُّنَ مَقْتَلي

وقوله: «لو يسـرون مقتلي» أراد أن يقول لو أسروا، فإذن نقله إلى هذا ضعـف ووقع في مضمـار الضرورة، والاختلال علـى نظمه بين، حتى أن المتأخر ليحترز من مثله (75).

وقد يتجاوز مثل هذه الملاحظات إلى ما هو أدق وأقرب إلى روح التناول الشـعري، حينما ينظر في ظـلال الكلمات وإيحاءاتهـا على النفس، مثل وقفته إزاء قول الشاعر:

تصُدُّ وتُبْدي عن أسيلٍ وَتَتَّقي بناظرةٍ من وحش وَجْرَةَ مُطفِلِ

وهنا يتوقف عند دلالة اللفظ وما يوحيه في النفس، فتلفت نظره كلمة «وحـش» ويرى أن قوله: «تتقي بناظرة»: لفظة مليحة، لكن أضافها إلى ما نظـم به كلامه، وهو مختل، وهو قولـه: «ومن وحش وجرة» وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا، كان من سـبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها من دون إطلاق الوحش، ففيهن ما تستنكر عيونها.

ويلحـق بهذا أيضا ملاحظته على قول الشـاعر: «وجيد كجيد الريم ليس بفاحش». حيـث يرى أنه «كلام فاحش موضوع» وتوصف الأعناق ما يشبه السحر، فكيف وقع على هذه الكلمة، ودفع إلى هذه اللفظة (76).

وبغض النظر عــن توجيهاته واقتراحاته، فــإن نظرته هذه قد يوافقه البعــض فيها، لكن هــذا لا يمنع من الالتفات إلى أن بيت الشــاعر يحمل في داخله دلالة كلية توجه هذا اللفظ وتكســبه من روح المعنى الذي يريد الشــاعر أن يشيعه في ذهن متلقيه، فهذه النظرة المركبة تعني شيئا كثيرا، عجــز هو عن إدراكــه وجعل ظلال الكلمة وانعكاســها عنده حكما أخيرا، بينما هو بعيد كل البعد عن تصور المعنى الذي أراده الشاعر.

ولا يكتفــي الباقلانــي بمناقشــة اللفظ مــن ناحية صحة الأســلوب فــي إطاره الخارجي، ولكنــه ينظر أيضا إلى الأبيات كاشــفا كل خلجات الاضطراب التي يلاحظها، مكثفا النظرات الســائدة عند دارســي النص الأدبي ليسخرها لخدمة هدفه الذي يسعى إليه، فقد أجال عينيه في كتب الأدب واســتخرج المآخذ التي تتعلق بنص امرئ القيس هذا، ودرس إمكان تطبيق النظرات الأخرى على هذه القصيدة.

لذلك نجده يثير قضايا من مثل: الحشو - التطويل - التكرار - التناسق - النظم القبيح - الأسلوب الركيك - وحدة البيت - الوحدة العامة... إلخ.

ولم يكن هو متفــردا فيما يقول ولكنه كان يعكس ثقافة عصره، ومدار تفكير نقاد النص الأدبي ودارسيه، وقد كان عصرا متوثبا خصب التفكير، واجه كل أطراف ثقافته بجدية واضحة، وكانت محاولة الباقلاني هذه في دراسة الإعجاز واحدة وشاهدة على هذا النضج الفكري.

ينظر إلى بيت امرئ القيس [77]:

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خدرَ عُنَيْزة ... فقالت: لك الويلاتُ إنّك مُرْجلي

تقولُ وقد مال الغبيط بنا معاً ... عقرتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزل

نجده يسجل على هذه الأبيات الملاحظات التالية:

- إن تكــرار قوله: الخدر خدر عنيزة، إنما هو تكرار لإقامة الوزن وأنه لا فائدة فيه، ولا ملاحة ولا رونق، فهو إذن حشو!

- وعلى مثل هذه يحمل قول الشاعر: «فقالت لك الويلات إنك مرجلي». لا فائدة منه غير تقدير الوزن، وإلا فحكاية قولها الأول كاف.

- ويلاحظ أيضــا أن النظم هنا قبيح «لأنه ذكره مرة»، «فقالت»، ومرة «تقول»، في معنى واحد، وفصل خفيف.

– ويلاحظ ثالثا أن قوله: «فقالت: لك الويلات إنك مرجلي» صيغة غير مقبولة، «فهو كلام مؤنث من كلام النساء. نقله من جهته إلى شعره! وليس فيه غير هذا» (78).

ونجد أن مثل هذا التعليق يسوقه إزاء قول الشاعر: أفاطم مهلا بعض هذا التدلل.

يـــرى فيه ركاكة، وتأنيثا ورقة، وهو يـــدرك أن هناك من يقول إن كلام النســـاء ما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل. فلا يقبل هذا ويرى أنك تجد الشعراء في الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم (79).

ويقـــف عند قـــول أبي عبيدة الـــذي علق على قـــول امرئ القيس «عقرت بعيري» ولم يقل ناقتي، لأنهم يحملون النســـاء على ذكور الإبل لأنها أقوى.

ولا يرى الباقلاني هذا الرأي ولا يقبل هذا التوجيه، فالأظهر عنده أن كلمة البعير اسم للذكر والأنثى، وأن الأمر لا يزيد على كونه أنه احتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن.

وفي موضع آخر يعلق على قول الشاعر:

ففاضتْ دموعُ العين (مني) صبابةً   على النَّحر حتَّى بلَّ دمعي مِحْمَلي

يرى في قوله: «ففاضت دموع العين» ثم استعانته بقوله: «مني» استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مليح ولا بديع. وقوله: «على النحر»، حشو آخر، لأن قول: «بل دمعي محملي» يغني عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن. ثم قوله: «حتى بل دمعي محملي» إعادة ذكره الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول: حتى بلت محملي، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله (80).

وهكـــذا نلاحـــظ أن الباقلاني اســـتحضر أنواع الملاحظـــات الأدبية وسلطها على هذه الأبيات هذا التسليط الذي لم يقبله عدد من الدارسين مثل البغدادي، صاحب الخزانة.

لكن هذا لا يعني الاستسلام لما يذكره الباقلاني، فنحن لا نسلم بأن كل هذه وغيرها أيضا حشـــو لا فائدة منه، وأن الشاعر حينما يتجنب القلق الموســـيقي إنما يؤدي وظيفة فنية أســـاســـية، فمراعاة

إيقاع الوزن تعني معالجة أمر حيوي، فالوزن ليس شيئا طارئا لا دور له، ومن ثم تكون مراعاته حشوا لا ضرورة فنية. فهذه أمور يجب ألا تغيب عن ذهن دقيق النظر مثل الباقلاني، وليس من الإنصاف تجاهلها.

ومثل هذا نقول بشأن تعليقه على تكرار الشاعر للمواضع حينما ذكر الدخول وحومل وتوضح فالمقراة، إذ كان يرى أن على الشاعر أن يذكر بعضها، وأن «هذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العي» [81].

من المؤكد أننا لا نطالب الباقلاني - في عصره المتقدم - بأن يدرك ذلك الإحساس العميق الذي تضمنته هذه الوقفة المتميزة، وإذا كان بعض معاصرينا الآن - وبعد أن فضت أختام كثيرة عن ذلك الموقف المتميز - لا يزالون لم يتصوروا بعد عمق هذه اللحظة. نقول: إذا كان هؤلاء الذين تيسر لهم ما لم يتيسر للباقلاني لم يفهموا هذا التعديد، فإنه من اليسير علينا أن نعذر الباقلاني حينما يرى في هذا التكرار تطويلا، ولم يصل إلى خلاف هذا، وسنعذره أيضا إذا أحطنا بما دار في عصور قريبة منه من ثورة على هذا التقليد، فالعصر العباسي - الذي عاش فيه - كانت من سماته الأدبية محاولته الخروج عن هذا الإطار والثورة عليه، وتجاوزه إلى أشكال جديدة.

ولهذا تكون ملاحظة الباقلاني منسجمة مع ثقافته ومستجيبة لتيارات عصره الأدبية، وإن لم تكن صادقة في حكمها على قصيدة امرئ القيس هذا، كما أنها ليست ملائمة للعصور التالية والمعاصرة التي تستطيع، مع بعض الصبر والعمق، أن تتوصل إلى تلك الخاصية المتميزة التي يجسدها العرض لمسميات الموقع الذي يحتضن ديار أحبابه.

الوحدة الفنية

ولا يفوت الباقلاني أن يتوقف ليتحدث عن الوحدة الفنية في القصيدة. ونلاحظه يسير فيها على مستويين، الأول: الوحدة داخل البيت الشعري، والثاني: تناسب البيت مع غيره من الأبيات.

نحـــن نعلم أن هاتـــين الوقفتين لم تفوتا النقاد العـــرب القدماء، فقد عابوا تفاوت المصراعين داخل البيت، واستسخفوا الأبيات المتنافرة. وكما يقول الجاحظ: «وأجود الشـــعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، ســـهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان» [82]. وعدوا أن من الشـــعر المتكلف رديء الصنعة أن: «ترى البيت مقرونـــا بغير جـــاره، ومضموما إلى غير رفقـــة، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشـــعراء: أنا أشـــعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه».

وهـــذا رؤبة يعيب شعر ابنه أنه «ليس لشعره قران، يريد ألا يقارن البيت بشبهه» [83].

ويســـتوفي ابن طباطبا النظر في ذلك حين يقول: «وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شـــعره وتنســـيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين مـــا قد ابتـــدأ وصفه أو بين تمامه فصلا من حشـــو ليس من جنس ما هو فيه، فينســـى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه، كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد كلمة عن أختها ولا يحجز بينهـــا وبين تمامهـــا بحشو يشينها، ويتفقد كل مصراع، هل يشاكل ما قبله؟» [84].

هـــذا الأســـاس النقدي القديم، كان يـــدور على ألســـنة النقاد وإن لم يستوفوا دراسته.

ويأتي الباقلاني ليســـتثمره ويوظفه في وقفتـــه هذه إزاء المعلقة، فهو ينظر داخل البيت الشـــعري فيرى أن ثمة انقطاعـــا بين المصراعين الأول والثاني في قوله:

إذا قامتَا تضوَّع المِسْكُ منْهُما   نسيمَ الصبًا جاءت بريًا القرنفل

ويشـــير إلى أن القول «نســـيم الصبا» في تقديـــر المنقطع عن المصراع الأول، لم يصله به وصل مثله. وكذلك قوله:

فقالت: يمينَ الله مالك حيلةٌ   وما إن أرى عنك الغواية تَنْجلي

«فالـــكلام في المصراع الثاني منقطع عن الأول، ونظمه إليه فيه ضرب من التفاوت».

وكذلك قوله:

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلل … وإنْ كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

إن «المصـــراع الثاني منقطع عن الأول، لا يلائمه ولا يوافقه، وهذا يبين لك إذا عرضت معه البيت الذي تقدمه»[85].

وعندمـــا ننظر إلى إشـــارته إلى مثل هذه الأبيـــات نجده يبحث فيها عن الترابط اللغوي المباشـــر أو المنطقي الذي يســـلم فكـــرة إلى أخرى، وهذا تعســـف واضح في مجال الشعر، فهذه الأبيات وغيرها تعتمد على منطق فني خاص، والشاعر يتصرف تبعا لهذا المنطق النابع من إحساسه بالمعاني في انفصالها واتصالها، وليس من اللازم أن تكون معاني الأبيات متجـــاورة حذوا بحذو. ولم يســـتطع الباقلانـــي إدراك عمق لحظات أو لمحات التوقف والانتقال التي يستخدمها الشاعر بدلا من أن يكون أسيرا للروابط المنطقية أو اللغوية الشـــائعة. ولا ندري هل غاب عنه الشـــاهد النحوي المشهور.

ما زلت أسعى بينهم وألتبط … حتى إذا جنَّ الظلام واختلط

جاءوا بمذْقٍ هل رأيتَ الذئبَ قط

فهذا الراجـــز الطريف عندما نزل بقـــوم، وانتظر طويلا ليكرموه فأحضـــروا له لبنا مشـــوبا بكثير مـــن الماء فقال هـــذا البيت. ودلالة الصـــورة واضحة، فإن من رأى هـــذا اللبن يقول: هل رأيت الذئب قط فإنه يشبهه، فليس هناك علاقة لغوية مباشرة بين الذئب واللبن ولكن مـــؤدى الصورة الذي يتوافر من فعل الربط الفكري والتخلي هو الذي يهبنا هذا المعنى.

وكمـــا توقف عنـــد جزئيات البيت الواحد لم يفتـــه النظر في وحدة أبيات القصيدة وترتيب معانيها وتناســـقها وتتبـــع الرابطة بين اللاحق والسابق.

ولن يخرج الباقلاني عن شـــروط القدماء، في النظرية التي أشاروا إليها في بعض كتبهم من أن: «أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشـــتباه أولها

بآخرها، نســجا وحســنا، فصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان، وصواب تأليف، ويكون خروج الشــاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا» [86].

وإذا كانــت مثــل هذه الأفكار بشــأن الوحدة تــدور في الأذهان آنذاك فلا جــرم أن الباقلاني يجد فرصته ليضع يده على خلل مثل هــذا في هــذه القصيدة التي يتعرض لها. وهــو، في ملاحظاته، لم يعتــرض على تعــدد الموضوعــات داخــل القصيدة الواحدة، كما فعل بعض المعاصرين، لكنــه أثار وحدة الكتلة الواحدة، أو تناســق أجزاء الموضوع المطروح.

ويتوقف عند الأبيات:

فجئتُ وقد نَضتْ لنوم ثيابها   لدى السِّتْرِ إلا لبسة المُتَفَضِّلِ

فقالت يمينَ الله ما لك حيلة   وما أن أرى عنك الغواية تنجلي

«انظر إلى البيت الأول والأبيات التي قبله [87]، كيف خلط في النظم، وفــرط في التأليف! فذكر التمتع بهــا، وذكر الوقف والحال والحراس، ثــم ذكر كيف كانت صفتها لما دخل عليها ووصل إليها، من نزعها ثيابها إلا ثوبا واحدا والمتفضل الذي في ثوب واحد. وهو الفضل. فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكر أخيرا» [88].

والباقلاني يثير في هذا النص موضوع الوحدة المنطقية التي افتقدها، فقد كان الشــاعر يراوح بين معنى وآخر، حيث يترك المعنى الذي هو فيه، ثم يعود إليه مرة أخرى ليتحدث عن بعض أجزائه الأولى، وواضح - كمــا أشرنا - أن هــذه اللفتــة لا تختلــف كثيــرا في جوهرها عما أثــاره أوائــل النقاد المحدثين، الذين أثاروا هذه الملاحظــة: «التفكك والاضطراب».

ما الذي لاحظه الباقلاني في هذه الأبيات؟

- ها هو الشاعر يحكي بعض تجاربه النسائية، وقد تحدث عن تلك الفتاة الجميلة المكنونة في خدرها، وأن خباءها بعيد المنال، لكنه تمتع بها لاهيا غير معجل.
- وأنه لكي يصل إليها تجاوز أحراسا وأهوال معشر كانوا حريصين على قتله لو ظفروا به.

- في تلك اللحظة كانت الثريا قد تعرضت كما تتعرض في أثناء الوشاح.
- ثم قال: فجئت وقد نضت لنوم ثيابها.

هذا هو الترتيب الذي لاحظه الباقلاني، وقد تكون النظرة المنطقية للأشياء أن يسبق هذا البيت موضعه هذا إلى ما قبل الأبيات التي جاءت قبله، فتجاوز الأحراس سابق على المجيء حين نضت الثوب عنها، ونضو الثوب سابق على التمتع بها، وهكذا!

لكن الباقلاني، في حماسته، لا يلتفت إلى طبيعة البناء الشعري، بل حتى الأساليب النثرية، التي تتراوح بين الإجمال والتفصيل، وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات من هذا المنظار، فسنجد أن حس الشاعر وتلون أدائه أدق وأعمق من مثل هذه الملاحظات، فقد أجمل، أولا، المحور الذي يرتكز عليه، فإذا كانت فاطمة قد تدللت عليه، وأنها قد غرها حبه لها، وأن قلبه مستجيب لما تأمره، فإن الموقف يستدعي استحضار مغامراته مع فتاة مكنونة محمية صعبة المنال، نالها لاهيا وتمتع بها من دون عجل أو خوف، ثم بعد ذلك يحكي الكيفية التي حصلت بها هذه النتيجة.

وتأتي الأبيات بعد ذلك متناسبة خالية مما لاحظه الباقلاني، ومن ثم تسقط حجته، فقد كان الشاعر هنا أقرب إلى روح تركيز الشعر وإلى هدف الشاعر من سياق مثل هذه الحكاية، وسيجد المتأمل أن الوحدة والتناسب في مفهومهما الأعمق متوافران بشكل واضح، ولم تكن القصيدة كميات متجاورة ولكنها لحمة وسدى، تامة الشكل والبناء الفني.

تلك كانت وقفتنا مع الباقلاني، أمام قصيدة امرئ القيس المعلقة، ومهما كان التفاوت بين نظرتنا ونظرته، فليس هذا محلا لغرس الأظفار في عمل الباقلاني هذا، فالخلاف معه - والذي يفرضه التطور وطبيعة الأشياء - لا يستدعي ما ناله من باحثين، لهم حق العيب على محاولته ونقدها، بعد التعمق في كلياتها وأجزائها، ولكن لا مجال للسخرية من عمل كامل تام من حيث أركان الجدية وعمق التناول، فقد كان يملك دقة في التناول تدل على ذكاء النظر والإحاطة بما يعمل، وهو ينطلق

من أســـاس مقبول، لا يختلف بشـــأنه عاقلان، وهو أن العمل الكامل لا وجود له، وأن التميز والإعجاز في العمل الإنساني لا يتيسر ويشمل كل أجزاء العمل الفني مهما كان، وهذه حقيقة لابد من الاعتراف بها، وقد حاول الاســـتفادة منها ليصل إلى نتيجة مســـتقرة في ذهنه، عن الفرق بين الإعجاز القرآني والإبداع البشـــري، وأن الأول كمال مطلق والثاني يشوبه نقص واضح.

ولابـــد من ملاحظة الإيجابيات الكثيرة المندســـة فـــي كتابه التي تدل على نظرة نقدية متميزة تســـتوجب التوقف والاحترام، فلم يكن الباقلاني، بالرجل المستســـلم لعظمة السابقين، لذلك نجده يعيب ويمدح، بل إنه كان يشـــيد بشعر كثير من الشـــعراء المحدثين ويقدمه على شعر القدماء، وإن وقف وقفته الأخرى مع البحتري، ليوضح من خلالها أيضا فكرته التي على أساسها قام عمله.

لقد حفـــل كتابه بنظرات - مهما كان الخلاف بشـــأنها - دقيقة، وقد لامسها بعد ذلك عدد من الدارسين.

لكن التحفـــظ الذي لابد منه هو عن تلك النظـــرة «القبلية» أو الحكم المســـبق، مهما كان صدقه مع الحقيقة، ولا شـــك في أن مبررات قبوله لا تختلـــف عن مبـــررات قبول الفكر الذي حمله علم الـــكلام، فنحن لا ننكر دور المعتزلة والأشـــاعرة وغيرهم من حملة هذا العلم، والخلاف هو نفسه الخلاف، فأصحاب علم الكلام يعتمدون على أســـاس ثابت يبرهنون عليه عقليا، بينما كان الفلاسفة يبدأون مع الحقيقة مجردة من دون قضية أولى مسلم بها.

ولا أحد يستطيع أن ينكر دور علم أصحاب الكلام، ومن ثم فلا حق لنا أن نتحمس كثيرا مع الباقلاني أو ضده.

ونقطة أخرى لابد من الإشارة إليها وهي أنه كان يمثل محصلة متميزة للطريقة النقدية العربية القديمـــة، القائمة آنذاك، فقد كانت تعتمد على دراســـة الوحدة الأساســـية في البناء الشـــعري من كلمة وصـــورة، وتنظر في مكونـــات البيت الواحد وعلائقه، بجانب الاهتمـــام بالملاحظة اللغوية والسبك اللغوي، وصحة المعنى وشرفه.

هذه الأســس التي كانت تســتخدم منفردة، حــاول الباقلاني أن يســلكها في خط واحد، ويستخدمها إزاء نص واحد، وهو متفرد في هــذا، وقد أوجد لنا هذه المحاولة المتكاملة، ولكنها في الوقت نفســه كشفت عن النقص الكامن في هذه النظرات، وهي أيضا ليست خالية مــن الحس الجيد، وأنها تمثل مرحلة خطيرة من مراحل تمييز النص الأدبــي، لكنها تحتاج إلى تطوير عجز اللاحقون عن اســتحوائه كما يجب، إلا قليلا.

لذلــك نجـد أن أي رصد للنظريــة النقدية العربيــة لا تكتمل حلقاته إلا مــن خلال النظــر الجاد إلى ما فعله الباقلاني ومن تابعه في دراســة الإعجــاز القرآني واســتخلاص أهم ما صنعوه، والنظــر فيه نظرة نقدية جادة وناضجة.

6

المعلقات ونظرات العصر الحديث: معلمون ومتذوقون

«دخل الشارحون إلى دنيا القصائد السبع والشعر الجاهلي بوجه عام حاملين معهم تراثا ضخما من الدراسات والتعليقات والمناقشات التي أثرت الجو الأدبي، ومدت ساحله إلى آفاق عريضة وعميقة المدى»

المؤلف

مثلت القصائد السبع النموذج الحي الذي ظل محل الإعجاب والاستشهاد طوال العصور المتعاقبة، فقد جسدت نصوص هذه القصائد القدرة الكامنة في العمل الفني الحي المتكامل القادر على الصمود لتغيرات الزمن، المثير للإعجاب، مهما طرأت على الأذواق من تغيرات وتطورات، وهذا دال على ما في هذه النصوص من أصالة فنية مكنتها من مجالدة الزمن والنفاذ إلى الأعماق وإخضاع من يتلقاها للدخول إلى عالمها المتميز واستكناه مداها الفني.

وفي العصر الحديث اتجه اهتمام أصحاب حركة الأحياء إلى الشعر الجاهلي والقصائد السبع في

الدرجة الأولى، ووجد فيها أصحاب التعليم والنظرة المدرسية مجالا لنفض الغبار عن دراساتهم التي ران عليها غبار العصور المتأخرة.

وقد اتجه إليها أيضا أصحاب النظرة الجديدة، فأصحاب النظرة العلمية يقذفون حولها بذرتهم لتكتسب مشروعية القبول، مطبقين عليها تصوراتهم لأنها الأصل الذي انحدر عنه الأدب العربي.

وأما أصحاب النظرة الذوقية التأثرية، الذين يتركون النفس على سجيتها أمام النص الأدبي فإنهم عادوا إلى هذه النصوص ووجدوا فيها مجالا ملائما للدراسة لصدقها وملامستها لجوهر الفن وعلو كعبها في التعبير الفني.

وهناك الجماليون الذين وجدوا في إيغالها في الزمن ولغته، صياغتها النابعة من طبيعة الجاهليين الخاصة، وتجاوزهم لعبودية التقليد وقسوته، كل هذا أتاح لهم نظرتهم الجمالية دون حرج.

وهناك النفسيون الذين لم يجدوا خيرا من هذه النفوس التي كانت تسير على سجيتها وتقول ما تريده من دون أن تعوقها العوائق، لذلك كان الدخول إلى النفس من خلال هذه النصوص أمرا متيسرا، ففيها من تداعيات النفس شيء كثير، ومنها دخل أصحاب الاتجاه الأسطوري بقوة ومن ثم جاء البنيويون، والطريق من بعد مفتوح لكل نظرية قادمة.

في هذا الفصل سنوجه الاهتمام إلى اتجاهين سادا عند دارسي مرحلة الإحياء وهي:

[1] الشروح التعليمية.

[2] النظرات الذوقية.

وليست هذه إلا نماذج من الدراسات كانت القصائد السبع محلا لها، وهناك كثير من الاتجاهات الأخرى، وحسبنا هذه لتكشف لنا الحد الذي وصلت إليه دراسات القصائد السبع في العصر الحديث.

أولا: نظرات تعليمية

يمكن القول إن أغلبية أصحاب النظرة التعليمية ينتمون إلى أصحاب المنهج التقليدي الذي يتمسك بما أثر عن القدماء وبخاصة ما ينتمي منه إلى العصور الأولى، فقد اتجه رواد الإحياء إلى أنصع ما في التراث

العربي لتجليته وتقديمه إلى العصر الحديث بحلته القديمة بعد نفض غبار العصور المتأخرة عنه. لذلك كان يمكن تسمية هؤلاء بأصحاب المنهج التقليدي أو أصحاب القديم، لولا أن هناك من أدخل - ضمن منهجه التعليمي - شذرات من النظرات الحديثة، مما يحول دون انطباق المصطلح عليهم، لذلك كانت تسمية شروحهم «شروحا تعليمية» أشمل وأصدق فكلهم يسعى إلى تقريب القصائد السبع إلى الأجيال الحديثة من جهة التعليم والتثقيف، ونلمس هذا من اتفاق أهدافهم وخططهم العامة، قال بها النعساني في مقدمة كتابه المنشور في أوائل القرن العشرين ليبين أنه يقدم «شرحا» يقرب معانيها، ويدني ثمار أسرارها من يد جانيها. والموجود مشتت العبارات، مختلف الإشارات، يشتبه المورد منه على أولي الألباب، فضلا عن صغار الطلاب. لذلك عمد إلى شرحها شرحا يقرب معانيها ويسهل تناولها على الطلاب بعبارات عصرية مع نُبذ من تراجم قائليها» [1].

فالباعث التعليمي واضح، وهذه الخطة تجسد لنا المنهج التعليمي بصورة واضحة، وهو متحقق في داخل شرحه. وهذا الباعث ذاته نجده في مقدمة كتاب شارح تعليمي متأخر عن سابقه، في الربع الأخير من القرن العشرين، كاتب مقدمة «المعلقات السبع» للدكتور بكري شيخ أمين، فقد وضح أن هذا الشرح هو: «تقريب التراث العربي إلى أفهام طلاب الأدب والمتأدبين والمثقفين بوجه عام. فلهذا عمد المؤلف إلى أيسر السبل في تقديم نماذج من التراث القديم، وضمها في إطار من الشرح والتحليل المبسطين لتحقيق الغاية المرجوة» [2]. هاتان المقدمتان بينتا الهدف التعليمي الذي قامت هذه الشروح لتحقيقه.

النعساني أولا: وقد نشر شرحه مع بداية القرن العشرين سنة 1906[3]، شرح فيه عشر قصائد، السبع الأول وهي المشهورة، موافقا فيها ما جاء عند ابن الأنباري والزوزني، وأضاف ثلاث قصائد هي دالية النابغة وقصيدة الأعشى التي مدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وقصيدة لعبيد بن الأبرص مطلعها:

لَيْسَ رسم الدَّفين ببالي فَلِوى ذِرْوةٍ فَجنْبَى ذيال

ولم يوضح النعساني سر هذا الاختيار، ولعله أراد أن يقدم من قصائد الأعشى ما يرتبط بالتاريخ الإسلامي، ولم يوضح - كذلك - سبب اختياره هذه القصيدة لعبيد بن الأبرص.

الناظر في شرح النعساني يدرك أنه لم يخرج عن حدود المأثور من المعلومات المتناثرة حول هذه القصائد المشهورة، خاصة ما جاء في كتب الشروح. بل من الممكن، بشيء من الاستقصاء المطول، رد كلامه إلى الأصول الأولى، مع الاحتفاظ بالاختيار والاختصار والترتيب وصياغة كل هذا بأسلوبه الواضح المركز للمعلومات مع ملاحظة أنه كان يملك دراية واضحة بالتراث العربي تغني شرحه وتثريه..

وأبرز هذه المصادر شرح الزوزني المشهور الذي نجد بصماته واضحة في شرحه، وهو لا يحرص على الإشارة المباشرة إليه[4]، وإن تابعه في كثير من المواضع متابعة حرفية[5]، وأحيانا ينتقي ويتصرف مع المحافظة على نفس عبارات الشارح القديم[6]. فالنصان يتقاربان في الخطوط العامة، ولا شك في أن النعساني كان مستبطنا كلام الزوزني، فكانت معانيه تدور حول هذا الشرح القديم. ونحن لا نستطيع في هذه السطور المقتضبة متابعة نقوله الكثيرة [7].

وقد تركزت استفادة النعساني من شرح الزوزني في القصائد الأولى، ولكنه بعد ذلك أخذ يعتمد على ابن الأنباري بصورة مبينة [8].

ولم يقتصر النعساني على كتب الشروح وحدها - وإن كثرت نقوله منها - وإنما امتد بصره إلى بعض المراجع المساعدة التي أمدته بمادة طعّم بها شرحه، فقد كان يرجع إلى المعاجم [9]. وإلى كتاب «الشعر والشعراء»[10]. وشرح ابن السكيت لديوان طرفة وديوان النابغة [11]، ورسالة الغفران [12]، وكتب أخر متفرقة.

إن شرح النعساني تصدق عليه الملاحظات التي قيلت من قبل عن التبريزي من حيث الهدف التعليمي والطريقة المستخدمة والقائمة على اعتصار ما في الكتب السابقة، وإن اختلف عنه، تبعا لطبيعة العصر، في التقديم والعرض وطريقة الأخذ التي يتبع فيها إدراكه العام لما يحيط بالبيت من معلومات، فيصوغها بأسلوبه الخاص الذي تخلله كثير من كلمات وجمل وعبارات السابقين، بينما كان التبريزي يمزج بين عبارات الشارحين من دون تدخل.

وينتظم خط الشرح عند النعساني في إطار واضح لا يختلف بيّن هو نفسه خطوطه الأولى في مقدمته، فيقدم لكل قصيدة بترجمة لصاحبها، وهي لا تخرج عن المألوف في كتب الأدب المشهورة، وخاصة الأغاني والشعر والشعراء بالإضافة إلى مقدمات الدواوين والشروح. وهي عادة متعلقة بالخطوط الرئيسية لحياة الشاعر والظروف التي أحاطت بإنشاء القصيدة يسوقها كما هي دون أن يناقش أسسها العامة أو تفصيلاتها.

ومن هذه المقدمة ينفذ إلى الشرح الذي يتبع فيه طريقته البسيطة والمدرسية فيورد البيت أولا - وقد يجمع بين بيتين - ثم يأتي الشرح الذي يقسمه بدوره إلى قسمين أولهما يصدره بكلمة «اللغة»، ويهتم فيه بشرح معنى المفردات ثم إعراب ما يراه جديرا بالإعراب، وقد يشير إلى بعض الخلافات اللغوية والإعرابية.

وبعد أن يفرغ من هذا، وهو غالبا ما يكون مركزا لا إفاضة فيه، وقد يضم إليه بعض الإشارات إلى الروايات المختلفة، ينفذ إلى القسم الثاني والذي يصدره بكلمة «المعنى» وفيه يجمل المعنى العام بصورة بسيطة مع التمسك بحرفية الأبيات ودلالاتها الأولية، وإبراز جوانب المعنى المختلفة.

وهذا مثال يقدم طريقته في حالتها العامة والمعقولة والمطرودة.

والساحِبات ذُيولَ الرَّيطِ فَنّقَها   بَردُ الهَواجرِ كالغزلان بالجَرَدِ

«اللغة: الساحبات: جمع ساحبة من السحب وهو الجر - والريط: جمع ريطة، وهي كل ملاءة لم تكن ذات لفقين، وفنقها: نعّم عيشها، ويروي فانقها وجارية فنق منعمة - والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر - والجرد: أرض لا نبات فيها.

المعنى: يقول إنه يهب الإبل ويهب الجواري اللائي يسحبن أذيالهن إذا مشين نعمة حتى يطلون بأرجلهن على أطراف أذيالهن. وقوله فنقها برد الهواجر يريد أنهن لا يبرزن للشمس وأنهن في كن دائما فهن أرق أجساما. وقوله كالغزلان بالجرد مثل قول غيره آرام وجرة وذلك أن الغزال إذا تربى في أرض لا نبات فيها كان ذلك أحسن له وأقوى في جمال خلقه» (13).

ففي هذا الشـــرح نلاحظ أنه وقف أمـــام الكلمات ذات الأثر البين في المعنى الكلي وتحتاج إلى وقفة توضح معناها في شـــرح أكثر كلمات البيت وبالتحديد خمس كلمات من ثمان.

وليســـت في هـــذا البيت إشـــكالات واضحة تمـــس الرواية أو الضبـــط، لذلك انصرف جهده إلـــى بيان المعنى الذي ربطه بالبيت السابق له:

الواهبُ المائةَ الأبكار زَيّنها سَعدانُ تُوضِحَ في أوبارِها اللّبد

ويمكن النظر إلى شـــرحه هـــذا من زاويتين أولاهما: أنـــه قدم المعنى بســـياق مبســـط، والثانية محاولته الاقتراب من دلالة التركيب الفنية، في حدود ضيقة من خلال الصورة التي رســـمها الشاعر للجواري اللواتي نعّم عيشهن برد الهواجر وأنهن كالغزلان، فقد حاول النفاذ إلى المقصد الكامن وراء وصف الشـــاعر لهن بهذه الصفات، وفـــي تعليله لم يخرج عما ألفناه عند الشرّاح القدماء، وإن يكن قد صاغه بأسلوبه.

وقـــد يعـــرض رأيين متعارضين فيحـــاول حل التناقـــض بينهما حلا بسيطا معتمدا فيه على ما أثر عن القدماء [14]. ومن جهة أخرى يحاول المقارنـــة بين الأبيـــات من مثل: «والناس يعارضون هـــذه الأبيات الثلاثة بقول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

...إلخ»[15]. ونجده يتابع القدماء في استحسانهم للاستعارة في أبيات لامرئ القيس ويوضحها.

ويشير إلى الفنون البلاغية بإيجاز واضح، مثلا يقول في بيت لبيد:

صَادَفْنَ منها غِرة فأصبنها إنَّ المنايا لا تطيشُ سهامُها

«وليس للمنية ســـهام، إنما هذا مثل وكنايـــة» [16]، وكذلك قوله عن بيت لبيد:

غُلبٌ تشذَّرُ بالذُّحول كأنها جِنُّ البديِّ رواسيا أقدامُها

يقـــول: «... وكأن تلـــك الوفـــود إبل غـــلاظ الرقاب كنايـــة عن قوتهم وجسامتهم» [17].

ولا تخــرج نظراته عن هذا الإطار الذي دار فيه في فلك الفهم القديم جامعا ما تفرق مما قبل. ومن ثم فهذا الشــرح مدخل أولي للمتعلم الذي يريــد الوصول إلى هذه القصائد من البوابــة القديمة وهي نظرة تعليمية حكمتهــا روح التقليد والاتبــاع من دون أن يتخلل هذا أي ضوء جديد لهذا التراث الخالد.

ولا ينفرد النعساني بهذا فنحن نجد هذا الاتجاه نفسه، عند الشنقيطي والغلاييني.

ولقد اهتم الشــنقيطي [18]. في كتابه «شــرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها» بإخراج نصوص هذه القصائد بجانب أخبار شعرائها. وهو ينهج النهج الســابق مع الاختصار والتركيز، خاصة فيما يتعلق بشــرح نصوص القصائد مكتفيا بأقل القليل، فكتابة أقرب إلى شرح المفردات، مع الإشارة إلى بعض مواضع الإعراب المهمة، فهو نسخة مضبوطة من المعلقات لتكون بين يدي القارئ، لذلك نص في صدر كتابه على أنه من جمعه وتصحيحه.

وقد قدم أولا، تراجم الشــعراء[19]، ثم جاء بنصوص القصائد، ووقفته عنــد التراجم لا تزيد على كونها ترديدا لما جاء في كتب القدماء التي كان يوردها في سياق كلامه [20].. وهو يتمسك بما جاء فيها وإن حاول أحيانا توضيح بعض المقولات [21]. وقد يقوم بنقدها معتمدا على ثقافته فهو يرد قول أبي الفرج الأصفهاني من أن امرأ القيس قد دفن بالقرب من عسيب اعتمادا على قوله:

أجــارتَــنــا إنّ المــزار قــريــبُ   وإنــي مـقـيـمٌ مـا أقــام عَـسِـيـبُ

يقول: «... وهذا غلط محض، لأن عســيبا جبــل بعالية نجد، وأنقرة من بلاد الروم ولا يدل ضربه المثل لإقامته بإقامة عسيب على أنه قد دفن به [22].

ويشك كذلك في قصة أبيات الألغاز التي دارت بين امرئ القيس وعبيد بــن الأبرص [23]. ولكنه من جهة أخــرى قد يورد قصصا غير مقبولة مثل قولــه «إن هاجس امرئ القيس هو لافظ بن لاحظ، وإن هاجس الأعشــى مســحل بن أثافة، واســم هاجس النابغة هــاذر..» [24]. وهذه أخبار غير مقبولة لغرابتهــا وخروجها عن حدود العقل فهي أخبار وأقاصيص تدخل في مضمار الخرافات.

أما طريقته العامة في شرح نصوص القصائد العشر فهي تعليقات بسيطة ويسيرة في أسفل كل صفحة مع اهتمام واضح بالتوثيق وعلوم اللغة. فالتوثيق نلمسه في حديثه عن عدد كبير من الأبيات، وعلى سبيل المثال:

وصادفَتا سَمْعَ التَّوجّسِ للسّري لهجس خفيٍّ أو لصَوت مُندّدِ

قوله: «قوله: لهجس خفي هذه رواية الخطيب، وروي لجرس وهو رواية الأعلم وابن السكيت، وروي الأعلم في السرى لجرس، وقوله أو لصوت مندد، روي بإضافة صوت إلى مندد، وعليه فمندد اسم فاعل، وروي بتنوين صوت وفتح النون من ندد، وعليه فهو اسم مفعول» [25].

ويقترن التوثيق بالوقفات والنظرات النحوية حيث يورد آراء النحاة في بعض أبيات هذه القصائد المشهورة، وملاحظاته في هذا الموضوع كثيرة وهذا مثال دال على أسلوبه في هذا النوع من التفسير، قال عنترة:

عُلقتها عَرضًا واقتلُ قومَها زعما لعمرُ أبيكَ ليس بمزعمِ

يقول: «... وهذا البيت يستشهد به النحويون في باب الحال، والشاهد فيه:

واقتل قومها، حيث وقع حالا، وهو مضارع مثبت فاقترن بالواو، وحقه ألا تكون فيه.، قال في الألفية:

وَذَاتُ بَدْء بُمضَارع ثبتْ حَوَت ضميرا ومِن الواوِ خَلَتْ

وأولوه بأن التقدير: وأنا أقتل قومها زعما، وقيل الواو فيه للعطف، والمضارع مؤول بالمعنى، والتقدير: علقتها عرضا، وقتلت قومها» [26].

ونجده كذلك يكثر من القول من «أن هذا البيت يستشهد به النحويون» [27].

ولم ينل المعنى وبيان دقائق الشعر أي اعتبار، وإذا مسه فمن جهة الاعتماد على المأثور، مثلا في شرحه لهذا البيت من معلقة امرئ القيس:

ضليعٍ إذا استدبرْتَهُ سد فرجَه بضافٍ فُوَيْقَ الأرضِ ليسَ بأعزلِ

«... وضاف صفة محذوف أي بذنب ضاف وهو السابغ، وهذا الوصف حميد كما قال البحتري» [28]:

ذَنَبٌ كما سُحِبَ الرداء يَذُب عن   عُـرْفٍ وعـرفٌ كالقناع المسْبَلِ

قال الآمدي: وهذا خطأ عن الوصف، لأن ذنب الفرس إذا مس الأرض كان عيبا، فكيف إذا سحبه، وإنما الممدوح من الأذناب ما قرب من الأرض لم يمسها كما قال امرؤ القيس: بضاف فويق الأرض ليس بأعزل، والأعزل الذي يكون ذنبه في جانب وهو عادة لا خلقة» [29].

وهذه اللمسة للمعنى، مع بساطتها واعتمادها على المأثور، تمثل إحدى الحـالات التي حاول فيها الشـنقيطي أن يمس المعنى. ويقابل هذا أنه قد تمر عدة أبيات دون أن يتعرض لها بالشرح مـادام المعنـى العـام واضحـا ولا يثير قضية توثيقية أو لغوية.

وطريقتـه هذه متلائمة مع الخط العام لأمثال هذه الدراسـات في ذلـك العصر، بغض النظـر عن الإرهاصات التي بـدأت تتكون آنذاك محاولة النظر للنص الشـعري نظرة أكثر عمقا وأقرب إلى روح التذوق والفهم الفنيين.

أما الثاني الذي يشارك الشنقيطي في هذا الاتجاه فهو الشيخ مصطفى الغلاييني[30]. وكتابه «رجال المعلقات العشر» اهتم فيه برجال المعلقات مع عـرض لبعض أبياتها ملتزما بما جاء عند الشـرّاح القدماء، فكتابه كتاب تعليم نشره ليقتصد وقت الإملاء وليكون كتاب تدريس للطلبة.

وقـد قدم لكتابه بمقدمة تضمنت خلاصـة لتاريخ العرب وتاريخ أدب اللغة العربية، ثم انتقل إلـى الحديث عن الأبيات المختارة من المعلقات مع مقدمة عن شاعر القصيدة وبعض أخباره.

وشرحه لهذه النصوص يسد حاجة المتعلم المبتدئ، فملاحظاته تعليقات عامة وبسـيطة تفي بحاجة الطالب الذي يقوم على إرشـاده معلم يوضح ما اسـتغلق عليه، وكذلك القارئ العادي الذي تعينه هذه الملاحظات على تجاوز بعض صعوبات قراءة الشعر الجاهلي. وهذا مثال يبين طريقته.

كأنَّ رحْلي وقدْ زال النهار بنا   بذي الجليلِ - على مُستأنسٍ وَحَدِ

يقـول: (زال النهار: انتصف وصار بنا إلى وقت الزوال (ذو الجليل) أراد واديا قرب مكة (على مستأنس) أي كأن رحلي موضوع على وحشي مستأنس أي ناظر يمنة ويسرة خوفا من الصائد. والجار والمجرور خبر

كأن. فهو يصف ناقته بالسير السريع حتى في وقت اشتداد الحر حين تتعب الإبل وتطلب الراحة. فهو يقول: إن هذه الناقة سريعة لا تشكو التعب حتى وقت الظهيرة. فكأن رحلها لسرعتها لم يوضع عليها بل هو موضوع على وحشي منفرد خائف من القناص فهو يسرع خشية أن يدركه [31].

فهذا النموذج يقدم لنا طريقته المطردة التي تدور في فلك التفسير المباشر والمبسط لأبيات هذه القصائد وألفاظها مع شيء من الإعراب، ثم بيان المعنى على الطريقة المدرسية ولا أعتقد أنها تحتمل وقفة نقاش أو تحليل.

هذه أحوال الشروح والنشرات الخاصة لهذه القصائد السبع في مطلع هذا القرن في ضوء الاهتمام التعليمي، ولكن جهود الشارحين تطورت واكتسبت ملامح جديدة حينما نشطت دراسات الأدب وتطورت مناهجه، فدخل الشارحون إلى دنيا القصائد السبع والشعر الجاهلي بوجه عام حاملين معهم تراثا ضخما من الدراسات والتعليقات والمناقشات التي أثرت الجو الأدبي، ومدت ساحله إلى آفاق عريضة وعميقة المدى، فلم تعد محاولات للم شتات الآراء القديمة والتمسك بها بقدر ما أصبحت محاولة للدخول إلى هذه القصائد بالمنظار الجديد الذي لونته هذه الدراسات، وليس من الضرورة أن تكون هذه الدراسات مخالفة لما جاء عند القدماء، فقد تكون حاملة نفس وجهة النظر ولكنها في طريقة التناول أكثر نفاذا إلى جوهر القصائد، وأقدر على اكتشاف ما في هذا القديم من جواهر مع محاولة الدفاع عنه وإبراز إيجابياته.

ومن الدراسات الحديثة التي اهتمت بالمنهج التعليمي في شرح المعلقات مع الاستفادة من تطور الدراسات الأدبية، دراسة الدكتور بدوي طبانة في كتابه: (معلقات العرب: دراسة نقدية تاريخية) [32]، الذي خصص الفصل الأول منه لمناقشة قضية التعليق والثاني لإدارة حوار حول شعراء المعلقات، ثم عرض سيرة الشعراء كما وردت في المصادر القديمة مع شيء من الترتيب والتنظيم حاذفا الأخبار غير الموثقة [33].

وهو في هذه الآراء لم يخرج كثيرا عما ورد في المصادر القديمة خروج مخالف منكر، ولكنه يسلم بأكثرها مادام يرى فيها اتساقا مع سياق هذه القصائد أو معقولية الحديث نفسه، لذلك نجده يحرص على الوقوف أمام ما كتبه الدكتور طه حسين مناقشا لآرائه وأفكاره [34].

وكما رد بعض أخبار القدماء وناقش بعض المحدثين، وقف عند بعض القضايا النقدية العامة، وخاصة ما أثاره ابن قتيبة حول المتكلف والمطبوع [35]. وهذه الملاحظات تتخلل أحاديثه التي قدمها بين يدي كل قصيدة. وبعد ذلك يجمل أغراض القصيدة نثرا مع بعض الملاحظات التوثيقية ثم يورد أبيات كل قصيدة.

وينقل بعد ذلك على دراسة المعلقات دراسة تفصيلية لا تتقيد بالطريقة المعروفة القائمة على شرح كل قصيدة على حدة، بحيث نتبين معنى كل قصيدة وأجزاءها والرأي الخاص المناسب لها، ولكنه يحاول تقديم ما تضمنته من معان بصورة كلية جامعا المعلومات من كل القصائد، فينظر إلى المجتمع العربي كما صورته المعلقات ويقوم بعملية إحصائية لمسميات البيئة المختلفة يستخرجها من القصائد بالترتيب، ثم يتحدث عن حياة الإنسان الجاهلي في حله وترحاله مشيرا إلى مطالع هذه القصائد، ثم ينفذ إلى الحديث عن الحرب والسلم كما ورد في هذه القصائد متتبعا أدوات القتال، وينتقل إلى الحديث عن المرأة وإلى فضائل العرب النفسية، أما نظرته للفن الشعري في المعلقات، فيقدم لها بمقدمة نظرية، متحدثا فيها عن عمود الشعر، كما قدمه المرزوقي، وخصائصه التي انحدرت عن الشعر القديم، ويحدد بعد ذلك المعالم الفنية في النواحي الآتية:

[1] ناحية أغراض المعلقات وفنونها.

[2] ناحية ألفاظها وأساليبها.

[3] ناحية أوزانها وقوافيها.

[4] ناحية معانيها وأخيلتها.

ويؤكد أولا أن أكثر الشعر العربي من الشعر الوجداني[36]. ثم يقدم أغراض المعلقات على ضوء التقسيمات المعروفة: الوصف - النسب - الفخر (وهو فخر بالنفس أو القبيلة) الحكمة - المديح، ثم ينظر في ألفاظ

المعلقات وأســاليبها ويرى أن اختلاف ألفاظها بين الرقة والخشــونة يعود على تعدد الأغــراض. والقول إن هذه الألفاظ حوشــية وغريبة قول غير أصيل ولم يقله أحد من القدماء إنما هو منحدر عن العصور التالية [37].

ويقــدم بعــد ذلك معجمــا مبســطــا للمســميات الصعبة الواردة في هذه القصائد[38].

وتأتي عباراته عن أســاليب المعلقات ذات طابع عمومي مدرسي، فهي أســاليب عربية صحيحة موجزة [39]، مشــيرا إلى المحســنات البديعية. وضروب الصناعة والتجنيس والمطابقة [40]، وكل هذا من المعروف والمأثور في الكتب القديمة.

أما معانــي المعلقات فبســيطة وصادقة، خالية مــن المبالغات، قريبة التنــاول، بعيدة عن النزعات الفلســفية إلا من الأفكار العارضة عن الموت والبعــث. وهي ذات معان ماديــة وأخيلة قريبة ممــا يعرفه أصحاب تلك البيئة. ثم يعرض لتشــبيهات الشــعراء التي يراها قريبة تمتاز بالبساطة والسهولة منتزعة من البيئة التي عاشوا فيها [41].

هــذه أهم ملامح دراســة الدكتور بدوي طبانة لهذه القصائد الســبع والتي قامت على ركيزتين هما: بروز الحياة العربية في المعلقات أولا والفن الشعري فيها ثانيا.

وأولــى هاتــين الركيزتين عبارة عــن عملية إحصائيــة جمعية لملامح مفردات البيئــة اليومية للحياة الجاهلية التي تــدل عليها هذه النصوص وغيرها، وهي تدخل في الدراسة الاجتماعية، ولكنها لا تقول شيئا بالنسبة إلى المعلقات، فنحن لا نخرج بعد هذه الدراسة بصورة واضحة محددة لأي معلقة من المعلقات، فهي تؤكد فقط معلومات عامة، أو هي نظرة للمجتمع أكثر من كونها نظرية فنية للمجتمع. فهذا الإحصاء مفيد لدراسة المجتمع عند تحليل تركيبه وعاداته وخصاله.

أمــا من الوجهــة الفنية فنحتاج إلــى أمور أخرى تمثل هــذه العملية الإحصائيــة ونتائجهــا مقدمة لها؛ فنحــن، إذ نبحث عــن الدلالة الفنية المعبرة الكامنة في شــعر هذا الشــاعر أو ذاك، فلا شك أن لفرس امرئ القيــس صفاته، ودلالتها وطريقة التعبيــر عنها تختلف من حيث الطريقة

الفنية عن طريقة عنترة، ومن هنا فالتعداد وحده لا يغني شيئا. ومثل هذا القول ينطبق على ناقة طرفة بالمقارنة مع غيرها، فلكل منهما وجهته التي قصدها فلونت وصفه لهذه الحيوانات.

ونلاحظ كذلك أن المؤلف اتبع طريقة تسهل له هذه العملية الإحصائية حيث جمع النظير إلى النظير، وهذه أفادت في هذا الجانب كما سهلت الفهم للمسميات التي كانت تمثل ملمحا عسيرا، وخصوصا من الوجهة التعليمية، ولكنها من جهة أخرى جنت على وحدة القصيدة وخصوصيتها وأصالة كل جزئية في سياقها فانعدم الإحساس الفني الآتي من المعايشة التامة. فنحن نحس ليل امرئ القيس المقرون بفرسه وبالبرق والسيل؛ فمن هذا كله يستوي البناء الفني المختلف عن الإحصاء تمام الاختلاف.

ولا تزيد المعارف التي ساقها عما ورد عند الشرّاح القدماء وبعض المصادر الأخرى جمعها وضم بعضها إلى بعض بعد أن كانت في مواضعها الطبيعية من تلك الشروح. مثلا، يقول في حديثه عن السلاح الشائكة: «وذكر زهير السلاح الشائكة وهي الحديدة القاطعة» [42]. ويقول كذلك: «كما ذكر لبيد الشكة» وهي اسم لجميع السلاح، وقولهم «شائك السلاح» أي لسلامة شوكة [43]. ولكن هذه التعريفات هل تنقل طبيعتها ودورها الفني في البيتين اللذين وردت بهما هاتان الكلمتين؟ فهذا زهير يقول واصفا حصين بن ضمضم:

لَدَى أسد شاكي السِّلاحِ مُقذَّفٍ   لـه لِـبَـدٌ أظـفَـارُهُ لَـمْ تُـقَـلَّـمِ

أما لبيد فيقول في مجال فخره:

ولقد حَميت الحيَّ تَحمِلِ شكَّتى   فُرطٌ وشاحي إذ غدوتُ لجامُها

وواضح هنا الدور المتميز لكل كلمة من الكلمتين، وإن اتحد معناهما في المعجم، وكان ورودهما ضمن الشرح العام لكل بيت عند الشرّاح يبين هذا الدور ويقربه.

وهذا الكلام ينطبق أيضا على دراسته الفنية التي اعتمدت على تعداد الأغراض وحصرها في حيز واحد (وصف - مدح - فخر...إلخ). فهو لم يدرس مثلا طبيعة هذا الوصف وإنما كان يكتفي مثلا بقوله: ما جاء في المعلقات من صفات الحيوان قول امرئ القيس في وصف فرسه ليورد

بعد ذلك أربعة عشـــر بيتا يقول بعدها: فقد وصفه في هذه الأبيات وصفا مســـتقصيا، ذكر فيه صلابة جســـمه، وســـرعته، وقدرته على الكر والفر والإقـــدام والإحجام، وفق ما يهوى راكبـــه، ووازن بينه وبين غيره، ووصف أجزاء جسمه وما يفعله براكبه إذا كان خفيفا وإذا كان ثقيلا وبالغ في ذلك ما شاء [44].

فهـــذا التعليق لم يزد على توضيح الملامح الرئيســـية للأبيات من دون التوغل في كيفية الوصف وأطرافه وطبيعة الصورة ومؤداها.

ومن الأمثلة كذلك هذه العبارات الفاصلة بين مقطعة وأخرى.

«وقال لبيد يصف فرسه التي يحمي بها حيه وعشيرته» [45].

«قال عمرو بن كلثوم..» [46].

«ووصف عنترة فرســـه في أكثر من موضع، كمـــا قال موازنا بين حاله وحال صاحبه» [47].

مثل هذا في بقية الأغراض.

ولا يخـــرج حديثه عن ألفاظ المعلقات وأســـاليبها عمـــا ذكرنا، تصدق عليها نفس الملاحظات وإشـــاراته للجوانب الفنية الخاصة بالألفاظ، هي عبـــارة عن جمـــع لما تناثر في كتـــب النقد القديمة من محســـنات بديعية وتجنيس ومطابقة وتذييل...

وأهمل كذلك الجانب الصوتي اكتفاء بالقواعد المقررة من العروض مع الملاحظات المعروفة في الكتب القديمة، وكان الإمكان قائما لمناقشة ذلـــك على ضوء الدراســـات الصوتية الجديدة التـــي حاولت أن تجعل الصوت الموســـيقي للكلمـــة والجملـــة والبنـــاء العام جـــزءا مهما من التأثير الفني.

هذه أهم الملاحظات التي نسجلها على هذه الدراسة التي كانت تحاول أن تقيـــم بناء تعليميا معقولا لفهم القصائد الســـبع مـــن خلال تجزئة ما فيها من عناصـــر وتقديمها إلى المتعلم أو القارئ العام، وقد طغى الجانب التاريخي والاجتماعـــي على الجانب الفني، ولكن هذا لا ينفي الملاحظات الفنيـــة الطيبة التي أوردهـــا الكاتب وقربها إلى الأذهان ولم شـــتاتها من الكتب المتفرقة.

وهذه الدراسة في إطار المنهج التعليمي، تسلمنا إلى محاولة أخرى تقدم المنهج التعليمي الذي يحاول أن يقدم النص من خلال تركيز آخر الدراسات الحديثة بجانب الدراسات القديمة حتى يتسنى للمتلقي الإلمام بآخر التطورات الجديدة التي دخلت على مفهوم الشعر ودراسته، بجانب كونها تنظر إلى تقديم هذا التراث من زاوية قريبة لفهم المعاصرين ومن الجهة التي يستطيعون من خلالها النفاذ إلى أنصع ما فيه مع تأثيره في النفوس نتيجة لهذا التعامل، مع الاحتفاظ بما أثر عن القدماء معينا لا ينضب للفهم.

وقد تحقق قدر كبير من هذا الهدف في دراسة بكري شيخ أمين في كتابه (المعلقات السبع) [48]. الذي استفاد مما وصلت إليه دراسات الأدب العربي في نهاية هذا القرن، راصدا أبرز التيارات النقدية مع الاحتفاظ بالسمة التعليمية.

وفي اختياره لم يلتزم القصائد السبع المعروفة فقد أسقط قصيدة الحارث وأثبت مكانها قصيدة الأعشى. كما أنه عمد إلى الاختيار من بين الأبيات فبينما أسهب بالنسبة إلى قصيدة امرئ القيس فشمل حديثه القصيدة كلها، وحظيت بثلث الكتاب تقريبا، نجده يختار من قصيدة طرفة عشرين بيتا ومن قصيدة عنترة سبعة أبيات فقط.

فهو إذن، لم يسع إلى تقديم شرح شامل لهذه القصائد، ولكنه قدم نموذجا يسير على أساسه القارئ فيما بعد، وأما إطالته النسبية في شرح قصيدة امرئ القيس فلأنها تقدم تصوره الخاص في الشرح.

ونلاحظ، من جهة أخرى، أن اختياراته كانت تنصب على ما يراه ملائما لذوق القارئ المعاصر ليستطيع الدخول إليها من أكثر جوانب التراث وضوحا وملاءمة له.

وكان يمهد لهذه الاختيارات بتقدمة يتحدث فيها عن خطوط حياة الشاعر الرئيسية. ثم يتعرض لأبيات المعلقة كلها بأقسامها الرئيسية لتكون صورة القطعة المختارة واضحة بإدراك موقعها من السياق.

وطريقته في الشرح واضحة الخطوط - وإن اختلفت في بعض التفاصيل - فيبدأ بمقدمة مركزة لعناصر المعنى في القصيدة كلها، ثم يعرض الأبيات مصدرا كل قسم بعنوان يمثل المحور الرئيسي فيه، ثم يسوق المعنى نثرا مع التركيز على الملامح الرئيسية وبعدها تأتي دراسته التفصيلية.

يبدأ أحيانا بوقفات توثيقية، فقد وقف على سبيل المثال أمام شك الرواة في أبيات امرئ القيس المشهورة: (وقرية أقوام... إلخ) فيرد شكهم لأنه ليس هناك ما يمنع من أن يعيش غني حياة المتقشفين. ويؤكد أن سياق الأبيات منسجم مع القصيدة، مشيرا إلى أن الروايات تذكر تشرد الشاعر بعد مقتل أبيه وأن الأبيات أصدق تعبيرا عن حياة المغامرين [49].

ولا نخالفه فيما أثبت، ولكننا نحتاج إلى الدليل المعقول لما يرى، فقد نفى الأصمعي وأبو عبيدة وغيرهما نسبة هذه الأبيات إلى القصيدة [50]. والأصمعي هو صاحب الفضل الأول في وصول الديوان إلينا، فإسقاط رأيه يحتاج إلى حجج دامغة تؤكد الإسناد، وليس لنا إسقاط التوثيق عن طريق السند اعتمادا على الاجتهاد في التفسير الذي يكون عادة لاحقا للتوثيق ومؤكدا له.

وليس هناك ما يمنع من أن يتحدث امرؤ القيس عن حياة التشرد، ولكن القصيدة فيما نعلم نظمت قبل أن تعصف بأبيه العواصف، وقد كان وقتها يعيش حياة اللهو، حتى هذا لا ينفي حديثه عن حياة الصعاليك بشرط ثبوت هذا الزعم.

أما القول بانسجام هذه الأبيات مع جو القصيدة - وليس هذا بمتفق عليه - فليست هذه حجة كافية، فهذه الأبيات أكثر انسجاما مع أكثر من قصيدة، فهل هذا كاف لإدخالها فيها، لقد قالوا إنها لتأبط شرا وهي خليقة بالدخول في شعره[51].

إنني لا أنفي نسبتها إلى امرئ القيس ولكن بذرة الشك فيها لا تنفيها الحجج التي ساقها، فنحن بحاجة إلى دليل قوي حتى نسقط كلام الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما، وإلا لأصبح التوثيق يتبع الهوى والظن.

ويجد في اختلاف الأسلوب عند طرفة في وصفه للناقة وتأملاته ما يدل على أن أحد الموضوعين منحول، ويرجع نسبة أبيات التأمل إليه لملاءمة أسلوبها لسن طرفة [52]. ولكنه يعود مرة أخرى ليشكك في أبيات التأمل أيضا لأن أسلوبها يضارع أساليب الفحول الذين عمروا أكثر منه، وأنها تشبه منظومات العصر العباسي [53].

وهذا الرأي تنقصه الدقة، فمن حقه في مجال التعليم أن يثير هذه القضايا ولكن من خلال تماسك الرأي واطراده، وخصوصا أن هذه القصيدة لم يشك فيها إلا طه حسين ضمن نظرة عامة للشعر الجاهلي كله.

وقد شك أولا في وعورة ألفاظها وكان هذا هو سبب نفيها، ولكن هل هي وعرة؟ وبالنسبة إلى من؟ إن الصعوبة آتية من مصطلحات ومسميات البيئة، إن بيتا مثل هذا:

وَطيُ مُحَالٍ كالحَنيِّ خلوفُهُ وأجرنة لُزَّت بداي منضَّدِ

هذا البيت وعر بالنسبة إلينا، ولكن هل الوعورة آتية من الفكرة المعقدة أم من الأسلوب المركب، أم الرموز الغائمة والألفاظ؟ لا شك في أن الألفاظ ومسميات البيئة كانت هي الحاجز الأول الذي أوحى إلينا بهذا الفهم، وما هو عسير علينا قد يشرحه لنا طفل صغير من أطفال البادية.

ولكنه إذا شك في هذه الأبيات لوعورتها فما باله يعود ليشك مرة أخرى في أبيات لسهولتها. فهناك احتمالان إما أن يشك فيها لصعوبتها لصغر سن طرفة، أو لسهولتها وقربها من لغة العصر العباسي، ولا يجوز الخلط بينهما. والشك للسهولة أو الصعوبة ليس بكاف لإثبات شيء، فلكل جانب من هذا أسبابه التاريخية والفنية المفسرة له.

وحتى لا نطيل نكتفي برده على نفسه بعد ذلك حين قال في موضع آخر: بل إن المعلقة الواحدة لتترجح ألفاظها بين الخشونة والرقة، والجزالة والسلامة وكثرة الغريب وقلته، وفي موضوع دون موضوع، من ذلك مثلا وصف الناقة عند طرفة فلقد أُفعم بالألفاظ الغريبة... ويلوح لنا أن مرجع هذا الاختلاف هو تعدد الأغراض في تلك القصائد، وأن الألفاظ التي تصلح لموضوع تختلف عن الألفاظ التي تصلح لموضوع آخر» [54].

ويعلق على القول بالغرابة والحوشية بأننا «لم نعثر على قول قديم ينقد هذا الشـعر بالغرابة أو الحوشية في البيئة التي قيل فيها هذا الشعر، أو فـي الزمن القريب من عهد الجاهلية. لكن هـذا النعت وجد في العصور التالية...» [55]. ففي رأيه هذا نقض صريح لقوله السابق.

ومـن الملامح الجيـدة في هذا الكتاب اسـتفادته من الدراسـات الصوتية الحديثة التي اهتمت بتقطيع الشـعر مـن حيث بنيته اللغوية الصوتية وأثر هذا في المعنـى، فهو مثلا يقف أمام أبيات امرئ القيس ناظـرا إليها من خـلال المقاطـع الصوتية. ففـي الأبيات الأولى كثرت المقاطع الطويلة المفتوحة التـي جاء بها الشـاعر لغاية فنية موغلة في الأصالة الشعرية.

وقد أشـار الكاتب إلى أن العروضيين القدماء لـم يفرقوا بين المقطع القصير والطويل والمفتوح والمقفل، فكلها تسـمى سببا خفيفا. ويوضح أن بينهمـا اختلافا موسـيقيا يظهر في الإيقاع الداخلـي لوحدات الكلمات، كما يظهر في النغم، فالمنتهي بحركة ممدودة يسـمح للناطق بترجيع النغم وتطريبـه، وهذا غير متاح في المقطع المنتهي بحرف سـاكن الذي يسـمح بتأكيد الجرس الصوتي للحرف السـاكن، أما المنتهي بحركة محدودة فلا يسمح بهذا.

فالمقاطـع الطويلة في مطلع قصيـدة امرئ القيس متلائمة مع البكاء والدموع والحسـرات والذكريـات، فكأن مفردات الشـاعر تعبر بصوتها وصداها في الأسماع عن معاني الألم والذكريات [56].

وفي المقابل يجد أن تعبير امرئ القيس عن فرسه في سرعته وسهولة انقيـاده وأنه يقبل ويدبر ويكر ويفر في لحظة واحدة، هذا لا يكون إلا في الزمـن القصير، فالحركة والزمن مترابطان لا يكادان ينفصلان، فكان في تعبيـره عن هذا أن اسـتعمل المقاطع القصيرة، والمقاطـع الطويلة المغلقة فقال: مكر مفر مقبل مدبر... [57]».

ومـن هذا المنطلـق الصوتـي يـرد وصـف القدماء لما في بيت امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى بنا بطنَ خبْتٍ ذي قفافٍ عَقَنْقَلِ

فقد أشــاروا إلى عدم فصاحة الكلمات وحوشــيتها وتنافرها. وهو يرى أن الفصاحــة هنا كانت في أرفع مســتوياتها، فهذا التنافر تعبير عــن مكان فيه صخور ورمال، ومرتفعات ومنخفضات، وتداخل والتواء. وهل أصلح للتعبير عن هــذا التلوي في التضاريس من حروف متنافرة المخــارج، حــرف يوحــي بالقلقلــة كالقاف وحرف يوحي بالتفشــي كالتاء والفاء [58].

ويــرى كذلك أن حرف الحلق والقلقلة في بعض أبيات عمرو بن كلثوم آتيــة «من معنى الحماســة التي يملأ الشــاعر بها فمــه، ويفيض بها من أعماقه، ويشــمخ بما تحمله من معان، ويتيه بها على الدنيا، أدركنا ســبب توافر حروف الحلق والقلقلة، لأنها تصور، أو تســاعد على تصوير الفكرة النابعة من الأعماق من جهة، والمدوية من جهة أخرى» [59].

ومثل هذا النهج نجده حينما راح يفسر التنوينات وحروف التفشي وأثرهــا على اتجاه المعنى، ويعلل اختيار هذا البحر أو ذاك عند بعض الشــعراء، أو اختيار صيغ معينة وهكذا[60]. ويعلل المقولة القديمة من أن الأعشــى صناجــة العــرب من خــلال دراســته الصوتية لشطرة من لاميته:

(ومستجيب تخال الصنج يسمعه) [61].

ويحاول من جهة أخرى الاســتفادة من الدراسات النفسية لفهم دلالة الأبيــات وهذه تدور في محورين أحدهما خاص بالحالة النفســية العامة عند الشاعر والآخر تتبع صدى هذا في جو القصيدة الداخلي.

ومــن الأول تكذيبــه لهذا العــدد الكبير من المغامــرات الماجنة لامرئ القيس معتمدا على أن هذا آت من (التعويض) حين يشــعر إنســان بنقص ما فيعوضه بالادعاء، مســتفيدا من وصف القدماء لامرئ القيس بأنه كان مفــركا مكروهــا من النســـاء، فليس هذا الإيغــال إلا تعويضا عن هذا الخلل الجسدي [62].

ومــن النوع الثاني تحليله لشــخصية طرفة من أبياته التي تحدث فيها عن نفسه ليصل إلى أنه كان شابا غير معقد النفس خاليا من الازدواجية، منطلقا خائفا من الموت [63].

أما سهولة كلمات عمرو بن كلثوم فسببها أفق الشاعر العريض، وتنقله من مكان إلى مكان ومخالطته للناس، فلغة الإنسان ذي الأفق الواسع تختلف عن لغة الإنسان المحصور بحدود وحواجز. وقد يكون مرد السهولة طبيعة الشاعر ونفسيته الواضحة المنبسطة [64]. أما أسلوب التأكيد فهو صادر عن إنسان واثق مما يقول [65].

ومن اللمسات النفسية الواضحة تحليله لأبيات وصف الليل عند امرئ القيس، فقد تابع صور الشاعر: صورة البحر وبروك الجمل الذي راح يضغط عليه بكل أثقاله ليخنق أنفاسه ويسحقه. ويستفيد في هذا من المقاطع الطويلة المفتوحة لترسيخ هذا المعنى [66]. وهو يرى أن الحزن طابع أصيل في هذه المعلقة كلها فالحزين يفرض عالمه النفسي على عالمه الخارجي [67].

وعلى هذا الضوء يفسر حركة الانتقال في القصيدة من موضوع لآخر مناقض له فحديثه عن الصحراء والصعاليك والذئاب والتشرد والحرمان من لذات الحياة، قاده إلى الحديث عن النقيض، فالنفس الإنسانية تقبل هذا التضاد[68].

وهذه التفسيرات لا تزيد على كونها خبرة عامة ولكنها مستفيدة من آخر الدراسات استفادة ثقافية عامة؛ فهو تفسير لنص قديم من خلال نظرة مثقف عام يعرضها للقارئ من أبسط جوانبها وأكثرها وصولا إلى القارئ العادي والمتعلم، وبهذا حقق منهجا تعليميا متطورا قياسا على المحاولات السابقة.

تمثل هذه الإشارات التي قدمناها أهم ملامح شرحه مغفلين بعض الجوانب العامة أو التي يشترك فيها مع الآخرين، فهو في هذا الشرح لم يهمل الجوانب الحضارية والاجتماعية التي درسها وأشار إليها من خلال هذه القصائد [69]، مع بعض الملاحظات الفنية العامة والمطردة، كما أهملنا التقاءه مع بعض الشارحين المحدثين واستفادته منهم [70]. فهذا يحقق الهدف التعليمي الذي يركز أهم الاجتهادات في المعنى الذي يتحدث عنه.

وبعد، فهذه المحاولة تقدم لنا النموذج الطيب للهدف التعليمي المبسط والواعي الذي أجمل ما تفرق في حدود معقولة.

ثانيا: النظرة الذوقية: طه حسين نموذجا

يسلم الذوقيون بالمسلمات الأولى لتحقيق النص وتمحيصه ووضعه في إطار عصره، ولكنهم بعد هذه الخطوات الأولى لا يعتدون إلا بالتذوق، حيث يدخل الناقد إلى النص بنفس متفتحة مستجيبة له ولمؤثراته وقبول ما يترك فيها من انطباع تصفّيه ثقافة الناقد ودرايته وحسه المرهف، الذي يعتمد عليه في الدخول إلى النص الفني، فالنفس هنا واعية ولكنها منفعلة ومستجيبة استجابة طائعة للمؤثر الفني، تحاول أن تنقل ما أحسته إلى المستمع والقارئ دون الوقوف أو الاهتمام بالتعليل.

ولعل الدكتور طه حسين هو أقرب الدارسين العرب المعاصرين إلى تمثيل هذا المنهج - وخصوصا في شرحه للشعر الجاهلي - فمنهجه يمثل ناقدا ذوقيا يعتد بالمنهج العلمي في تحقيق النص وتوثيقه لغويا وتاريخيا، وهو في الوقت نفسه دارس أُحكِمت ثقافته العريضة فجسد ثقافة عصره واهتمامات جيله الجديدة، مع ما ترسب في أعماقه من آثار المنهج القديم، ليستوي هذا كله في نفس متذوقة تتموج مع النص تموج إحساس تأثيري مستجيب للنص ولكن مع وعي من أن يزل الذوق في قاع التقليد أو يسلم بالفهم السائد إلا عن اقتناع.

ويعنينا هنا - ونحن نتحدث عن شروح المحدثين للقصائد السبع - الوقوف عند طه حسين من جهات ثلاث: منهجه العلمي في تحقيق النص ودراسته، ومفهومه النظري للذوق، ثم تطبيق هذا المفهوم على شرحه لبعض القصائد السبع.

أما منهجه العلمي في تحقيق النصوص ودراستها فقد بينه في أكثر من كتاب وخاصة مقدمتي كتابيه «تجديد ذكرى أبي العلاء» و«في الأدب الجاهلي»، وهو منهج يجمع بين منهجين: منهج أستاذه سيد المرصفي الذي يعنى بالذوق عناية خاصة في دراسة النصوص على الطريقة القديمة من حيث فقه اللغة والذوق السليم والرأي الصادق مع

الإكثار من رواية الشعر وخاصة الجاهلي والإسلامي. وقد أكد إعجابه واقتناعـه بهذه الطريقة التي أثرت في نفسـه تأثيرا شـديدا، وكونت له فـي الأدب والنقد ذوقا على مثال ذوقه (71)، وتركت في نفسـه دقة النقـد اللفظـي، مع الحـرص على إيثار الكلام إذا امتاز بمقارنة اللفظ ورصانة الأسلوب (72).

أمـا المنهج الثاني فهو المنهـج العلمي الذي اسـتحدثه الأوروبيون في دراسة تاريخ الأدب، وهو حين يعرض لمناهج الأدب المختلفة في كتابه «في الأدب الجاهلي» يختار من بينها المقياس الأدبي (73)، الذي يجمع بين النقد التجريبي كما عرف في القرن التاسـع عشر، والمنهج التأثري الذي يصدر فيه صاحبه عن إحساسـاته الذاتية وذوقه الشخصي أكثر مما يصدر عن قواعد وأصول لغوية جمالية في استخلاص أحكامه النقدية وتعليلها (74).

وهو يلخـص منهجه بأنه عالم حين يستكشـف ويضبـط ويحقق النص ويفسره من الوجهة النحوية، ولكنه ليس عالما حينما يدل على مواضع الجمال الفنـي فيه (75). وفي هذا الجانب يعتمـد على الذوق «فمهما أحاول أن أكون «موضوعيا» إن صح هذا التعبير فلن أستطيع أن أستحسن القصيدة من شعر أبي نواس إلا إذا لاءمت نفسـي ووافقت عاطفتي وهواي ولم تثقل على طبعي ولـم ينفر منها مزاجي» (76). وهذا التذوق للأدب لا ينهض إلا إذا اعتمد على ثقافة عامة مع طائفة من العلوم الإضافية التي لابد منها.

وهذا بدوره يسلم بنا إلى تصور طه حسين للتذوق من الوجهة النظرية، فقـد أكثر وأفاض في الحديث عنه مما يشـعر بأنـه كان قاصدا توجيه الذهن إلى الركن الأساسـي فـي نظرته إلى النص الشـعري؛ لذلك كان يحـاول جاهدا تحديد معنى الذوق. نجـده أولا يفصل بين الذوق والفهم، ففي مناقشـته الحادة للرافعي يؤكـد أن الذوق لا علاقة له بالفهم، يقول: «ذلك يخيل إلينا أن الذوق شـيء والفهم شـيء آخر وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم - فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نتذوقها... وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا فنزعم أننا قد نتذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير - فما نظن أن الذين يتذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعا»(77).

فواضح في هذا النص أنه لا يعد الفهم العقلي أساسـا للذوق، ونجده يكتفي بهذا النقد السلبي دون الدخول في تحديد معين، وهذه السمة بارزة فـي حديثه عن هذا الجانب، ولكنه يمضي أحيانا إلى أكثر من هذا متجها نحو رصد ظاهرة الذوق ذاتها. وتقديم بعض الملاحظات التي يراها كفيلة بتوضيح قصده.

فهـو يرى مثـلا «أن هناك ذوقين فنيـين لكل واحد منـا حظ منهما يختلف قوة وضعفا ويتفاوت سعة وضيقا باختلاف ما للشخصية من القوة والظهـور. إن هناك ذوقا فنيا عاما يشـترك فيه أبنـاء الجيل الواحد في البيئة الواحدة وفي البلد الواحد لأنهم يتأثرون بظروف مشـتركة تطبعهم بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم» (78). وهناك ذوق خاص متأثر بالشخصية الفردية يمثلها تمثيلا صادقا (79).

وهـذان الذوقان هما اللذان يحكمان بروعـة القصيدة. فالذوق العام يعطـي الحياة الفنية حظا من الموضوعية، والـذوق الخاص يعطي الحياة الفنية حظا من الذاتية (80). فالذوق عنده إذن هو المحصلة النهائية لتكوين الشـخصية العامة مضافا إليها هذا التكوين الثقافي الخاص الذي يتحول إلـى حس فني دقيق قادر على النفاذ إلى جوانب الجمال في النص الفني - وهذا الحس أو الذوق الخاص يتناسـب مع الـذوق العام في معاصرته للثقافة المتسـعة بحيث يكون قادرا على مخاطبة جيله - أو يلتقي معه في الإحسـاس بالمثل الأعلى للشعر الذي يحقق الجمال في شكل ذوق العصر الذي قيل فيه، ويتصل بنفوس الناس (81).

وهو يفسر توافق الكتاب وإعجاب القراء بهم في مرحلة معينة بهذا الذوق العام وما يختلـف عليه من ألوان التطور، فأذواق الناس مختلفة باختـلاف البيئة وظروف الحياة. فالـذوق الذي يجعل الجمهور يعجب بأثر فني أو يسخط هو هذا الذوق المشترك بين الناس. ولكنهم يختلفون فـي التعليل لاختلافهم فـي الحظوظ مـن العقل والشـعور والثقافة وظروف الحياة الأخـرى(82). ويحاول أن يقترب أكثر من تحديد مفهوم الذوق عنده، فهو يتساءل: هل الذوق عقل قوامه البحث والنقد، هل هو شـعور خالص قوامه الحس والتأثر والانفعال؟ وتكون إجابته أن الذوق

ليـــس عقلا خالصا ولا شـــعورا خالصا بل هو مزاج مـــن هذين اللذين كونهما الذوق العام والخاص وتشكلا في بيئة وظروف معينة تقيم أصلا مشتركا بينهما [83].

وهذا الرأي هو الذي يقدم لنا تصور الدكتور طه حســـين للتذوق، فهو هذا الأساس الذي يتشكل تبعا للبيئة في أوسع معانيها مع الدربة والدراية بالنصوص الفنية والثقافة المتلائمة مع العصر الذي يعيش فيه الكاتب بما فيه من امتداد قديم وحاضر متجدد، فهذه كلها تشـــكل إحســـاس المتلقي ليكون قادرا على تذوق النص وتلمس عناصر الجمال فيه.

وهذا ما نلمســـه عند طه حسين حينما يحلل النصوص، فهو يحاول أن يخاطـــب عصره من خلال هـــذا الذوق العام، محـــاولا أن ينبه إلى مواطن الجمال التي أحســـها وتذوقها دون تعليل واضح إلا من إشارات إلى بعض الجزئيات أو سكب شعوره بأسلوبه المتدفق مع التنبيه المستمر إلـــى هذه الصورة الجميلـــة أو ذاك التعبير المؤثر، فهـــو يخاطب قارئه مخاطبة من يريد أن يشـــركه في تذوقه من خلال الإشارة والتنبيه دون التعليل والنقد.

وهو في تذوقـــه لا يتخلى عن نزعته التأثيرية ولكنه يمزجها بكثير من الملاحظات التعليلية التي نبعت من ذلك الأثر القديم الذي شـــكل أســـاس ثقافته، لذلك يقف موقف القدماء أمام لفظة مستحسنة أو مستقبحة.

وهـــذا لا ينفـــي تلك النزعة الذوقيـــة التأثيرية بقدر مـــا يؤكدها لأنه ترك لمكونات ذوقه أن تقوده، فلابد أن تبرز تلك الرواســـب التي اكتســـبها واستحسنها كما أكد هذا حين تحدث عن أستاذه الموصفي.

يتمثل أســـلوبه الذوقي في أحســـن صوره في تحليله الرائع للنصوص الشـــعرية ومحاولته إعادة قراءة الشعر القديم - وخاصة الجاهلي - على مســـامع الأجيال الحديثة التـــي انصرفت عن هذا الشـــعر ولم تعد تجد نفسها فيه بعد أن خالطتها الثقافات الجديدة.

وهذه القراءة الجديدة ليســـت فقط شـــرحا لبعض قصائد الشعر الجاهلي، ومنها القصائد الســـبع، ولكنها جزء مـــن تصور كلي للحركة الأدبية ومفاهيمها تطرح من خلالها، ونذكر هنا أن الشـــرّاح الســـابقين

كانــوا واثقين بتصديهــم لنص لا خلاف حول أهميتــه وملاءمته لذوق العصر، أما طه حسين فموقفه مختلف، فهو يحاول القيام بإقناع قارئه، وهو ما تخيله شــخصا يخاطبه بأن هذا النــص جدير بالقراءة والفهم والتــذوق.. وقد ترك هذا الهدف طابعه على الصفحات التي خصصت لتفسير الشعر القديم. لذلك يحاول أن يستخدم ذوقه بمكوناته القديمة والمعاصرة لفهم النص ثم صياغة هذا الفهم والتذوق صياغة تتلاءم مع ذوق العصر، وهذا الذوق يمس الشــكل الفني ونوعية المعنى الذي أراد الشاعر أن ينقله.

فهو إذن قد أقبل على هذا العمل إقبال من يريد أن يصد شيئا ويثبت آخر من خــلال مخاطبة الذوق وحده، وهو حريــص على أن يجمع بين نوعي الذوق: العام حيث يخاطبه بما يفهم ويســيغ، والخاص المتمثل في ذوقه الشــخصي حين يختار الزوايا التي يتحدث عنها ومواطن الجمال التي يدل عليها.

لذلك انطبع شــرحه بالباعث الذي كان وراء فكرة هذا الشــرح، فنراه يسعى إلى إعادة تركيب معنى القصيدة بأسلوبه المتميز فيدخلك معه بيسر معتمدا على جوهر المعنى ممزوجــا بالصور الفنية الموجودة في القصيدة كما يحســها، كل هذا من خلال أسلوبه بعيدا عن وعورة اللغة حتى تسهل على القارئ متابعته.

ومن جهة أخرى نجده يتحدث من الزوايا التي تتلاءم مع الذوق المعاصر وتلامــس النظرة الحديثة. كل هذا يتم في إطار تأثري واضح مع لمســات جزئية خاصة بالكلمات والتعابير والصور ينثرها هنا وهناك تشي بثقافته القديمــة، مع ملاحظات توثيقية تذكر بموقفه من رواية الشــعر الجاهلي وبالمنهــج العلمي في تحقيق النصوص. ولكن هذا كله ســرعان ما يختفي ليبقى ذلك الجو المشبع بجمال النص المعروض للتحليل.

يسعى طه حســين ابتداء إلى تلمس طبيعة الشاعر ونفسيته، يقدمها بين شــرحه للأبيات معتمدا في هذا علــى القصيدة ذاتها مع فهمه لحياة الشاعر، وهذا التلمس هدفه جس الروح العامة التي تكمن وراء القصيدة، فالنســيب في مطلع قصيدة لبيد: «نسيب شــاحب، فيه حزن يشتد حتى

يؤثـــر في النفس، ويكاد يبلغ الجزع واليأس، لولا أن الشـــاعر قوي النفس شـــديد الأيد، عظيـم الحـــظ من الإرادة، جلد صبـور، فهو لا يستســـلم للعاطفـــة..» [84]، أما طرفة فإنه «يريد أن يعرف نفســـه أو يقدمها إلينا»، كأنه يصور نفســـه تصويرا يســـيرا قبل أن يأخذ معنا في الحديث المفصل الطويـــل. ألا ترى إلى هذه الأبيات القليلة؟ كيف تُوقف الشـــاعر أمامك، وتمثلـــه تمثيلا صادقا فتحببه إليك وتعطفك عليه، وتدعوك إلى أن تطيل سؤاله وتستمتع بالاستماع إليه» [85].

ويشـــير بالنســـبة إلى زهير إلى الوداعة وحلاوة الـــروح التي «تثير في نفســـك الأشـــجان الهادئة الرقيقة التي تخرجك عن طورك العادي» [86]. فزهير هادئ فـــي قصيدته، محزون في أولها، مذعـــن لصروف القضاء، وفـــي آخرها حكيم يفكر في الحياة والأحياء مســـتخرجا العظات والعبر، يمدح الأخيار ويشجعهم على حب الخير، فنفسه حين أنشأ هذه القصيدة «نفس الحكيم المطمئن الذي لا يزدهيه فرح ولا حزن ولا تســـتخفه عاطفة مهما تكن» [87].

أما عنتـــرة فقد كان حلو النفس رقيق القلـــب - قوي العاطفة - جاءه ذلـــك من أنه عز بعد ذل، وتحرر بعد رق، «فهو قد تألم في طفولته وصباه واحتمل الأذى في شـــبابه، وأي ذل! هـــذا الذل يداخل النفس ويختلط بها اختلاطا فيصفي عواطفها تصفية ويلطف مزاجها تلطيفا» [88].

هذا المدخل النفســـي يمثل منهجا في التناول وإن قام طرف منه ولكننا أمـــام المتذوق المثقف الذي اســـتفاد من كل العلوم حتـــى وصل إلى الفهم والتذوق، وهذه نظرة طه حسين دائما. فهذا المدخل النفسي وسيلة للتذوق حتى يقيم جسرا من الإحساس القائم على الفهم والتعاطف، وهو من جهة أخرى يســـتفيد منه فـــي تلمس الحظ العام، أو النغمة الرئيســـية الكامنة بين الســـطور التي يلتف حولها مـــدار القصيدة كله. فقد كانت نفس زهير الهادئة المتأملة هي نغمة قصيدته العامة التي شـــكلت وحدتها العامة. أما وحدة قصيدة عنتـــرة فهي حديثه إلى صاحبته واســـتحضار صورتها في نفســـه منذ أن ابتدأ إلى أن انتهى. وقد كان منبع هذا التمســـك أو التعليل الذي ساقه هو هذا التحليل الذي ذكرناه.

وبعد أن يهيئ النفس يبدأ بعرض معنى القصيدة من الزوايا التي لامسها ذوقه، فينثر المعاني العامة نثرا يعتصر أهم جوانبها - يعرضها - بألفاظه - وذلك «لنرى ألها حظ من الشعر ومن جماله؟ أم هي بريئة من الشعر والجمال معا؟ أما أنا فيعجبني جدا تصويره لهذه الديار...».

ويدخل بعد ذلك في عرض خطوط المعنى العامة بأسلوب جذاب يشيع في نفس القارئ الإحساس بجمال معاني القصيدة.

وعرضه لمعنى القصائد يقدمه من زاويتين متكاملتين أولاهما اختيار مقاطع القصيدة وتحديد أجزائها الرئيسية من جهة تفسير المعنى وبيانه، أما الثانية فيقف فيها عند وسائل الشاعر المتمثلة في هذه الصور التي رسمها الشاعر للتعبير عن فكرته. وكأنه يريد أن يضع أمامه المعنى والصورة حتى يكتمل عند القارئ البناء الفني.

وبعد أن يفرغ من هذا يصل إلى المقطع التالي مستخدما الإحساس العام الذي يلم شمل القصيدة. وعلى هذا الأسلوب يسير في عرضه لأقسام القصائد الرئيسية، محاولا النفاذ إلى داخلها، متكلما بلسان الشاعر، ناطقا ببواعثه التي تدعوه إلى اتخاذ هذا التعبير أو ذاك التشبيه.

وحتى يهون على قارئه وعورة الحديث عن ناقة لبيد مثلا يحاول قبل الدخول في تفسيره وتذوقه أن يقف موقف الإعجاب المباشر، مبينا أن هذه الناقة تعني الشاعر لأنها تسليه وتحمله، ويخيل إليه أنه اتخذها «تعله ليتغنى ببعض المناظر الجميلة التي كانت تشيع في الصحراء» [89].

ثم يدخل إلى حديث الناقة شارحا الأجزاء الخاصة بها ملحا على سامعه بأن ينظر إلى هذه الصورة المختلفة التي يعرضها في لفظ رائع - وأن ينظر إلى هذه الصورة التي ستفتنه - مشيرا إلى الحركة والنشاط - فالشاعر «لا يثبت الشيء أمامه ليصفه، وهو لا يصفه ساكنا مستقرا، وإنما يدفعه أمامه، ثم يندفع في أثره، ثم يصفه لك مسرعا في الحركة فيضطرك أنت إلى أن تنشط، وإلى أن تتبعه» [90].

ومن هذا الحث والتنبيه يتابع تجسيد ما في أبيات الناقة من تشبيه، حيث يقدم لنا المعنى في أسلوب يشي بأن ذوقه قد انسجم مع هذه الأبيات وما فيها من معنى وتصوير جميل، فكان أسلوبه تعبيرا مباشرا عن هذه

الأبيات في رداء عصري يقبله قارئه، يقول: «أرأيت إلى هذه الأتان في هذه القصة الحية السريعة التي تتتابع فيها الصور وتختلف فيها المناظر، وتكثر فيها الأحداث، وتثار فيها عواصف الغيرة والحرص والمنافسة، هذه الأتان يضربها الشاعر مثلا لناقته حين يدفع بها في الأسفار» [91].

وعلى هذا المنوال يتابع التشبيه الآخر يفسره ويوضحه ليقول بعد ذلك إنه قد تجنب التفصيل ولم يقف عند كل صورة أو تشبيه مشفقا من الوقوف عند الألفاظ وما فيها من جزالة تنبو عن أذن ولا تنبو عن آذان قوم آخرين يألفونها، وأشفق كذلك عليه من مسائل النحو [92]؛ فهو إذن حريص على أن يقف موقف متذوق عصري حتى يقدم لجيله أجمل ما في القديم في هذا الرداء الجديد.

في قصيدة طرفة يكتشف طبيعة الشاعر الفتى، الذي تحدث عن نفسه وخلانه وقومه وأسرته وعن جده ولهوه، متلمسا فلسفته اليسيرة المتلائمة مع بيئة البادية، ويتابع معناها الواضح وروحه العامة التي تخللها في تأملاته في الحياة والموت [93]. ويتذوق قصيدة زهير من ذلك الجو الهادئ الذي تحدث عنه مع وقفة مختارة أمام وصفه للحرب وقصة حصين بن ضمضم حيث تجسدت تجارب زهير الشيخ البدوي.

ويتذوق جمال الرسم وينبه إلى التشبيهات التي ازدحمت بها هذه القطعة حتى يكاد بعضها يركب بعضا [94].

وبعد هذا الإجمال يعود مرة أخرى إلى القصيدة التي يتحدث عنها ليقف وقفة تطبيقية من خلال النظرة التذوقية نفسها، ولكن مع محاولة التعليل المبسط أو الإشارة المباشرة إلى الأبيات على نحو ما نرى في هذا البيت من معلقة لبيد:

رَجَعا بأمرهما إلى ذي مِرَّةٍ حَصِدٍ ونجح صريمةٍ إبرامُها

يقول: «انظر إلى هذا البيت الأخير - كيف صور فيه العزيمة المصممة والإقدام الذي لا تردد فيه، وكيف لاءم بين هذا المعنى الحازم الشديد وبين هذه الألفاظ الحازمة الشديدة، فاستعمل كلمة المرة وكلمة الحصد ثم انظر إلى آخر البيت كيف أرسله مثلا تجري به الألسنة مهما تختلف العصور والبيئات وهو قوله: ونجح صريمة إبرامها «يريد أن نجح العزيمة

رهين بالتصميم عليها» [95].

ويعجبه التشبيه في بيت طرفه:

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفَتَى لكالطّولِ المُرخَى وثنياهُ في اليدِ

فيجعل متحدثه ينطق بالإعجاب لهذا التشبيه البدوي الصادق الذي لا يدع سبيلا إلى الأمل... هذا التشبيه الذي يفهمه كل إنسان دون أن يتكلف في فهمه جهدا»... ثم يقول: «هذا التشبيه الرائع من جميع جهاته يفتنني ويخلبني ويحبب إلي الشاعر» [96]، فهو هنا يشير فقط إلى التشبيه وأثره في النفس ولا يحاول تحليله مكتفيا بالقول بأنه صارم وبدوي صادق. فمحاولاته في الإقناع بجمال البيت والفكرة والتشبيه تكمن في التنبيه عليه وإبداء الإعجاب به دون تبيين للأسرار الكامنة في النص أو الاستغراق في التحليل، فهذا قد يصرفه عن هدفه الذي أقام شرحه لأجله، لذلك نجده يدفع صاحبه إلى مشاركة الفرزدق الإعجاب حين سجد لبيت لبيد المشهور:

وجَلا السيول عن الطّلول كأنَّها زُبُــرٌ تُجِـدُّ مـتونَهـا أقلامُهـا

«قال صاحبي: لو لم تكن في هذا البيت إلا هذه الموسيقي التي تأتي من الملائمة بين كلمة السيول والطلول لكان الفرزدق خليقا بأن يسجد له فكيف بهذا التشبيه الجميل!» [97].

فهذا ترديد عصري لبعض ملامح الإعجاب القديم حين يتلامس الذوقان القديم والعصري أو يتحدان في النظرة، وهي أيضا محاولة لتلمس الأسباب أو التعليل في أضيق نطاق. فهذه العبارات البسيطة تتناسب مع رأيه الذي أعلنه حول التنبيه على الجمال والشعور به دون التعمق في تحليله - فهذا كما يقول في حديثه عن إحدى قصائد أبي نواس: «إنها ذات معنى دقيق وإن في لفظها وقوافيها جمالا نشعر به ونميل إليه دون أن نستطيع تفسيره في سهولة ويسر» [98].

وكما قال: «وهل كان الشعر والفن إلا ليبهراك ويسحراك» [99].

وسنجد أن طه حسين يدور في فلك هذه العبارات التي يسعى من خلالها إلى جعل القارئ مشاركا له [100].

فهذا الأسلوب في تحليل النصوص إما هو أسلوب من لا يرى القيمة في البناء اللغوي الفني ولكنه يراها فيما يثيره من اللذة والمتعة لدى متلقيه حين يقرأه أو يستمع إلى إنشاده.. فهو لا يعول كثيرا على (الصناعة الفنية)

للشعر ولكنه يعول على هذا الإحساس بالمتعة واللذة [101].

فهذا التحليل للشعر الجاهلي يقدم لنا نموذجا للمنهج القائم على التذوق والإحساس بلذة هذا الشعر وانسجامه مع الذوق الحديث إذا استطاع النفاذ إليه، وهذا ما فعله طه حسين.

وهو وإن غلبت عليه الصفة التأثيرية فإن هذا لم يمنع من بروز كثير من تيارات النقد الحديث في نقده لأنه يمثل الناقد العصري في شمول نظرته، ولكن هذه التيارات عابرة وبسيطة تحجبها صفة التذوق الغالبة، فهو دائما يقف من النص متلمسا الجمال الفني المستمد كما يقول: «من هذا الروح الخالد الذي يتردد في طبقات الإنسانية كلها. فيحل في كل جيل منها بمقدار - وهو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه، ويتصور في كل بيئة بالصورة التي تناسبها» [102].

7

المعلقات ونظرات العصر الحديث

«تبقى المعلقات نصا مفتوحا غنيا تتجـذب إليـه عيون العصور المتعاقبة، فيقودها إلـى مغامـرة الرؤيـة في أغـوار يتلألأ فـي داخلها عمق الإبداع»

المؤلف

منهج جمالي أسطوري

كان الشعر العربي محلا لتطبيق النظرات الجديدة في النقد الحديث، ومثل الشعر الجاهلي، والقصائد السبع بوجه أخص، الركن الحي لهذا التراث بما فيه من إبداع موغل في الزمن وغموض، يتيح لأصحاب هذه الاتجاهات فرصة طيبة لتجريب وتطبيق نظراتهم الخاصة. وقد كان أصحاب المذهب الجمالي الذين يعنون بالشعر من حيث هو تركيب لغوي يحفه التفكير الأسطوري من أكثر الناس اقترابا من هذا الشعر الذي وفر لهم فرصة نادرة للتطبيق.

ويعنينا في هذا المقام الوقوف أمام إحدى هذه المحاولات الرائدة التي مست بصورة واضحة القصائد السبع، فهي

نموذج جيد لما آلت إليه تفسيرات وشروح هذه القصائد المشهورة، حيث تتضح لنا تلك الإمكانية الضخمة الكامنة في هذه القصائد التي توالت عليها النظرات المختلفة عبر العصور، بحيث يمكن جعلها محورا أساسيا لبيان اتجاهات الدراسة الأدبية والنقد في كل عصر.

يمكن اعتبار الدكتور مصطفى ناصف أهم ممثل لهذا الاتجاه في مجال دراسات النصوص القديمة، وبخاصة القصائد السبع، وقد تابع هذا الاتجاه متابعة دقيقة وتفصيلية ومثيرة في استنتاجها في كتابين أساسيين هما «دراسة الأدب العربي» و«قراءة ثانية لشعرنا القديم».

اهتم في الكتاب الأول ببيان الخط النظري لفكرته الجمالية، وقد أقام تصوره على هدم النظرات النقدية المختلفة، فهاجم أصحاب النقد القديم وبين عجزهم عن مواجهة النص، وتناول إلغاء التأثير الاجتماعي عازلا الأثر الفني عن بيئته وسياقه الاجتماعي، يقول: «إن السياق الاجتماعي الخاص الذي يحفز الفنان إلى العمل ربما لا يمثل شيئا بمعناه، لقد أدى السياق دوره حين بعث الفنان على التأمل، ولكنه كثيرا ما يقف عند هذا الحد، فلا يمكن بسهولة أن يربط بينه وبين العمل الأدبي، العمل الأدبي يشب عن طوق السياق الاجتماعي الخاص، ويعلو عليه، وينفك عن إساره» [1]، وينادي بإسقاط فكرة الغرض من حسابنا [2]. وكما عزله عن بيئته سعى إلى عزله عن ذات منشئه، فهو يرى أن العمل الفني يبعد عن شخصية صاحبه [3]، وأنه يتحرك حركة ذاتية خاصة به، لا حركة تابعة لذات صاحبه [4]، يقول: «لقد آن أن نحرر النص الأدبي من نفس صاحبه وألا نهتم بكثير من أخباره التي تغذي شوقنا وتطلعنا إلى حياة غيرنا من الناس والممتازين منهم خاصة» [5].

ويصل إلى جوهر فكرته التي جعلها عنوانا للفصل «التحليل اللغوي الاستاطيقي» والذي يؤكد فيه أن القصيدة ليست تعبيرا ولكنها بنية لغوية، واللغة - على رأي كاسير [6] - رمز لا تعبير، والرمز مجرد تسجيل لشيء ما في خارجه، واللغة تستوعب الاتجاه الذاتي والموضوعي الخارجي في كل أكبر منهما، ومن هذه النقطة يبدأ في تفهم استقلال القصيدة والاهتمام

بالنشـــاط اللغوي فيها [7]. ومبدأ النشـــاط اللغوي يعني أننا دائما بصدد طـــرق مختلفة لإثراء المعنى بحيث يصعب قياســـه علـــى الخطة والتدبير المنظم أو الغاية الموسومة [8].

وهـــو يثير قضايا كثيرة متشـــعبة الأطراف يصعب حصرها في حيز ضيق ولكن أمثلته التطبيقية تكشف طريقة تصوره وهدفه، وهذه الأمثلة كانت البذرة الأولـــى التي حملـــت جوهر فكرته عن بعض أبيات القصائد الســـبع التي راح يحللها في ضوء هذا المنهج في كتابه التطبيقي «قراءة ثانية لشعرنا القديم».

ويصل به المطاف إلى القول إننا نســـتطيع تفســـير الشـــعر تفسيرات مختلفـــة وفق مطلـــب كل جيل، وأن الخبرة الإســـتاطيقية تقوم على عبور المسافة التي تفصلنا عن الشعراء القدماء ليتحول الشعر إلى شيء لا زمني ويلغـــي فاعلية معاصـــري العمل الفني [9]. ومن ثم «فـــإن العمل الفني لا وجود له بمعزل عما يعنيه لي ولك، ولمن يأتي بعدنا، فلا وجه إذن لاعتبار أن التفسير المشروع للعمل الأدبي هو التفسير الذي يمكن أن يخطر للرواة واللغويين النقاد والشرّاح المتقدمين [10].

ويســـعى إلى تأكيد دور الأسطورة في الشـــعر العربي، وأنه إذا كان لا بد من أن يقرن الشـــعر العربي بأشـــياء فلتكن الأســـاطير وسائر الفنون والاعتقـــادات الدينيـــة، والتمثـــل الأخلاقي. فـــكل هـــذه العناصر تؤلف مجالا متشـــعبا متفاعلا. وربما تكون أمور السياســـة والاقتصاد والعادات الاجتماعية نفسها بحيث لا تتميز من طابع أسطوري [11].

وهذه الفكرة هي التي ســـتكون أساسا لتحليله للقصائد القديمة، فهو نحا نحو التحليـــل الذي هو «موقف ينطوي على رؤية الكثير، واســـتيعاب العناصر الغريبة برحابة أشمل وأعمق» [12]. ويحرص على القول إن المتعة التي تصاحب الشعور بقدر من الكمال هي الخطوة الأولى التي يبدأ منها الفهم والتحليل [13].

وفي الفصل الخاص بـ «البحث عن وحدة الشعر» يعرض لفكرة تقسيم الشعر العربي إلى موضوعات والتي يراها لا تقوم على تمييز حقيقي، منبها إلى تداخلها في القصيدة ومشيرا إلى أنه «من أهم ما ينبغي على الباحث الحديث أن يتبين بطريقة عملية وحدة الشـــعر وفســـاد فكرة الموضوعات، ووجود أفكار واتجاهات أعمق وأكثر أصالة» [14].

ويتخــذ من الشــعر الجاهلي محلا لإثبــات فكرتــه، فالطلل هو رمز للماضــي، وهذا البكاء أخذ «شــكل الطقوس الجماعيــة»، وأصبح العقل العربي في العصر الجاهلي مشغولا بمشكلة الموت الذي يتجسد في الطلل [15]، أما الناقة، كما تمثلت في ناقة طرفة، فإنها «الرمز الثاني للحياة التي يعبث بها الموت»، وهي «رمز للإنسان الفاني ورمز الدهر الباقي معا» [16]. أما الفرس فرمز للصبا ودواعيه وهو الشباب الذي يتهادى، هو هذا البطل الذي يوشــك أن يسقط سقطة مدوية من خلال قواه ومزاياه المفرطة، أما المطر فقد اقترن بالحياة حين الدعوة إلى الســقيا ومرادف لهزيمة الموت، هو القــوة الغريبة المجهولة التي تأتي على حياة الإنســان [17]. وعلى هذا المنوال يمضي تفسيره لكثير من جوانب القصيدة العربية [18].

هذه هي أهم الأفكار ومحاورها الأساسية التي طرحت في كتاب «دراســة الأدب العربي»، وقد حاول أن يدلــل على رأيه بضرب عدد مــن الأمثلة لكل جزئيات بحثه، مناقشــا قضايا متعددة في الشــعر الجاهلــي، مطبقا نظرتــه الجمالية على هــذه القصائد الرائعة من الشعر الجاهلي.

وقــد جاء كتابه الثاني «قراءة ثانية لشــعرنا القــديم» مؤكدا لنظراته الســابقة من الوجهة التطبيقية، وقد كانت بذور هذه التطبيقات كامنة في أمثلته السابقة أعادها بإســهاب ووضوح مع بعض التغيرات التي أضافها إلى تفسيراته الأولى.

ومع أنه جعل كتابه هذا خالصا للتطبيق المباشــر على الشعر بعيدا عن الجــدل النظري الذي وفَّاه حقه في كتابه الســابق فــإن هذا لم يحل دون أن يقدم له بمقدمة نظرية تكلم فيها عن «الإحســاس بالذات»، ناقش فيها اتجاه مدرسة الديوان - والعقاد بوجه خاص - واعتدادها بالذات الفردية. وتكمــن أهمية هــذا الفصل النظري في أنه محاولة من المؤلف لإســقاط الــذات الفردية لينفذ منها بعد ذلك في تطبيقاته إلى اللاشــعور الجمعي الذي راح يفســر على أساســه رموز الشــعر الجاهلي، وهذا ما يكشــفه حينما يبدأ تحليله للمقدمة الطللية التي يجعل من مطلعي قصيدتي زهير ولبيد مدخلا لها، فبعد أن ينفي أن يكون الشــعر الجاهلي انعكاسا لفكرة

البداوة والصحراء بما توحيه من سطحية وعدم تعمق الأشياء يؤكد أن الوقوف على الأطلال ظاهرة اجتماعية وليست فردية، فنحن بإزاء ضرب من الطقوس أو الشعائر التي يؤديها المجتمع صادرة عن عقل جمعي، فمرامي الشعر الجاهلي فوق ذوات الشعراء. وفن الأطلال ينبع من الالتزام الاجتماعي الذي يأتيه من ارتباط غامض بحاجة المجتمع العليا، لذلك فالأطلال، والشعر الجاهلي كله يثير التأمل في معنى الانتماء وسلطان اللاشعور الجمعي [19].

ولما كان الشاعر محكوما بهذا فإنه في حديثه عنه يستوعب أماكن كثيرة من الجزيرة، وهو موكول من المجتمع بالاحتفال المستمر ببعث الماضي الحي في ذهن المجتمع، فالوشم صورة متجددة، وهذه الإشارة إلى الحياة في هذه الأطلال من حب وآرام وكتابة متجددة كلها تشير إلى هذه الجدة [20]. أما حلم المستقبل فيبدأ من الإحساس بالماضي، ونقطة الانطلاق هي إعادة النظر في مفهوم الماضي، ولا يثري مفهوم الحياة إلا إذا بدأ من نقطة قديمة، وكلما كانت عريقة أعان ذلك على فكرة البعث [21]، فالطلل رمز الزمن الذي يتسم - على الرغم مما يشوبه من قسوة الماضي والانفلات - بالإيجابية الواضحة [22].

ومن هذا الماضي تنبثق الحياة، وهذا هو الانتقال إلى الظعن الذي هو جزء من تأويل فكرة الطلل، وما يراه الشاعر أطلالا يصبح بعد قليل ظعائن تمشي وتتحرك وتلم بمواضع معينة، فهي الحياة الجديدة التي ولدت من الطلل الذي هو أشبه ما يكون بفكرة الأم الولود التي ينبثق عنها أبناء كثيرون. فهذه الظعائن التي تتشكل بعدة أشكال هي «الروح التي لا تسكن ولا يحتويها الطلل، وإن كانت عنه صدرت هذه الروح التي تمثل أعلى ما يمكن أن يصدر عن فكرة البعث» [23]. أما الربط بين الهودج والسفن في البحر فلأن البحر يتعلق بفكرة الرحلة البعيدة، فالسفينة ترمز إلى تحول خطير في الشخصية، والتحول ملائم لفكرة الروح العظيمة، فالروح العظيمة روح مهاجرة أو مرتحلة، وركوب البحر أهم العلامات وأوضحها على الرغبة الكامنة في النمو [24]، أما ارتباط الظعائن بالنخيل فإنما يعني أن هذه أصبحت مرادفة لفكرة البشرى والنبوءة الطيبة [25].

ولكــن هذه الرؤى لا تخلو من الضباب الذي يرمز إليه هذا الســراب المصاحــب لها. أما الثياب المنقوشــة فهي الحجب التي تحول دون التطلع إلى الظعائن التي أصبحت «أقرب إلى الأسرار التي تتجاذب العين والعقل»[26]. ومناوشة الطير له تجسيد للمخاوف والوساوس، فالرغبة التي تمثلها الظعائــن تعترضها عقبات، ولكن من جهة أخرى يشــير إلى أن الشــاعر ليــس راضيا تماما عن تلــك الظعائن التي تمثل فكرة الحياة الواقعية في الجزيرة. إن إرادة التغيير النفســي تناوشــه بين وقــت وآخر كما تناوش الطير الظعائن [27].

إن حلم المســتقبل يوصلنا إلى الفصــل المعنون بعنوان «البطل» الذي نهض الفرس فيــه، ومثاله الأعلى هذا البطل مكثفا حواشــيه المختلفة، وهو يجعل وصف امرئ القيس للفرس مدخلا أساســيا لجميع الأوصاف التي اطردت عند الشــعراء فيما بعد. ففرس امرئ القيس أشبه بالجهد الذي يبذل لإنزال المطر والذي هو في الواقع جهد إنساني مبذول بحيث لا يقف الإنسان مكتوف اليدين أو مسلوب النشاط ينتظر المطر، والمتأمل يرى في هذا الفرس الغريب صورة أســطورية، فالطابع الأسطوري سمة غالبة على تفكير امرئ القيس. ومن ثم يعطي الفرس صفة أسطورية هي «قصة الفرس الذي يجاهد من أجل المطر» [28].

وعنــد الوصــول إلى هذه النتيجــة يبدأ في تقصي صفــات هذا الفرس ودلالاتها الرمزية في الشــعر الجاهلي، فهو رمــز لفكرة الخير أو هو مفهوم الخير في صورة فرس، «وكأنما الفرس مرســل «الغيث» الذي يتوقعه الشاعر الجاهلــي دون قنــوط» [29]. وهو مدلل ومذعور تســقط عليه الدماء «ولكن الدماء أشــبه بالطيب والحناء» [30]. وهو بجمالــه وإيثاره وغنائه «لا يعدو أن يكــون آخر الأمر قربانا لآلهة الدم، فالفرس هــو الكائن النبيل الذي قدر له أن يرضــي هذه «الآلهة» إذا جاز اســتعمال هذا اللفظ» [31]. وحينما يســيل الدم تقترب الخيل من منازل الآلهة وتضيء للناس الســبيل، والصلة بين الدم والضــوء، «تعني بعبارة أخرى تمثل حلم الولادة الجديدة التي يعتبر الخضاب جزءا من طقوســها»، وذكر الفرس أول درجة في ســلم الخروج من البشــرية المتهافتة إلى مكانة أسمى، «فهذا الذعر ضرب من الانجذاب الصوفي» [32].

وصفة الكرم آتية من هذا الفرس حين «يقدم ذات نفســـه لا يبقي منها شيئا، فكان الفرس المثل الحقيقي للرجل الكريم الذي يبالي بشيء غامض في الحياة، وبالتالي يبدو الفرس كأنه نداء للمجتمع كله كي يؤدي رســـالة هدى وإنقاذ، فالفرس في تصوير الشاعر لا يتطلب جزاء وإنما يؤدي هذه الرسالة حبا فيها وحبا في الآخرين» [33].

إذن «الفرس - ذلك الإنســـان الكامل - صورة لما يتشـــبث به الشـــاعر أصلا في المســـتقبل ورغبة في قدر أتم مـــن المناعة والحصانة. إن صورة الفرس هي صورة الرجل النبيل الذي ملأته العزة والثقة، فالشـــاعر يبحث عن مجموعة من المثل يجســـدها بطـــرق مختلفة، فهذا الفرس «هو مجمع الثورة الكامنة في عقله، وفي هذه الحال يبدو الفرس كأنه ممتلىء برغبات باطنية، لذلـــك يأخذ صورة الرائد الذي يتقدم غيره من الناس» [34]، وهو فرس شـــاب «فالشـــباب والحياة الدافعة كانت هي الباعث الحقيقي على وصف الفرس. والشـــباب طاقة إبداعية واضحة فيما نسميه العدو» [35]. ومن صفات هذا الفرس الرمـــز الدال على البطل أنه مجادل يتولى إقناع الناس، ليصل في الختام إلى أن هذا الفرس أقرب إلى صورة المعلم العظيم الذي يمهد للناس الطريق [36].

وفي ضوء تفسيره الرمزي لتركيب القصيدة العربية وأجزائها تكتسب الناقة صفة الأمومة وهذه الأمومة، نزاعة إلى المثالية، فصورة الناقة صورة خياليـــة صنعها العقـــل والإبداع، وهي قادرة على كل شـــيء. تبدو كالعالم الثابـــت، فطريقة تخيلها تعطيها صورة كيان مســـتقر أســـمى من عوارض التغيـــرات [37]. فإذا كانت في الفرس أبـــوة، وما يرتبط بالأبوة أو الرجولة من عنف وزحام [38]، فإن هذه الناقة أشـــبه الأشياء بالأمومة القوية، وهي أمومة صابرة قادرة راغبة - بطبعها - في استمرار للحياة [39].

ويســـعى بعد ذلك إلى تأكيـــد هذا الغرض؛ فيدور حـــول هذا المفهوم الرمـــزي الرئيســـي، أم حاملة في داخلها أكثر من وجه، فهي أشـــبه بالأم الكبرى التي تحتوي - في داخلها - كل ما عداها، ولكنها مفرقة النفس في أبنائنا وذريتها، فكان «الانتماء إلى الأم شاغلا مهما عند المجتمع الجاهلي، ذلك أن الأم هي المنبت الحقيقي لفكرة المحبة والرضا والسلام» [40].

وهــذه النظرة تجعل فكرة الناقة الأم تتشــعب، لذلك يحملها المعنى الأسطوري الذي سبق أن دخل الفرس فيه، فالناقة ليست وسيلة، ولكنها غاية، بل هي «مجمع كل شــعور بالغايــة الواضحة والغامضة. الناقة هي خالقة الأســاطير التي أخرجت الشــعر من الغناء الساذج إلى التصدى الملح لفكرة المشكلات» [41]. ومشكلات الإنسان في الجزيرة نفسية خلقية روحيــة، ومن ثم «هذه الناقة العاملة مبدأ أرفع من الحس، وأكثر ســموا من الإنسان» [42].

وحين يطمئن إلى استواء معنى الرمز عنده بالنسبة إلى الطلل والفرس والناقة، يبدأ في تفســير المطر رمزيا فــي فصل «الأرض الظامئة». حيث المطــر عنده انبثاق روحي ســبقته دعــوات راهب عظيم، وهــذا الانبثاق قيامة غير عادية أو هزة كبرى تنســخ التجــارب اليومية المألوفة. ويربط بــين الراهب، و«كبير أناس في بجاد مزمــل»، فالمطر «يبدأ بفكرة الراهب وينتهي إلى أن يجعل الراهب سيدا مدبرا لأمر قومه» [43].

وهذا المطر «كان في الوقت نفســه أشــبه ببحث وجداني صعب قاس، يحتاج إلى تضحيات وفداء وعذاب [44]، فعنترة مثلا في غزله لحبيبته «لا يتغزل في الإنســان – وإنما يتشوق إلى استقبال بعض ماء المطر – ويتخيل ما يستطيعه هذا الماء الذي ينفح طبيعة هذه الحبيبة المثالية [45].

وهذا المطــر نبأ عظيم تقدم الناقة كل نفســها بحثا عنه، «فالفكرتان متوائمتــان متزاوجتان، ومن الممكن أن يتأمل القــارئ رحلة الناقة – على الدوام – حتى يســقط المطر. وما أشبه الناقة بفكرة الطقوس أو الفرائض التي تعين على العلة بذلك المطر» [46].

ويصــل بعد ذلــك إلى المبدأ العظيم الذي تجســده سُــميّة في عينيه الحادرة:

بَكَرَتْ سُمَيّة بكرة فتمتّعِ وغدت غُدو مُفارِقٍ لم يربَعِ

وسمية هذه هي رمز لهذا المبدأ العظيم الغامض، فهي «تبدو – أحيانا – مبدأ يختلط الإنســان برهة من الزمن، وأوشــكت أن تكون مرادفة لهذه الهــزة الكونية التي تنجب الحياة» [47] وهي، كما يتصورها الشــاعر، جزء غائر في الوجود مترفع بشعر التسامي [48] وهي تتصل من قريب بما شغل

العقل العربي زمنا طويلا حين حاول التوفيق بين متناقضات القرب والبعد، أو لنقــل إن جانب البعد ظل يفوق في عقول كثيــرة جانب القرب والألف والاتصال، ومهما يكن فقد اســتطاع الحادرة أن يبحث عن مبدأ ينفذ في الحيــاة ولكنه يفارقها [49]. فالحادرة باحــث عن مبدأ في الصحراء، تواق إلى فكرة الحج، باحث عن حقيقته. عن سمية [50].

تلك هي سمية كما تصورها الناقد في غابة رموزه، ومن ثم كان البحث عن المبدأ العظيم يســتدعي الحديث عن «مشــكلة المصير»، الفصل الذي أداره حــول أبيات من قصيدة طرفة، وجعلها ناطقة بهذه المشــكلة. فيقف عند هذا الوشــم في أولها والذي «هو الجهد العقلي الخيالي للإنسان في ســبيل الإبقاء على الطلل والتغلب عليه أيضا. فإذا استحالت مادة الحياة إلى وشــم كان في هذا بــكاء للحياة وإبقاء عليها [51]. وهذا تفســير آخر للطلــل، فإذا كان - في وجه - حلما مشــرقا فإن الحلم ذو أوجه متعددة، كمــا يقول فرويد [52]. فقصيدة طرفة صراع ضد هذا الطلل الشــاخص، فهذه الهوادج تحولت إلى ســفن وهذه السفن هي التصورات الأولى للهرب مــن فكرة الهدم التي ينطوي عليها الطلل. أخذ يواجه الطلل مدركا لأبعاد موقــف صعب. وتمثل في هذا الصراع فكــرة الرحلة في البحر. رحلة في أعمــاق النفــس محفوفة بمخاطر كثيرة. والعقل ذلــك الملاح، طورا يجور وطورا يهتدي [53].

ويُســخِّر مصطفى ناصف كل الجزئيات لتصب في مجرى هذا المفهوم ليكتســب الرمز عنده هذا المعنى المحدد المتميز، الظبي الذي هو الإنسان الذي يريد العودة إلى طبيعة دافئة أم. «هذا هو حلم الشــاعر الذي يواجه الطلل.. الإنسان أقرب إلى الشجر والشمس منه إلى الطلل. هذا ما يتمناه عقل طرفة» [54].

والناقة هي الأســلوب الثاني في مواجهة الطلل، فهي أسلوب تعويذة للحياة وتجســيد للحركة المســتمرة. «والناقة أو الإنســان يريد أن يطأ كل مكان حتى يتأكد من ســلامة الأرض وبقائها وصلاحها» [55]. وهذه الناقة وتفاصيل أجزائها المتشــابكة تصب في هذا الرمز الذي نظر إلى القصيــدة من خلاله، ويجد في اضطراب موقف طرفة إزاء هذه الناقة

الرمز دلالة على أنه مــوزع بين فكرة الكفر وفكرة الإيمان [56]. فتفكير طرفة هو تفكير شاعر شاب «يريد أن يتكشف فكرة المصير التي تطرق وجدان الشعوب» [57].

ويختم كتابه بفصل عن «الحاجة إلى الخوف» يديره حول دالية النابغة، وهذه الحاجة لا تعني أن النابغة أشعر الشعراء إذا رهب، كما تدعي المقولة المشــهورة ولكنها حاجة إلى الخوف في ذلك المســتوى الرمزي الذي يحاول الباحث أن يفســر به هذه القصائد الجاهليات، فالتحية في مطلع القصيدة إنما هي «تحية رائعة لخلو المكان، وخلو النفس وعزلة الإنسان، ووقوفه على مبعدة». وهذه الخلوة الموحشة تؤدي إلى تنبيه الذات حيث يشعر الشاعر بأنه في أعلى درجات الوعي والإحساس بمشقة الوجود [58]، وليس لهذا المجتمع الذي دب فيه الخراب إلا صوت الشاعر الذي راح يؤذن فيه.. وحب الوحشة والانفراد إنما يصدر فيما يظهر من الإحساس بالشر أو الخوف مما يسمى الدهر، فالشــاعر يفصح عن مخاوف الجماعة العربية قبل الإسلام، فحياة المجتمع العربي معرضة للشر، لذلك، فتلك الآمال والـرؤى الطيبــة لا تعيش وحدهــا، فهناك دائما جدل وصراع بــين بواعث التقدم وبواعث القهر [59]. وليــس الصياد إلا إرادة التقهقــر التي تناوئ بواعث التقدم في المجتمع فهو شخصية قريبة من روح الشيطان [60].

أمــا مدح النابغة واعتــذاره في هذه القصيدة فإنه يفســره من خلال إكســاب شــخصية النعمان أبعادا رمزية، فهــو أقرب إلــى الواقع الثائر المضطــرب الذي لا ســبيل إلى تهذيبه إلا بمنح الإبــل التي تهذب من روح الشــر التي تملأ نفس النعمان في هذه القصيــدة [61]. ومن المقارنة بين ســليمان والنعمان يصل في تحليله إلى أن الجن جزء من طبيعة النعمان، وكما قيد ســليمان الحكيم الجان قيد النعمان الإنســان. فهو رمز للملك الذي ظاهره الرحمة والعطاء، فذلك الأسد الذي يخمد صوت الإنسان هو ذلك الشيطان الذي كان منذ قليل صيادا [62].

فهذه القصيــدة دعوة إلى التحذير من صــورة النعمان والعدوان على فكرة الإنســان ومن «اللبس بين فكرة الفضيلة وطبائع الشيطان. حذار من عالم لا يعرف الخوف أو لا يرى للخوف مكانا في نظام الحياة» [63].

هذه الخطوط الرئيسية لجهود الدكتور مصطفى ناصف في تفسيره الجمالي للشـــعر الجاهلي، وقد حاولت جهدي - على الرغم من طبيعة الموضـــوع الغائمـــة - تبـين أهم ملامح تفســيراته جاعلا كلماته تنطق بما يريد.

ونحـــن في هذه الصفحات اليســيرة يهُمنا فقط أن نقدم نموذجا لما آلت إليه تفســيرات القصائد السبع، وما ألحق بها، في عصرنا الحديث. أما الاستطراد في مناقشتها مناقشة نظرية وتطبيقية فتحتاج إلى بحوث مســتقلة مطولة تســتقصي كل جزئية بعد مناقشـــة جوهر الفكرة التي اعتمد عليها.

إن النظرة الجمالية تحمل في داخلها ثراء طيبا يفتح أبوابا جديدة لفهم الشــعر وإدراك أبعـــاده الغائرة في الأعمـــاق. ولكنها - أيضا - تسلك ســـلوكا مسرفا في الخيال، فالذي قرأناه للدكتور ناصف يأخذ مـــن النص منطلقا إلى أفــكار عامة غائمة يمكن أن يســتخدمها كل باحـــث ذي خيـــال خصب ويبقى بعد ذلك الأصـــل الفني غير مدركين خصوصيته وتميزه، فكل عمل فني يملك عدة احتمالات مقبولة، ولكن تحول هذه الاحتمالات إلى تفســـير ثابت لا بـــد من أن يكون منطلقها خصوصية النص.

وهذا الانطلاق في الخيال الذي ســـار فيـــه المؤلف جاء من كونه أعفى نفسه من معطيات الواقع الملازم لهذه النصوص، فحينما أسقط من حسابه تأثير البيئة في الفن وأثرها في الشاعر، وفصلها عن ذات منشـــئه جعله فاقدا للهوية وحرمنا من الأســـاس الأول الذي يفتح لنا مغاليـــق الفن. إن الفن حقا معبر عن حاجات المجتمع العليا، ولكن من قـــال إن هـــذه منفصلة عن حاجاته العادية - بل إن هذه هي نفســـها التـــي تتبلور في مطالب كلية يصهرهـــا الفنان ويقدمها في هذا البناء الفني المتميز.

ومن الصعب قبول قوله بأن مرامي الشـــعر فوق ذوات الشـــعراء، لا لشـــيء إلا لذلك الشعور بالارتباط الغامض بحاجات المجتمع العليا [64]. وكيـــف - مثلا - ينتفي ارتباط الشـــاعر بمكان معـــين ليكون معنيا بكل

مكان لا بمكان معين [65]، فهذا تعسف وخروج عن منطق الشعر ذاته. إنه قد يعنيه كل مكان ولكن من خلال المكان المعين الذي ينطلق منه إلى اللامكان، ومن لا يتصل بمكان محدد سيصعب عليه إدراك المكان الكلي، فطبيعة المكان الخاص هي التي توحي لنا بجوهر فكرة أن كل شاعر يسعى إلى الحقيقة، بل كل إنسان مرهف فيه جرثومة الفكر تشغله مشكلة المصير، ولكن ليس كل قول هو معاناة مباشرة لهذه الفكرة، فمعاناة المصير ليست مرتبطة في كل وقت بالتجريد الغائم غير المحدد، إنما الحقيقة المباشرة إذا استوى منطقها التاريخي والنفسي يمكنها أن تنقلنا إلى التجريد ولكن بشكل أقرب إلى منطوق النص، وهذا أدعى إلى التنوع وأقرب إلى منطق الفن.

ونحن إذا تابعنا الدكتور ناصف فيما يذهب إليه فإننا سنقع في أحد أمرين خطيرين، أولهما: أن النص الفني سيكون فقط نقطة بداية أو تعلة يبدأ بها الباحث ليسبح بعد ذلك في خياله كما يشاء. لقد سعدنا بخيال الكاتب، ولكننا لم نفهم خصوصية شاعر القصيدة التي تحدث عنها. إن فكرة ما قد تكون غالبة على فنان طوال عمره، ونحن نقدر سمو هذه الفكرة، ولكننا أيضا معنيون بالكيفية التي صاغ كل قصيدة وكل موقف من خلالها، وهذا يقتضي منا عدة دراسات نفاها الكاتب وحط منها مع أنها مدخل مهم لدراسة هذه الكيفية، وليست هي مرادة بذاتها، وانطلاق خيال الكاتب لا يعفيه من جهد حقيقي مقنع، اعتمادا على مقولة عامة من أن الشاعر تشغله قضية الحياة وخاضع للاشعور الجمعي ومنها نستسلم لسياحات الخيال الجمالي.

والأمر الآخر الخطير معاكس للسابق، فقد تتشكل من هذه الدراسات مفاهيم جامدة تتحول إلى أشكال وقوالب باردة تسكب على كل عمل فني فتصبغه بلونها فيخضع الكُتّاب الذين لا يملكون خيال الدكتور ناصف لهذه الرموز العامة التي يحتملها كل عمل فني، وتتحول أغراض القصائد إلى قوالب لها دلالات ثابتة ورموز واحدة لا تتغير من شاعر إلى آخر، ومن قصيدة إلى أخرى [66].

والكاتب في جريه وراء تحقيق فروضه التي افترضها ليؤكد بها الوحدة الشاملة، قطع أوصال القصائد باختياره أجزاء متفرقة، وهذا الأسلوب في التفسير والجري وراء الرمز جعله يلتقط ما يراه متلائما مع فكرته، فللجزء سلطان على الكل وهذا من شأنه «أن يجعل للكلمة الواحدة في البيت، وللبيت في القصيدة، وللقصيدة في ديوان، سلطانا على سائر أجزاء العمل الفني ومقوماته، كما جعل مضمون هذه «الجزئيات» وحده مصدر الإدراك الإستاطيقي للقصيدة برمتها» (67)، فها هو يفسر بيت طرفة (68):

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروحُ علينا بينَ بُرْدٍ ومُجسَدِ

فلا يرى من هذا البيت أن طرفة كان نديما للنجوم ذاتها ويتناسى تكملة البيت «وقينة.. تروح...»، وسياقه ضمن أبيات متتالية، ويتركه ليختار بيتا آخر:

وتقصيرِ يومِ الدَّجنِ والدَّجنُ مُعْجِبٌ ببهكنةٍ تحتَ الطِّرافِ المعمَّدِ

فلا يرى فيه إلا أن الغيم والطراف حواجز تعوق التطلع إلى النجوم، وهكذا (69). إن تشقيقات القول ممكنة، ولكنها عندما تفتقر إلى الدليل المعقول المتناسب مع طبيعة الفن تظل واقفة عند حدود الإعجاب بخيال الكاتب لا النص الفني ذاته.. وهذه الطريقة واضحة في اختياراته المتعددة، وإن حاول إدارتها حول بعض المقاطع الكاملة والمتقاربة في القصائد المختلفة، فهو يحاول دائما إثبات تصوراته بعيدا عن نسج القصيدة الخاص والمتميز ضمن احتمالات عسير قبولها، فكيف - مثلا - تتحول حبيبة عنترة عبلة التي مثلت محورا أساسيا يطل في قصيدته إلى رمز للتشوق إلى المطر، وأنه لا يتغزل في الإنسان، بل يتشوق إلى استقبال بعض ماء المطر (70)، لا لشيء إلا لأنه يزعم «أن الشاعر الجاهلي يرى علو الإنسان رهينا بصلته بأشياء غير الإنسان، ومن أهمها المطر والناقة» (71). بل إن الأقرب إلى روح القصيدة ونبض كلماتها ومسوغاتها التاريخية والبيئية أن نقول إن عنترة يتشوق إلى الإنسان تشوقا جما تكشفه هذه الروح الشفافة، حتى في أشد حالات

قسوتها. وهذا التشوق ينسجم مع خط الحياة التي نعرفها عن عنترة، إن عبلة الإنسانة قد تتحول إلى رمز يجسد كل هموم عنترة، آماله وآلامه، ومن ثم يشمل حاجات المجتمع العليا، ولكننا نبدأ من عبلة الإنسانة - الموضوع أولا؛ ففيها يتحقق انسجامه مع الحياة، ومنها إلى عبلة الآمال والأحلام حيث تتصفى الصورة وتميل إلى التجريد بعد أن تتبع من خط الحياة الأولى.

ونجده يفسر معنى الأبيات قسرا واضحا بعد أن يجردها من سياقها، تحقيقا لما افترضه من أفكار، يقول عن هذين البيتين من معلقة طرفة:

أَحلتُ عليها بالقَطيع فأجْذَمَتْ وقد خَبَّ آل الأمعَزِ المتوقِّدِ

فذالتْ كما ذالت وليدةُ مَجْلسٍ تُرِي ربَّها أذيالَ سْحلٍ ممدَّدِ

إن طرفة يواجه الصنم العالي المقام - أي الناقة - وهذا معناه أنه ممزق القلب وضال، وهذه الناقة هي الحقيقة المرة من أن الإنسان يرقص إرضاء لكائن سواه، فالإنسان هنا لا ينعم بالشعور بالحرية، وكل ما يستطيعه هو أن يرقص رقصة الموت هذه [72].

إذن نحن أمام التمزق والآلام التي تجسدها رقصة الموت هذه. ولكن إلى أي حد تشيع هذه الأبيات هذا المعنى وهي في السياق، فقد سبقها قوله المجلجل القوي الذي يدل على الثبات يقول:

إذا القومُ قالوا: من فتى؟ خِلْتُ أنني عُنِيتُ فلم أكسَلْ، ولم أتبلَّدِ

ولحقها مباشرة قوله:

ولستُ بحلاَّل التِّلاعِ مَخَافة ولكن متى يسترفِدِ القومُ أرفِدِ

إن الكاتب قد يلقى مشقة بالغة لانتزاع قوة وثبات هذا البناء اللغوي الذي يعتد به في نظرته التفسيرية القائمة على الفهم اللغوي الإستاطيقي، فهذا ليس بيتا أو بيتين، ولكنها أبيات متتالية تشيع هذه القوة وهذا الثبات، أما حيرة طرفة فلها موقعها في القصيدة. ومن السهل إقامة التفسيرات على المقولات العامة، ولكن هذا يعني تضحية مباشرة بدلالة الألفاظ ومعناها، ومن الممكن خلق تفسير آخر يلتقط كلمة من هنا وكلمة من هناك لتأكيد ما يراه.

ونقطة أخرى نراها جديرة بالوقوف، هي اعتماد أسلوبه على فكرة الأسطورة كما نلاحظ في الأدب اليوناني والأوروبي الحديث، ولن ندخل في جدل حول طبيعة العقلية التي تسود حضارة ما وحدودها التاريخية والتشكيل الروحي لها، ولكننا سنشير إلى طرف بسيط من القضية، ونعني به حدود الأسطورة ووجودها تاريخيا، فالأساطير اليونانية معروفة ومتوارثة لها قصصها الموافقة لها والتي تقدم دلالتها الأولية التي تشكل مفتاحا أساسيا لكل تفسير خارج حدود اللفظ، فليس هناك مثلا خلاف من أن «بروميثيوس» هو عملاق أو إله من آلهة النار وهبها للبشر على الرغم من كبير الآلهة «زيوس» الذي قيده إلى جبل حرره منها «هيراكليس» [73].

فهذه الفكرة جوهرها ثابت معروف ومتوارث، وهذه النار قد تكون نار المعرفة المقدسة، وبعد ذلك يستلهم كل مؤلف هذا الأساس وفق الفكرة التي يشيعها فيه معتمدا على أساسين مهمين: الأساس الأسطوري والنظرة الفنية الخاصة [74].

وهكذا يكون الباحث غير متعسف، أو يبتكر من عنده مفهوما معينا للأسطورة إلا من واقعها التاريخي والنفسي المتوارث، لأنها صدى للنفس الكاتبة والمتلقية، أما في تراثنا العربي القديم فهذا غير متيسر فقد تكون الأسطورة موجودة، وهذا حق، ولكن ما هي؟ وما طبيعتها؟ وهذا الرمز إلى ماذا ينطلق؟ وإلى أين يتجه؟ وما هي نقطة المفتاح التي ننطلق منها ليقول اجتهادنا إن هذا الرمز أو ذاك يعني أو يومئ إلى هذا أو ذاك؟ أسئلة من الصعب الإجابة عنها.

إن الأساطير العربية القديمة لا تزال أخبارها غامضة وغير واضحة، وقبل الدخول في التفسير الرمزي علينا أولا أن ندرك طبيعة هذه الأساطير ونحددها وهذا ما لا نستطيعه الآن، إننا لا نزال نجهل تطور الألفاظ القريبة من حيث هي ألفاظ واستعمالاتها تاريخيا فكيف لنا بالأساطير!

إن الأساطير العربية تدور في عدة محاور فهناك الأساطير المرتبطة بديانات الجاهليين، وهي تقف عند حد تسجيل الطقوس القولية التي تصاحب الطقوس الدينية العملية. وهناك نوع ثان من الأساطير هي التي

تقوم بالتعليل والتي «يحاول بها الجاهليون تفسير الظواهر الغامضة في الحياة من حولهم، سـواء أكانت هذه الظواهر طبيعية أم إنسـانية» [75]. وهنـاك الأسـاطير الرمزية وهي تمثل المرحلة التي نمت فيها أسـاطير الطقوس والتعليل. وهذه الأسـاطير ترد في شـكل حكايات منتزعة من عالم الحيوان.

والنوع الرابع والأخير هو الأسطورة التاريخية التي تتمثل في حروب الجاهلية وأيام العرب حين تسـتحيل فيها أحداث التاريخ إلى حكايات أسـطورية. وهـذه الأنواع الأربعة - باسـتثناء النـوع الأخير- لم تصل إلينا [76]. ومن ثم فنحن لا نعرف منها أي شـيء، فعلى أي أساس نقيم تصورنا للأسطورة في الشعر الجاهلي؟ إننا لا نملك خلق الأسطورة إنما لنا اكتشافها ثم نفسرها التفسير الأولي، وبعد ذلك نتبين استخداماتها. ومن ثم كيف نسـتطيع أن نقول إن الفرس رمز للشـباب والاندفاع وراء الظعائن؟ من يعطينا حق صناعة الأسـطورة وتطبيقها على أدب أناس عاشوا قبل ألف سنة ونرفض أن ندرس بيئتهم ونقلل من أهمية الأخبار الواردة بشأنهم.

من حق الباحث أن يذهب هذا المذهب إذا اسـتطعنا أو كشـف البحث لنا الدلالة الرمزية لهذه الحيوانات أو بعضها، ومن ثم ننطلق إلى التفسير كما نشـاء، وإلا فمثلنا كمثل من يقرأ لغة لا يعرف معنى مفرداتها ويحاول أن يوجد معاني خاصة من ابتكاره، نحن في حاجة إلى حجر رشيد جديد يفسـر لنا الأسـاطير - إن وجدت - ومنها سـندخل بوابـة الرمز دخولا مشروعا، وبعدها تكون الدراسة الفنية والجمالية.

* * *

كتب مصطفى ناصف كتابه هذا اسـتمرارا لنظرته الجمالية منذ كتابه «الصورة الفنية في الشـعر العربي»، واستمر مدافعا عنها شبه وحيد في مرحلة سـيادة فكرة المضامين الواقعية، التي بدأ الانفكاك عنها مع مطالع السبعينيات، لتأتي هجمات الدراسـات الشكلانية المختلفة، وكان الفيض الأول متمثلا في التناول الأسـطوري الذي سـاد الموقف أولا، وصولا إلى البنيوية وما تفرع منها.

وستبقى الملاحظات التي سقناها بالنسبة إلى مصطفى ناصف باقية ماثلة أمام التابعين من أصحاب المنهج الأسطوري الذي لعب في خيال الفكرة المسبقة والدخول بمنطلقات الخيال الأسطوري، فليس كل من تبنى منهجا واستغرق فيه يعني أن ما أراده ماثل قائم، فالاقتراب من المنهج الأسطوري مفيد في حدود فهم أساسي هو أننا نتعامل مع نص شعري، صادر عن شخص محدد، محكوم بثقافته وإمكانات لغته. وللغة ثقافتها وتاريخها الخاص، فانتماء اللغة إلى ثقافة معينة، هي العربية هنا، يستدعي تحديد سمات هذه اللغة وثقافتها، فعندما ننظر إلى اللغة اليونانية نجدها متخمة بالبعد الأسطوري، الذي حافظت عليه هذه الثقافة بوعي وإدراك وحضور شبه يومي، ومن ثم يكون التناول الأسطوري حاضرا، أما الثقافة العربية الصحراوية فلها ثقافتها التي يجب أن تدرس من الداخل لاستخلاص ما أبقاه العقل الجمعي في ثنايا الثقافة العربية، أما وضع نظارة أسطورية عامة فقد تلون الشعر الجاهلي بلونها والاتجاه إلى إطلاق أحكام من مثل: الصور المركزة والمتراكمة، عناصر البقاء والفناء وما يتصل بها من صور الصيد والضوء والمطر، والحمل والولادة ذات الأصول الميثولوجية التي انبعث منها.

وإذا كان المنطلق، هو اللاوعي الجمعي وما ترسب فيه من صور البدائية ونماذج عليا «التي تمثل تجارب الإنسان البدائي يعبر عنها بالأساطير والأحلام والأديان والتخيلات الفردية، وكذلك الأعمال الأدبية عند الإنسان المتحضر» [77]. فإن هذه الرواسب ليست هي وحدها الصفة الغالبة في كل شعر، ووجود بعضها يمثل ثيمات يمكن دراستها ضمن السياق العام من دون قسر النص كي يخضع لهذه الرؤية بحيث تصبح وحيدة، ومن ثم تقع أخطاء أو تجاوزات تفقد المحاولة جديتها.

ويمكن لتوضيح هذه النقطة أن نشير إلى الدراسة الممتازة «شعرنا القديم والنقد الجديد» للدكتور وهب رومية [78]، ففيها مناقشة ممتازة لهذا الاتجاه، ويمكننا الإشارة إلى نقطتين عرضهما تبينان خلل التسرع، فحين يقف عند تفسير د. إبراهيم عبد الرحمن يشير إلى خطأ وقع

فيه وهو يتحدث عن الثور الوحشـــي في لوحة الصيد، مبينا أن المطاردة «محكومة فـــي كل القصائد بنهاية محتومة هي قتل الكلاب ونجاة الثور قبـــل مغيب الشـــمس. وهذا الثور المنتصر ينفرد بنفســـه تحت شـــجرة الأرطاة، يفكر في مصيره، ويتطهر بماء المطر بعد تلك المعركة الشرســـة التي خاضها في مواجهة قوى الشـــر، وهو يجلـــس كأنه يصلي». ويعلق قائـــلا: من الواضـــح أن د. إبراهيم يجعل للمطر هاهنـــا وظيفة رمزية هي «تطهير» الثور مما علق به من آثار المعركة. قد يكون هذا التفســـير صحيحا لـــو أن الأحداث تجري على النحو الذي صوره د.إبراهيم، لكن أحداث الحكاية - حكاية الثور الوحشي - كما يحتفظ بها ديوان الشعر الجاهلـــي تخالف هذا النحـــو مخالفة مطلقة، فالثـــور يخوض صراعه المرير ضـــد كلاب الصيد بعـــد فراغه من عدوان الطبيعـــة المتمثل في الليـــل العاصف الثقيل والريح الباردة والمطر والبرد، ولم يحدث قط في أي قصيـــدة جاهلية أن كان المطر بعد المعركة، بل هو دائما قبلها. وهذا يعني أن علينا أن نبحث عن تفســـير رمـــزي آخـر لفكرة «المطر» هاهنا. (ص: 76 و77)، وقـــد وضّح باقتـــدار التلفيق وعدم الفهم لأصول النقد الأسطوري، فانظرها في كتابه.

إن رد هذه الصور إلى ثيمات أســـطورية دينية جاهلية يحتاج إلى جهد وتأن وحرفية عالية في البحث الأنثروبولوجي، وتأصيل ســـابق على النقد الأدبي، وهذا لم يحدث.

كما أن ردها إلى أصول دينية فقط فيه حد من تحرر الشـــعر من أي حواجز سابقة، فلغة الشـــاعر ورموزه ذات جدة دائمة، وتطلع مستمر إلى تجاوز النمط السائد.

* * *

المعلقات والعقل الجمعي

أخضع يوســـف اليوســـف المعلقات وقصائد جاهلية أخرى للدراســـة النفســـية في كتابيه: «مقالات في الشعر الجاهلي» (1975)، و«بحوث في المعلقات» (1978).

أســس تحليله للمعلقات على اعتبار أن الشعر الجاهلي نتاج للبدائية، وأن الحقبة الجاهلية تجســيد للبدائية العربية التي وصلتنا عنها نصوص مكتوبة، فالجاهلية، إذن، تكشــف عن الأنســنة وبدايــات الوعي المتحضر والمتجاوز للمرحلة الوحشــية من مراحل التطور البشري بأشواط مديدة، وإن جل ما يبتغيه هو الكشــف عن ردود فعل النفس البدائية، التي تحاول تخطي البربرية إلى الحضارة.

وإذا كان الإنســان يمارس نفي الطبيعة عبــر التأثير فيها وإخضاعها، وهذه هي الحضارة، فــإن البدائية تقدم الطاعة للطبيعة والانضواء تحت لوائها، ومن ثم فموجــودات العالم الخارجي حاضرة دوما، بكل ثقلها، في روح الشــاعر، وأن الشــعر الجاهلي بتعامله مع الحيوانات يهبنا حق الظن بأن الشــعر الجاهلي كان يحتوي على نصــوص تعكس ظاهرة الطوطمية عند الجاهليين، ومن ثم فإن إرساء قواعد الأنثروبولوجيا العربية يستحيل من دون تحليل الشعر الجاهلي [79].

ولكي تســتوي نظرته هذه يتكئ، أيضا، على مقولة اللاشعور الجمعي الموغــل في القدم التي قال بها كارل يونغ، ولكــن ليس كما يراها صاحبه يونغ من أن اللاشعور الجمعي اختزان للماضي البشري البدائي، وللتجارب البدائية الموروثة في تلافيف الدماغ، ولكن يفهم اللاشعور الجمعي بوصفه جملة حاجات وتطلعات الجماعة مســتبطنة في تراثها الشعبي والرسمي، أي أنه يقدم الفهم النفســي - الاجتماعــي. أي أنثروبولوجيا علمية تهتم بالتاريخي والاجتماعي بالدرجة الأولى [80].

وعندما يتناول معلقتي امرئ القيس وطرفة يسعى إلى تلخيص موقف الشــاعرين في أنهما يرفضان القيم والتدجــين الاجتماعي القاتل لحرية الغرائز ويطالبان بمجتمع ينزع نحو التحرر، إذ نواجه في معلقتيهما الروح في شبقيتها [81].

وفي معلقة امرئ القيس، يلحظ قســمين مترابطين: سلوك مضاد والثاني ســلوك ناكص متراجع عن غرضه. ومن هذا الفهم يقرأ المعلقة ويحللها ابتغاء بســط منطوياتها التحتانية بســطا لا يمكن أن نكشف وحدة القصيدة إلا من خلاله والكشف عن وحدة المعلقة التي يشير إلى أنها أهم أغراض مقالته.

ويتفق مع القدماء في رؤيتهم أن في يوم دارة جلجل مناسبة للقصيدة وأن مضمون ذلك اليوم يتطابق مع فكرة حرية الإيروس (غريزة الحياة عبر العشق) وجعل الجنس غاية في ذاته [82]، وأن اختراق الحراسة أشبه باختراق للمجتمع وقواه القامعة. وفي هذا انتصار للأنا المقهور من خلال توكيده أمام الحيف النازل به. وتقدم أطروحة حرية الإيروس فلسفة بديلة للردع المسلح، ففي البيت: «إذا ما بكى من خلفها..»، اختزال النقيضين: رفض الزواج في الشعور وقبوله باللاشعور.

إن ما يحتج عليه امرؤ القيس في نصف معلقته الأول هو تنظيم الليبيدو بحيث لا يخدم العشق. ولكن يغدو الثاني (الإنسال) هو الأول، فإن العشق يتحول من شيء هو غاية ذاته إلى وسيلة لغاية تسمو عليه. ولهذا لم يكن مصادفة أن تكثر صور الحبلى والمرضع والمتزوجة في شعر امرئ القيس [83]. ويبدو تجسيده ورسمه للمرأة أقرب إلى المثال منه إلى الحقيقة، وفي هذا التصوير المادي قداسة يضفيها الوثنيون على المادة [84].

ويتوقف عند اللحظة الطللية في المعلقات، فيرى فيها مستودعا لمضمونات اللاشعور الجمعي التاريخاني، أو النفسي - الاجتماعي، ويرى أن في الرؤية الطللية أفضل انكشاف لعذابات الإنسان الجاهلي، ولصياغة واقعه وتجسد برهة التحول من الماضي إلى المستقبل، إذ هي تختزن الماضي نقيضا مباشرا للحاضر، وفي هذه البرهة الطللية ثلاث لحظات متجادلة هي: القمع الجنسي، الاندثار الحضاري، وقحل الطبيعة. وهي لحظات مستقطبة في لحظة واحدة هي: غريزة الموت والهدم القائمة في الأشياء (تاناتوس).

يستعرض هذه الثلاثية وأسبابها، فالقهر الجنسي يشبه قهر الطبيعة للحضارة. أما قحل الطبيعة فيتبدى في الطلل وهو مظهر من مظاهر الهدم الكوني وانتصار لتاناتوس على إيروس (*) في حلبة الصراع على الوجود، وغريزة الحياة أو البقاء. ويتحول الوقوف على الأطلال إلى وقوف غريزة الحياة، التي يمثلها الشاعر، في وجه غريزة الموت، التي يمثلها الجدب والكبت الجنسي معا. مقاومة إيروس ضد

(*) تاناتوس وإيروس Thanatos & Eros: ثنائية الموت والحياة، الخير والشر. فتاناتوس في الأساطير اليونانية هو تجسيد للموت: شخصية ثانوية يشار إليها ولكن نادرا ما تتمثل في شخص. أما إيروس فهو الإله البدائي للحب الجنسي والجمال، وكان يعبد كذلك باعتباره إله الخصوبة [المحررة].

عدوه تاناتوس، فالبرهة الطللية توليف للحظات الثلاث الســابقة ففي الموقــف الطللي ترجمــة لا شــعورية للرغبة في الخــلاص من ظرف حضــاري متهدم والتحول الى مرحلــة حضارية أرقى [85] كما يرى فيها أفضل ظاهرة تتكشف فيها الصلة الثلاثية بين الأنا = الشاعر، الآخر = المحبوبــة المحظورة، والطبيعة في علاقاتها بالمجتمع (ممثلة في الطلل الذي دمرته قوى الطبيعة) [86].

وعن طللية زهير بن أبي ســلمى يقول إنها ليســت تعبيرا عن حاجة فردية بل تعبير عن حاجات وحالات المجتمع كله، وأن اللاشــعور الجمعي كان يفــض محتــواه من خلالها وأنــه في الحقيقــة يتعامــل مع طــلل خيالي لا يقــوم إلا فــي أعمــاق الشــاعر، بالرغم من أنه شــاهد أطلالا شاخصة وعيانية [87].

أمــا الطلل عند النابغة فيشــدد على الزمانية أكثر من تشــديده على المكانية، وبذلك يزيــد الطلل كلية ويبعده، إلى حد كبير، عن الخصوصية والجزئية، على الرغم من نسبته إلى أماكن معروفة وإلى امرأة معروفة.

ويقدم النابغة في طلليته ضربا من التعارض مع القائم، وهذا التعارض يأتــي عبر تقديم الماضي الودي كبديل عن الزمن الحاضر، أي هو يعارض الزمــن بالزمن، ويــرى أن محمولات الزمن المنصرم ذات طبيعة جنســية، إذ هــو يعارض الخراب واليبوســة بالجنس الذي يتمتــع بالولادة كخلفية لــه، ولكنه جنس لــم يعد ماثلا، الأمر الذي من شــأنه أن يفقد معارضته فعاليتها، بل يجعلها معارضة ميتة [88].

ويرى في موقع آخر أن اللاشــعور يُخرج ما في معلقة النابغة من رعب باعتباره المحتوى التحتاني لهذه اللحظة الطللية و «أن اللاشــعور استطاع أن يخرج مكنوناته ومحتوياته عبر ألفاظ تبدو شــديدة التوالف مع سياقه. ويشــير إلى شــدة وعنف بعض الألفاظ: فعد، القتود، أجد، مقذوفة. كما أنها تشير إلى التوتر العصبي والتأزم الداخلي الذي يعيشه الشاعر» [89].

ويتناول الوحدات الأخرى، فيــرى في وصف الظعن، في معلقة زهير، شكلا آخر لتجليات اللاوعي الجمعي الجاهلي، فالظعينة ذات صلة بالرحيل وعدم الاســتقرار. بذلك تخفي وراءها الحاجة إلــى الانصياع الحضاري

المستقر. الموقف الظعني يحمل إيحاءات جنسية، ونزعة حضارية من جهة أخرى. تتأنث الأشياء والألفاظ الدالة عليها [90].

ويلفتــه في معلقة لبيد أن صور الإخصاب على أشـدها وأن الناقة والأتــان صورتان من صور الحيوية، أما البقرة الوحشــية التي افترس الوحــش ولدها، والتــي تعارك كلاب الصيد، فإنهــا صورة الحياة وقد افترسها القحل، وهي الروح الجاهلية المكافحة من أجل البقاء في بيئة شرســة تهدم كل ما لا يســعه الصمود. وربما كان في افتراس الوحش لولد البقرة إشــارة إلــى افتراس الارتحال للمحبوبة نــوار، أو افتراس تاناتوس لإيروس [91].

ويركز رؤيته في معلقة امرئ القيس على الصيد؛ فيرى فيه طريقا من طرق الســيطرة والإخضاع، أما ذبح المطية فتعبير عــن الإحباط والمهانة وقد اســتبدلت الآن بمطية تتخضب بدماء عذارى الحيوانات المتوحشــة، وتتم الســيطرة على الخــارج عبر الحصان إشــباعا تعويضيا لإحباطاتنا الخاصة ولحاجتنا إلى الســيطرة، فالمعلقة، في شطرها الأول، تضعنا في جو الإحباط ثم تنقض هذا لتفرض سيطرتها على الخارج [92].

يــرى أن في معلقة امــرئ القيس أربعة تقابلات أساســية: التقابل بــين الإرضــاخ والرضــوخ، والتقابــل بــين الألــم واللذة، والتقابل بين الســكون والحركة. والتقابل بين الجفاف والخصوبة، وبإيجاز الموت في مقابل الحياة [93].

بينما يتعارض في معلقة طرفة انفعالان: صغار الحياة وضخامة الموت، ومن ثم فطرفة ينطلق من: أنا أتلذذ إذن أنا موجود.

أمــا ناقتــه الخرافية فهي رد فعله الذاتي على مصادر اللاأمن ســواء أكانــت اجتماعية أم وجودية، فهــذه الناقة الخرافية أداة مقاومة وتحصن إزاء الموت والتحدي الاجتماعي، وإذ يجادل بين وصفه لها وافتخاره بنفسه، فإنه يوحد بينها وبين هويته [94].

لقد بذل يوسف اليوسف جهدا ملحوظا في دراسته هذه التي حفلت بملاحظات وانتباهــات تفصيلية تثري نظر الناظر إلى هذه القصائد الجاهلية، ولكن الاختلاف معه ينشأ من ذلك التعلق منهجيا بمعطيات

مجلوبة مفروضـــة على النص من خلال اســتعارة مناهج، تحتاج إلى جهــد كبيــر للنظر أولا في نتائج من اقترب أو أشـــار إلى هذا المنهج، فقد سبقه إلى القول نفسه د. مصطفى ناصف في كتابه «قراءة ثانية لشـــعرنا القديم»، حين يشـــير إلى أن الأطلال في القصيدة الجاهلية «ليســت من الشـــعور الفرديّ وإنما نحن بإزاء ضرب من الطقوس أو الشـــعائر التي يؤدّيها المجتمع أو تصدر عن عقـــل جماعي» [95]. وقد ناقشنا مقولاته.

إن الباحث يوســف اليوســف مطالب أيضا بإثباته وطرح مبرراته لإبـــراز معطيات هذا العقل الجمعي بعيدا عن المقولات العامة. فالعقل الجمعي عند يونغ يتعامل مع تلك المراحل الموغلة في القدم والمثبتة في اللاشعور الجمعي وتمثل ردود الأفعال التي يشترك فيها الناس جميعا منذ أن وجد الإنســان، فنحــن نحمل معنا تاريــخ كل أجدادنا الأوائل مــن خلال التناقل الروحــي، وثمة نماذج بدائية تمثل هذا اللاشــعور الجمعــي. ويحدد يونغ نماذج متشــابهة موجودة عند جميع الشــعوب تمتلك تصورات متشابهة.

إن البدائيـــة أساســية في تشــكيل النماذج، ولذلك نجد أن يوســف اليوســف يصنف العصر الجاهلي باعتباره مجتمعا بدائيا، وخياله بدائي! وأنــه بداية تجاوز المرحلة الوحشــية [96]. لقد ذهب بعيــدا، فالمجتمعات البدائية لها خصائصها، ولم يكن الباحث في حاجة إلى حشــر الجاهليين فــي زاوية البدائية كي يطبق منهجه، الذي يفترض وجود النماذج البدائية في الإنسان مهما كانت درجة رقيه.

ونتســاءل هنا: هل يبحث عن الأنماط البدائية أم أنه يصنف الشــعر الجاهلي في حيز البدائية. أو أن هذا الشــعر وحده يحتفظ بالبدائية من دون غيره من المعارف؟

إن ظاهــرة الأســطورية محورية في أدب، وهامشــية بــل وخفية في أدب آخــر، والشــعر الجاهلي من هذه الآداب التــي لا تبرز فيها الظاهرة الأســطورية بوضوح؛ فكيف يتم إخضاعه بهــذه الجرأة والاندفاع من دون

تأسـيس منهجـي ومادة تطبيقيـة واضحة المعالم، مثلما نـرى في الأدب اليوناني، باعتباره أدبا - الملحمة والمسـرحية تحديدا - انحدر من أصول أسطورية دينية.

من الصعب التساهل باعتبار الأنماط والإشارات التي تتردد في الشعر الجاهلي هي أسـطورية بدائية ثم نجعل الشعر نفسـه بدائيا، أو يحتفظ وحده بالبدائية من دون غيره من وسائل التعبير.

ويؤكد نظرته بقوله: من أنه يفترض أن الشـعر الجاهلي يمتلك كيفية نفسانية خاصة، يعكسها شعره وحده، وفي وسعنا، من ثم، التحدث عن علم نفـس جاهلي، أو بدائي بوجه عام. إنها قفزة كبيرة تحتاج إلى متكأ قوي، لا تسـاعده بعض الأمثلة التي قدمها على تأكيد أو الإقناع بما ذهب إليه، فمن الصعب الذهاب معه إلى إسباغ القداسة على المرأة خاصة عند امرئ القيـس حين يـرى أن الحياة كانت تتلخص لـدى البدائيين في عنصرين: المرأة والماء، فمنهما تتوالد الكائنات الحية، فأسبغ عليهما الشاعر بطريقة لاشـعورية تماما قداسة نورانية [97]، إذا كانت صورة المرأة الحسية المادية البحتة إلى حد التجـاوز والخروج أصبحت ذات طابع مقدس فماذا نقول إذن عن المرأة عند العذريين؟!

وهـذا الذهاب بعيدا يأتي أيضا في قوله: إن نشـوء فقه اللغة العربية وارتقاءها يستند إلى علم نفس البدائيين. ويرى أن اشتقاق الخيال العربي كلمـة «فَرَس» من الفعل «فرس»، وهـذا الخيال البدائي قد عمد إلى ذلك عمدا ليوحي بالحاجة إلى الافتراس عبر أداة الفرس! [98].

ونلمـس تجاوزه منطلقه المنهجي حينما يخرج من نتائج العقل الجمعي إلـى الرفض الفـردي لهذا المجتمع؛ فيلجأ إلى الانتقـال ليقدم لنا فردية الشعراء من مثل طرفة وامرئ القيس، فيشير إلى انبساط النزعة الفردية، وأنهـا فردية تعكس الروح الجاهلية. ويؤكـد أن طرفة لا يتنازل عن ذاته، بل يعشـقها [99]. إذن شـعر امرئ القيس وطرفة يأتيـان مرة للتعبير عن شـخصية فردية، وفي الوقت نفسه يعبر هذا الشعر عن شخصية نمطية، ثم يعمم الحكم حينما يشير إلى أن أبرز مظاهر ترسيخ الفردية في الشعر الجاهلي يتمثل في قصيدة الفخر والمدح والهجاء.

ويواصــل عرض انفصام هذه النصوص عــن مفهوم العقل الجمعي حين يشــير إلى الموقف النقدي من الحضارة القامعة والتي تقيم جدارا تلبية للغرائــز المندفعــة نحــو الإشـباع، كما يبدو فــي معلقتي امرئ القيس وطرفة.

وتكملــة للخط المخالف لما انطلق منه يذهب إلى اســتخدام خصيصة فردية يصف فيها عنترة مثلا حين يشــير إلى نرجسيته [100]، والنرجسية خصيصــة فردية هي ألصق بتحليــلات فرويد، انظر تحليله لنرجســية دافنشي، وهو منهج خرج عليه يونغ، وقدم مفهوم العقل الجمعي.

وكما لاحظنا فإن الباحث يضطر إلى التملص من منهجه الأساســي فــي أكثر من موقع، فيتجــه إلى تحليل النص والبحــث عن مضمراته وكموناته بإخضاعه إلى علوم مختلفة: الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتحليــل اللغــوي. وفي دعوته ودســه للنظــرة الاجتماعيــة واللغوية والنفســية إنما هو لجوء وإحياء للمنهج التلفيقي، الذي ســماه بعضهم بالمتكامل، في النقد الأدبي.

لهذا لم يسلم منهج يوسف اليوسف من الذين وصفوه قائلين بأنه «ليس تحليلا منهجيا بــل مجموعة متناثرة ومتناقضة مــن الانطباعات الذاتية القائمة على إدراك مشوش للقصيدة» [101].

* * *

كمال أبوديب والرؤى المقنعة

تمثل دراسة كمال أبو ديب للشعر الجاهلي [102]، والمعلقات بخاصة، أبرز وأشهر الدراسات التي اتجهت إلى اختيار المنهج البنيوي لدراسة هذا الشعر.

وتتكئ دراســته على مقولات فلاديميــر بروب، فيرى أن بنية القصيدة تتألف من وظائف تمثل وحدات مكونة أولية ذات عدد محدود. ويشير إلى أن ثمة فرقا بين بنية القصيدة والحكاية يتمثل في أن ترتيب الوظائف في القصيدة متغير هو أيضا كعددها. وأن ترتيب الوظائف فيها يخلق شــبكة من العلاقات بين الشــرائح المكونة لها والعلاقة بين هذه الشرائح ومصدر خصوصية الرؤية التي تنبع منها القصيدة [103].

ويرى أن عددا من الوظائف تشـكل مزدوجـات أو ثنائيات ضدية، أي لكل وظيفـة تقريبا نقيض لها يمثل تجاوزا أو حـلا لها، فالتحريم يقابله الانتهاك، وحس النقص يقابله إشباع النقص، وأن دراسة نماذج من الشعر الجاهلي تكشـف عن الدور الأساسي الذي يؤديه التنظيم الثنائي الضدي في تشكيل بنية النص الشعري.

والركيزة المنهجية البنيوية الثانية التي تمثل الأساس الأول في دراسته هي منهجية شـتراوس معتمدا على مفهومين هما: ما يسـميه شـتراوس الوحـدة التكوينية حيث ينقسـم قالـب القصيدة إلى وحـدات عدة مثل الوقوف على الطلل ووصف الناقة.

المفهوم الثاني: حزم العلاقات، وتعني المجاميع المتداخلة العلاقات التي تتسم بسمتين: علاقة التوازن أو التشابه وعلاقة التناقض والتضاد (104).

ويذهب أبو ديب كذلك إلى أن الربط بين الشـعر الجاهلي والأسـطورة يفتـح آفاقا تصورية ومنهجية جديدة لدراسـة هذا الشـعر، من أهمها نقل قراءته من مسـتوى الفعل الواعي إلى مسـتوى الفعل التخيلي، ومن مستوى القراءة التاريخية إلى مسـتوى القراءة الإشـارية - الرمزية، ومن مسـتوى الدلالة التقليدية للتشـكيل إلى مسـتوى الدلالة الطقسـية للتشكيل، ثم من مسـتوى القراءة التجزيئية، السـائدة في الدراسـات العربية، إلى مسـتوى القراءة البنيوية (105).

ويقرر أن اختياره للقصائد المعلقات باعتبارها تمثل، مثل الأسـطورة، كلا واحدا. ولعل هذا هو سـبب افتتان العرب بها إلى درجة التعليق، ويرى أن علاقاتهـا المتداخلة بوصفها عملا متكاملا في اللغة والرؤية أكثر منها على مسـتوى التميز الذي حققته كل معلقة على حدة في مقابل القصائد الأخـرى، ومن ثم إمكان النظر إلـى المعلقات لا على أنها وحدات منفصلة ومسـتقلة، ولكن على أنها تشـكل بنية واحدة تحتـاج إلى تحليل ووصف وتفسير بوصفها كيانا واحدا وكلا متوازيا (106).

ويؤكـد، مرة أخـرى، هذا التوجه من أنه سـيركز أطروحتـه للنظرية القائلة باحتمال تشـكيل المعلقـات لبنية واحدة تتمثـل فيها الرؤية المركزيـة للثقافة في استجابات مختلفة من نص إلى نص للأسئلة الأساسية في الوجود الجاهلي (107).

تبدأ دراسته بالتمييز بين تيارين في القصيدة الجاهلية: وحيد البعد يتدفق من الذات في مسار لا يتغير، ويتمثل هذا في قصائد الهجاء والحب وبعض الخمريات.

والتيار الآخر: متعدد الأبعاد، وهذا التيار هو الذي يقف عنده ويرى أنه الأكثر عمقا؛ ففيه إحساس مأساوي بحتمية الموت والطبيعة اللانهائية للحياة نفسها، ويتبلور في بنية متعددة الشرائح يراها ابتداء في قصيدة لبيد:

عفت الديار محلها ومقامها　　　بمنى تأبد غولها ورجامها

وقد اختارها لتكون «قصيدة المفتاح» ومنها ينطلق تأويله من ذلك التشابه بين بنية الأسطورة كما يحللها ليفي - شتراوس وبين بنية التيار المتعدد الأبعاد، ومن ثم يرى إمكان التحدث عن البنية الأسطورية لهذه القصائد.

ويشير إلى نسقين متقاطعين في هذه المعلقة: نسق مكوناته: الناقة - الأتان - البقرة. ونسق ثان مكوناته: الشاعر - نوار - الصرم.

يتقاطع هذان النسقان ويتشابكان في نقاط على فترات متغايرة الأطوال، وتأتي الحركة الأخيرة لتقدم الاعتزاز الفردي والجماعي.

وبعد هذا التقسيم يبدأ في النظر إلى وحدات القصيدة منطلقا من وحدة الأطلال مركزا على الأطراف الثنائية فيها:

ثنائيتان ضديتان: محلها / مقامها، غولها / رجامها. حلالها / حرامها.

ثنائيات انسجام وتناغم يتجهان إلى خلق الحياة: جودها / رهامها.

وتستمر الثنائيات: ثنائية زمنية: الصباح والمساء.

التجدد والاستمرارية: الخصب الجديد وسط العفاء والإمحاء والبتر.

الثنائية الأخيرة: ثنائية الإنسان / الطبيعة الميتة.

ويرى أن ثمة حركة دائرية تامة لتنتهي ثلاث ثنائيات: القرار /الرحيل، الإخصاب /العقم، النؤي، من خلق الإنسان/ الثمام (من خلق الطبيعة).

يتخلل حركة الأطلال عدد من الثنائيات الأساسية: الجفاف والجدب/ النداوة والخصب، السكون/ الحركة، الصمت / الصخب. ويرى أن هذه ثنائيات أساسية في الشعر الجاهلي بشكل عام، خصوصا في قصيدة التيار المتعدد الأبعاد.

ويتوقف عند وحدة الطلل متسائلا: هل هي وظيفة رمزية بدلا من أن تكون تمثيلا لحدث؟ هل هي تقنية تقليدية أم أنها ترتبط بنيويا بالوحدات المكونة للقصيدة؟

يفترض أنها في قصيدة المفتاح ليست اعتباطية أو مفروضة من قبل التقاليد التراثية بل تملك قيمة رمزية، ويرى أنها خلق لواقع تخيلي صرف له خصائصه البنيوية، قد تعين على جلاء وجه شبه عميق، على صعيد بنيوي، بين مقومات القصيدة والأسطورة. كما أنها تعكس دافعا لدى الشاعر لإضفاء الحياة والحيوية على مشهد الخراب [108].

ويرى أن التغير لوحدة الأطلال يشغل نفسه بحركة الزمن وتأثيره الجذري في الواقع، ويقدم عمودين يجلوان طبيعة التغير الضدية أو المفارقية: التغير من حيث هو فاعلية موت (قوة موت) والتغير من حيث هو قوة حياة: التدمير والإخفاء، البناء وإعادة الخلق؛ فالقصيدة تنمو وتتقدم عبر الثنائيات الضدية واللفظية التي تنتشر خلال نسيجها كله، مؤكدا هذه النظرة من خلال الدراسة التفصيلية لشريحة الحيوان. ويعرض 27 ثنائية تطغى فيها الثنائيات الضدية؛ مشيرا إلى أنها تكثر في الوحدات التي تصور حركة في سياق الزمن لأشكال الحياة تصارع من أجل تأكيد الحياة في لجة الموت، وهذه خصيصة من خصائص الموقف الوجودي.

أما الثنائيات الأقل ضدية فتلك التي يظهر فيها التناغم ونبض الحياة ودوافعها مثل توحيد الشاعر لهويته بهوية القبيلة، ولقيمها، والعلاقة الإيجابية مع الجماعة والأفراد.

وتتشكل حزم العلاقات في ثلاث شرائح: إيجابية + سلبية + محايدة بين الإيجابي والسلبي.

ويكشف لنا من خلال تسع دوائر تمثل الشاعر ونوار والقبيلة والأنيس والأم والولد.. ملمحا بنيويا أساسيا هو: الغياب شبه الكلي للذوات في الشرائح المحايدة، والندرة النسبية للذوات الإيجابية بشكل مطلق أو السلبية بشكل مطلق.

ويذكر باقترابه من منهج كلود ليفي شتراوس حين ينبه إلى تشكل فئات ثنائية ضدية يشكلها عالم الحيوان: المتوحش/ الأليف المدجن.

وفـــي هذا تجســـيد للثنائيات الأساسـية عند شـــتراوس، وهي ثنائية الطبيعة/ الثقافية في صورة النيئ - المطبوخ، والتي يمكن أن تجســـد في صورة البري المتوحش/ بالأليف المدجن = السباع - الظباء.

وينتقـــل إلى مقطع الرحلة باعتباره بحثا عن الـــذات، منبها إلى ملمح مدهـــش فيها أنها تبدأ وهي تعاني من نـوع ما مـن العاهـات أو النقصـان أو التشويه: فالقبيلة تبدأ بالرحلة حين يموت الخصب، والمرأة تفارق الرجل (الشـــاعر) في حالة من التوتر والصـــد، وحمار الوحش يرحل وقد ضرب ولطم وكدم من قبل الحمر الأخرى، والأتان ترحل وهي حامل.

ويختم وقفته بإشـــارته إلى أن حركة القصيدة لا تتحرك حركة تطور، مثل القصة التقليدية، ولكنها حركة اتســـاعية، مثل دائرة الحجر في الماء، القـــوة الدافعة فيها هـــي مركز كل الدوائر، ولكنها ليســـت دوائر تطورية، ولكنها حركة تكرارية بسبب وجود بنى متوازية فيها.

ويلخص النتيجة بقوله إن بنية القصيدة غير قابلة للانعكاس، على العكس مـــن زمن القصيدة، فالحركة من القبيلة وقيمها وتأكيدها للحياة إلى الأطلال وموت الخصب حركة لم يقم بها شاعر عربي، لأن فعل ذلك يعني عكس مسار الرحلة من اتجاه البحث عن الحياة إلى البحث عن الموت والفناء [109] .

«قصيدة الشـــبق» هو الاســـم والمنطلق الذي يشـــخص به معلقة امرئ القيـــس. ويتوقف هنا أيضا عند ثنائيات القصيدة بدءا من مطلعها: قفا = ثنائيـــة بوجود الصاحب وتضاد في أنا مقابل الآخر، ثم تعقبه سلســـلة من الثنائيات: حبيب ومنزل، الدخول فحومل، فتوضح فالمقراة، جنوب وشمأل، عرصاتها وقيعانها.

ويتابع هذه الثنائيات: الموت، الحياة، الصمت، الضجة.

فالقصيدة تقع وتتحرك داخل ثنائية ضدية لها أهمية جوهرية بالنسبة إلى معناها، وبصفة خاصة ثنائية ســـكون الأطـــلال واندثارها، في مقابل الحيوية الغامرة والجارفة في عاصفة المطر والسيل.

ينتقل بعد ذلك إلى دراسة وحدة الأطلال، مثلما فعل مع قصيدة لبيد، ليلقـــي ضوءا على بعض القضايا المعقدة مثل العلاقة بين الرؤى الجماعية والفردية، وبين التراث والموهبة الفردية.

ويحدد وحدتين كليتين في القصيدة:

الأولى: من البيت الأول حتى البيت 43، وهذه تستوعب ظهور العلاقات مع النسـوة في وحدة الأطلال، وتنوع الزمن بـين الماضي والحاضر وبناء العلاقـات التي تبدأ «ألا رب يوم صالـح» باعتباره وصفا عاما وصولا إلى يوم دارة جلجل، فيوم العذارى، فيوم عنيزة وصولا إلى المرحلة الأخيرة بيوم فاطمة وامتدادها حتى نهاية الوحدة الكلية الأولى.

الوحدة الثانية من البيت 44 حتى نهاية القصيدة:

وفيهـا تتولـد الوظائف عن أربع علامات تعمل في أربعة سـياقات زمنية مختلفة:

ليل = زمن الليل

ذئب = زمن الذئب

حصان = زمن الحصان

سيل = زمن السيل

وتأتي وحدة السـيل لتتيح، على مستوى اللاوعي «تفجر قوى وحشية، وبدائية وجنسية، يعدل تفجرها مسار القصيدة» [110].

وهذه الوحدات ليست قائمة على التتابع، ولكن كل واحدة منها لحظة خاصة، ومن ثم «مـن الممكن تاريخيا أن يسبق زمن السيل زمن الليل أو يتبعه..».

وعندمـا يتناول معلقة عنتـرة يرى فيها بطولة تتم فـي إطار الانتماء المسـتكين للقبيلة، يقدم تجربته البطولية ضمـن الثقافة المركزية، وأيضا يـرى فيها حركتين، فيطغى على الحركة الأولـى: التوتر - العالم المغلق - تقف الحبيبة نائية عصية على النوال، ليس منها سـوى طعم اللذة الماضية - حسـية شـهوانية تبدو حاضرة حضورا كليا - الذات مكبلة عاجزة عن الحركة والاختراق، المحبوبة محرمة عليه جسـديا (جنسيا) بينما كل بطل محلل له جسديا؛ إذن ثمة عالم مغلق أمام الشاعر:

حلت بأرض الزائرين فأصبحت عسرا عليّ طلابك ابنة مخرم

الحركـة الثانية: اسـتجابة مضادة يملؤها زخـم الحيوية وفعل البطولة و فعـل الاختراق هو الفعل الطاغي. يبدو المغلق هنا منهارا لطعنات الفارس البطل سواء أكان المغلق جسد المرأة أو جسد الخصم

الجبـــار. هـــذا المغلق/المفتوح هو جوهر تجربة عنتـــرة، فبينما تبدو المرأة عصية محرمة فإن جسد البطل الكريم العظيم ليس محرما:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

ويرى على المســـتوى الأساســـي أن: علاقة الرجل بالمرأة تتمزق بين قطبين: حب الشـــاعر لهـــا وأهلها. وقطب يزعم أنه يقتـــل أهلها وأنه علقها عرضا.

فثمة علاقة ضدية معقدة: الشاعر العاجز / المرأة المنيعة [111].

ويصـــل إلى حقيقة يراها بالغـــة الأهمية: هي أن عنترة البطل المخترق الســـامي، يمارس حركتـــه المنتفضة الدافقة بالبطولـــة من دون أن يرفض القبيلـــة، بل ضمن إطار القيم التي تؤسســـها والعلاقات الاجتماعية التي تنظمهـــا. ومن ثـــم فإذا كانت العلاقة عند امرئ القيس تبدأ من الشـــاعر فالمرأة فالقبيلة فإنها عند عنترة: الشاعر فالقبيلة فالمرأة [112].

وفـــي معلقة طرفة يركـــز على ناقة طرفة المشـــهورة وصولا إلى وقفة الشـــاعر الوجودية، فيرى في صورة الناقة محورين: اندفاع ورسوخ، وهما محـــوران معجونـــان بالزمن والمـــوت، فالناقة تبدأ بالانفصـــام عن الزمن والانتصاب خارجه مكتســـبة الخفة والسرعة والضخامة تحيلها إلى وجود طقسي - أسطوري يتسامى على الواقع سموا باهرا. وتكتمل صورة الناقة: طقســـا من الطقوس الاحتفائية العجيبة، طقسا يؤسس الثبات والرسوخ، الحيوية والحركة والديمومة.

ويبرز المنظـــور الوجودي للزمن وللموت والحيـــاة؛ فينهار نظام القيم، ينفجر الحس الفردي مدمرا الوعي الاجتماعي، وملغيا شرعية نظام القيم الذي كان الشـــعر قد عبر عنه في الشـــريحة الســـابقة، قبل انبثاق وعي المـــوت. هنـــا يصبح قبر النحام الغنـــي مثل قبر الغوي المفســـد، ولا ينهار نظام القيم فقط، بل ينهار الوجود الفردي الإنســـاني ويتفتت. لا يبقى من الإنسان شيء.

وكمـــا تقلبت مفاهيم القيـــم، ينقلب تصور الشـــاعر للزمن، فلا تبدو الحيـــاة نقطـــة تبدأ عندها وتنمـــو، بل تغدو كتلة قائمة ســـلفا، كنز يوجد بحجم محدود ووزن محدد ثم يكون وجودنا بداية نقصانه.

في هذا العدم يغدو العالم بلا معنى، تبدو الخلافات والصراعات بلهاء

فما لي أراني وابن عمي مالكا   متى أدن منه ينأ عني ويبعد؟

ويخلص إلى أن قصيدة طرفة هي نص التوتر بين الشهوة للانتماء واستحالة الانتماء (113).

ويبحث في زمن القصائد المعلقات من حيث علاقته بزمن الأسطورة، فيرى أن وحدة الأطلال والرحيل تشير إلى أحداث وقعت في الماضي = زمن غير قابل للانعكاس، أما اللحظة الحقيقية لهاتين الوحدتين فتمتد إلى لحظة القصيدة نفسها، حيث يبتدئ الزمن الحاضر وتفرض شكل هذا الحاضر وتصوغه، وهذه هي أيضا لحظة متكررة. فهي ماض وحاضر ومستقبل، وبهذه تكون قابلة للانعكاس، فالقصيدة الجاهلية تدخل في الزمن الحاضر، زمن الطلل وزمن القبيلة وقيمها، ولا تغادره فتنتهي به، فالقصيدة المتعددة الأبعاد تتحرك دائما من اللحظة الأولى إلى الثانية، وليس في الشعر الجاهلي قصيدة تتحرك من الثانية إلى الأولى أي من القبيلة وقيمها لتنتهي بالأطلال (114).

وعندما يتوقف عند الزمن في قصيدة زهير وعمرو بن كلثوم، يطبق مفهوم الزمن في الرواية الحديثة: زمن الفعل، وزمن السرد، وزمن النص. متابعا حركة القصيدة بين الأزمان الثلاثة، منتقدا النظرة القائمة على اعتبار السرد في القصيدة الجاهلية تعاقبيا تاريخيا، فتقطيع زمن النص وإحداث تفاوت بين زمن التجربة والفعل وزمن السرد سمات مميزة للنص الشعري الجاهلي.

ويلفته في قصيدة عمرو بن كلثوم أنها المعلقة الوحيدة التي تبدأ بلحظة النشوة، وفي الزمن الحاضر، وبالخمرة. تبدأ بفعل الأمر أما زمن الفعل فإنه يبدأ باللحظة الحاضرة وبالحض على تقديم الخمرة.

وهكذا يبدأ زمن النص متداخلا متشابكا، عبارة عن لحظات ماضية مبهمة ولا تتعاقب فيما بينها بصورة واضحة، ويعود إلى اللحظة الحاضرة لينشق عنها من جديد، ويشير إلى المستقبل في صيغة واحدة فقط هي إشارة إلى المصير المحتوم: الموت (115).

وبعد..

هذه خطــوط عامة لمحاولة أبي ديب البنيوية، والدراســة تفيض، بعد ذلك، بلقطات وملاحظات تفصيلية جيدة.

ولكن هذه الدراســة خضعت وســتخضع لمراجعات واعتراضات، مثلها مثل أي دراســة، ترى أنها تحدث جديدا غير مسبوق؛ فكمال أبو ديب قدم منهجه ودراســته باعتبارهما طفرة تخلف وراءها كل ما سبقها، متجاهلا محــاولات كثيرة خرجت مــن منطلقات لا تختلف كثيــرا في حداثتها عن منهجه: التفسير الوجودي عند فالتر براونة وعز الدين إسماعيل، جمالية مصطفى ناصف وانطلاق النظرة الأســطورية الراكنة إلى العقل الجمعي، وما أكثرها، فهو إما أن يعرف تلك الدراســات وتجاهلها وهذا كبر عجيب، وإما أنه لا يعرفها فهذا جهل غريب.

ابتداء ثمة ســؤال مشــروع بل ملح: إلــى أي حد تصبح دراســة بنية الأســطورة، وهي نصوص قصيرة موجزة موغلة البعــد، مجهولة المؤلف، جمعية المصدر، والمناهج التــي تناولتها وضعت هذا الجانب المبهم أمامها وكأن اتجاه النظريات الحديثة التي قللت من أهمية المؤلف، اكتفاء بالنص، أعطــت فرصة للانتقال من الفردي إلى الجمعي، وقدمت المعادلة القائمة بين النيئ والمطبوخ، البدائية والتحضر، بتصنيف شتراوس.

هذه المنطلقات عند بروب وشــتراوس كانــت واضحة، محددة ومبررة منهجيــا، بينما الانتقال بها إلى نصوص تنتمــي إلى عصر محدد، وذوات معينة معروفة، شــعراء لهم مواقفهــم ومنطلقاتهم، هل يمكن دمج كل هذا في رؤى متحدة، ومن يعطينا الحق في اعتبار هذا النتاج الشعري جماعيا لا فــردا. إن مقولة أبوديب هــذه لا تميت المؤلف ولكنهــا تلغي صدور أو حدوث النص من محدث!

إن أبا ديب نفســه لم يستطع القفز فوق هذه الحقيقة حين قدم الرؤية الفردية لهؤلاء الشعراء.

ومــن جهة مكملة نقول إلى أي حد تعتبر نظرته أن المعلقات، على وجه التحديــد، بنية واحدة، وتكاد تكون عنده نصا واحدا كما أكد في مطلع ما استشــهدنا به حين طرح سؤاله بأنه هل من الممكن أن نعتبر المعلقات نصا واحــداً أم تقاليــد مهيمنة، وتجربة متكاملة؟ هذه قضية غير مســلم بها،

كما أن هذا المنهج الأسـطوري، فـي تطبيقاته الناجحة، كان على نصوص يفترض أنها تعود إلى مرحلة بدائية فيها مخزونات العقل الجمعي، وتتمتع بالبنية الأسطورية لتستجيب للمنهج الأسطوري. إن هذه الخطوة الواسعة التي قفزها كمال أبوديب تحتاج إلى تفسيرات منهجية محددة وواضحة.

لقد توقف باحثون عند هذه النقطة المنهجية، فيشـير سـامي يوسف إلـى أن عمله هذا فيه خلـل منهجي وتطبيقي وينتج عـن تناقض فاضح بين ادعاءاته المبدئيـة ومغالطاته الإجرائية، ويـرى الخلل في الإلصاقية الميكانيكيـة في اعتماده على التحليل البنيوي للأسـطورة عند شـتراوس وتبريره لهذا الاختيار، خصوصـا بين بنية التيار المتعدد الأبعاد. وكان في اقتصاره، في معلقة لبيد، على وحدة الأطلال، مع ما في هذا الاقتصار من بتر لجزء من كل، وأن لديه إسـقاطات وإضافات من لدنه، ويمزق الوحدة النحوية للعبارة في عملية اجتزاء وتشـويه وخلخلة، ويشـير إلى مغالطات التحليل المتناقضة مع الحدود التي ترسـمها الدراسـة لنفسـها، ويضرب أمثلة على هذه المغالطات [116].

ووقع أبوديب في شرك الأشـكال من دوائر وأسهم ورموز رياضية من دون إضافات تذكر إلى ما قاله فيما عرضه نثريا، وقد نبه باحثون إلى ما في هذه العملية من حذلقة أكثر من كونها ضرورة علمية، فهي في أحسـن الأحوال عملية سـابقة على التحرير، تدخل في فحص المادة واسـتخراج دلالتها. فهذا أحد أعلام الدعوة الأسلوبية عبد السلام المسدي يقول:

«إن عمليـة النقـد البنيوي بما آلت إليه من بحـث عن نظم العلاقات بـين الدوال والرموز أضحت تجـري في حلقة ضيقة لا تكاد تتعدى حدود الباحثين المختصين. ثانيا أن عملية الإحصاء وما يجري مجراها من ضبط لرسـوم بيانية وإقامة «تشـكيلات هندسـية» غدت مجرد بحث تجريدي شـكلي مقصـود لذاته من دون أن يحقق النتائج المرجوة في الكشـف عن أدبية النص» [117].

وهـذا المأخذ هو نفسـه الذي وقف عنده عبد العزيـز حمودة منتقدا تحليل أبي ديب لمعلقة امرئ القيس، حيث يرى أن القارئ يجهد نفسـه في متابعـة الجـداول الإحصائية التي تعدد تكرار وحـدات لغوية، وتلك التي

تقدم تحليلا نحويا للقصيدة. ويشـــير إلى الدوائر والمتوازيات التي تدخل القـــارئ في متاهة يخرج منها مجهدا وقد ابتعد أميالا عن النص بدلا من الاقتراب منه [118].

وفي متابعتنا لمآخذ الدارســـين على هذه الدراسة نتوقف عند مناقشة د. محمـــد الناصر العجيمي لها [119]، فقد ســـجلت ملاحظات مهمة على مرتكزات الدراسة الثلاثة للبحث وهي: نقد الجهاز - الجانب الإجرائي - المحاور الدلالية (المضامين).

الجهاز النظري:

يرى أن الشـــعر الذي اختاره موضوعا لدراســـته يختلف نوعيا عن نظام الأســـطورة، وهـــو لم يفعل ما فعله شـــتراوس الذي أفرد فصولا من كتابه «الأنثروبولوجيا الهيكلية» للتأســـيس المنهجي، راسما الحدود الفاصلـــة بين منهج البنيويـــة كما يجري توظيفه في حقول الألســـنية والبنيوية وكما يقتضيها نظام الأســـطورة. وأن إشـــارته، مثلا، إلى أن ترتيب الشـــرائح في القصيدة الجاهلية غيـــر قابل للعكس، وهذا على النقيض من الأسطورة.

إنـــه لا يملـــك فهما صحيحا لفكرة شـــتراوس الذي يحـــدد فيه وجوه الاختلاف بين الزمانية في الكلام واللغة، مذكرا بما يقرره سوسور من أن الزمانية في الكلام غير قابلة للانعكاس، أي أنها في حكم الماضي الذي لا يتجدد خلافا لزمنية اللغة القابلة للتجدد على الدوام.

أما على المســـتوى الإجرائـــي فلا يخلو تصنيفه مـــن خلل وتمحل فهو يجمع ما يفرقه في موطن آخر، كجعله ما يســـميه «بنية متعددة الشرائح، وتيار متعدد الأبعاد» في صنف واحد متميز عن «البنية وحيدة الشريحة»، مـــن دون أن يبرز فصله بين البنيتين الأوليين ورســـمه إياهما بالاســـمين المذكورين في مواطن أخرى.

يقول بفرضية أن القصائد المتعددة الشريحة مسبوكة في قالب موحد متعاضـــد الأجزاء، من دون أن يشـــفع مقدماته بأدلة تدعم الشـــعور بأن المعلقة مكونة من وحدات منعزلة.

بالإضافة إلى تأثره بسنن النقد التقليدي الذي شن نقده اللاذع عليه بافتراضه المبدئي القائم على حسبان المعلقة وحدة قائمة الذات متواشجة الأجزاء. والتعسف في التقسيم الممعن في التجريد والقائم على شكلنة المادة بإثبات وجوه التناظر والتقابل في مستوى التعبير اللغوي، ويرى أن في تقسيمه جزءا من معلقة امرئ القيس تعسف في استخدام المادة.

الاعتراض الآخر أن البنيوية تجري نموذجا تحليليا واحدا على كل النصوص الجيد منها والأقل جودة، مما يفضي إلى تغييب خصوصيات وميزاتها النوعية، وإلى إلغاء أحكام القيمة، وبذلك تستوي النصوص جميعا، على اختلافها، في مرتبة واحدة، ومن ثم أخذ عليه أنه يلتزم في جميع دراساته التطبيقية سنة واحدة هي أنه يستقرئ «الثنائيات الضدية» في فضاء البيت الواحد بل في شطر البيت بمعزل عن بقية أبيات القصيدة.

ويأخذ عليه في حديثه عن الثنائيات الضدية المنتشرة في قصيدة لبيد قوله إن هذه الثنائيات تزداد كثافة في الوحدات المشكلة، المجسدة شكلا من أشكال الصراع الوجودي، فيما ينحسر مداها في الوحدات التي يطغى عليها التناغم ونبض الحياة، مثل مشهد توالد صنوف الحيوان في الأطلال.

فيرد عليه مشيرا إلى أن المتمعن في جدول (الثنائيات الضدية) المثبت لا يتبين إطلاقا طغيان هذه الثنائيات في موطن وتراجعها في مواطن أخرى. بل إن ما استهل به الباحث رحلة القصيدة يدحض سلفا هذا الحكم، إذ سبق أن أبرز في معرض تحليله لمظاهر الخصب والنماء في الأطلال مدى أهمية الثنائيات الضدية، مقررا أن الطبيعة التضادية للأشياء تبلغ ذروتها في البيت الرابع من القصيدة والأبيات اللاحقة المجسدة للمفهوم نفسه.

ويتوقف أخيرا عند المحاور الدلالية (المضامين)، فيرى أن الناقد في تحليله يسقط ويفرض على النص معاني قَبْلِيةَ جاهزة، فيحمله ما لا طاقة له بحمله من دلالات، وأن أبا ديب يكرر الأفكار نفسها من دراسة

إلى أخرى، ومن الأمثلة في المفاهيم الأسطورية التي أسقطها على النص الشـعري تصنيفه الثلاثي للحيوانات: الحيوانات البرية المتوحشـة التي تقتـل الحياة وتنفيهـا، الحيونات البرية التي تنشـر الحياة وتجددها من نوع الظبـاء وحمار الوحش، الحيوانات ذات الطبيعـة الثنائية مثل البقر الوحشـي المجددة للحياة والنافية لها في آن واحد، ومثله توظيفه لثنائية الطبيعة / الثقافة.

ويشير العجيمي إلى اختياره المدى النفسي، فيرى في السيل مفهوم الذكـورة عند التحامه بالجنس الآخر فيقول: تحولت الجبال إلى رجال شـائخين، ويكون لحركة السـيل إيقاع التلاحم الجنسـي؛ أوحي إليه البيتـان: «كأن ثبيرا في عرانـين وبله...»، فيذكر البيـت «كأن مَكاكيَّ الجـواء غُديـة..»، ويهمـل البـيت التالـي المصـور للسـباع الغرقى لمجرد أنه لا ينتظم في الرؤية التي يريد تحميلها للنص. (انتهى تلخيص أفكار د. العجيمي).

ومن الملاحظ أن حماسة أبي ديب لمشروعه جعلته يطرح أمرا يرى أنه جديـد بينما هو من البدهيات التـي لا تغيب عن قارئ الفن، فعندما يرى أن الوقـوف علـى الأطلال ليس حقيقة آنية، ولكنه تجربـة تخيلية [120]، فليس هناك من دارس يقرأ الشعر باعتباره حقيقة. والقول نفسه بالنسبة إلى وقوفه عند ثنائيات لبيد في معلقته فهي من الوضوح والبيان بدءا من بيتها الأول.

ومن جهـة أخرى تحتاج اتجاهاتـه في التصنيف إلـى أكثر من بيان، فلمـاذا قصيدة لبيد قصيـدة مفتاح، هل باعتبارها، زمنـا، من القصائد المتأخـرة، فهي مفتاح لما قد سـلف بحيث انصبت فيهـا تقاليد القصيدة العربية، أم أن ثمة أمرا آخر احتفظ الكاتب به لنفسه؟!

وعندما يختار خصوصية قصيدة امرئ القيس باعتبارها رؤية شبقية، لم يكن سـابقا، وكان حريا به أن يشـير إلى من سـبقه، من القدماء على الأقل. ألم يصف ويصنف ابن سـلام، وهو من القرنين 2، 3 للهجرة، امرأ القيـس بقوله: «ومن الشـعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شـعره، ومنهـم من كان ينعى على نفسـه ويتعهر منهم امرؤ القيـس»، [121]، وقد

وصف يوسف اليوسف في دراسته النفسية القصيدة بالوصف نفسه، القصيدة الشبقية، وهكذا اجتمع الناقد التراثي، والنفسي والبنيوي على نقطة واحدة فيالها من رحلة متعبة دائرية!

وعندما ننظر إلى دراسته في تقصيها للمضامين وحركتها فإنها تلتقي كثيرا مع ما قد قيل عن هذه القصائد، فثمة عودة إلى فكرة المضامين مرة أخرى بإسهاب لا يقل عن غيره. فأصبحت المضامين تقوده لا البنية.

إن هذه التساؤلات وغيرها هي التي أثارت وتثير كثيرا من المناقشات بشأن هذه المحاولة من كمال أبي ديب، وهي محاولة جديرة بالمناقشة، لما فيها من جهد متميز. ولذلك كانت المآخذ التي ساقها باحثون جديرة أيضا بالنظر.

وتبقى بعد ذلك المعلقات نصا مفتوحا غنيا تتجذب إليه عيون العصور المتعاقبة، فيقودها إلى مغامرة الرؤية في أغوار يتلألأ في داخلها عمق الإبداع.

* * *

التمهيد

(1) نقض كتاب في الشــعر الجاهلي - محمد الخضر حســين - ص 307 و308، المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة 1345هـ.
(2) تاريــخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي: 184/3 - دار الكتاب العربي - الطبعة الرابعة - بيروت 1394هـ - 1974م.
(3) العقد الفريد - أحمد بن محمد (بن عبد ربه): 269/5 - تحقيق محمد ســعيد العريان - المكتبة التجارية الكبرى - الطبعة الثانية - القاهرة 1372هـ - 1953م.
(4) شرح ابن النحاس - ج2 - ص 682.
(5) المرجع السابق.
(6) رســالة الغفران - ص 106 - أحمد بن ســليمان (أبو العلاء المعري) - تحقيق بنت الشاطئ. الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر 1950م.
(7) العمدة - ابن رشيق القيرواني - ج1 - ص 96، ج1 - ص 105 ونقده - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة 1955م.
(8) ابن شرف القيرواني: مسائل الانتقاد: ص 24، 26، 47، 48.
(9) نزهــة الألباء في طبقات الأدبــاء - ص 35 - عبدالرحمن بن محمد الأنباري (كمــال الدين) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيــم - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة 1967م.
(10) معجم الأدباء - ج10ص266 - ياقوت الحموي - نشرة أحمد فريد الرفاهي - مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر - 1936م.
(11) وفيات الأعيان - ج2 - ص 206 - شمس الدين حمد (ابن خلكان) - تحقيق الدكتور إحسان عباس - صادر بيروت.
(12) البداية والنهاية: ابن كثير - ج2 - ص 219.
(13) مقدمة ابن خلدون ص 580 و581 - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.
(14) المزهر ج2 - ص 480 - تحقيق محمد جاد المولى وآخرين - دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي).
(15) خزانــة الأدب ج1 - ص 125 - 126 - عبدالقــادر بــن عمــر البغدادي - تحقيق عبدالسلام هــارون - دار الكتــاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة 1387هـ - 1967م.
(16) المرجع السابق ج1 - ص 127.
(17) المرجع السابق ج3 - ص 181.
(18) المفصــل فــي تاريخ العرب قبل الإســلام - جواد علــي 514/9 - دار العلم للملايين - مكتبة النهضة ببغداد الطبعة الأولى - بغداد 1972م.

(19) تاريخ الأدب العربي: بروكلمان: 97/1 - كارل بروكلمان - ترجمة عبدالحليم النجار - دار المعارف الطبعة الثانية - القاهرة 1968م.

(20) تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات: هامش ص 34، مكتبة نهضة مصر - الطبعة 21 القاهرة - انظر كذلك تاريخ الأدب العربي لبلاشير: 156.

(21) A. J.Arberry, The Seven Odes. London: George Allen and Unwin .LTD. 1957

(22) انظر تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام: رينولد نكلسون: 171/1، ترجمة صفاء خلوص - بغداد - 1970م.

(23) تاريخ الأدب العربي ج1: بلاشير: 156 - 157 - ت.ك. إبراهيم الكيلاني - دار الفكر - دمشق 1956م.

(24) تاريخ آداب العرب ج3 - ص 183 - 189.

(25) نقض كتاب «في الشعر الجاهلي» ص 307 و308.

(26) هناك خلاف كبير وآراء بشأن بداية هذه السوق أحدها هذا الرأي، ويصعب الاعتماد عليه مادام لم يثبت بدقة. انظر تفاصيل هذا الموضوع في هامش ص 342 و343 من كتاب «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام» لسعيد الأفغاني ج1 - دار الفكر - الطبعة الثانية - دمشق 1479هـ - 1960م، وقد رجح أن السوق وجدت قبل عام 500م.

(27) رأي في المعلقات: مجلة الرسالة - السنة الثانية - العدد 56، 4 يونيو سنة 1934، وانظر كذلك العدد 60، حيث ناقش الكاتب منتقديه، وتكملة رأيه العدد 67 من السنة نفسها.

(28) الحياة العربية من الشعر الجاهلي - أحمد الحوفي ص 143 - 151 - مكتبة نهضة مصر ومطبعتها - الطبعة الثانية - القاهرة 1952.

(29) العصر الجاهلي: ص 140، 176 - شوقي ضيف - دار المعارف - ط 4 - ويضاف إلى المنكرين كل من عبدالحميد سند الجندي في كتابه «زهير بن أبي سلمى» - ص 188 وما بعدها، وكذلك جواد علي في الجزء التاسع من كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، فقد جمع أهم آراء المستشرقين والعرب ليصل إلى النتيجة النهائية نفسها من أن قصة التعليق قد تكون من صنع حماد جامع هذه القصائد أو من جاء بعده في تعليل سبب ذلك الاختيار، انظر ص 514 - 517.

(30) نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص 307 - 308.

(31) تاريخ الأدب العربي - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية: الناشر دار الهلال - القاهرة 1957م - ص 34.

(32) الأدب وتاريخه في العصر الجاهلي، ص 126 و127 - محمد هاشم عطية - البابي الحلبي - الطبعة الثانية - القاهرة 1355هـ - 1936م.

(33) مصـادر الشـعر الجاهلي: ص 169 - 172 - ناصر الدين الأسـد: مصادر الشعر الجاهلي - دار المعارف - الطبعة الثانية - القاهرة 1962م.
(34) معلقـات العرب - بدوي طبانة - ص 21 - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثالثة 1967م.
(35) المرجع السابق: 26، 27، 29.
(36) المرجع السابق: 29، 32، 38، 47، 51، 52، 53، 54، 55.
(37) نجيب البهبيتي - المعلقات سيرة وتاريخا - دار الثقافة - الدار البيضاء 1982.
(38) أورده د. أحمد الحوفي في كتابه «الحياة العربية من الشعر الجاهلي» ص144، وكذلـك د. بدوي طبانة فـي «معلقات العرب» ص 19 ولم يشـر إلى مصدره، وجواد علي في «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» 514/9.
(39) كتبت هذا أولا وإن بقيت هذه القضية تشـغلني، فعرضت الأمر على الأستاذ محمد محمود شـاكر، رحمـه الله، الذي لم يبخل بعلمـه ووقته ومكتبته، وقد شاركنا أحد جلساء الأستاذ شاكر الأستـاذ أحمد حمدي إمام الذي نبهني إلى ورود هذا النص في كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لمحمد دياب بك، وقد طبع هذا الكتاب سنة 1900، وفي هذا الكتاب نص مؤلفه على أنه رأى هـذا النص على هامش لشـرح الزوزني ج 83/1، وقد راجعـت النص أخيرا على الطبعة الجديـدة من كتاب محمد دياب ص 107 طبعة المجلـس الأعلى للثقافة، وقد رأيت كذلك في مكتبة الأستـاذ محمود شاكر مطبوعة للزوزني طبعت في تركيا سنة 1325هـ، ثم عثرت على الطبعة التـي اعتمد عليها المؤلف وهي هذه المثبتة في النص. وهذه النصوص، وإن كشـفـت لنا مصـدر الرافعي، فإنها تظل من دون الرتبة المعقولة لقبولها، ويصدق عليها الكلام الذي سقناه حتى تزداد وثوقا في صحة هذا القول لابن الكلبي.
(40) قـال صاحب مراتب النحويين: وهـو كثير الرواية على غمز فيه - ص 113. وعـن الأصمعـي ينقل قوله: إن ابـن الكلبي يزرف في حديثـه، أي يكذب فيه ويتزيد - ص 115 - وفي معجم الأدباء قال الدارقطني: هشـام متروك. وقال غيـره: ليس بثقـة - ج9 - ص 287 - 288، ويذكر الذهبـي ميزان الاعتدال «وهشام لا يوثق به» ج4 - ص 304.
(41) العقد الفريد - ج1 - ص 3 - المقدمة.
(42) في سـياق حديث طرفة (ولو لم يكن لك أثر فـي العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال..) ص 254، وعن معلقة امرئ القيس (وقد بلغني أنكم معشر الإنس تلهجـون بقصيدة امرئ القيس: قفا نبـك من ذكرى حبيب ومنزل، وتحفظونها الحزاورة فـي المكاتب) ص 198 - 199، وعن زهير: أنه لم يقل في (الميمية):

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا - لا أبا لك - يسأم ص 67، وذكر أبياتا كثيرة لأصحاب المعلقات الآخرين مثلا الحارث 9، 47، عمرو بن كلثوم ص 244 وما بعدها، عنترة ص 235 وما بعدها.

(43) ونصه كما جاء في الأغاني ج21 - ص 201 (كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولا، وما ردوه كان مردودا، فقدم عليهم علقمة ابن عبدة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها: هل ما علمت وما استودعت مكتوم، فقالوا هذه سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا: هاتان سمطا الدهر.

(44) مخطوطات المكتبة الظاهرية رقم 3324 - شعر، وقد فرغ من تحريره أبوعمرو زكريا بن أبي جعفر محمد بن أبي القمي الكموني سنة سبع عشر وستمائة.

(45) شرح القصائد السبع المعلقات - ورقة 44 أ.

(46) نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص 307 - 308.

(47) الزهرة - داود الأصفهاني - طبعة العراق 1975 - ج2 - ص309.

(48) سنتحدث عن هذه النسخة بالتفصيل، ونرجح أنها منحدرة عن أبي سعيد الضرير وقد أخذ مباشرة عن ابن الأعرابي - ومثبت عليها أحمد بن خالد (أبو سعيد الضرير): شرح المعلقات السبع - مصور في معهد المخطوطات العربية برقم 552 أدب.

(49) الشعر والشعراء ج1 - ص 236 - ابن قتيبة - تحقيق أحمد شاكر - دار المعارف - القاهرة 1966م.

(50) شرح ابن كيسان، ورقة 48.

(51) شرح القصائد التسع المشهورات - أحمد بن النحاس - ج2 - ص 681 - أحمد خطاب - بغداد 1973م.

(52) نزهة الألباء في طبقات الأدباء - عبدالرحمن بن الأنباري: ص 235 - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - نهضة مصر - في الأصل شرح الطوال، وفي إحدى النسخ «السبع الطوال».

(53) أنباه الرواة - ج2 - ص 114.

(54) معجم الأدباء ج7/ص29 ط الرفاعي. نفح الطيب 75/3 - ط إحسان عباس.

(55) الفهرست - ابن النديم - ص 128.

(56) إعجاز القرآن ص 159 - أبو بكر الباقلاني - إعجاز القرآن - تحقيق السيد أحمد صقر - دار المعارف - الطبعة الثانية - القاهرة 1972م.

(57) شرح المعلقات السبع: 69، وواضح أن هذا مخالف للعنوان الذي اختاره المؤلف.

(58) شــرح القصائد العشــر - تحقيق فخر الدين قباوة - المكتبة العربية - حلب 1969م - 1388هـ - ص 3.
(59) المرجع السابق - ص 417.
(60) السبع الطوال بغريبها - موهوب الجواليقي - بارس أول 3279.
(61) ومثاله ما ذكر بشــأن كتاب القالي في شــرح القصائد السبع، فقد ذكر تحت عنوان «تفسير الســبع الطوال» عند ياقوت، 29/7، وتابعه صاحب كتــاب نفح الطيب 75/3، بينمــا جاء ابن خلكــان وأضــاف إلى العنوان كلمة معلقات لشــيوعها فأصبح الاسم عنده، له كتاب شرح فيه القصائد المعلقات 226/6، ويتابعه صاحب أنباه الـراوة وهو تســاهل نلمســه عند صاحـب الوفـيات حـين ترجـم لابـن النحاس ذكر اســم شــرحه باســم شــرح المعلقات، وهذا يخالف حتما اســم كتابه وكذلك رأيــه الذي بينه، وفيات 100/1.
(62) مع أن النسخة التي بين أيدينا ليست كاملة، فإنه باستقراء شرح ابن النحاس الذي اعتمد على شـرحه تجد أن اســم ابن كيســان ينقطع بعد انتهاء قصائد هؤلاء الســبعة، وقد أشــار ابن النحاس إلى اتفاق العلماء ناصا على اسم ابن كيسان بالذات.
(63) إن ابن النحاس شــرح تســع قصائد ولكنه نص على أن القصيدتين المكملتين للتسع لغير هـؤلاء السبعة من إضافته ص 681 من شرحه، وقد تابعه التبريزي مضيفــا قصيـدة عبيــد بن الأبرص تكملة للعشــر، مع تســليمه بأن أصحاب القصائد السبع الطوال هم من ذكرنا.
(64) شرح القصائد التسع المشهورات 681/2.
(65) جمهرة أشعار العرب - ص 105 - محمد بن الخطاب القرشي (أبو زيد): تحقيــق علي محمد البجــاوي - دار نهضة مصر للطبع والنشــر - الطبعة الأولــى القاهــرة 1967م - وانظر مدى اعتماد صاحــب الجمهرة على ابن النحاس في دراستنا عن كتاب الجمهرة في كتابنا: «ثلاث قراءات تراثية» ط دار المدى - عام 2000.
(66) العمدة 96/1، 105.
(67) جعل قصيدة عنترة في المجمهرات وهي من القصائد السبع.
(68) الأغاني 201/21 علي بن الحســين (أبو الفرج الأصفهاني): الأجزاء: (10 - 16) مصورعــن طبعة دارالكتب القاهرة 1963م - الأجزاء من 17 - 25 طبعة بإشــراف محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئــة العامة المصرية العامة للطباعة والنشــر 1970 - 1974 (مع الاســتفادة أيضا من طبعة دار الثقافة - تحقيق عبدالستار فراج - بيروت - 1959م).

(69) الشعر والشعراء 252/1.
(70) شرح القصائد السبع - ورقة 79.
(71) الأغاني 224/9.
(72) ديوان عنترة 21 و22 - عنترة بن شداد: تحقيق محمد سعيد مولوي - الشركة العربية المتحدة - بيروت 1970م.
(73) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. محمود شكري الألوسي - نشر محمد بهجة الأثري - دار الكتاب العربي - مصر - الطبعة الثانية - 1342هـ - 60/3 و61.
(74) لمزيد من التفصيل عن توثيق هذه الدواوين، انظر ما كتبه د. ناصر الدين الأسد في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» الباب الخامس، وما كتبه د. إحسان عباس عن ديوان لبيد ص 28 وما بعدها، وما كتبه د. يحيى الجبوري بشأن الديوان نفسه في الفصل الأول من الباب الثاني. أما ديوان امرئ القيس فقد حظي بدراسات عدة منها دراسة الأسد السابقة الذكر وكذلك ما كتبه محقق الكتاب محمد أبو الفضل إبراهيم، والدراسة الجيدة للدكتور الطاهر أحمد مكي في دراسته لامرئ القيس ص 158 وما بعدها.

أما ديوان زهير فينطبق عليه ما قيل عن النسخة الأندلسية لشرح الأشعار الستة والتي تمثل رواية الأصمعي بجانب النسخة المنحدرة عن ثعلب - ويراجع بالنسبة إلى ديوان عنترة ما كتبه محقق الديوان في دراسته المطولة - أما طرفة فديوانه يشمله ما كتب عن أشعار الشعراء الستة.

الفصل الأول

(1) شرح ديوان امرئ القيس 149، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - ط3 وانظر كذلك شرح القصائد السبع الطوال - ص 10.
(2) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - ابن الأنباري. تحقيق عبدالسلام هارون - ص 576.
(3) إعجاز القرآن - عبدالكريم الخطابي - ص 4 - ط دار المعرفة بيروت 1975.
(4) الفهرست: ابن النديم - ص 88.
(5) محمد سعيد مولوي - ص 154 وما بعدها من دراسة للديوان.
(6) ديوان امرئ القيس: المقدمة.
(7) فيما يتعلق بشرح الأصمعي انظر مثلا ص 65، ويقول في ص 157 «لم يفسر الأصمعي هذا البيت».

(8) في المرات الأربع التي ورد فيها اسمه عند ابن الأنباري بشأن هذه القصيدة تحدث في أولاهما حول معنى أقر الله عينيك - ص 376 - وفي الموضع الثاني تحدث عن معنى السقب - ص 384 - والثالث في رواية شاهد - ص 307، أما الرابع فتفسير كلمة اليلب - ص 414، ومثل هذه الملاحظات نجدها في شرح ابن النحاس- ص 633، 646، 651.
(9) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - ص 61 - ولأبي نصر أحمد بن حاتم تعليق شبيه بهذا حين قال في معرض شرح قصيدة الحارث من أن الأصمعي لم يقل شيئا في هذا البيت يعني به «زعموا أن كل من ضرب العير..»، وهذا يعني أن الأصمعي كان يشرح هذه القصيدة وغيرها.
(10) تاريخ الأدب العربي 71/1.
(11) ترجمته في معجم الأدباء 15/3 - 26، ونكت الهيمان 96 - 98، وبغية الوعاة 305/1 وأنباه الرواة 41/1.
(12) الموشح - المرزباني - ت: علي محمد البجاوي - 499 - 500، ويشارك أباسعيد في فحص القصائد أبو العميثل، انظر ديوان أبي تمام 217/1 - 218.
(13) الموشح ص 56.
(14) معجم الأدباء 24/3 - 25.
(15) ورقة 14 - 16 - 11.
(16) معجم الأدباء 16/3 و17، وانظر كذلك نكت الهيمان - ص 97 - ومعجم المؤلفين.
(17) المرجع السابق.
(18) نزهة الألباء ص 140.
(19) الموشح 56.
(20) شرح القصائد السبع، ورقة أ3.
(21) ورقة 14ب.
(22) ورقة أ16.
(23) ورقة 49ب.
(24) ورقة 11ب، وكذلك ورقة 56ب، 71ب.
(25) ورقة 4 ب.
(26) ورقة أ53.
(27) ورقة أ53.
(28) ورقة أ97.
(29) ورقة أ17.
(30) ورقة 42ب.

(31) ورقة 147أ.
(32) ورقة 17أ، 55أ وصفحات أخرى كثيرة.
(33) ورقة 137أ.
(34) ورقة 40ب.
(35) ورقة 58أ وفي الورقة نفسها ص (ب) «وقول أبي جابر أحسن وأشبه».
(36) ورقة 106أ.
(37) ورقة 64ب.
(38) ورقة 63ب.
(39) ورقة 58ب، وورقة 157أ.
(40) شـــرح المعلقات الســـبع: الزوزني – ت: محمد علي حمد الله – دمشق 1963 – ص 274.
(41) كلمات مطموسة المعالم وأرجح ما أثبت.
(42) ورقة: 69أ.
(43) ورقة 14ب 15+أ.
(44) ورقة 113أ.
(45) ورقة 77ب، وقد وهم المؤلف فالشـــطر الأول من الاستشهاد إنما هو للأسود بن يعفر وصدره «ودعا بمحكمة أمين ســـكهما» – الموشـــح: 362، وانظر كذلك نقد الشعر: 216.
(46) انظر البيت في الأصمعيات ص 107، وتعليقات المحققين.
(47) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات – ابن الأنباري ص 26.
(48) شرح أبي سعيد ورقة 4أ.
(49) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص 26.
(50) الآية 4 من سورة المدثر.
(51) ورقة 90 أ.
(52) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ابن الأنباري ص 347.
(53) ورقة 80أ، ومثل غرابته تفســـير الرسمي الذي قال «القسيمة عندي الساعة التي تكون قســـما بين الليل والنهار، وفي تلك الســـاعة تغير الأفواه فيقول: من طيـــب رائحـــة فمها في الوقت الذي يتغير فيه الأفواه إذا اســـتنكهتها ســـبقت عوارضها إليك برائحة المســـك، أي أول ما تشـــم منها رائحة المســـك» المصدر السابق ص 310.
(54) شرح القصائد التسع المشهورات 496/2، في المطبوعة المتقوس.
(55) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص 337.
(56) ورقة 87أ.

(57) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 337.

(58) أحمد باشا البغدادي: هدية العارفين: أسماء المؤلفين وأثر المصنفين: طبعة مصورة بالأوفست عن طبعة إسطنبول سنة 1951م - المكتبة الإسلامية - الطبعة الثالثة طهران - 1967م - 1387هـ - هدية العارفين 536/2 - والإعلام 255/9، ومقدمة محقق شرح ابن النحاس ص 51.

(59) الخزانة 416/2 قال «وقال يعقوب، بن السكيت، والأعلم الشنتميري في شرحهما لديوان طرفة»، وانظر كذلك 152/3.

(60) الإعلام 55/9، هدية العارفين 536.

(61) قام بنشره الدكتور شكري الفيصل.

(62) الفهرست 114، معجم الأدباء 52/20، وفيات 400/6.

(63) في فهرست المحقق ورد اسمه مائة واثنتي عشرة مرة.

(64) مما يدل على إملائه ضمن هذا التاريخ قوله في شرحه هذا ص 117 «وحدثني أبي رحمه الله تعالى، وقد توفي والده 204هـ فكتابة هذا الشرح لاحقة».

(65) عبدالله بن جعفر بن محمد بن درستويه، انظر مراجع ترجمته في الأعلام 204/4 وانظر كذلك «أنباه الرواة» 113/2 طبقات النحويين واللغويين ص 116.

(66) أنباه الرواة 114/2، مقدمة محقق شرح ابن النحاس - ص 52.

(67) الفهرست - ص 128.

(68) مقدمة تهذيب اللغة ص 14، طبقات الشافعية الكبرى 65/3، معجم الأدباء 165/17.

(69) هامش 65/3.

(70) معجم الأدباء: 29/7.

(71) وفيات 226/6.

(72) أنباه الرواة: 206/1.

(73) نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، إحسان عباس، دار صادر، بيروت سنة 75/368.

(74) فهرست ابن خير - 355، وانظر كذلك بغية الرعاة 453/1 وهدية العارفين 208/1، ومقدمة محمد علي حمد الله لكتاب شرح المعلقات للزوزني ص 58.

(75) فهرست ابن خير ص 388 و389.

(76) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الأزدي الحميدي - الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة 1966م. ص 164.

(77) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ ص 69.
(78) شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث الشهير بامرئ القيس: الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب ص 32ط هندية 1906، وانظر كذلك ص 33 وقد وردت أقواله في غير المعلقة ص 67 - 105 - 118 - 154 - 65.
(79) ورقة 43ب - 44ب.
(80) ورقة 179.
(81) ورقة 105ب.
(82) شرح القصائد التسع المشهورات: ص 53 من مقدمة المحقق.
(83) وفيات الأعيان: 247/6 - 248.
(84) ثلاث قراءات تراثية - الناشـــر دار المدى، وهي تحت عنوان: ضوء جديد على جمهرة أشعار العرب.
(85) بغية الوعاة: 24/2.
(86) شرح القصائد التسع المشهورات: من مقدمة المحقق ص 53.
(87) بغية الوعاة: 87/2، وانظر كذلك هامش أنباه الرواة 171/2.
(88) الذيل والتكملة: لأبي عبدالملك المراكشي - ط: إحسان عباس ص: 179.
(89) معجم أعلام الجزائـــر، وانظر ترجمته في الأعلام: 120/5، وقد أهمل ذكر الكتاب. وانظر بغية الوعاة: 172/2.
(90) معجم المؤلفين: 195/13.
(91) توجد نسخة منه في المكتبة الظاهرية برقم 3324 شعر.
(92) ورقة 3ب.
(93) ورقة: 15أ.
(94) تاريخ الأدب العربي: بروكلمان: 71/1، أيضا المكنون 513/2.
(95) المصدر السابق: 71/1.
(96) تاريخ أدب العرب: الرافعي: 189/3، هدية العارفين 178/6.
(97) بروكلمان: 71/1.
(98) المرجع السابق: 71/1.
(99) المرجع السابق: 71/1.
(100) كشـــف الظنون المعلقات الســـبع: الزوزني، مقدمة المحقق: 60، (6م) كشف الظنون: 1741/2، وشرح المعلقات السبع: الزوزني، مقدمة المحقق: 60.
(101) نشر شرح النعساني عام 1906.
(102) نشر فوزي عطوي شرحه عام 1969، بينما نشر وتبعه بكري شيخ أمين في كتاب «المعلقات السبع» سنة 1974م.

(103) طلال حرب - الوافي بالمعلقات - ط1 1993 - المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر - بيروت.

(104) عبدالملك مرتاض - المعلقات: مقاربة سيمائية / أنثروبولوجية لنصوصها - من منشورات - اتحاد الكتاب العرب - 1998.

الفصل الثاني

(1) أحمد أمين - ضحى الإسلام: 51/2 - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة: 1953.

(2) المصدر السابق: 54.

(3) تاريخ التربية الإسلامية - أحمد شلبي - ص 102. هناك مدارس أخرى مثل مدرسة ابن إسحاق الأسفرائيني المتوفى سنة 418هـ، ونسبت مدرسة أخرى إلى ابن فورك، ويقولون إن أبا بكر البستي المتوفى سنة 429هـ بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره - انظر «ظهر الإسلام» لأحمد أمين: 230/2، غير أن هذا لا ينفي أن المدرسة النظامية كانت فاصلا بين عهدين وأن تلك المدارس كانت أشبه بالتمهيد لها وكل هذه المدارس تنتمي إلى العهد الذي سادت فيها المناهج التعليمية.

(4) العربية - يوهان فك - ت: عبدالحليم النجار - مكتبة الخانجي - 1951 - ص 310.

(5) شرح اختيارات المفضل: 91/1 - 92 - ط - فخر الدين قباوة.

(6) مقدمة الأعلم لشرح الدواوين الستة، وهي منشورة في مطبوعات شروحه، انظر النص في مقدمة ديوان امرئ القيس: 4.

(7) شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث الشهير بامرئ القيس: للوزير أبي بكر بن أيوب ص 2.

(8) ترجمته: أبو الحجاج، يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم، ولد سنة عشر وأربعمائة في شنتمرية، رحل إلى قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وأقام بها مدة، أخذ عن أبي القاسم إبراهيم الأفليلي وساعده في شرح ديوان المتنبي، وأخذ كذلك عن آخرين - شهد له بالعلم في اللغة العربية ومعاني الأشعار - وسمي الأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا، له مؤلفات كثيرة منها: شرح الحماسة، ومنه نسخة في الخزانة الأحمدية في تونس، وهو شرح مطول رتبه على حروف المعجم، وصنف شرح الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي، وشرح كذلك أبيات الجمل، وله كذلك كتاب «تحصيل عين الذهب في شرح شواهد سيبويه» وله كتب أخرى كثيرة - وقد كانت الرحلة في وقته إليه، وأخذ عنه أكثر من واحد، وكف بصره في آخر عمره

- وتوفي سنة ستة وسبعين وأربعمائة بمدينة إشبيلية. انظر ترجمته في كتاب «الصلة» لابن بشكوال: 681/2، معجم الأدباء: 60/2 - 61، وفيات الأعيان: 81/7، وما بعدها، بغية الوعاة: 356/2، وانظر كذلك الزركلي في أعلامه: 308/9 - أصبح شرحه «شرح الأشعار الستة» أصلا من أصول إخراج دواوين الشعراء الستة، فقد طبع ديوان امرئ القيس اعتمادا على شرح الأعلم أكثر من مرة منها طبعة كاملة في الجزائر وأخرجها ابن أبي شنب، ومثلها طبعة في القاهرة حققها محمد أبو الفضل إبراهيم ونشرتها دار المعارف، وأخرجت الطبعة الأولى سنة 1958م، أما ديوان طرفة فقد طبع في برلين سنة 1895م بشرح الأعلم، ثم طبعه مكس سلفسون سنة 1900 في مدينة شالون، وطبعة أخرى ظهرت في دمشق سنة 1975م تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال وهدفهما إبراز شرح الأعلم بالذات بجانب تيسير الديوان، وقد أخرج المحققان أنفسهما من قبل ديوان علقمة بشرح الأعلم سنة 1970م بحلب، وأخرج فخر الدين قباوة شرح ديوان زهير وظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1970م ونشرته دار القلب العربي بحلب. وقد قام محمد سعيد مولوي بإخراج شرح ديوان عنترة سنة 1970 والناشر المكتبة الإسلامية، وعلى هذا فقد خرج إلى الوجود أكثر شرحه منجما، وقد أضربنا عن الإشارة إلى الذين اعتمدوا على الأعلم وغيره في إخراج هذه الدواوين لاختلاطها.

(9) ديوان طرفة مع شرح الأديب يوسف الأعلم الشنتمري: 6 و7.

(10) شروح الشعر الجاهلي حتى القرن الخامس الهجري: أحمد جمال الدين هاشم العمري: 295 - 297.

(11) هي الأبيات الأحد عشر الأولى. راجع ديوان عنترة: 186 - 195.

(12) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: رضوان الداية - بيروت 1968 - ص 126.

(13) ديوان عنترة: 191.

(14) ديوان عنترة: 192 و193.

(15) المرجع السابق: 195.

(16) المرجع السابق 195.

(17) ديوان طرفة: 8.

(18) المرجع السابق: 20، وهذه المعاني وإن كانت من المأثورات المعلومة فإن الأعلم كان مدركا لها ومعتنيا بإبرازها من دون أن تفقد طراوتها في ذلك الحشد من المعلومات والتفريعات.

(19) ديوان عنترة: 191.

(20) ديوان طرفة ص 8، وانظر تعليل ابن الأنباري ص 141 من شرحه، وكذلك تعليل ابن النحاس في شرحه ص 214.

(21) ديوان عنترة 194.
(22) ديوان امرئ القيس: 15.
(23) الصحيح «بيوم مثل سالفة الذباب» وصدره «ظللنا عند دار بني أنيس». انظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 197.
(24) ديوان طرفة: 30، والبيت للنابغة وصدره: «وإني لأخشى عليكم أن يكون لكم». انظر ديوان النابغة ص 221 - صنعة ابن السكيت ط شكري الفيصل - بيروت.
(25) المرجع السابق: 19، وانظر للمقارنة أيضا في ديوان عنترة ص 189 حيث قارن بين بيت عنترة وبيتين للنابغة الجعدي وآخر لامرئ القيس، وهذا الشاهد أوردته كتب الشروح المختلفة، انظر مثلا: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 173.
(26) البطليوسي: عاصم بن أيوب، نحوي وعالم باللغة ذكره ابن بشكوال قائلا: «عاصم بن أيوب الأديب من أهل بطليوس ويكنى أبا بكر، روي عن أبي بكر بن الغراب وأبي عمرو السفاسقي، وأبي محمد مكي بن أبي طالب المقرئ وغيرهم - توفي رحمه الله سنة أربع وتسعين وأربعمائة - «الصلة: 451/2 - انظر كذلك أنباه الرواة: 384/2، وبغية الوعاة: 34/2 - وانظر مصادر أخرى والمخطوطة في معهد المخطوطات العربية برقم 503 أدب - وقد طبع من شرحه ديوان امرئ القيس بمطبعة هندية بالقاهرة سنة 1906م.
(27) شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث الشهير بامرئ القيس: 2.
(28) في الأصل المطبوع «عن شجر حزينا».
(29) سورة الصافات، الآية: 32.
(30) شرح ديوان امرئ القيس: 19.
(31) شرح الأشعار الستة: ورقة 182أ.
(32) انظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الأنباري: ص 20، وانظر كذلك الأوجه المتعددة التي ساقها وتفاصيلها في الصفحة نفسها وما يليها.
(33) المرجع السابق: ورقة 129أ.
(34) المرجع السابق: ورقة 129أ.
(35) شرح ديوان امرئ القيس: 23.
(36) انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري: 36 - 37، وكذلك شرح القصائد التسع المشهورات: ابن النحاس: 116 و 117.
(37) شرح الأشعار الستة: ورقة 180أ.
(38) شرح القصائد التسع المشهورات: 327 و328.
(39) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 10.
(40) شرح الأشعار الستة: ورقة: 179أ.

(41) شرح ديوان امرئ القيس: 32.

(42) المرجع السابق: 33.

(43) شرح الأشعار الستة: ورقة: 106 أ.

(44) انظر أخذه عن الأول ورقة 16، وعن الثاني من شرحه لديوان امرئ القيس 26.

(45) نقـل عن الأصفهاني تعليقه على قول امرئ القيس: ليس الصبح عنك بأمثل، وهو عن ابن الأنباري ص 77.

(46) شرح ديوان امرئ القيس: 36، وبيت البحتري يقول:

وازرق الفجر يأتي قبلَ ابيضهِ   وأوّل الغَيـثِ قطـرٌ ثـم يَنْسَـكِبُ.

وهو من قصيدة مطلعها:

نحنُ الفداءُ فمأخوذٌ ومرتقبٌ   يَنـوُبُ عَنـكَ إذا هَمَّـتْ بـك النُّـوب

والشاهد في ديوان البحتري: 171/1 - ط حسين الصيرفي - دار المعارف 1964.

(47) شرح الأشعار الستة: ورقة 108أ، والبيت من قصيدة أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب   فـي حـده الحـد بـين الجـد واللعـب

(48) شرح الأشعار الستة: ورقة 108ب.

(49) المرجع السـابق: ورقة 133ب، والبيت في الديوان ص 193، وهو من قصيدة مطلعها:

إلام طماعية العاذل   ولا رأي فـي الحـب للعاقـل

(50) شرح الأشعار الستة: ورقة 106أ - ب، وبيت المتنبي من قصيدة مطلعها:

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود: ديوان المتنبي: 44/2.

(51) شرح الأشعار الستة: ورقة 105أ، وانظر كذلك: ورقة 107أ.

(52) شرح القصائد التسع المشهورات: 461/2.

(53) شرح ديوان امرئ القيس: 37.

(54) عـرض محمد رضوان الداية فـي كتابه «تاريخ النقـد الأدبي في الأندلس» لبعض هذه الأمثلة، انظر ص 141 وما بعدها.

(55) انظر ترجمته في الأعلام: 179/9.

(56) شروح سقط الزند، القسم الأول: ص 4 - طبعة دار الكتب المصرية - 1944.

(57) شرح اختيارات المفضل: 91/1 - 92.

(58) شرح القصائد العشر: 3.

(59) وفيات الأعيان: 192/6.

(60) خزانة الأدب: 134/1.

(61) المرجع السابق: 320/3، وانظر كذلك: 227/3.

(62) العربية، يوهان فك: 210.

(63) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: جـ 13.

(64) شـــرح اختيارات المفضل، التبريزي، مقدمة المحقق: 33، وانظر كذلك «شروح الشعر الجاهلي حتى القرن الخامس الهجري»: 541 وما بعدها وكذلك: 574.
(65) وطبعت بحلب - نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب.
(66) من ابن الأنباري حتى «وهو الكتاب».
(67) من النحاس.
(68) من ابن الأنباري.
(69) من النحاس.
(70) من ابن الأنباري حتى «المتون».
(71) بقية الشرح من النحاس.
(72) شـــرح القصائد العشـــر: 201 - 202، وشـــرح البيت عند ابن الأنباري: 526 - 527، وهـــو عند ابن النحاس: 368/1 - 319، وأرقام الإحالات من نسخة المحقق.
(73) شرح القصائد العشر: 252.
(74) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص 593.
(75) سورة الإسراء آية 71.
(76) سورة الحجر آية 79.
(77) والأبيات الأربعة التي تبدأ بقوله: «وعالين أنماطا عناقا وكلة» وشـــرح الأبيات عنـــد التبريزي من ص 160 وحتى نهايـــة ص 162، وفي ابن الأنباري من ص 236 وحتى نهاية ص 249.
(78) شرح القصائد التسع المشهورات: 312/1.
(79) شرح القصائد التسع المشهورات: 681/2.
(80) شرح القصائد العشر: 478.
(81) شروح الشعر الجاهلي حتى القرون الخامس الهجري ج 2 - ص 284.
(82) شرح القصائد العشر: 483 - 484.
(83) ديوان عبيد بن الأبرص: 14.
(84) جمهرة أشعار العرب: 476.
(85) المرجع السابق والموضع نفسه.
(86) شرح القصائد العشر: 224، 225 وانظر تعليق المحقق.
(87) الآية 6 من سورة الأعلى.
(88) المرجع السابق: 55 - 56.
(89) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 78.
(90) شرح القصائد الشعر: 23.
(91) المرجع السابق: 173.

(92) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 37، وقد أدمجه المحقق ضمن شرح البيت السابق له وحقه التأخير.
(93) شرح القصائد العشر: 30 - 31.
(94) المرجع السابق: 170.
(95) المرجع السابق: 46
(96) هـــو موهوب بن أحمد بن محمد، وهو موهـــوب الجواليقي: أبو منصور، ولد ســـنة خمس أو ســـتة وستين وأربعمائة، ســـمع من جماعة، قرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي ســـبع عشـــرة ســـنة وبرع في علم العربية، درس في المدرســـة النظامية بعد شيخه أبي زكريا التبريزي، قرية المقتفي لأمر الله تعالى، فاختص بإمامتـــه في الصلوات، وكان المقتفي يقرأ عليه شـــيئا من الكتب.. توفي ســـنة أربعين وخمســـمائة...، ملخصا عـــن كتاب «الذيل على طبقـــات الحنابلة» لابن رجب: 204/1 - 207 - انظر ترجمته في الأعلام: 92/8 ومراجعها.
(97) مخطوطة - منه نسخة في باريس «أول رقم 3279»
(98) السبع الطوال بغريبها: 45ب.
(99) شرح القصائد العشر: 330.
(100) شرح القصائد التسع المشهورات: 262/2.
(101) السبع الطوال بغريبها: 20أ.
(102) شرح القصائد العشر: 129 و130.
(103) شـــرح القصائد الســـبع بغريبها: 31أ + ب، وهو منقول عن التبريزي، انظر ص 210 من شرح القصائد العشر.

الفصل الثالث

(1) نظريـــة الأدب - رينيـــه ويليـــك - ص 180 - ترجمة محيـــي الدين صبحي - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - دمشق - 1392هـ - 1972م
(2) David Daiches، Critical Approaches to Literature، P.134.
(3) البحث الأدبي - شوقي ضيف: دار المعارف - 1972 - ص: 116، 135، 127.
(4) المرجـــع الســـابق: 137 - 138، وكذلـــك ص 143 و144، وانظـــر طريقـــة عبدالقاهـــر الجرجاني في تحليل النصوص في كتابه دلائل الإعجاز وخاصة تحليلـــه للآية الكريمة ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا ســـماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر، واســـتوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾. وانظر عرض الدكتور محمد زكي العشـــماوي لهذا النص وغيره ص 362 وما بعدها من كتابه (قضايا النقد الأدبي والبلاغة)، ففي هذه النصوص والنماذج يتضح المنهج اللغوي في صورة جيدة.

(5) أبو الحسن محمد بن كيسان، نحوي وأديب، كان يأخذ عن المذهبين الكوفي والبصري ويتردد على المبرد وثعلب، وكان يختار ما يراه صوابا، وصنف عددا من الكتب يغلب عليها الطابع اللغوي - وقد أخذ عنه ابن النحاس كثيرا في شرحه الكبير للقصائد التسع - اختلف في تاريخ وفاته، فذكر الزبيدي أنه توفي سنة 299هـ، بينما ذكر ياقوت أنه توفي سنة 320هـ، انظر ترجمته في كتاب طبقات النحويين واللغويين: ص 153، وكتاب أنباه الرواة: 57/3 - 59 وبغية الوعاة: 18/1 - 19، ومرآة الجنان: 236/2، ومراجع أخرى ذكرها صاحب معجم المؤلفين 213/8.

(6) تاريخ الأدب العربي: 70/1.

(7) مخطوطة ابن كيسان: ورقة 34.

(8) شرح القصائد التسع المشهورات: 60 من مقدمة المحقق.

(9) سورة المدثر آية 4.

(10) شرح ابن كيسان: ورقة 3 و4.

(11) المرجع السابق: ورقة 4ب.

(12) المرجع السابق.

(13) مثل رفضه للرأي القائل إن معنى التفرق في بيت عمرو (قفي قبل التفرق يا ظعينا) أنه الموت.

(14) لعل السقط هنا «معنى ثان».

(15) المرجع السابق: ورقة 28أ.

(16) المرجع السابق: ورقة 14.

(17) المرجع السابق.

(18) المرجع السابق: ورقة 14 أ.

(19) المصدر السابق: ورقة 16أ.

(20) المصدر السابق: ورقة 16ب.

(21) المصدر السابق: ورقة 10أ.

(22) المرجع السابق: ورقة 25 أ، وانظر كذلك شرحه للبيت «وأن الضغن بعد الضغن يفشو».

(23) المرجع السابق: ورقة: 26ب - 27أ.

(24) المرجع السابق: ورقة: 6أ.

(25) المرجع السابق: ورقة: 6أ.

(26) المرجع السابق: ورقة: 8ب، 10أ، 9ب.

(27) محمد بن القاسم الأنباري (271 - 328هـ) خطوط حياته الرئيسية واضحة المعالم، فقد كان والده القاسم بن محمد الأنباري من علماء عصره ومن رجال المذهب الكوفي، فنشأ صاحب الترجمة في وسط علمي تلقى فيه الرعاية

التي صادفت عقلا واعيا ونفســا مستجيبة وذاكرة حافظة تحدث عنها كثيرون إعجابا. وقد باشر التعليم والإملاء في حياة والده، فقد ذكر الزبيدي أنه أملى سنة إحدى وثلاثين وكان يملي في المكان نفسه الذي كان والده يملي فيه - تردد علــى أولاد الراضي بالله (297 - 329هـ) وتوثقت صلتــه بالراضي في أثناء تردده عليه وتروى أخبار عدة كان الخليفة طرفا فيها - وكما تلقى ابن الأنباري العلــم عن علماء عصره فقد خلف وراءه ذكرا واضحا تمثل في أولئك التلاميذ الذين أخذوا العلم عنه ونشروا كتبه التي كان يمليها عليهم إملاء - وقد سردت كتب التراجم أسماء كتبه الكثيرة - وأبرز ما يلفت نظرنا في مثل هذا المقام ما ذكر عن شرحه لعدد من دواوين الشعراء الجاهليين من مثل شرحه لدواوين كل من الأعشى والنابغة وزهير.

انظر ترجمته في: نزهة الألباء 364 - 371، وبغية الوعاة: 212/1 - 214، طبقات الحنابلة: 69/2 - 73، الفهرست 118 - أنباه الرواة: 201/3 - معجم الأدباء: 306/18 وما بعدها - تذكرة الحافظ: 842/3.

(28) الآية 5 من سورة مريم.

(29) هو الزبرقان بن بدر، كما في الحيوان 98/6.

(30) الآية 11 من سورة محمد.

(31) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 449 - 451.

(32) المرجع السابق: 90 - 92.

(33) المرجع السابق: 178.

(34) ديوان امرئ القيس: 21.

(35) شرح القصائد السبع: 119.

(36) شرح القصائد التسع: 117.

(37) المرجع السابق: 177.

(38) مادة صرى.

(39) الصراية كما فسرها ابن الأنباري: «الصراية الحنظلة التي اصفرت، لأنها من قبل أن تصفر مغبرة، فإذا اصفرت صارت تبرق كأنها صقلت» - وفي اللســان تــدور حول المعنى التالي: أ - «نقيع الحنظــل - الأصمعي: إذا اصفر الحنظل فهو الصراء ممدود - ب: الحنظلة إذا اصفرت - ج: الصراية نقيع الحنظل.

(40) انظر هذه المعاني في شرح القصائد التسع: 174.

(41) انظر هذا الســلوك، وهو الصوف من القدمين إلى الرأس في مجال الحديث عن السرعة عند الشعراء العرب، نلمسه عند طرفة الذي راح يتحدث عن ناقته بهذا الترتيب.

(42) أعاد هذا الشرح بألفاظه مع تغيرات بسيطة في محل الاستشهاد.

(43) شرح القصائد السبع الطوال: 79.
(44) قال أبو بكر بن الأنباري: وكان ببغداد من رواة اللغة واللحياني والأصمعي وعلي بن المغيرة الأثرم - أنباه الرواة: 319/2.
(45) في موضعين أولهما ضبط كلمة الفراء، والآخر حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه - ص 451.
(46) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 36.
(47) نص ابن النحاس على أن هذا التفسير «ينكر حذاق البصريين» ص 99.
(48) انظر شرح القصائد التسع المشهورات: 99.
(49) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 48.
(50) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 263.
(51) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 359 و360.
(52) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 156.
(53) الموضع السابق: وانظر كذلك تفسيره لقول طرفة: «بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد» 175.
(54) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 340 - 342.
(55) انظر تفصيل هذا ص 341 و342.
(56) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 266.
(57) المرجع السابق: 436، ويقول في شرحه لبيت امرئ القيس:
وليل كموج البحر أرخَى سُدولَهُ ... عليّ بأنواع الهُمُوم ليَبْتلي
قال يعقوب: يقول: أظلم حتى كأنه موج بحر إذا جاء من ظلمته - وقال ابن حبيب: معناه، كموج البحر في كثافته وظلمته - يقول: أظلم داخله حتى كأنه موج البحر إذا جاء من ظلمته - ص 74.
(58) المرجع السابق: 330.
(59) المرجع السابق: 271.
(60) المرجع السابق: 335.
(61) المرجع السابق: 336.
(62) المرجع السابق: انظر كذلك: 400 - 414 - 475.
(63) انظر نموذجا لاستطراده ص 134 حيث عرض عدة أوجه إعرابية لكلمة الأطلال وفصل تفصيلا واضحا.
(64) المرجع السابق: 289.
(65) المرجع السابق: 391، وانظر إشاراته للتمثيل في الصفحات: 147، 200، 274، 275، 278، 280، 286، 295، 303، 318، 319، 320، 361، 397، 404، 405، 469، 557، 562.

(66) المرجع السابق: 521.
(67) المرجع السابق: 523.
(68) المرجع السابق: 45.
(69) المرجع السابق: 337.
(70) المرجع السابق: 48.
(71) المرجع السابق: 107، أشـار إلى التشبيه المشهور لعنترة: «هزجا يحك ذراعه بذراعه» ص 315.
(72) المرجع السابق: 313.
(73) المرجع السابق: 46.
(74) المرجع السابق: 139.
(75) المرجع السابق: 109
(76) مثل الإضمار والخبن والطي...إلخ.
(77) شـرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 245، وكرر الكلام نفسه في موقع آخـر حول بيـت عمرو بن كلثوم: « ونون مخاريق وهـي لا تجري، لأن كل ما لا يجري تجريه الشـعراء في شعورهم ليستوي بالتنوين وزن البيت ألا أفعل..» - ص 398، وانظر تعليق ابن النحاس على هذا الموضوع ص 308 من شرحه.
(78) المرجع السابق: 36.
(79) المرجع السابق: 47.
(80) المرجع السابق: 96، وانظر كذلك - ص 38.
(81) المرجع السابق: 221.
(82) المرجع السابق: 360.
(83) المرجع السابق: 107.
(84) قال ابن النحاس: «ومن روى فإنه (يطيع العوالي) فإنما أسكن الياء اضطرارا لأنها تسـكن في موضع الخفض والرفع، فأتبعها النصب، فأما في الكلام فلا يجوز إلا التحريك في موضع النصب لخفته» - ص 345.
(85) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 281.
(86) المرجع السابق: 474 و475.
(87) أحمد بن محمد بن إسـماعيل: أبو جعفر النحاس (ت338هـ) ولد ومات في مصر، وزار العراق واجتمع بعلمائهم، صنف عددا من الكتب منها هذا الشـرح للقصائد التسع انظر ترجمته في الأعلام: 199/1
(88) شرح القصائد التسع المشهورات 97/1.
(89) شرح القصائد التسع المشهورات: 698 - 700.
(90) المرجع السابق: 329 و330.

(91) المرجع السابق: 264 و 265.
(92) يقول ابن الأنباري « .. أشـــهد الوغى وأن أحضر اللذات هل أنت مخلدي» أما ابن النحاس فروايته تقول: .. أحضر الوغى وأن أشهد ...إلخ.
(93) المرجع السابق: 353.
(94) المرجع السابق: 122.
(95) ديوان امرئ القيس: 241، وشـــرح البيتين: قوله: «ســـوفى» من قولك: ساف يســـوف سوفا، أي شم يشم شما – والخود: المرأة الخفرة الحيية – وتراقب أي تحرس – والتمائم: العوذ، الواحدة تميمة، يريد قلادة صبيها.
قوله: «فتنثنـــي» أي فتعطف – والجيد: العنق – وقوله: «يتضوع» أي يصوت بالبكاء فيشتد بكاؤه، ومعناه «ألا يتضوعا» ومثله كثير.
(96) المرجع السابق: 191، وقد رد ابن الأنباري بدوره هذه الرواية، ولكنه أثبتها في صدر النص، أما ابن النحاس فقد اطرد رأيه متنا وشرحا.
(97) المرجع السابق: 551.
(98) سورة القارعة الآية 8 و9.
(99) المرجع السابق: 398 و399
(100) سورة فصلت آية 8.
(101) شرح القصائد التسع المشهورات: 362 و363.
(102) المرجع السابق: 214 و215.
(103) المرجع السابق: 504.
(104) المرجع السابق: 618.
(105) المرجع السابق: 500.
(106) المرجع السابق: 195.
(107) انظر الصفحات: 159، 207، 230، 270، 360، 361، 425، 587.
(108) شـــرح القصائد التســـع المشـــهورات: 698، وقد أورد هذا الشاهد بعد أن عرض رأي أبي زيد القائل إن العشـــي يكون أول الليل وقد يذهب الظن إلى أنه شـــاهد على هذا القول وليس يكون أول الليل، وقد يذهب الظن إلى أنه شاهد علـــى هـــذا القول وليس هو كذلك لأنه استشـــهد به من قبـــل على معنى كلمة الأعشى على إطلاقها.
(109) المرجع السابق: 699.
(110) نشـــير هنا إلى عرض المحقق لبعض آراء ابن النحاس في دراسته التي قدم بها للكتاب.
(111) وهو تعليل ورد عند ابن الأنباري: 265.
(112) يقصد أن المصدرية تمثل مع الفعل مصدرا فإضمارها يعني إضمار بعض الاسم.

(113) من الأمثلة بيت زهير:

ومن يَعْصِ أطرافَ الزجاج فإنه مطيعُ العوالي ركِّبتْ كل لهذَمِ

فأبو عبيدة يرى أنه تمثيل، أما الباقلاني فإنه يورده في مجال حديثه عن الاستعارة: «يقول ومما يعدونه من البديع المماثلة، وهو ضرب من الاستعارة، سماه قدامة التمثيل، وهو على العكس من الإرداف لأن الإرداف مبني على الأسباب والبسط، وهو مبني على الإيجاز والجمع، وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظا تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه»، ويصدر أمثلته الشعرية ببيت زهير هذا: انظر إعجاز القرآن 119 و120.

(114) شرح القصائد التسع المشهورات: 370.

(115) المرجع السابق: 697.

(116) المرجع السابق: 369.

(117) المرجع السابق: 171، ومن عجب أنه تجاهل البيت الذي يليه والذي قال فيه الباقلاني: «ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس: **له أيطلا ظبي وساقا نعامة... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل**، وذلك في تشبه أربعة أشياء بأربعة أشياء وأحسن فيها».

(118) انظر الصفحات: 129، 478، 717.

(119) المرجع السابق: 194.

(120) المرجع السابق: 598 - وانظر مقدمة المحقق ص 83 و84.

(121) المرجع السابق: 520.

(122) انظر بالنسبة إلى الكناية: 328، وانظر أمثلة المحقق ص 83.

(123) المرجع السابق: 632.

(124) المرجع السابق: 340، 127، وانظر إعجاز القرآن للباقلاني: 258.

(125) المرجع السابق: 415.

(126) المرجع السابق: 424.

(127) الصناعتين: أبو هلال العسكري ت: البجاوي وأبو الفضل إبراهيم - القاهرة ط1 284 - 285، وانظر بديع القرآن: 18.

(128) انظر إشاراته إلى المثل أو التمثيل في الصفحات: 317، 364، 334، 351، 430، 444، 501، 527، 566، 567، 570، 572، 629، 632، 638، 701، 704، 408، 711، 749.

(129) المرجع السابق: 193.

(130) المرجع السابق: 308، وانظر كذلك الصفحات: 117، 442، 532، 642.

(131) المرجع السابق: 580، وقد عرض ابن الأنباري لهذا البيت وخرّج التسكين بأنه على لغة من يقول: رأيت قاضيك بإسكان الياء - ص 477 و478، وهو التعليل نفسه الذي علل به سكون الياء في كلمة العوالي في بيت زهير الذي عرضنا له من قبل، وقد علل ابن النحاس الرواية بأنها ضرورة وأورد هذا التعليل نفسه: 345.

(132) المرجع السابق: 553/2.

(133) المرجع السابق: 417/2 - 418.

(134) المرجع السابق: ص 666/2.

(135) قال الخطيب التبريزي: «سناد الحذ وهو الحركة التي تكون قبل الردف، فإن كانت مع كسرة لم يكن عيبا كقوله: «ألا هبي بصحنك فاصبحينا» ثم قال: «تربعت الأرجاع والمتونا» وإذا كانت الفتحة مع الضمة أو الكسرة فذلك سناد، نحو قوله في هذه القصيدة: [تصفقها الرياح إذا جرينا] - الكافي في العروض والقوافي: ص 164 - تحقيق الحساني حسن عبدالله - مجلة معهد المخطوطات - م 12 ج1 - 1966م.

الفصل الرابع

(1) الزوزني: ترجم له السيوطي قائلا: «الحسين بن أحمد الزوزني القاضي أبو عبدالله. قال عبدالغافر: إمام عصره في النحو واللغة العربية، مات سنة ست وثمانين وأربعمائة» البغية: 531/1. وأورده صاحب كشف الظنون ضمن شرّاح المعلقات واصفا إياه بأنه «القاضي الإمام المحقق أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني المتوفى سنة 486هـ» كشف الظنون: 1741/2. ويذكره كذلك في مجمل حديثه عن كتب (المصادر) ذاكرا أنه أبو عبدالله محمد بن أحمد (الحسين بن أحمد) الزوزني المتوفى سنة 486هـ. كشف الظنون: 1703.

ويذكر صاحب هدية العارفين في ترجمة له بأن: «له شرح المعلقات السبع - كتاب باللغة الفارسية - كتاب المصادر» ص 310.

ويذكر صاحب (أنباه الرواة) أنه الحسين بن أحمد الزوزني النحوي الأصولي وأنه بصير بالأدب والأصول، وله كتاب المصادر وكتاب في الأصول سماه القانون، وله شعر، ويختم قوله بأنه كان موجودا في المائة السادسة للهجرة.

وهذه التراجم فيها خلط واضح وتبين غموض تاريخ هذا الشارح الذي اختلط اسمه بالأسماء الكثيرة المنسوبة إلى مدينة زوزن (انظر مثلا حماسة الظرفاء).

ونحن نلاحظ أن السيوطي ذكر اسمه وتاريخ وفاته من دون أن يذكر أي مؤلف له، أما صاحب كشف الظنون فقد وافق السيوطي في تاريخ الوفاة ووافقه بالاسم في أحد الموضعين، وفي الموضع الآخر أورد الاسم مخالفا بعض الشيء حيث أضاف اسم محمد بن أحمد.

ويوافق صاحب هدية العارفين السـيوطي ولكنه يضيف اسما وعددا من الكتب له، ويهمـل القفطي ذكر كتاب القصائد السـبع ويختلف عن السـابقين في تاريخ الوفاة حيث ذكر أنه يعيش في السنة السادسة.

ومـن هذه الأخبار المتضاربة ليـس هناك ما نطمئن إليه وإن كانت النفس تميل إلى أن الحسـن بن أحمد هو شارح القصائد السـبع وأن وفاته كانت سنة 486هـ، وذلك لاتفاق أكثر المراجع على هذا. ويمكن القول إن هناك شخصا آخر يشابهه في الاسـم أو يقترب منه وهو أبو عبدالله محمد بن الزوزني وهو مؤلف كتاب (المصادر)، خاصة أن صاحب كشف الظنون لم يقطع بتسلسل الاسم حيث وضع الحسـين بن أحمد بين قوسين لعدم اقتناعه بترجيح نسبة الكتاب إلى أحدهما دون الآخر - أما القفطي فهو لم يذكر شـرحه للقصائد السـبع وهو من أشهر كتبه، كما ذكر أنه كان يعيش في القرن السادس، وهذا يدل على عدم تثبته من عصره ولعله خلط بين محمد بن أحمد صاحب كتاب (المصادر) الذي ذكره وبين صاحب شرح القصائد السبع.

(2) شـرح المعلقات السبع: 291 و 292 - (سـنعتمد على طبعة محمد علي حمد الله) - دمشق 1963.

(3) شرح القصائد التسع المشهورات: 560/2.

(4) شرح المعلقات السبع: 110 و111.

(5) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 80 و 81.

(6) ذكـر صاحب القاموس المحيط في تفسـيره لمادة خلـع: كان في الجاهلية إذا قـال قائل: هذا ابني قـد خلعته، كان لا يؤخذ بعد بجريرته، وهو خليع ومخلوع «الذئب= كالخليع وقدح لا يفوز والمقامر المراهن والثوب الخلق...».

(7) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 80.

(8) نلاحـظ أن الزوزنـي في هذا التوجيه يلتقي مع بعـض الأخبار التي أوردت هذه القصة وأسـمت هذا الشخص بهذا الاسم، انظر مثلا القاموس المحيط مادة عير.

(9) يهمنـا هنا أن نبين أن الزوزني أشـار صراحة إلى اسـم ابن الأنباري في عدة مواضع وهي:

«أنشدنا ابن الأنباري لحسان بن ثابت شاهدا» - ص 80.

«هذه اللغات الثلاث ذكرها كلها ابن الأنباري» ص 95.

«وروى ابن الأنباري وابن مجاهد عن ثعلب أنه قال» ص 115.

«ذكر هذا كله ابن الأنباري» ص 140.

«وقال ابن الأنباري: هو المطر الذي يرضى أهله» - 205.

«كذا قال ثعلب والمبرد وابن الأنباري وابن الأعرابي» ص 233.

(10) شرح المعلقات السبع: 79 و 80.
(11) شرح المعلقات السبع: 240 و241.
(12) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 376.
(13) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 38.
(14) شرح المعلقات السبع: 87.
(15) شرح المعلقات السبع: 90.
(16) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 45.
(17) شرح المعلقات السبع: 231.
(18) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 589، وعبارته «والعاقر أسمن والمطفل أغلى».
(19) انظر الصفحات: 84 - 91 - 92 - 94 - 95 - 101 - 123 - 124 - 138 - 148 - 151 - 159 - 163 - 179 - 205 - 206 - 240 - 241 - 266 - 277، وهناك مواضع تحمل على أنها من الشائع المعروف.
(20) المرجع السابق: 114، وانظر شرح ابن النحاس: 166/1.
(21) شرح المعلقات السبع: 206 وهو في شرح ابن النحاس: 366/1، وننبه هنا إلى أن ابن الأنباري أهمل الإشارة إلى هذا الموضع في شرحه لهذا البيت ولكنه تعرض له في موضع آخر وفيه أورد الشاهدين الآخرين اللذين استخدمهما الزوزني من دون الثالث، انظر شرح ابن الأنباري: ص 148.
(22) المرجع السابق: 195 والآية من سورة البقرة آية رقم 40.
(23) شرح القصائد التسع المشهورات: 347، ونص عبارته: يقال أوفى ووفى وأوفى أفصح وبها جاء القرآن الكريم قال الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.
(24) انظر ص 101 «الفاحم: الشديد السواد، مشتق من الفحم». ويقول ابن النحاس - ص 144 - الفاحم الشديد السواد، كأنه بلون الفحم، وكذلك ص 142 قوله: «الاحتضار والحضور واحد» ويقول ابن النحاس: «قوله عند احتضاره، والاحتضار والحضور واحد - ص 220 - وقوله ص 159. «الدجن: الباس الغيم آفاق السماء»، ويقول ابن النحاس - ص 267 «الدجن.. وقيل هو الباس الغيم السماء وإن لم يكن مطرا».
(25) شرح المعلقات السبع: 69.
(26) شرح القصائد التسع المشهورات: 552/2، أما شرح ابن الأنباري فهو أكثر فائدة ولكنه لا يخرج عن هذا الإطار - انظر ص 442 و 443.
(27) شرح المعلقات السبع: 290.
(28) شرح المعلقات السبع: 222.

(29) المرجع السابق: 294.
(30) المرجع السابق: 144.
(31) شرح المعلقات السبع: 108.
(32) المرجع السابق: 238 و 239.
(33) المرجع السابق: 238.
(34) المرجع السابق: 154 و 155.
(35) المرجع السابق: 192.
(36) المرجع السابق: 217.
(37) المرجع السابق: 216 و 217.
(38) المرجع السابق: 90 و 91.
(39) المرجع السابق: 92.
(40) المرجع السابق: 264 و 265.
(41) المرجع السابق: 228 و 229.
(42) المرجع السابق: 214 و 215.
(43) المرجع السابق: 149.
(44) المرجع السابق: 108 و109.
(45) المرجع السابق: 180 و181.
(46) المرجع السابق: 208.
(47) المرجع السابق: 92.
(48) المرجع السابق: 109.
(49) سورة الإنسان: آية1.
(50) شرح المعلقات السبع: 187.
(51) المرجع السابق: 265
(52) المرجع السابق: 197.
(53) المرجع السابق: 196.
(54) المرجع السابق: 274، وانظر شرح ابن الأنباري ص 332، رواه ابن الأنباري «من حيثما أدنوا».
(55) المرجع السابق: 112 والآية من سورة الشورى ورقمها 20.
(56) سورة البقرة: آية 15.
(57) سورة الشورى: آية 40.
(58) سورة آل عمران: آية 54.
(59) سورة النساء: آية 142.

(60) شرح المعلقات السبع: 249 و250، ونشير هنا إلى أنه لم يهتم كثيرا بالحديث الشريف فقد ورد مرة واحدة في شرح كلمة العقوق، انظر ص 185.

(61) المرجع السابق: 107.

(62) المرجع السابق: 113.

(63) المرجع السابق: 99 و100، ويمكن وضع بيت امرئ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

حيث حاول جاهدا بيان تشبيه المرأة بالبيض من ثلاثة وجوه هي: الصحة والسلامة أو الصيانة والستر لأن الطائر يصون بيضه ويحضنه - والثالث: صفاء اللون ونقاؤه لأن البيض يكون صافي اللون نقيه إذا كان تحت الطائر...إلخ» ص 93.

(64) المرجع السابق: 221.

(65) وهذه بعض المواضع التي أشار فيها إلى هذه الفنون، فقد أشار إلى قول امرئ القيس: «فهل عند رسم دارس من معول»، إن هذا الاستفهام يتضمن معنى الإنكار - ص 82، ومثل هذا تعليقه على استفهام عنترة: «هل غادر الشعراء..» يقول: وهذا استفهام يتضمن معنى الإنكار» 264، وعن قول الحارث: أيها الناطق المرقش عنا..» يقول: «وهذا استفهام معناه النفي..» ص 292.

ويشير إلى الكناية قائلا تعليقا على بيت لبيد:

فبتلك إذا رقص اللوامع بالضحا   واجتاب أردية السراب أكامها

يقول: «.. ورقص لوامع السراب ولبس الأكام أرديته كناية عن احتدام الهواجر» ص 224.

ويشير إلى التهكم والاستهزاء في بيت عمرو:

نزلتم منزل الأضياف منا   فأعجلنا القرى إن تشتمونا

شرح المعلقات السبع: 118، انظر نقد الشعر: ص 112 و113.

(66) المرجع السابق: 140 و141.

(67) المرجع السابق: 121.

(68) المرجع السابق: 141.

(69) المرجع السابق: 159.

(70) المرجع السابق: 271 و272.

(71) انظر الصفحات: 83 - 102 - 127 - 128 - 129 - 143 - 147 - 149 - 150 - 178 - 181 - 183 - 191 - 215 - 217 - 219 - 221 - 224 - 229 - 243 - 246 - 227.

(72) شرح المعلقات السبع: 245.

(73) المرجع السابق: 127.

(74) المرجع السابق: 220.

(75) المرجع السابق: 225، وانظر كذلك ص221 وص 241.
(76) المرجع السابق: 251.
(77) المرجع السابق: 270.
(78) انظر مثلا الصفحات: 126 - 142 - 156 - 159 - 188 - 192 - 228 - 296.

الفصل الخامس

(1) انظر الدراسة الخاصة بأوليات النقد الأدبي للمؤلف، وقد نشرت في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، صيف 1982، الكويت.
(2) المجاز عند أبي عبيدة هو «عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة «المجاز» فيما بعد «د. فؤاد سركين - مقدمة كتاب «مجاز القرآن» ص 18 و19.
(3) مجاز القرآن: 5/2 - ونص البيت في شرح التبريزي والزوزني:
فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاورا أقلامها
(4) السابق، 31/2.
(5) السابق، 49/1 - 5 - 2/145.
(6) أمالي المرتضى: 7/1، ويجب أن نلاحظ أن هذا وجه من وجوه التفسير، وأن المعنى العام للجهل هو الأنفة الجاهلية أو الإسراف فيها - ويمكن أن نضيف هنا أيضا شرح أبي عبيدة لكلمة بعض في بيت لبيد «تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها» فالموت لا يعتلق بعض النفوس من دون بعض ولكنه يأتي على الجميع - مجاز القرآن: 94/1 - 205/2.
(7) عيار الشعر: ص 32 - 39.
(8) لسان العرب: مادة طمطم.
(9) خاص الخاص: 8.
(10) الحيوان: 311/3 - 312.
(11) الحيوان 221/3 - 222.
(12) السابق: 19/2 - 20.
(13) الموشح: 78 و 79.
(14) المرجع السابق: ص 32 - وما بعدها.
(15) المرجع السابق.
(16) الموازنة: 266/1.
(17) الوساطة: 431 و 432.
(18) دلائل الإعجاز - ط محمود شاكر - الخانجي ص 79.

(19) وهنـــاك نظرات أخرى تســعى إلـــى تحديد دقائق البيـــت أو تميز الصفة أو الجنس البلاغي - انظر مثلا ما كتبه ابن الأثير في المثل السائر والخفاجي في كتابه سر الفصاحة.

(20) انظر النص في أمالي المرتضى: القسم الثاني: 192 - 195.

(21) لا يســلم الشــريف المرتضى بهذا الاستشـــهاد ولا يرى أن فيه ما يوهم من المناقضـــة والتكذيب، وأنه يمكــن أن يحمل على الوجوه الســابقة الذكر. أما البيت الثاني فلا حجة فيه لأنه لم يتضمن إثباتا ونفيا، وإنما دعاء ألا يبعد... إلخ ص 194.

(22) الشــواهد التي ســبقت هـــي: من القرآن الكــريم قوله تعالــى «حتى عفوا» (الأعراف: 95) أي كثروا - ويقال عفا الشعر إذا كثر - من الشعر قول الشاعر: ولكنا نعض السيف منها بأسوق عافيات اللحوم كوم - أي كثيرات اللحم - وأمر الرسول بأن تحفى الشوارب وتعفى اللحى، أي توفر» ص 194 و 195.

(23) معاهد التنصيص: ص 9.

(24) المثل السائر: 39/3 وهم يقفون الوقفة نفسها من بيت زهير: وأعلم علم اليوم والأمس قبله؛ فكلمة الأمس تغني عن كلمة قبل، لأن الأمس هو قبل اليوم، ومن ثم فهذا تكرار وحشو، وإن كان بعضهم يرى فيه أنه حشو غير مفسد للمعنى - انظر معاهد التنصيص 326/1.

(25) الوساطة: 31 و 32.

(26) المثل السائر: 201/3.

(27) الفلك الدائر: 184.

(28) المثل السائر: 201/3.

(29) العمدة: 240/1 و241.

(30) الوســاطة: 8، ديوان المعاني: 3/2 و4، وعبارته تقول «يقول كأن أبانا - وهو جبل - من أن الالتفات قطره وتكاثفه في الهواء شيخ في كساء، وخفض مزمل على الجواب وهو نعت كبير كما تقول: جحر ضب خرب.

(31) التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله السكري: 227 و228.

(32) ويعلقون على أن قول امرئ القيس: (ألا أيها الليل الا انجلي) - فقد أثبت ياء انجلي وحقها الحذف، ويجــدون التخريج في الخلافات اللهجية، فإثبات الياء في الجزم إنما جاء على لغة طي، الموشح: 33.

(33) يرى بعضم أنها عطف على قوله: «لم أرضها».

(34) الوساطة: 12.

(35) الموشح: 136.

(36) لسنا هنا في مجال الإنكار لمحاولات تناولت قصيدة معينة ولكنها بقيت أسيرة الملاحظات العامة، فهي تضم إلى جهود شـراح الدواوين - ونشـير هنا إلى ما صنعه ابن جني في تفسـيره لأرجوزة... أبي نواس: «وبلدة فيها زور» وكذلك ما فعله الزمخشري في كتابه: «أعجب العجب في شرح لامية العرب» وكذلك كتاب «الغيث المنسجم في شرح لامية العجم» للصفدي - وغير هذا كثير.

(37) إعجاز القرآن: 286.

(38) إعجاز القرآن: 35.

(39) السابق: 288.

(40) السابق: 290.

(41) إعجاز القرآن: 36.

(42) السابق: 35.

(43) السابق: 36.

(44) السابق: 37.

(45) السابق 36.

(46) إعجاز القرآن: 37.

(47) السابق 112.

(48) السابق: ص 276 وانظر ص 107 11+).

(49) إعجاز القرآن: 285.

(50) إعجاز القرآن: 26 و27.

(51) السابق: 156.

(52) إعجاز القرآن - 215.

(53) السابق: 158 و159.

(54) السابق 156.

(55) أجمـل الدكتـور أحمد مطلوب في كتابه اتجاهـات النقد الأدبي - (الكويت: 1973) أهم ملاحظات الباقلاني على القصيدة في العناصر التالية:

- صحة المعنى وفساده - فكثير من معاني امرئ القيس معروفة ومتداولة.
- الحشو في الأبيات.
- عدم الصدق في الكلام على عواطفه وأحاسيسه.
- التناقض في المعاني والأفكار.
- الخروج على أسلوب العرب في اللغة والنحو.
- عدم توافر المعنى البديع وحسن اللفظ في القصيدة دائما.
- التكلف.
- انقطاع المصراع الثاني عن الأول في بعض الأبيات.

- الضرورات الكثيرة التي أفسدت القصيدة.
- الحديث عن سفاهاته وتبجحه وتفحشه.
- التشبيهات والاستعارات ليست كلها من البديع الجيد.
- التكرار غير المفيد.
- انحطاط الصنعة في القصيدة.
- عدم ارتباط الأبيات.
- التفاوت في العبارات من حيث القوة والضعف.
- التفاوت في الألفاظ بين الرقة والجفاف والفصاحة والغربة - ص 162 و163.

(56) إعجاز القرآن 163 و164.

(57) إعجاز القرآن: 163، ولا ندري لماذا لم ينتبه الباقلاني إلى أن امرأ القيس قد حقق ما يريد من وجود الطيب في كل الأحوال في بيته المشهور:

ألم تَرَ أَنِّي كلما جئتُ طارقا وجدت بها طيبا وإنْ لم تَطيَّبِ

(58) إعجاز القرآن: 168 وانظر الخزانة ج 3 ص 450.

(59) نقد الشعر: 21 و 22.

(60) إعجاز القرآن: 161.

(61) إعجاز القرآن: 162.

(62) إعجاز القرآن: 172.

(63) السابق: 173.

(64) إعجاز القرآن: 160.

(65) إعجاز القرآن: 160 و161 ولاحظ أيضا رفضه لقوله: «ويوم عقرتُ للعذارى مطيتـــي» فهو يرى أن هذا تبجح بما أطعمه للأحباب وهو مذموم، إنما يســـوغ بالنسبة للأضياف - ص 165.

(66) نقد الشعر: ص 19.

(67) إعجاز القرآن: 165.

(68) السابق: 167.

(69) إعجاز القرآن: 177 و 178.

(70) إعجاز القرآن: 176 و 177، ويقول إن الشـــاعر قال: أذيال مرط والمفروض أن يقول: ذيل مرط.

(71) السابق: 161.

(72) السابق: 161 و162.

(73) إعجاز القرآن: 162.

(74) السابق 165.

(75) السابق: 172.

(76) إعجاز القرآن: 179.
(77) إعجاز القرآن: 166 وما بعدها.
(78) قال البغدادي: طعنه الأول ليس بصحيح لأنه من باب الإبهام والتفسير، وهو عندهم من محاسن الكلام، الخزانة: 448/3.
(79) إعجاز القرآن: 168.
(80) السابق: 163.
(81) إعجاز القرآن: 160
(82) البيان والتبيين: 67/1.
(83) الشعر والشعراء: 90/1.
(84) عيار الشعر: 124، وانظر مواقع أخرى مثلا ص 126، 170 و171.
(85) السابق: ص 163 - 167 - 198.
(86) عيار الشعر: 126.
(87) يقصد الأبيات التي تبدأ بقوله:
وبيضة خدْر لايُرامُ خباؤها   تمتعتُ من لهو بها غير مُعْجَل
(88) إعجاز القرآن: 176.

الفصل السادس

(1) نهاية الأرب من شرح معلقات العرب: المقدمة.
(2) المعلقات السبع - ص 8 - وكاتب المقدمة هو فكتور الكك المشرف على دار النشر: دار الإنسان الجديد - بيروت - 1974.
(3) بدر الدين النعساني: (1881 - 1943) انظر ترجمته ومؤلفاته في كتاب الأعلام: 323/7 وشرحه هو: نهاية الأرب في شرح معلقات العرب - الطبعة الأولى - القاهرة 1334 - 1906م.
(4) أشار إليه مرة واحدة: ص 35.
(5) قارن شرحه لبيت امرئ القيس:
تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
- ص 21، وقارن كذلك شرحه للأبيات الأربعة التي تبدأ بقول امرئ القيس، «ووادي كجوف العير...» ص 25 و 26 بما جاء عند الزوزني.
(6) قارن شرحه لبيت امرئ القيس «فيالك من ليل..» ص 24.
(7) وهذه بعض الصفحات التي استفاد منها النعساني من الزوزني استفادة مباشرة وتقابلها أرقام الصفحات عند الزوزني: 9 = 85 - 86 / 10 = 87 / 12 = 90 - 91 / 92= / 15 = 96 / 19 = 103.
(8) انظر على سبيل المثال شرحه لبيت عمرو بن كلثوم ص 138:

وأيــام لنــا غــر طــوال　　عصينـا الملـك فيهـا أن ندينـا

وكذلك شرحه لبيت عنترة ص 172.

فـأزور من وقـع القنا بـلـبـانـه　　وشكا إلي بعبـرة وتحمحم

ويمكن كذلك بعض معلومات الصفحات التالية على شرح ابن الأنباري: 50 - 111 - 113 - 115 - 120 - 121 - 122 - 125 - 128 - 129 - 134 - 137 - 138 - 141 - 147 - 149 - 155 - 158 - 159 - 161 - 162 - 164 - 165 - 166 - 168 - 170 - 171 - 172 - 174 - 175 - 176 - 177 - 181 - 187 - 193 - 196 - 197.

(9) انظر الصفحات 9 - 31 - 34 - 35 - 43 - 50 - 68 - 126.

(10) انظر ص 29.

(11) انظر ص 46 وقارن بالنسبة إلى شرحه لديوان النابغة 201 - 210 - 211.

(12) انظر: ص 134.

(13) نهاية الأرب في شرح معلقات العرب: 208.

(14) انظر على سبيل المثال: ص 5.

(15) المرجع السابق: 23.

(16) المرجع السابق: 113.

(17) المرجع السابق: 125.

(18) أحمد بن الأمين الشنقيطي: (1872 - 1913) وقد نشر كتابه 1911 طبعة أولى، انظر ترجمته في الأعلام 97/1 ومعجم سركيس 1028/1 وقد شرح في كتابه هذا قصائد كل من امرئ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم وعنترة والحارث والأعشى والنابغة وعبيد بن الأبرص، موافقا التبريزي في شرحه لهذه القصائد - ونعتمد على طبعة دار الأندلس - بيروت.

(19) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها: ص 60 - 71.

(20) ذكر البغدادي صاحب الخزانة: 5 - 19 - 20، وابن دريد وكتابه الاشتقاق ص 6، والميداني ص 8، 15 وأبو الفرج الأصفهاني ص 14، وكتاب شرح التسهيل ص 17، وبدائع البداية ص 18 - وابن قتيبة ص 19، والجاحظ ص 20، وهناك مواضع كثيرة ذكر فيها هؤلاء وغيرهم.

(21) انظر تفسيره لقولهم إن امرأ القيس قال ما لم تقله العرب موردا الآراء القديمة ص 6 و 7.

(22) شرح المعلقات العشر وأخبار قائليها: 14.

(23) المرجع السابق: ص 17 - 19، وانظر كذلك رده لقصة القول القائل إن النابغة أشعر شعراء العرب إذا خاف، لأنه كان آمنا عند آل جفنة مستشهدا بقول لأبي عمرو بن العلاء: 65.

(24) المرجع السـابق: 8، 53، 64، وهو يعرف الهاجس بأنه (الخاطر الذي يخطر فـي القلب، والمراد به هنا ما يلقيه على لسـانه رقيه من الجن على ما تعتقده العرب في ذلك) - هامش ص 8.

(25) المرجع السـابق: 99، وانظر كذلك الصفحـات: 86 - 101 - 88 - 148 - 153 وليسـت هذه الصفحات إلا للاستشهاد فقط وإلا فكل صفحة من شرحه لا تخلو من هذه النظرات التوثيقية.

(26) المرجع السـابق: 155 - 156، وانظر شرح الأشموني قال: (أي: وأنا أرهنهم مالـكا وأنا أقتل قومها - وقيـل: الواو عاطفة لا حاليـة، والفعل بعدها مؤول بالماضي) 256/1.

(27) انظـر مثلا الصفحات: 116 - 131 - 157 - 158 - 174 - 190 - 200 - 213.

(28) الديوان: 1746/3، وقد جاء في نسخة المؤلف مصحفا.

(29) المرجع السابق: 88 و 89.

(30) الشـيخ مصطفى بن محمـد الغلاييني 1886 - 1944 ترجمته في الأعلام: 146/8 - 147 - وقد شـرح في كتابه هذا قصائد كل من امرئ القيس، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة، عمرو بن كلثوم، عنترة بن شداد، الحارث بن حلزة، النابغة الذبياني، عبيد بن الأبرص، واختار القصائد نفسـها التي شرحها التبريزي من قبل.

(31) رجال المعلقات العشر - مصطفى الغلاييني: المكتبة المصرية - صيدا - بيروت - الطبعة الثانية - ص 288.

(32) صـدرت طبعة هذا الكتاب الأولى سـنة 1958، وقد تناول في كتابه قصائد كل مـن: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير، ولبيد، عمرو بن كلثوم وعنترة، والحارث بن حلزة.

(33) معلقات العرب: الصفحات: 84 - 86، 123 - 124، 170، 183 - 184.

(34) المرجع السابق: 73 وما بعدها.

(35) المرجع السابق: 143 وما بعدها.

(36) المرجع السابق: 301، 305.

(37) المرجع السابق: 349.

(38) المرجع السابق: 351 وما بعدها.

(39) المرجع السابق: 375.

(40) المرجع السابق: 376.

(41) المرجع السابق: 391 - 398.

(42) معلقات العرب: 260.

(43) المرجع السابق: 261.
(44) المرجع السابق: 305 - 307.
(45) المرجع السابق: 307.
(46) المرجع السابق: 308.
(47) المرجع السابق: 308.
(48) صدر هذا الكتاب سنة 1974.
(49) المعلقات السبع: 48.
(50) شرح القصائد السبع الطوال: 82.
(51) انظر مناقشة هذا الموضوع في كتاب الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي 171 و 172.
(52) المرجع السابق: 261.
(53) المرجع السابق: 261.
(54) المرجع السابق: 159.
(55) المرجع السابق: 159 و 160.
(56) المرجع السابق: 25.
(57) المرجع السابق: 57 و 58.
(58) المرجع السابق: 34.
(59) المرجع السابق: 124 و 125.
(60) المرجع السابق: 105، 106، 75.
(61) المرجع السابق: 147.
(62) المرجع السابق: ص 30 وما بعدها.
(63) المرجع السابق: 80 و 81.
(64) المرجع السابق: 123.
(65) المرجع السابق: 125.
(66) المرجع السابق: 42 و43.
(67) المرجع السابق: 63.
(68) المرجع السابق: 53.
(69) المرجع السابق: 80، 120، 121.
(70) مثلا متابعته للدكتور محمد النويهي في تفسيره لقصيدة الأعشى كما هو مفصل في كتابه: «الشعر الجاهلي» فقد أوجز رأيه للأبيات التي اختارها من هذه القصيدة، انظر ص 143 وما بعدها.
(71) من وصفه لأستاذه سيد الموصفي في كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف ط5 - ص 5.

(72) تجديد ذكرى أبي العلاء: 7 و 8.
(73) في الأدب الجاهلي: 48 - 50.
(74) طه حسين وقضية الشعر في «حياة المتنبي وشعره» دراسة للدكتور إبراهيم عبدالرحمن محمد - ص 100 - وقد تناول الدكتور إبراهيم عبدالرحمن قضايا الشعر الجاهلي في عدد من كتبه ومقالاته وهي:
- طه حسين وقضية الشعر - البحث الخاص بدراسة حياة المتنبي وشعره: دراسة في كتاب طه حسين «مع المتنبي» - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة1395هـ - 1975م - قضايا الشعر في النقد العربي - الجزء الأول - مكتبة الشباب - القاهرة1977م.
(75) في الأدب الجاهلي: دار المعارف بمصر - 1963 - ص 51.
(76) في الأدب الجاهلي: 50 و 51 ويقول في موضع آخر «إن تاريخ الأدب لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يكون (موضوعيا) صرفا - وإنما هو متأثر أشد التأثر وأقواه بالذوق - وبالذوق الشخصي قبل الذوق العام» - ص 46.
(77) حديث الأربعاء: 26/3، والنص نفسه موجود في ج 255/2 - وهذا الفهم نجده عند متحدثه الذي قال عن قصيدة لبيد: «فإني لن أفهم عنه إذا استمعت له، ولن أذوقه إن فهمت عنه، ولن أجد في ذوقه من اللذة والمتاع ما أجده حين أقرأ شعر المحدثين» 18/1 - طبعة دار المعارف 1959.
(78) حافظ وشوقي - ط الخانجي - -1955 ص 33.
(79) حافظ وشوقي: 34.
(80) حافظ وشوقي: 35.
(81) حافظ وشوقي: 26 و 27، وانظر كذلك ص 23.
(82) أحاديث: 47 و 48 - طبعة دار العلم للملايين - بيروت - 1957.
(83) أحاديث: 47 وما بعدها.
(84) حديث الأربعاء: 19/1.
(85) حديث الأربعاء: 1/ 60.
(86) حديث الأربعاء: 81/1 و82.
(87) حديث الأربعاء: 1/ 83 و 84.
(88) المرجع السابق: 150/1.
(89) المرجع السابق: 23/1.
(90) المرجع السابق: 23/1 و24.
(91) المرجع السابق: 25/1.
(92) المرجع السابق: 26/1 و 27.
(93) المرجع السابق: 62/1 و63.

(94) المرجع السابق: 85/1 و86.
(95) المرجع السابق: 35/1 و 36.
(96) المرجع السابق: 64/1.
(97) المرجع السابق: 51/1.
(98) المرجع السابق: 124/2.
(99) المرجع السابق: 25/1.
(100) سيطول بنا المقام لو أردنا الاستشهاد، انظر مثلا ص 37 في شرحه لبيت لبيد: تراك أمكنه إذا لم أرضها ص 37، وقوله عن بيته: إذا ألقت يدا في كافر ص 38، ويتحسس الصورة تحسسا عابرا عند زهير - تماما كما نبه القدماء بعرضها بأسلوبه ليسهل تذوقها فمثلا قوله: كأن فتات العهن...، يقول: أترى إليه كيف آثر هذه القطع من الصوف التي كانت تسقط من أهداف ما كان ينشر على الهوادج من الثياب والأنماط؟ فوقف عنده وشبهها هذا التشبيه الظريف بحب الفناء، أو بعنب الثعلب، إن كنت في حاجة إلى التفسير: 85/1 ويقول: وفي هذه الأبيات جزالة لفظ تملأ الفم دون أن تتعبه وتروع السمع دون أن تشق عليه: 87/1.
ويشير إلى تلك الحركة الصوتية - فليست عين الشاعر وحدها التي تتبع الإبل... ولكن أذن الشاعر أيضا قد سمعت - وهي تذكر ما سمعت والشاعر يصور لنا هذا الذي سمعته وذكرته تصويرا... ص 22/1 وانظر كذلك، ص 37، 151، 152.
(101) طه حسين وقضية الشعر: مقاله: حياة المتنبي وشعره: 127.
(102) حافظ وشوقي: 21، وانظر كذلك (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) ص 188.

الفصل السابع

(1) دراسة الأدب العربي: مصطفى ناصف - الدار القومية 97.
(2) دراسة الأدب العربي: 108.
(3) المرجع السابق: 144.
(4) المرجع السابق: 145.
(5) المرجع السابق: 151.
(6) أقام أرنست كاسيرر فلسفة كاملة تنهض أساسا على الرموز، فهو يرى أنها تمثل تفرد الإنسان عن غيره من الكائنات واعتبر قدرة الإنسان المتميزة، والتي تمثل عنصرا مؤثرا ومميزا، والقوة الرامزة عنده هي التي شكلت رقيه وتجاوزه لدنيا الحيوان. فهذه الأداة جعلته لا يعيش في حقيقة أوسع، وإنما يعيش في بعد جديد من أبعاد الحقيقة - وهو يصف الإنسان بأنه حيوان ذو رموز بدلا من

القول بأنه حيوان ناطق - مدخل إلى فلسفة الحضارة (أو مقال في الإنسان) ص 66 - 69 - مدخل إلى فلسفة الحضارة (أو مقال في الإنسان): ترجمة الدكتور إحسان عباس - بيروت - 1961م.

(7) دراسة الأدب العربي: 190.

(8) دراسة الأدب العربي: 197.

(9) المرجع السابق: 205.

(10) المرجع السابق: 206.

(11) المرجع السابق: 207.

(12) المرجع السابق: 221 و 222.

(13) المرجع السابق: 224.

(14) المرجع السابق: 232.

(15) المرجع السابق: 238.

(16) المرجع السابق: 243، 149 ويشير إلى اقتران الليل بالعير عند امرئ القيس وإلى لجوء زهير إليها في حديثه عن الحرب ص 249 - 251.

(17) المرجع السابق: الصفحات: 253، 257، 263، 268.

(18) انظر تفسيره للشمس: 291، وللكرم: ص 294 و 295.

(19) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص 52، منشورات الجامعة الليبية - وهذا الاعتداد باللاشعور الجمعي الذي أكده «يونغ» نفسيا، يدفعه إلى الاعتماد على الأسطورة ودورها بالنسبة إلى هذا اللاشعور والذي نهض به «فريزر» في دراسته للأساطير والمأثورات الشعبية وبين الطاقة الكامنة فيها.

(20) المرجع السابق: 55، 59.

(21) المرجع السابق: 60 و61.

(22) المرجع السابق: 61، ونجده في كتابه السابق: «دراسة الأدب العربي» قد أشار إلى هذه الأفكار نفسها فالطلل هو الماضي الذي لا يعود ص 36، وأن الشاعر يتحدث عن مشكلة الحياة ذاتها من خلال الطلل - أن الوشي اللامع أو المجدد يقترن ببعث الحياة ص 202.

(23) المرجع السابق: 64 و 65.

(24) المرجع السابق: 68 و 69.

(25) المرجع السابق: 69.

(26) المرجع السابق: 70.

(27) المرجع السابق: 71.

(28) المرجع السابق: ص 80 و 81.

(29) المرجع السابق: ص 83.

(30) المرجع السابق: ص 84.
(31) المرجع السابق: ص 85.
(32) المرجع السابق: ص 85.
(33) المرجع السابق: ص 86 و 87.
(34) المرجع السابق: 87.
(35) المرجع السابق: 88.
(36) المرجع السابق: 92 يقول في كتابه الأول (دراسة الأدب العربي) عن الفرس «الفرس صورة أخرى للإنسان المتمرد الثائر.. أعطى امرؤ القيس في ذلك الفرس معنى التوتر والأزمة والتربص» ص200 «فالفرس صورة من حياة الإنسان - ص 202 - والفرس كذلك هو الشباب الذي يتهاوى..» - 252 و 253 - ويقول كذلك: «هذا الفرس كالبطل الذي يوشك أن يسقط سقطة مدمرة من خلال قواه ومزاياه المفرطة نفسها - ص 257.
(37) المرجع السابق: 97 و 98.
(38) قد تشعر صفة الفرس بالأبوة هنا أنها مغايرة للصفات السابقة التي أسبغها عليه، ولكن الرمز عادة غير محدد يمتد إطاره إلى مدى متسع، فالأبوة تدخل ضمن تلك البطولة والفرار والتطلع والقوة، خاصة إذا كان الفرس مقابلا للناقة، وهذا ما نفترضه تبعا لطبيعة التفسير الرمزي.
(39) المرجع السابق: 99.
(40) المرجع السابق: 102.
(41) المرجع السابق: 115.
(42) المرجع السابق: 117، 121.
(43) المرجع السابق: 126 - 128.
(44) المرجع السابق: 129.
(45) المرجع السابق: 133.
(46) المرجع السابق: 138، ويقول في كتابه «دراسة الأدب العربي»: أعطى امرؤ القيس في ذلك الفرس معنى التوتر والأزمة والتربص ثم جاء حديث المطر والجبل فوقفنا أمام السلام والتحق والراحة النفسية - ص 200، وانظر كذلك تحليله للمطر ص 262 وما بعدها من الكتاب نفسه.
(47) المرجع السابق: 147.
(48) المرجع السابق: 148.
(49) المرجع السابق: 149.
(50) المرجع السابق: 153.
(51) المرجع السابق: 158.

(52) المرجع السابق: 158.
(53) المرجع السابق: 159.
(54) المرجع السابق: 160.
(55) المرجع السابق: 162.
(56) المرجع السابق: 166.
(57) المرجع السابق: 171.
(58) المرجع السابق: 176.
(59) المرجع السابق: 178 و 179.
(60) المرجع السابق: 181 - 183.
(61) المرجع السابق: 183.
(62) المرجع السابق: 183 - 185.
(63) المرجع السابق: 186.
(64) المرجع السابق: 53.
(65) المرجع السابق: 62.
(66) قضايا الشعر في النقد العربي: ص 190.
(67) قضايا الشعر في النقد العربي: ص 168.
(68) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص 168.
(69) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص 168 و169.
(70) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص 133.
(71) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص 132.
(72) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص 167.
(73) الموسوعة العربية الميسرة: دار الشعب ومؤسسة فرانكلين - الطبعة الثانية - القاهرة 1972 - محمد غنيمي هلال الأدب المقارن - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثالثة - القاهرة 1962م - ص 209.
(74) وقد دارت حول هذه الأسطورة مسرحية (إيسخولوس): «برومثيوس مغلولا» وقد جعله جوته أبا للبشر، وهو عنده مثال الشخصية الرومانتيكية المتمردة، أما شللي فقد جعله في مسرحيته «بروميثيوس طليقا» رمزا لمن يضحي في سبيل مستقبل الإنسانية ففيه خلاص البشر، وقد استلهم في هذه الثورة الفرنسية - واستلهم أندريه جيد شخصيته في «بروميثيوس في قيده غير المحكم» وقد أراد أن يقول من خلال استخدامه هذه الأسطورة ألا يكون المرء عبدا للقواعد يفقد فيها شخصيته - انظر الهوامش - الأدب المقارن ص 310 و311 وكذلك الموسوعة الميسرة: ص 362.
(75) قضايا الشعر في النقد العربي: ص 44 و 45.

(76) المرجع السابق: ص 45 وما بعدها، وانظر الأمثلة التي استشهد بها.
(77) دليل الناقد الأدبي - ميجان الرويلي - سعد البازعي - المركز الثقافي العربي - بيروت - ط 5 - 2007.
(78) شعرنا القديم والنقد الجديد - وهب أحمد رومية - عالم المعرفة - مارس 1999.
(79) مقالات في الشعر الجاهلي: 17، 18، 41، 43، 75.
(80) السابق: 117.
(81) بحوث في المعلقات: 9، 13.
(82) السابق: 61.
(83) السابق: 119، 120، 133.
(84) مقالات في الشعر الجاهلي: 136، 137، 138، 142.
(85) بحوث في المعلقات: 149.
(86) مقالات في الشعر الجاهلي: 196، 119، 121، 140، 142، 144 - 145، 19، 20.
(87) السابق: 148 و 149.
(88) السابق: 150، 171.
(89) بحوث في المعلقات: 203، 203 - 205.
(90) مقالات في الشعر الجاهلي: 159.
(91) السابق: 169.
(92) بحوث في المعلقات: 10 و 11.
(93) السابق: 192 و193.
(94) السابق: 28 و29.
(95) مصطفى ناصف: قراءة ثانية في شعرنا القديم - ص 53.
(96) السابق: 65 و66.
(97) السابق: ص 182.
(98) السابق: ص 65 و 66.
(99) بحوث في المعلقات ... ص 30، 56.
(100) السابق ص 34.
(101) ريتا عوض - كتاب بنية القصيدة الجاهلية - هامش ص 28.
(102) الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي - الهيئة المصرية العامة - 1986.
(103) الرؤى المقنعة - ص 25.
(104) عبدالفتاح محمد أحمد: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي - دار المناهل - بيروت - 1987 - ص 212.

(105) الرؤى المقنعة: 36.
(106) السابـق: 115.
(107) السابـق: 261.
(108) السابـق: 59، 60، 62 - 65 .
(109) السابـق: 67، 69، 70، 71، 89، 90، 92، 93، 108.
(110) السابـق: 116، 141 - 142، 144، 149.
(111) السابق: 284، 278، 278، 273، 282.
(112) السابق: 290.
(113) السابق: 300، 303، 307، 315.
(114) السابق: 108.
(115) السابق: 321، 323، 623.
(116) سامي اليوسف... في النص الشعري - ص 212 - 214.
(117) محمـــد الناصر العجيمي - النقد العربي الحديـث ومدارس النقد الغربية - دار محمد الحامي وكلية الآداب والعلوم الإنســانية - سوســة - تونس - ص 371 - 372 - نقــلا عــن كتاب في نظرية الأدب لعبدالســلام المســدي - ص 79 - 80 - 73.
(118) عبدالعزيز حمودة - المرايا المحدبة - ص 44 - 46.
(119) العجيمـــي: المناهـــج المبتورة في قـــراءة التراث الشـــعري: البنيوية نموذجا -فصول المجلد التاســـع - العددان الثالث والرابع فبراير 1991 - ونشـــير هنا أيضا إلى الملاحظات الجوهرية التي وجهها حســـن البنا عز الدين في مقالته: الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي - مجلة فصول م 7 ع 1، 2 - أكتوبر 1986، مارس 1987.
(120) الرؤى المقنعة: 64.
(121) طبقات فحول الشعراء: 41.

المؤلف في سطور

أ. د. سليمان علي الشطي

* أستاذ الأدب العربي - جامعة الكويت.
* ولد في الكويت عام 1943.
* حصل على الليسانس والماجستير من جامعة الكويت (1974)، والدكتوراه من جامعة القاهرة (1978).
* له من الدراسات: الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ، ط1 (1976)، ط2 الهيئة المصرية العامة للكتاب (2004) - رسالة إلى من يهمه أمر هذه الأمة (1991) - مدخل: القصة القصيرة في الكويت (1993) - طريق الحرافيش: رؤية في التفسير الحضاري. ثلاث قراءات في نقدها القديم (2000) - الشعر في الكويت (2007) - المسرح في الكويت (2009).
* شارك في عدد من المجالس: عضو في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت - عضو هيئة تحرير كتاب عالم المعرفة وسلسلة إبداعات عالمية - رئيس لجنة التأليف والتعريب والنشر (جامعة الكويت) (1994 - 1998) - عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في سورية - الأمين العام لرابطة الأدباء (1986 - 1988) - رئيس تحرير مجلة البيان الأدبية (1979 - 1990).
* له عدد من الأعمال الإبداعية: الصوت الخافت، رجال من الرف العالي، أنا الآخر، صمت يتمدد.
* الجوائز:

- جائزة الدولة التقديرية من دولة الكويت.
- جائزة أفضل عمل ثقافي وكتاب عربي في معرض القاهرة عام 2003 عن كتابه «الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ».

هذا الكتاب

تتناول هذه الدراسة القصائد السبع الطوال، المشهورة بالمعلقات، في مرورها على عيون العصور المتأملة لهذه النصوص منذ أن اعتلت عرش الذاكرة العربية، فشغلت الناس منذ صدر الحضارة العربية حتى يومنا هذا. تناقلوها بينهم، واتجهت لها العقول الناقدة تجليها نقدا وتحليلا، ثم جاء شراح النصوص، منذ مطلع القرن الثالث، فبرزت أسماء رواد مثل: أبو سعيد الضرير فالكيساني، لتستوي الشروح الناضجة: شرح ابن الأنباري (328 هـ) وأبو جعفر النحاس (338 هـ) والزوزني (486 هـ)، وفيها فيض من التحقيق والتوضيح والتفسير والإضاءة، عملت هذه الدراسة على تجليتها وتحليلها وبيان ما فيها من تفسيرات ورؤى وتلميحات.

وجاء العصر الحديث يحمل معه أدواته وتصوراته، بدءا من أصحاب النظر التعليمي المطمئنين إلى حكمة واجتهاد التراثيين، ثم برزت النظريات الأحدث فاجتاحت مشهد البحث العلمي والنقدي، واتسعت الرؤى فتثار وجودية طرفة، ورمزية الأطلال، لتبدأ هجمة معطيات العقل الجمعي وأسطوريته، وصولا إلى البنيوية. كل هذه الاتجاهات وجدت ضالتها في نصوص المعلقات التي تتسع لكل تأويل.

لقد ذهب هذا البحث إلى استكشاف طبيعة نظر كل عصر، فهو دراسة للدراسات، ونظرة في النظرات للشعر الجاهلي، المعلقات نموذجا ومجالا.

وتبقى بعد ذلك المعلقات نصا مفتوحا غنيا تتجذب إليه عيون العصور المتعاقبة، فيقودها إلى مغامرة الرؤية في أغوار يتلألأ في داخلها عمق الإبداع.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 337 - 8
رقم الإيداع (2011/390)